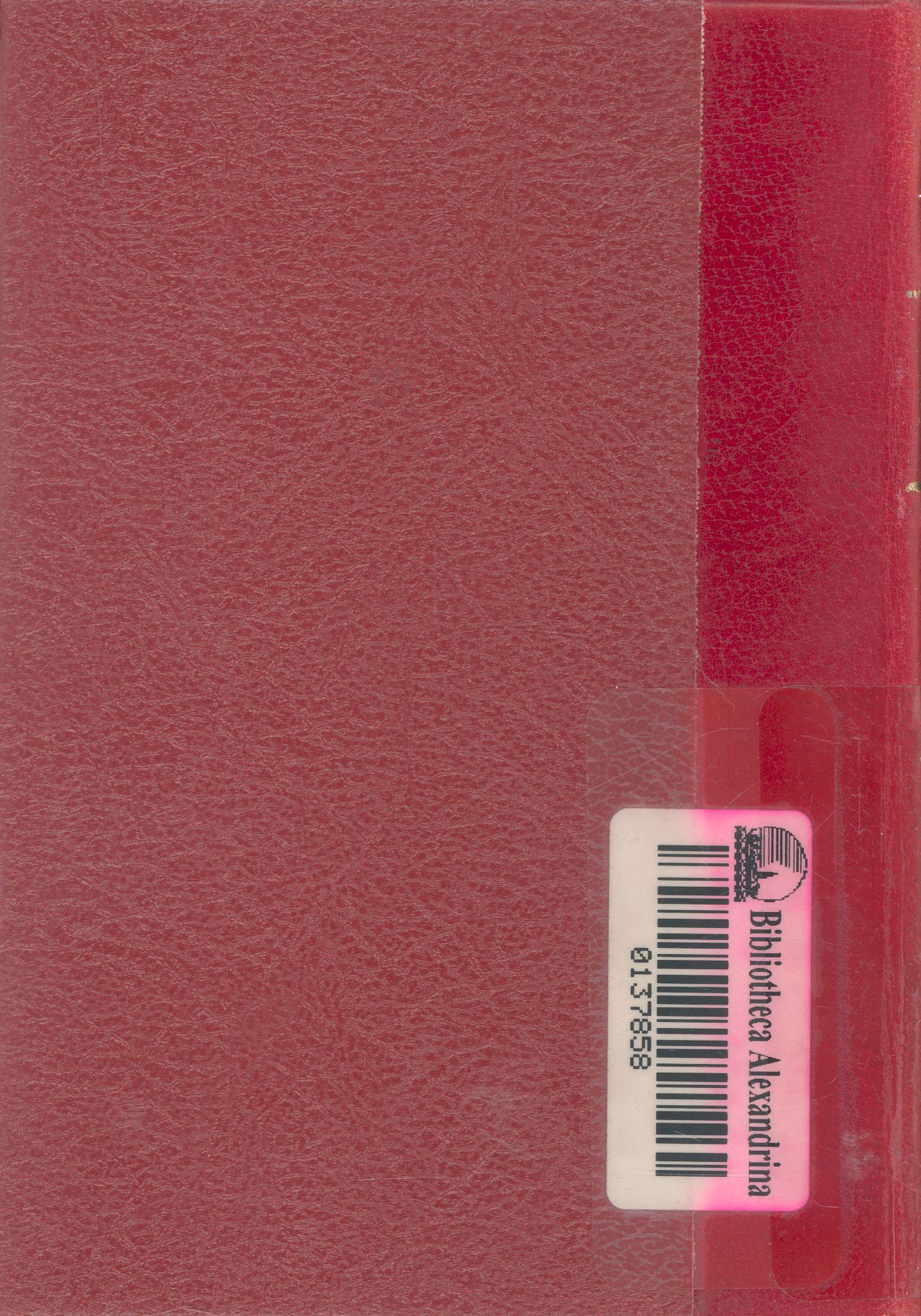
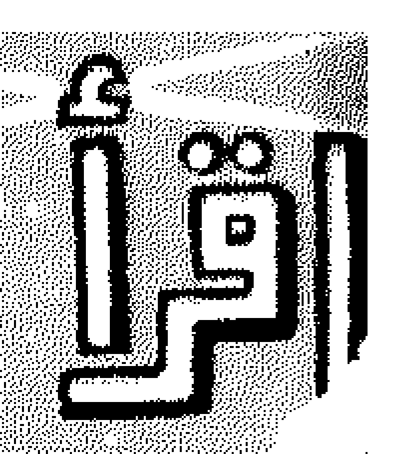


Bibliotheca Alexandrina
0137858



الغذاء الكامل
أساس الصحة

د. أسامة أمين العطار

دار المعارف بمصر

الغذاء الكامل
أساسُ الصحة

الدكتور أسامة أمين العطار

الغذاء الكامل
أساس الصحة

اقرأ ٢٨٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٦ – أكتوبر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

الفهرس

مقدمة

مواد الغذاء على اختلاف أنواعها ، وتباين مذاقها حافلة بالعناصر الغذائية ، التى لا بد منها لبناء الجسم وسلامته من الأمراض والعلل .

وقد دلت الأبحاث العلمية المتتابعة على أن استيعاب هذه العناصر بالمعرفة لا يزال فى طوايا الغيب عن الباحثين .

فكل سنة تمضى تنشق عن كشف جديد لعنصر من تلك العناصر الغذائية ، كان خفياً تحت الحجب الثقيلة الكثيفة . وكلما كشف العلماء الباحثون الغطاء عن عنصر لم يكن معروفاً لهم من قبل ، حفزوا بقية العلماء ومن يأتون بعدهم إلى المضى فى البحث للوصول إلى ما عسى أن يكون خفياً عنهم من تلك العناصر التى تفيد الجسم بناء وسلامة وعافية ووقاية .

والعلماء الآن وغيرهم من الناس يعرفون من تلك العناصر التى يحتويها الغذاء ما لم يكن يعرفه أحد منذ مائة سنة ، ولعلهم بعد قرن من هذا الزمن يعرفون من تلك العناصر أكثر مما نعرفه نحن الآن .

وهذا كتيب فى التغذية أخرجته فى محاولة متواضعة لرفع اللثام عن الغذاء الصحى السليم ، الذى يبنى الجسم ، ويجنبه الأمراض والعلل ، ويجعله قادراً على أداء عمله خير أداء ، مستمتعاً بما يطعمه ويشربه .

وقد حاولت أن أجعله فى أسلوب سهل قريب إلى الأفهام ، يُيسر على كل قارئ الإفادة منه .

ولقد آن الأوان لأن يعرف كل فرد أهمية الغذاء وقيمته ، ومدى في صحة الجسم وسلامته وحمايته من الهزال والضعف والعلل ، في المجتمع العالمي المزدحم ، الذى انشغل كل فرد فيه بعمله ، وتلهى العناية بغذائه .

وقد لا يجد الأطباء والأخصائيون فى التغذية أى جديد بالنسبة ولكنى أرجو لغيرهم من القراء أن يجدوا فيه الخير لهم ، والنور يضيء السبيل أمامهم ، حتى ينالوا حظهم من التغذية الكاملة ، تجعل أجسامهم سليمة قوية ، ووجوههم ناضرة مستبشرة .

الباب الأول

بدء التغذية

فى اللحظة التى تدبّ فيها الحياة ، ويبدأ الإنسانُ يتكوّن ، حينما يندمجُ الحيوانُ المنوى مع البييضة داخلَ الرحم — فى تلك اللحظة تبدأ الحاجةُ إلى الغذاء، وفى دور التكوين عندما يكونُ الجنينُ داخلَ الرحم تكونُ الحاجةُ ماسةً إلى الغذاء أكثرَ من أىّ وقت آخر ، وتغذيةُ الأم حينئذ ذاتُ أثر فعال فى تكوين الجنين ، فهو ذو جسم سليم إن كانت تغذيتها كاملة ،وهو ذو جسم عليل إن كانت ناقصة . والجنين النامى الذى قد يصلُ إلى أقصى درجة من النمو لا يمكنُ أن ينموَ من غير شىء ،ولكن يجبُ أن يحصلَ على غذائه ساعةً فساعة ، ويوماً فيوماً ،من أمه التى يجبُ أن تحصلَ على ما تحتاج هىَ إليه من غذاء ، وما يحتاجُ له منه الجنين ، وإذا لمْ تكن الأم فى تمام صحتها وعافيتها ، ولم تكن مستكملة تغذيتها فقد لا تعطى الجنين جميع ما يحتاجُ إليه من الغذاء ، وقد تنشأ فى هذا الوقت جميعُ الصعوبات المحتملة الوقوع ،سواءٌ أكانت صغيرةً هينة أم كبيرة جسيمة ،وهذه تتوقف على سوء التغذية . وقدْ ينشأ عن ذلك تشوّه الجنين أو موته فى بطن أمه ، أو تأخر النمو العقلى والجسمانى للجنين ، وقد تكون هناك أعراضٌ مرضية تظهرُ حينما تتقدمُ السن ، ويكون سببها سوءَ تغذية الجنين .

ويتكوّنُ الجنينُ بوجه عام نتيجة لانقسام الخلية بعد تلقيحها ، وبعد عدة انقسامات تبدأ الخلايا فى التميز ، فبعضها ينقسم وتكون فيه الخلايا العظمية ، وبعضها الآخر تكونُ منه خلايا الأعصاب ، ومن بعض ثالث خلايا الجلد ، ومن بعض رابع خلايا الدم ، ومن مئات الخلايا الأخرى خلايا وأنسجة مميزة للجسم .

وقد وأثبتَ التحليلُ الكيميائى أن هذه الخلايا يختلفُ بعضها عن بعض فى التركيب الكيميائى فبعضها — على سبيل المثال — يحتوى على نسبة عالية من البروتينات ، وبعضها يحتوى على نسبة قليلة جداً منها ، وقد يحتوى بعض هذه الخلايا على نوع خاص من البروتين الذى لا يوجدُ فى خلية أخرى ، وتحتوى الخلايا الدهنية على نسبة عالية من الدهنيات فى حين أن خلايا المخ لا تحتوى على هذه الكمية .

ونتيجة لهذا الاختلاف فى التركيب فكل نوع منها يحتاجُ إلى غذاء مميز عن الآخر ، فى حين أن كلّ الخلايا تحصلُ على غذائها من السائل المحيط بها .

وقد جربتْ عمليةُ نمو الخلايا خارجَ الجسم فى سوائلَ مختلفة ، ودلت التجاربُ على أن هذه الخلايا منها ما ينمو ويتكاثر ، ومنها ما يموت ، وهذا النمو والتكاثرُ يتوقفان على نوع الغذاء الذى تعتمدُ عليه الخلية . وبناءً على ذلك فإن نموّ خلايا وتكاثرها يتوقفان على نوع الغذاء المحيط بها . فبعضُ الخلايا قد يكون مكتفياً بعنصر خاص من الغذاء ، أو عدة عناصر أخرى مستمدة من الغذاء أيضاً ، وبعضها الآخرُ قد لا يجدُ هذا العنصرَ ، وحينئذ يكونُ فى حالة مجاعة بالنسبة لهذا العنصر الناقص المفقود .

وقد ساعدت الطبيعةُ الجنينَ في إمداده بكل ما يحتاج إليه من غذاء ، على شرط أنْ تستوفيَ الأم في تغذيتها جميع العناصر الخاصة بالغذاء الكامل ، أما إذا لم تتناول الأم الغذاءَ الكافي فإن الجنين يكون معرّضاً للإصابة بنقص التغذية ، ويكادُ يكونُ من النادر أن نجد خلايا قد استوفتْ غذاءَها كاملاً ، من حيث استيفاؤها جميعَ العناصر الغذائية الخاصة بتلك الخلايا كما أنه قد يكونُ من النادر وجودُ شخص كامل من ناحية الصحة والسلوك .

الباب الثانى

أهمية التغذية

عندما نتناولُ الطعام فإن أجزاءَ الجسم المختلفة لا تحصلُ على غذائه بالتساوى ، ولكى نحصلَ على صورة واضحة عن التغذية للبالغ سنقسم الجسمَ إلى أجزاء .

نبدأ بالهيكل العظمى الذى يحفظ كيان الجسم وشكله ، فالعظم يتكوّنُ من مواد عضوية أهمها فوسفات الكالسيوم ، وقد يعتقدُ بعض الناس أنه بمجرد تكوين العظام تقفُ تغذيتها ، ولكن هذا الاعتقاد أبعدُ ما يكونُ عن الحقيقة ، فقد أثبتت التجاربُ بوساطة استعمال المواد المشعة أن المواد العضوية تدخلُ إلى العظم وتخرجُ منه فى حركة مستمرة حتى فى جسم البالغ ، ومن هذا يتبين أنّ العظام فيها حياة ، وأنها تحتوى على الخلايا الحية التى تحتاجُ إلى مواد عضوية لبناء العظام ، وأن العمليات متحركة وليست جامدة ، كما تحتاج إلى عناصر غذائية أخرى مثل التى تحتاج إليها الأنسجةُ الأخرى . وذلك لكى تحافظ على نفسها .

وتكون الحاجةُ ماسة للخلايا العظمية عند حدوث كسر ، فإن الخلايا ستحتاجُ إلى المواد العضوية لالتئام الكسر ، وكذلك لتغذية الخلايا ، فإذا وقفت الحياةُ فى الخلايا العظمية عندما يكتملُ نموّ الجهاز العظمى فإن

كسر العظام سيبقى على ما هو عليه طوال حياة المرء المكسور عظمه .

وما ينطبقُ على العظام ينطبقُ إلى حد ما على الأسنان ، فإن الأسنان تحتوي على خلايا حية ، وهي تتوقفُ على عوامل حيوية بينها و بين المواد الغذائية فى الجسم ، حتى تتم عمليةُ بناء الأسنان وتكوينها . فإذا حصلتْ خلايا الأسنان على الغذاء اللازم لها على أكمل وجه فإنها ستكونُ المواد الخام التى تبنى بها الأسنان ، وكذلك تحافظ على حياة الخلايا الحية ، وقد ثبتَ هذا بتجاربَ أجريت على الحيوانات التى عاشتْ على الموادّ السكرية مع نقص فى العناصر الغذائية الأخرى ، فقد نمتْ هذه الحيواناتُ ولكن كانتْ أسنانها عليلة ، وقابلة للتآكل ، ولما أعطيت الموادّ الناقصة تغير نموّ الأسنان ، وأصبحتْ غيرَ قابلة للتآكل .

وخلايا الجلد بما فيها خلايا الشعر ، تحتاجُ إلى غذاء مستمر ، وهذا يبدو واضحاً وضرورياً إذا ما تذكرْنا أن الجلدَ يتغير باستمرار ، ويستبدل خلايا جديدة بخلايا فانية ، وكذلك الشعرُ فى حالة نمو مستمر ليلاً ونهاراً ، وسنة بعد أخرى ، ومن له خبرةٌ بالحيوانات والطيور يستطيع أنْ يحكم على مدى تغذية الحيوان والطيور بالنظر إلى جسمها وريشها ومظهرها الخارجيّ ، فإذا كانت فروةُ الحيوان وريشُ الطيور فى حالة جيدة وعلى خير ما يرامُ من الناحية الغذائية فذلك خير دليل على صحة الحيوان أو الطائر ، وقد دلت الخبراتُ المعملية على أن نقصَ التغذية يؤدى إلى ذبول فى الجلد وانكماش فيه ، وتغيير فى مظهره .

ويعرفُ الأطباءُ أهمية الجلد عند تشخيص بعض الأمراض ؛ لما للجلد

من أهمية قصوى واتصال وثيق بالأمراض ونقص التغذية؛ فمثلاً نقص بعض الفيتامينات يؤدى إلى أمراض جلدية معروفة ؛ فمرض الأسقربوط الذى ينشأ نتيجة لنقص فيتامين حـ يسبب نزيفاً تحت الجلد وسقوطاً في الشعر ، ومرضُ البلاجرا الناشئُ عن نقص فيتامين ب يظهرُ على شكل حرارة والتهاب بالجلد ، فى الأجزاء المعرضة للشمس ، أو المعرضة للماء والصابون ، ونقص فيتامين ب ٢ يظهر على شكل التهابات جلدية بالفم : ونقص فيتامين ا يؤدى إلى ضعف فى مقاومة الجلد للالتهابات المختلفة

والجهاز الهضمى أيضاً يحتاجُ إلى تغذية مستمرة ، فأنسجة المعدة والأمعاء فى مسيس الحاجة الدائمة إلى الغذاء ، حتى تستطيعَ أن تقوم بفرز العصارات الهضمية ، وتباشر عملية الهضم وامتصاص المواد الغذائية ، ففى بعض الأمراض التى تصيب سكانَ المناطق الحارة تصابُ فيها خلايا الأمعاء ، وتفقدُ قدرتها على القيام بعملية الهضم والامتصاص ، وذلك نتيجة لنقص بعض الفيتامينات . ونتيجة ذلك أن يحرمَ الجسمُ بوجه عام من امتصاص المواد الغذائية ، ويصابُ بأمراض سوء التغذية ، وعندما تعطى الأمعاءُ الدقيقة الفيتامينات تعودُ قدرةُ هذه الخلايا على القيام بعملية الهضم والامتصاص على أكمل وجه ، ويزول سوءُ التغذية ، ويعودُ الجسمُ إلى حالته الطبيعية .

وقد عرفَ قديماً أن عملية الامتصاص ما هى إلا مجرد مرور المواد الغذائية من الأمعاء إلى الدم ، ولكن ثبتَ أن وجودَ الخلايا الحية فى جدار الأمعاء شرطٌ أساسيٌ لإتمام عملية امتصاص المواد الغذائية . ولكىْ تقوم

بعملها على خير ما يرامُ يجبُ أن تحصلَ على غذائها باستمرار ، وهذا الغذاءُ يجب أن يكون محتوياً على جميع العناصر الغذائية اللازمة لهذه الخلايا .

ويُساهم البنكرياسُ والكبدُ فى عملية الهضم وامتصاص المواد الغذائية ، ولكى تقوم خلايا هذين العضوين بإفراز عصارة الصفراء والأنزيمات المختلفة اللازمة لعملية الهضم والامتصاص يجب أن تحصل هذه الخلايا على ما تحتاجُ إليه من المواد الغذائية حتى تقومَ بصنع جميع عناصر العصارة ، وكذلك على المواد الغذائية اللازمة لحفظ كيانها كسائر خلايا الجسم .

وغالباً ما يكونُ الإمساكُ ناشئاً عن سوء تغذية خلايا الأمعاء ، فهناك عضلاتٌ لا إراديةٌ فى جدران الأمعاء تسبب حركة الأمعاء عند تنبهها. وحركة الأمعاء تكون على شكل تموّجات ، وهذه التموّجات تجعل الغذاءَ فى الأمعاء فى حركة مستمرة حتى تصل بقاياهُ إلى الأمعاء الغليظة ، ومنها إلى الخارج . .

والعضلاتُ اللاإرادية جميعها ، والموجودة فى الأمعاء ، مكوّنة من خلايا حية ، ومن الضرورى أن تحصلَ على غذائها على أكمل وجه ، حتى تقوم بعملها على خير ما يرامُ .

وقد يتناولُ بعض الناس ملينات وأدوية من شأنها أن تهيج خلايا الأمعاء حتى تنشط وتجبرَ العضلات على العمل ، وحينئذ يتخلصون من الإمساك ، وتراكم بقايا الطعام ، فى حين أن ما يتطلبه الأمر فى مثل هذه

الحالة هو تغذية تلك الخلايا بجميع العناصر اللازمة لها .

والجهازُ الدورىالذى يحملُ الغذاءَ والدمَ إلى جميع أجزاء الجسم ليس مجرد أنابيب ، فإن جدران الأوعية الدموية تحتوى على خلايا حية لا تختلف عن أية خلية أخرى من الجسم من حيث حاجتها إلى الغذاء الكامل ، حتى تحتفظ بحيويتها وكيانها ، وهذه الخلايا التى تغطى جدران الشرايين قد تتصلبُ نتيجةً لسوء التغذية ، وتؤدى إلى تصلب فى الشرايين .

والقلبُ فى حركة دائبة ليلاً ونهاراً ، وخلاياه حيةٌ ، وهى فى حاجة دائبة إلى المواد الغذائية .

ويقومُ القلبُ بدفع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ، وإلى نفسه أيضاً ، وتحتاجُ عضلةُ القلب إلى الغذاء حتى تستطيع أن تقوم بعمل المجهود اللازم لقذف الدم إلى جميع أجزاء الجسم ، وعند انسداد الشريان الذى يحملُ الدمَ إلى القلب فإن الخلايا القلبية التى تعتمدُ على هذا الشريان تموت .

وقدْ يؤدّى انسدادُ الشريان الرئيسى إلى الوفاة المفاجئة — ذبحة صدرية — وذلك نتيجة لموت جزء كبير من أنسجة القلب ، وهذا يشير فى وضوح إلى أن موتَ بعض الأنسجة يؤثرُ أثراً بيناً على بقية أجزاء الجسم ، فعند وقوف عضلة القلب عن العمل تقف جميعُ أنسجة الجسم الأخرى عن العمل ، نتيجة لعدم إمدادها بالمواد الغذائية والأوكسجين .

وهناك أعضاءٌ أخرى فى الجسم تحتاجُ إلى عناية خاصة من الناحية الغذائية ، فجميع الغدد التى تقومُ بإفراز الهرمونات ، كالغدة الدرقية ،

الغدة النخامية ، والغدة الكظرية ، والغدد التى تفرزُ الهرمونات المميزة جنس ، والغدة التى تقومُ بإفراز الأنسولين بالبنكرياس ، كلها مكونةٌ ن خلايا حية لا تختلفُ عن خلايا الجسم الأخرى من ناحية احتياجها لى المواد الغذائية ، فهى فى حاجة مستمرة إلى تلك المواد كبقية الخلايا ، الجسم ، ولتستطيع أيضاً أن تقوم بصُنع الهرمونات .

ومن هذه الهرمونات الهرمونُ الذى يحتوى على مادة اليود ، والذى فرزُ بوساطة الغدة الدرقية ، فخلايا هذه الغدة تحتاج إلى هذه المادة — بخلاف بقية الأنسجة الأخرى — حتى تستطيع أن تقومَ بوظيفتها ، وفى لأماكن التى تنخفضُ فيها نسبةُ اليود فى النباتات والتربة ، كما فى لواحات أو فى سويسرا فإن الغدة الدرقية يختل توازنها وتتضخم ، ويؤدى هذا إلى (جوايتر) ، وهذه الغدة لا تستطيع أن تقومَ بأداء وظائفها على أكمل وجه إلا إذا وُجدَ اليودُ الذى يدخلُ فى تركيب الهرمون الذى تقومُ تلك الغدةُ بإفرازه . وعندما تحصلُ الغدةُ على اليود اللازم لها فسرعان ما تعودُ الغدةُ المتضخمة نتيجة لنقص اليود إلى حالتها الطبيعية ، وعلى هذا الأساس فقد توجدُ عدةُ حالات مرضية نتيجة لنقص اليود فى الجسم ، وهذه الحالاتُ يختلفُ بعضها عن بعض شدةً وضعفاً ، وهذا يتوقف إلى حد كبير على نسبة اليود الموجود فى المواد الغذائية ، فإذا نقص نقصاً شديداً كانت الحالة المرضية للغدة الدرقية شديدة ، والعكسُ بالعكس .

والغدة الدرقيةُ تحتاجُ — بجانب اليود الذى هو عنصر أساسى لصنع الهرمون — إلى مواد غذائية أخرى ، حتى تحافظ على كيانها ،

مثلها فى ذلك كسائر خلايا الجسم الأخرى ، والنقص فى تلك المواد الغ
يؤثر على الغدة كما يؤثرُ على بقية الأعضاء فى الجسم .

وهرمونُ الغدة الدرقية مهم بالنسبة للجسم عامة ، فهو المنظمُ للع
الكيمياوية المعقدة داخل أجسامنا ، فعندما تكونُ كمية هذا الهرمون أ
من الطبيعى تظهر آثارُ هذه القلة فى خشونة الجلد وتغير منظره الصح

وهذا الهرمونُ يمكن تناوله عن طريق الفم فى الحالات التى تـ
الغدةُ الدرقيةُ فيها مريضة أو أزيلتْ جراحياً ، حتى يمكن أن
العمليات الكيمياوية المعقدة داخل أجسامنا ، وكذلك تعودُ للجلد نضا
وسلامته .

وهناك أعضاء أخرى تحتاج إلى نوع معين من العناصر الغذائية و
شبكية العين حيث توجد صبغاتٌ خاصة بالرؤية تتغيرُ عند تعري
للضوء ، وتسهلُ عملية الرؤية ، وهذه الصبغاتُ لها علاقةٌ وثيقة بفيتامين
من الناحية الكيمياوية ، فهذا الفيتامين يعتبرُ المادة الخام لهذه الصبغات
وبما أن هذه الصبغات لا يمكنُ صنعها فى أى مكان آخر بالجسم فيجب
أن يحتوىَ الغذاءُ على فيتامين ا ، حتى تسهل عمليةُ الرؤية ، وخلا
شبكية العين تحتاجُ من هذه المادة إلى كمية كبيرة ، وفى بعض الحيوانات
يختزن الجزءُ الأكبرُ من فيتامين ا فى العين لهذا الغرض .

ونكونُ مخطئين غاية الخطأ إذا قلنا إن شبكية العين هى العض
الوحيدُ الذى يحتاجُ إلى فيتامين ا إذْ أن خلايا الجلد تحتاج إلى هذ
الفيتامين أيضاً ، ويختزن هذا الفيتامين فى خلايا الكبد تحت طلب أ

جزء من أجزاء الجسم عند الاحتياج إليه .

وهناك خلايا أخرى تحتاجُ إلى نوع خاص من المواد الغذائية ، وهى خلايا الخصية التى تصنعُ الحيوانات المنوية فى الذكور ، وتساعدُ على قوة الإخصاب ، فقد ثبت أنه عند نقص فيتامين ا تصاب الحيوانات بنقص فى عدد الحيوانات المنوية وموتها ، ويصبحُ الحيوانُ عقيماً ، وفى الأنثى عند نقص هذا الفيتامين (فيتامين ا) لا تستطيعُ أن تحملَ جنيناً صحيحاً ، وقد يكونُ مظهر الرجل والمرأة عادياً فى حين أنهما مصابان بالعقم نتيجة لنقص هذا الفيتامين فى المواد الغذائية .

وليس فيتامين ا هو الفيتامين الوحيد اللازم للإخصاب ، إذْ أن فيتامين (هـ) الذى اكتشف أخيراً مهم فى الإخصاب ، ونقص هذا الفيتامين يؤدى إلى إصابة أنثى الحيوان بالعقم فى حين أن الصحة العامة للحيوان قد لا تتأثر .

ومن الضرورى لتكوين الجنين مواد غذائية أخرى ، علاوة على فيتامين ا ، هـ وذلك حتى ينمو نمواً طبيعياً .

وأهمية فيتامين هـ من ناحية الإخصاب ترجعُ إلى اكتشاف تأثير هذا الفيتامين على حياة الجنين فى الحيوانات ، ولهذا الفيتامين فوائدُ أخرى ؛ فهو يساعدُ على نمو العضلاتُ ، ونقصُ هذا الفيتامين يؤدّى إلى ضعف ى عضلات الحيوانات وضمورها ، كما يؤدّى إلى إصابة الأوعية الدموية أمراض مختلفة فى بعض الطيور .

وبما أنّ عملية التمثيل الغذائى تختلفُ من جسم إلى آخرَ باختلاف

أنواع المخلوقات ، وأنّ إجراءَ التجارب المعملية للوقوف على مدى تأثير هذا الفيتامين على الإنسان لا يخلو من خطورة ، فلا يمكن معرفة تأثير هذا الفيتامين على الإنسان بالضبط ، ولكن يمكنُ القولُ بأن حيا الجنين تعتمدُ اعتماداً كبيراً على المواد الغذائية ، والعناصر التى ذكرت ، وأخرى كثيرة لم تذكر بالنسبة للإنسان.

وأما الجهازُ العصبى فإنّ تغذيته تختلفُ اختلافاً بيناً عن بقية أجزا الجسم ، فمنذُ تكوينه تختلفُ خلاياه عن خلايا الجسم الأخرى فى الحجم والشكل والتركيب الكيمياوى . فخلايا الجلد — على سبيل المثال — تنقسم باستمرار ، وتموتُ خلايا ، وتستبدلُ بها غيرها ، فى حين أن خلايا الجهاز العصبى لا تتكاثرُ بعد ولادة الطفل ، ولا تزيد عدداً ، ولا يفهم من هذ أن الخلايا العصبية تعيش عيشةً متكاسلةً مدى الحياة ، ولكنها ف الحقيقة فى غاية النشاط من الناحية الكيمياوية ، فهذا مخ الإنسان ، وز يساوى ٢٪ اثنين فى المائة من وزن الجسم ، ونسبة الوقود الذى يستعمله من المواد الغذائية تعادل ٢٥٪ من الوقود الذى يستعمله الجسمُ بصف عامة ، وكميةُ الطاقة التى يستخدمها عقلُ الإنسان فى مدة أربع وعشري ساعة كفيلةٌ برفع درجة حرارة جالون ونصف جالون من الماء من درج التجمد إلى درجة الغليان .

وحتى يستخدم المخ هذه الطاقة كما ينبغى يجب إمدادُ المخ باستمرار بالوقود على هيئة مواد سكرية (دكستروز) ، يضاف إلى ذلك أن المخ فى حاجة مستمرة إلى مواد غذائية أخرى حتى يحافظ على كيانه وبقا

كجهاز حى .

وتغذيةُ الخلايا العصبية فريدةٌ فى نوعها ، فإن معظم خلايا الجسم الأخرى تحصلُ على غذائها مباشرة من بلازما الدم ، وليسَ هذا صحيحاً بالنسبة إلى الخلايا العصبية ، فهناك ما يسمى حاجز الدم للمخ الذى يحفظُ نسبةً عاليةً من بعض المواد الغذائية من الذهاب إلى المخ ، ولهذا كانتْ خلايا المخ فى حاجة إلى عناية خاصة بالنسبة للغذاء ، والخلايا العصبية النشيطة تحتاجُ إلى موادَ غذائية أكثر من الأخرى غير النشيطة. ويظهرُ هذا جلياً عند نقص بعض المواد الغذائية من الجسم ، مثل نقص فيتامين ب ١ أو فيتامين ب١٢ فإن الخلايا العصبية فى هذه الحالة تصابُ باختلال فى وظيفتها ، وتكونُ عرضةً للأمراض ، وعند نقص هرمونات الغدة الدرقية أثناء تكوين المخ يولدُ الطفلُ وهو مصابٌ بنقص عقلىّ .

وتقوم الخلايا العصبيةُ بتنظيم عمليات الجسم المختلفة ؛ فالجسمُ السليم يحتفظ بدرجة حرارة ثابتة صيفاً وشتاءً ، ويحتفظ بانتظام دقات القلب ، وانتظام حركة التنفس وإفراز الهرمونات والعوامل المختلفة التى تؤثرُ على تركيب الدّم . وبعضُ هذه العمليات فى غاية الأهمية بالنسبة للحياة ، فإنها إن وقفت فسرعان ما يموتُ الجسدُ ، ولتقومَ خلايا الجهاز العصبى بهذا العمل فإنها تحتاجُ بصفة مستمرة إلى الغذاء . وهناك عمليةٌ منظمة مهمةٌ فى الجهاز العصبى ، وهذه تظهرُ جلياً عند تناول الشخص نوعاً واحداً من الغذاء مثل العسل ، فإن الجسمَ يستفيدُ منه بلا شك ، ولكن إذا استمر الشخصُ على تناوله فقد يصابُ الجسمُ بعدَ فترة من الوقت

بعدم الميل إلى تناول هذا الغذاء ، فإذا استمرّ على تناوله فقد يؤدى هذ
إلى حدوث قىء ، وكذلك يحاولُ الجسمُ أن يستفيدَ من المواد السكرية
الموجودة فى الغذاء بامتصاصها إلى أبعد الحدود عند نقص تلك المواد من
الغذاء ، فإذا ما زادت عن الحد نقصتْ عمليةُ امتصاصها من الغذاء ،
وما يقالُ عن المواد السكرية يقالُ أيضاً عن المواد الدهنية ، فإذا زادتْ
عن الحدّ المطلوب فى الوجبة الغذائية فإنها تؤدى إلى الغثيان أو القىء ،
وفوق هذا فإن الجسمَ يلفظها ولا يمتصها بنفس النسبة التى يمتصها بها
عندما يكونُ الجسمُ فى حاجة إليها ، أو حينما يكونُ وجودُ هذه المواد
فى الغذاء غير مجاوز حدوده الطبيعية ، وهذه الخلايا التى تقومُ بتنظيم
تلك العملية من الضرورى تغذيتها لتؤدّىَ عمليّها على خير وجه . وعلى
هذا يمكنُ القولُ بأنّ الغذاء الكاملَ يخلقُ للجسم غذاءً كاملاً ،
يعنى أنه إذا اختلّ عملُ هذه الخلايا بسبب اختلال فى الموادّ الغذائية
فإنّ الجسمَ سوف لا يستفيد من جميع الموادّ الغذائية التى يتناولها الفرد ،
وإذا اكتمل عملُ هذه الخلايا قامتْ بعملها على خير وجه ، واستطاع
الجسم أن يمتص المواد الغذائية اللازمة له ، ومن ذلك تظهرُ أهميةُ الغذاء
بالنسبة للأطفال ، فإذا نشأ الطفلُ وهو فى صحه جيدة ، وكان بعيداً عن
مشاكل النقص الغذائى فإن هذه الخلايا يمكنُ أن تقومَ بعملها بعد
ذلك « أتوماتيكياً » ، وتستطيعُ أن تبنى الجسمَ بسيطرتها على عملية
امتصاص المواد اللازمة له ، فينمو الجسمُ باطراد بعدَ ذلك دون تأثره
بأمراض سوء التغذية .

وخلايا الجسم العاملة فى الجهاز العصبى، أو الجهاز الدورى ، أو فى الخلايا التى تقوم بإمداد الجسم بالهرمونات ، أو الخلايا المنظمة لعمليات الجسم المختلفة ــ هذه الخلايا جميعها تحتاج إلى غذاء كامل ، حتى تقوم بوظيفتها على خير ما يرام .

يتبين من هذا أن كل خلية من خلايا الجسم تحتاج إلى المواد الغذائية المختلفة التى تدخل الجسم عن طريق الطعام ، لتأخذ نصيبها اللازم لها من تلك المجموعة الغذائية المختلفة ، فإذا قيل بعد هذا :

١ ــ الحديد للدم .
٢ ــ الكلسيوم للعظام .
٣ ــ فيتامين ا للعين .
٤ ــ الفسفور للمخ .
٥ ــ فيتامين ب للأعصاب .

. . . . . .

. . . . . .

كان هذا القول بعيداً عن الصحة ، فإن هذه المواد وغيرها فى غاية الأهمية ، ولا غنى عنها بالنسبة للدم والعظام والعين والمخ والأعصاب وغيرها من بقية الأنسجة الحية فى الجسم .

الباب الثالث

الغذاء الكامل

يمكنُ تشبيه الغذاء الكامل بسلسلة مكوّنة من حلقات، قد علق فيها شيء ٌ ثقيل ٌ تحمله، فإذا ضَعفتْ حلقة ٌ من هذه الحلقات أو فقدتْ انقطعت السلسلةُ ووقع ما كان معلقاً فيها .

هذه الحلقاتُ تمثلُ العناصرَ الغذائية، وضعفُ حلقة منها أو فقدُ كضعف عنصر من العناصر الغذائية أو فقده . فإذا انعدم عنصرٌ في الغذاء أدّى هذا إلى ضعف في الصحة، وقد يؤدى إلى حدوث أمراض كما قد يؤدى أحياناً إلى الوفاة .

والخليةُ التي تحتاجُ إلى عنصر ما احتياجاً خاصاً تكونُ عرضةً للأمراض إذا نقص هذا العنصرُ من الغذاء . وهذا لا يعني أن يحصلَ الإنسانُ على جميع العناصر المكونة للغذاء الكامل في كلّ وجبة من وجبات التغذية أو في كل يوم حتّى يكون مكتمل الصحة سليمَ البنية؛ لأن الجسمَ يمكنه تخزين هذه العناصر بكميات مختلفة في بعض أجزائه . فإذا نفدَ هذا المخزونُ من العناصر في الجسم، ولم يجئه مددٌ منها يعوضُ ما فقده فإن الجسمَ يكون معرضاً لأمراض سوء التغذية .

وتتكوّنُ حلقات الغذاء من مواد كيمياوية؛ فالماء مادةٌ كيمياوية،

وملحُ الطعام مادةٌ كيمياوية، والسكرُ مادةٌ كيمياوية ، والخبزُ واللبنُ من المواد الكيمياوية المعقدة .

وفيما يلى جدولٌ يبينُ المواد الكيمياوية المهمة التى تكونُ الغذاء ، والتى يتناولها الإنسانُ يومياً ، والكمية العادية التى يتناولها .

المواد الغذائية	العناصر الكيمياوية	الكمية
النشويات وخلافه	النشا ــ السكريات (جلوكوز ــ سكروز ــ لكتوز)	٢٠٠ جرام
	سليولوز وبكتين	٢٥ جراماً
	سترات ــ وطرطرات ــ ولاكتيزُ	٥ جرامات
المواد الدهنية وما شابهها	الزيوت والمواد الدهنية (حيوانية أو نباتية)	٨٥ جراماً
	الدهنيات الفسفورية	٥ جرامات
	الأحماض الدهنية غير المشبعة مثل حامض اللانوليك وغيرها	٢ جرامان
	الكلسترول	١ جرام
المواد البروتينية (الأحماض الأمينية)	حامض الجلوتاميك والجلوتامين	١٦ جراماً

المواد الغذائية	العناصر الكيمياوية	الكمية
	ليوسين	٨ جرامات
	أرجنين	٦ »
	أسبرجين	٦ »
	برولين	٥ »
	أيزوليوسين	٤ »
	ثالين	٤ »
	ألانين	٣ »
	ليسين	٣ »
المواد البروتينية الأحماض (الأمينية)	جليسين	٣ »
	ميثايونين	٣ »
	فينل ألانين	٣ »
	سيرين	٣ »
	تير يونين	٣ »
	تير وسين	٣ »
	سيستن	٢ جرامان
	هيستدين	٢ »
	تربتروفين	١ جرام
الفيتامينات	إنوستيول	١ جرام
	كولين	١ جرام

المواد الغذائية	العناصر الكيمياوية	الكمية
الفيتامينات	فيتامين ا	٦ مليجرامات
	فيتامين د	٠,٠٤ »
	فيتامين ك	٢ »
	فيتامين هـ	٦ »
	فيتامين ث	٧٥ »
	فيتامين (ب ١)	١,٥ »
	ريبوفلافين (ب٢)	١,٨ »
	بانتوثنات (ب ٣)	١٠ »
	نياسيناميد	١٥ مليجراماً
	بيوتين	٠,٢ »
	حامض الفوليك	١ »
	بيرودوكسين (ب ٦)	٣ »
	كوبالامين (ب١٢)	٠,٠٠٢ »
	روتين	٢٥ »
	ليويك	٠,٥ »
	الكلسيوم	٧٥٠ مليجراماً
	الفوسفات	٧٥٠ »
	الصوديوم	٤٠٠٠ »
	البوتاسيوم	٢٥٠٠ »
	الكلوريد	٥٠٠٠ »

المواد الغذائية	العناصر الكيماوية	الكمية
مواد كيمياوية أخرى عادة تكون على هيئة أملاح	المجنيزيوم	٢٥٠ مليجرام
	الحديد	١٠ »
	الزنك	١٠ »
	المنجنيز	٥ »
	الكروتات	٢ »
	النحاس	٢ »
	الكوبالت	٠,١ »
	الفلوريد	٠,٥ »
	موليبديوم	٠,٥ »
	السيلنيوم	٠,٥ »
	اليود	٠,١ »

وفى الغذاء مواد لا غنى عنها للجسم ، ولا يمكنُ أن تستبدلَ بها أخرى مهما تكن الأحوالُ ، وفى الجدول السابق جميعُ المواد الموضوع تحتها خط لا غنى عنها للجسم ، وفى غاية الأهمية ، حتى تحفظ بقاء الجسم ووظيفة جميع الأعضاء به .

فالمواد الدهنيةُ والنشويةُ — مثلاً — ليسَ تحتها خطٌّ ، إذْ أنها بالرغم من تفضيلها على المواد الغذائية الأخرى اقتصادياً فإنّ أهم وظائفها أنها تعطى الجسمَ طاقةً حرارية ، وهذه الطاقةُ يمكنُ الحصولُ عليها

من المواد البروتينية والأحماض الأمينية ، والجلوكوز يمكنُ الحصولُ عليه من المواد البروتينية .

والمواد الدهنيةُ والكربوهيدراتية اللازمة للأغراض البنائية يمكن الحصول عليها من المواد العضوية التي في الغذاء .

وجميع عناصر المواد البروتينية ليس تحتها خطٌّ للسببين التاليين :

أولاً : توجد مجموعةٌ كبيرةٌ جداً من هذه الأحماض الأمينية لم تذكر في الجدول السابق ، وجزء منها فقط هو الذي يمكنُ استخدامهُ في الطعام .

ثانياً : جميعُ المواد البروتينية عند انتهاء عملية الهضم بالأمعاء تؤدّي إلى الأنواع المختلفة المدرجة بالجدول .

وتتوقف القيمةُ الغذائيةُ للبروتين على النوع المعين من الحامض من هذه الأحماض التي تحتها خط ، والذي يحتويه هذا البروتين ، والكمية التي يحتويها .

ولا يحتاجُ الجسمُ إلى نوع معين من الأحماض الأمينية المدرجة بالجدول ، بل يحتاجُ إلى البروتين الذي يحتوي على جميع الأحماض الأمينية الهامة ، والتي تحتها خطٌّ بالجدول السابق .

وأمام كل عنصر من عناصر الغذاء بالجدول السابق كميته ، وقد ذكرنا قيمةَ الكمية لهذه العناصر لا لاستعمالها ، ولكن لبيان نسبة هذه المواد بعضها لبعض ، ولو لم نفعلْ ذلك فقدْ يذهب بعضُ الناس ويكوّنُ وجبةً غذائيةً فيها جميع هذه المواد بالتساوي ، ونتيجة لهذا فقد يحدثُ

أحدُ الاحتمالات التالية :

١ ـ بعضُ المواد التى يحتاجُ إليها الجسمُ بكميات طفيفة غاليةٌ جداً ، فإذا حاول المرءُ الحصولَ عليها مستقلةً جافةً مع حرصه على التساوى فلن يستطيعَ إلى ذلك سبيلا .

٢ ـ قد لا يستسيغُ المرءُ أكل هذه الوجبة المكونة من المواد الجافة .

٣ ـ سيموت الإنسانُ إذا ما تناولَ وجبة غذائيةً مكونة بنسب متساوية مرتفعة من المواد السابقة إذ أن بعضَ العناصر مثل أملاح النحاس والكوبالت والمولبديوم فى غاية الأهمية عندما تكونُ بكميات طفيفة ولكنها سامةٌ وفى غاية الخطورة إذا ما كانت نسبتها فى الطعام تعادل $\frac{١}{٥٩}$ من وزن الوجبة الغذائية .

وقد تحتوى المواد البروتينية على جزيئات أخرى غير الأحماض الأمينية ، فهيموجلوبين الدم مثلاً عبارةٌ عن مركب معقد ويحتوى على الحديد كعنصر مكمل له ، ومن غيره لا يستطيع هيموجلوبين الدم أن يحملَ الأكسجين إلى خلايا الجسم ، وهناك مواد أخرى تحتوى على مواد عضوية وأملاح وفيتامينات خلاف الهيموجلوبين تدخلُ فى تركيب موادٌ مختلفة مهمة للجسم .

وتقتضى عمليةُ هضم المواد البروتينية تبسيطَ هذه المواد إلى مواد صغيرة ، وهذه العمليةُ تتم فى أثناء الطهى ، وإذا تناول الإنسانُ المواد البروتينية بدون طهى فإن هذه العملية تتم فى المعدة أو الأمعاء قبلَ عملية الهضم .

والعملية الثانيةُ لهضم المواد البروتينية هى تكسيرُ هذه المواد ، وهذه

تتم فى الجسم بوساطة عواملَ مساعدة تسمى بالأنزيمات. والأنزيماتُ نفسها عبارة عن موادَّ بروتينية وهى تساعد على عملية الهضم، فإذا أضيف البيسين (أحد الأنزيمات فى عصارة المعدة) إلى بياض البيض فإن المواد البروتينية تتكسرُ إلى وحدات صغيرة.

وتستطيع الأنزيمات الأخرى فى الأمعاء هضمَ المواد البروتينية وتكسيرها من جزيئات كبيرة متصلة إلى جزيئات صَغيرة متفرقة.

وتوجد أنزيماتٌ كثيرةٌ لإتمام عملية هضم المواد البروتينية، وكل أنزيم يجبُ أن يقومَ بعمله فى الوقت وفى المكان المناسبين لهذه العملية حتى تتم على خير ما يرامُ.

وهناكَ حقيقتان بشأن هذه الأنزيمات:

الأولى: هذه الأنزيماتُ تفرزُ بوساطة الجسم، وليس من الضرورى أن تكونَ مستمدةً من الغذاء.

الثانية: أنها عواملُ مساعدة، فهى تعجلُ بمعونة آلاف التفاعلات المختلفة التى تنشأ فى خلايا الجسم، وعمليةُ الهضم هى جزءٌ صغير من هذه التفاعلات التى تقوم بها.

وهذه الأنزيماتُ على الرغم من أنها تقوم بعملية الهضم — فلكونها مواد بروتينية — فإنها تحت تأثيرات معينة يمكن أن تتكسر وتهضم، وينتجُ عنها أحماضٌ أمينية مثلُ التى تنتج عن المواد البروتينية الأخرى.

والأنزيمات فى عصارة الجهاز الهضمى وفى خلايا الجسم المختلفة لكل منها خاصيةٌ ذاتيةٌ، حتى تقومَ بعملية الهضم، فإذا كان تركيبُ الأجزاء

التي تدخلُ في تكوينها مختلا فإن الأنزيمات لا تستطيعُ أن تقومَ بأداء وظيفتها .

والأنزيمات تساعدُ التفاعلات الكيمياوية ، لكن معظم هذه التفاعلات الكيمياوية تتم بطريقة عكسية ، فمثلاً :

ا ⟶ ب ⟵

إذا كان هناك مركبٌ كيمياوى يرمز له بـ « ا » فيمكن بواسطة الأنزيم أن يتحولَ إلى « ب » ولكن « ب » فى الوقت نفسه يمكن أن يتحول إلى « ا » بدرجة أقل من تحول « ا » إلى « ب » كما هو مبين بالسهمين الأكبر والأصغر . وهذا لا يعطينا فكرةً عن سرعة هذه العملية ، فقد تتم فى خلال جزء من الثانية ، وقد تطولُ إلى ملايين من السنين .

ويمكن تشبيه العمل الذى يقومُ به الأنزيم بالعمل الذى يقومُ به الزيت عند تشحيم الماكينة ، ويمكن القولُ بأن الأنزيم يشحمُ السهمَ فيما بين المركب الكيمياوى « ا » و « ب » ولا يمدّه بالقوة والجهد وإنما يساعدُ على إتمام هذه العملية ، وتمامُ هذا التفاعل مقرونٌ بوجوده ، ويستعملُ الأنزيم مراراً وتكراراً لإتمام هذه التفاعلات نفسها .

ويمكن مزج الهيدروجين والأكسيجين وبقاؤهما كمزيج مدة طويلة ، إذا لم يقربْ من هذا المزيج لهب ؛ ولكن إذا أمرَرْنا هذا المزيج فوقَ البلاديوم الذى يقومُ مقامَ العامل المساعد فإن الأكسيجين والهيدروجين سوفَ يتحدان ويكونان الماءَ وتنطلقُ الطاقةُ الحرارية ، ويمكنُ استخدامُ

جزء صغير من عنصر البلاديوم للقيام بهذه العملية ، وتكوين كميات هائلة من الماء، إذْ أنّ البلاديوم سوف يستعملُ مراراً وتكراراً ، وهذا العنصرُ لا يولدُ حرارةً ولكن يشحم عمليةَ التفاعل .

وهنا يتساءلُ الإنسانُ : كيفَ يقومُ الأنزيم بعملية التشحيم فى التفاعلات الكيمياوية ؟

الأنزيمُ – وهو بروتين – مكونٌ من أجزاء كبيرة نوعاً ما ، لها شكلها وحجمها .

وكل جزىء فى الجسم له شكلٌ وحجمٌ يميزانه، فإذا ما انطبق شكل الأنزيم وحجمه على شكل الجزىء الذى فى الجسم وحجمه استطاع أن يقومَ بعملية التشحيم .

وهناك آلاف من الأنزيمات فى الجسم يختلفُ كل منها عن الآخر فى تكوينه وشكله وحجمه ، ولهذا أمكن للجزيئات التى فى الجسم أن نجد فى هذه الآلاف ما ينطبقُ عليها ، وحينئذ تقعُ عمليةُ التشحيم .

وتساعد الأنزيماتُ هذه التفاعلات التى تنشأ باستمرار فى جميع خلايا الجسم وهى حية، وفى تلك الخلايا الحية تنتظمُ عمليةُ التفاعلات هذه بوساطة الأنزيمات لدرجة أنّ هذه العملية الخاصة بتلك الخلية تسيرُ بنظام دقيق .

فمثلاً بعضُ التفاعلات الخاصة بأكسدة الطعام للحصول على الطاقة الحرارية تنشأ كل ثانية وتتضمنُ عمليات كثيرةً وأنزيمات متعددةً ، هذه العملياتُ ذاتُ صفة دائرية ومتأرجحة ، وكل هذه العمليات

والتفاعلات المعقدة والأنزيمات تسمى فى بعض الأحيان ميكانيكية التغير الغذائى بالخلية ، وهذا التغييرُ الغذائى بالخلية يتضمنُ كلَّ مايحدث كيميائياً فى خلايا الجسم .

وأهميةُ المواد البروتينية ترجعُ إلى وُجود الأحماض الأمينية بها والأنزيمات التى يتعاطاها الإنسانُ فى طعام قد تكونُ مفيدةً لنفس هذا السبب ، أىْ لاحتوائها على أحماض أمينية ، وهناك مواد كيمياوية أخرى يصنعها الجسمُ ولا يحصلُ عليها عنْ طريق الغذاء عادة ، ألا وهى الهرمونات . وهذه تختلفُ اختلافاً كبيراً فى تركيبها ، فبعضها من المواد البروتينية ، وكثير منها لا يحتوى على الموّاد البروتينية فى تركيبه ، وأسلوبُ عملها غيرُ معروف على وجه التحديد ، ولكنها تؤثر على التفاعل الذى يحدث بالخلية عن طريق مباشر أو غير مباشر ؛ فالأنسولين مثلاً عبارةٌ عن هرمون بريتونى ، وبعضُ الهرمونات الأخرى مثل « الاستريودات » تشبه المواد الدهنية فى تركيبها ، والبعضُ الآخر يحتوى على جزئيات النيتروجين فى تركيبه .

ومن الناحية الغذائية فإن تناول الهرمونات بالطعام ليس بذى فائدة ؛ إذْ أن الجسمَ يقومُ بعمل احتياجاته وصُنع هذه الهرمونات .

ويوجد هرمون واحدٌ يحتوى فى تركيبه على الأحماض الأمينية التى تختلفُ عن بقية الأحماض الأخرى ، وذلك لاحتوائه على اليود ، وهذا الهرمون يمكنُ الحصولُ عليه من الطعام ، وذلك فى الحالات التى تكونُ الغدةُ الدرقيةُ قد أزيلتْ جراحياً ، أو كان هناك نقصٌ فى إفراز هذا

رمون من هذه الغدة لأى سبب من الأسباب ، ويستفيدُ الجسمُ من
هذا الهرمون عند تناوله فى الغذاء، والهرموناتُ الأخرى عادة لا تكونُ
مفيدةً إذا تناولها الشخصُ عن طريق الفم نظراً لهضمها وتكسيرها إلى
جزيئات تختلفُ اختلافاً كبيراً عن الهرمون الأصلى، ولذلك فمعظمُ هذه
الهرمونات تحقنُ فى الجسم عند نقصها منه ، وذلكَ حتى تتخطى عملية
الهضم فى الجهاز الهضمى .

ومما سبق يتضحُ أن الغذاءَ الكاملَ يحتوى على آلاف المواد البروتينية ،
هذه جميعها تهضمُ وتتكسرُ إلى حوالى واحد وعشرين حامضاً أمينياً ،
وكلها وجميعُ الأغذية الأخرى عبارةٌ عن مزيج معقد يحتوى على جزيئات
عديدة مختلفة .

الباب الرابع

الحكمة الإلهية فى التغذية

لم يتركنا الخالقُ عزّ وجلّ فى ورطة معقدة تحلّ بنا حينَ نجد أنفسنا مضطرين إلى تحليل غذائنا قبل أن نتناوله ونأكله إلى عناصره، فى كل مادة من موادّ الغذاء، لنعرفَ مقدارها وملاءمتها ومدى نفعها وحاجة الجسم إليها، ولو كانَ هذا التحليلُ ضرورياً ما استطاعَ أن يقومَ بهِ إنسان.

وقد جنبنا الخالقُ عزّ وجلّ هذه الورطة بما أمدتنا به الطبيعة من كائنات حية تشبهنا فى التركيب الكيمياوى ومن أنواع النبات المختلفة فالمواد أو العناصر اللازمةُ للجسم أنت واجدُها فى كل مادة من مواد التغذية نباتية أو حيوانية، ولكنها تختلف فى تكوينها ومقدارها وشكلها وحجمها فى مادة عنها فى مادة أخرى، إذ أن كل مخلوق من حيوان أو نبات يحتوى على عناصر غذائية على حسب حاجته لبناء جسمه، وتوليد الطاقة الحرارية فيه، أى أن العناصر موجودةٌ، ولكن بنسبة تختلفُ فى مخلوق عنها فى مخلوق آخر. ووظيفة الجسم حينئذ أن يقوم بتحليل مواد التغذية ليحصل منها على العناصر اللازمة لبنائه، وتوليد الطاقة الحرارية فيه.

والعناصرُ الغذائية فى ذاتها ومن حيثُ هويتها لا تختلف فى مادة عنها فى مادة أخرى، فالبروتين — مثلاً — فى النبات هو البروتين نفسه فى

لحيوان ، والبروتين فى نوع ما من أنواع النبات هو نفسه فى بقية الأنواع ، لبروتين فى نوع ما من أنواع الحيوان هو نفسه فى بقية الأنواع .

ونتيجةُ التحليل حينئذ واحدة ، فالعناصرُ التى حصلَ الجسمُ عليها ن مادة نباتية غذائية هى العناصرُ نفسها التى حصلَ عليها من مادة حيوانية غذائية ، وذلك مايسمى « الوحدة الغذائية فى الطبيعة » .

ولما كانَ كل مخلوق من حيوان أو نبات يحتوى على العناصر الغذائية ، لكن على حسب حاجته هو منها ، وبنسبة قد تكونُ ضئيلةً جداً ، فقد كونُ هذا المقدارُ من ذلك العنصر غير كاف للإنسان فى تغذيته ، فهو حينئذ مضطر أنْ يأكلَ نوعاً آخر ليكمل ما نقصَ عنْ حاجة جسمه ن هذا العنصر ، فإن لم يأكلْ هذا النوع للحصول على ما نقص فسوف صابُ بسوء التغذية وما يتبعها من أمراض .

وقد يكون عنصر ما فى مادة غذائية بنسبة عالية تفوق حاجة الإنسان نه ، وفى هذه الحالةُ يأخذُ الجسمُ حاجته ، ويقذفُ الباقى الزائد عن حاجته ، لأنه لا يستفيد منه ، وقد يختلفُ العنصرُ الذى يحتاجُ إليه لإنسانُ عن العنصر الذى فى مادة التغذية ، فهو حينئذ غير مفيد ، قد يكونُ ساماً ، وذلك يتوقف على نوع العنصر وعلى مقدار الكمية تى تناولها ، فأبو قردان — مثلاً — عندَما يلتهمُ الديدانَ أو الحشرات يطعمُ بها صغاره ، فإن القدرةَ الإلهيةَ ألهمتهُ أن يمدّ صغاره بهذه لديدان أو الحشرات التى تحتوى على المواد البروتينية والفيتامينات والأملاح المواد الغذائية الأخرى اللازمة لبناء جسم الطائر الصّغير ، وإذا كانت

المواد البروتينية فى جسم الدودة أو الحشرة غريبة بالنسبة للطائر الصّغير فإنه يصابُ بالتسمم نتيجة لتناول هذا النوع من الغذاء ، وإذا كان الفيتامينُ الموجودُ فى جسم الدودة أو الحشرة يختلفُ عما يحتاج إليه الطائرُ الصغير فسوف يكون هذا الفيتامينُ غير مفيد للطائر الصّغير وإذا كانت الأملاحُ فى الدودة أو الحشرة غير ما يحتاج إليه الطائرُ الصغير فقد تكون غير مفيدة له أو سامة ، وهذا يتوقف على الكمية التى تناولها الطائر .

والأنزيماتُ التى وردَ ذكرُها من قبل لا غنى عنها وهى مكملة لميكانيكيةَ التغيير الغذائى بالخلية الحية ، وكل كائن حىّ بصرف النظر عن طبيعته لابدّ له أن يحصلَ على ما يحتاجُ إليه لصُنع هذه الأنزيمات فالإنسانُ لا بد له أن يتناولَ فى غذائه الأملاح والبروتين والعناصر الغذائية الأخرى لإتمام عملية التغيير الغذائى بالجسم .

ولخلق الفرص الحسنة للحصول على غذاء كامل يجبُ أن يتبع ما يلى :

لا تلتزمْ تناولَ نوع واحد من الكائنات الحية ، وحاول أن تمرَّ عليها جميعها .

وفى المملكة النباتية لا تلتزم تناول الأوراق الخضراء فقط مثل السبانخ ، أو الجذور فقط كالجزر ، أو الحبوب فقط كالقمح ، أو الفاكهة فقط مثل التفاح والطماطم ، فكل واحد من هذه غذاءٌ غير كامل ، ولكنّ مجموعةً غذائية مكونة من الأوراق والجذور والدرنات

الحبوب والفواكه غذاءٌ متكامل ، فقديماً كان غذاءُ الحيوان مكوناً من الحبوب والأوراق ، ولكنْ ثبت الآن أنه لتحسين غذاء الحيوان يجبُ أن يضافَ إليه الأعشابُ والحشائش ، فالأوراقُ عادة تحتوى على الأملاح التى تكملُ تلك الأملاحَ الموجودةَ فى الحبوب . وهذا المبدأ نفسه يمكن تطبيقه عند تغذية الإنسان، سواءٌ أكانت المواد الغذائية نباتية أم حيوانية ، فإذا لم يطبق هذا المبدأ ، والتزمَ الإنسانُ تناولَ نوع معين من اللحوم الحمراء، وامتنع عن تناول غير هذا النوع كان الغذاء غير كامل وظهرتْ أعراضُه . وسوف يحصلُ الإنسانُ على غذاء متكامل إذا تناول فى طعامه خليطاً من الكبد والغدد واللحوم الحمراء والمخ والدهن ، والنباتيون يستطيعون أن يعيشوا معيشةً حسنةً بتناول غذاء كامل إذا راعوا الحكمة فى تناول وجباتهم الغذائية ، فشملت تلك الوجباتُ الأوراق والحبوبَ والجذور والفواكه . وخليطٌ من الموادِّ الغذائية النباتية والحيوانية يكونُ مجموعةً غذائية متكاملة * .

وهنا أحب أن أقف بعضَ الوقت أمام نوعين هامين من الغذاء يعتبران فى صف الغذاء الكامل ، وهما اللبنُ والبيضُ .

فالمعروفُ عن اللبن أنه غذاءٌ متكامل للحيوانات الصغيرة ومنها الأطفال ، ولكنه ليس مفيداً لمدة طويلة، فإن الحديد ينقصه ، ولكن له مزايا عديدة ، وقد صنعته القدرةُ الإلهيةُ لنا ، وجعلته يختلف عن معظم المواد الغذائية ، فهو يشملُ عناصرَ غذائية كثيرة ، وتتحسنُ الحالةُ الغذائية لدى معظم الناس إذا تناولوا كميات كبيرةً منه ، وكذلك الجبنُ

ومنتجات الألبان الأخرى ،لأنها تحتوى على المزايا الكثيرة التى فى اللبن

والبيضُ مفيدٌ ، ويعدّ غذاء كاملاً ، إذْ أن كل بيضة تحتوى بداخلها على جميع ما يلزمُ لبناء « كتكوت » ، فالبيضة تحتوى على جميع المواد اللازمة لبناء كل خلية داخلة فى تركيب جسم الدجاجة وتغذيتها ، ولهذا السبب تعدّ البيضةُ من أهم المواد الغذائية الكاملة ، وهذا لا يعنى أننى أشجعُ القارئ على أكل البيض ، ولكنى أريدُ أن أوضح مقدار القيمة الغذائية للبيضة ، أما اختيار أصناف الطعام المختلفة فهى متروكةٌ للقارئ يختارُ ما يشاءُ وبالطريقة التى يفضلها ، وسأتحدثُ عن هذا بإيجاز فيما بعدُ .

والاختلافُ الشاسعُ فى المواد الغذائية الموجود فى الطبيعة مع هذا التجانس الملحوظ بها يحتاجُ إلى وقفة أخرى ، فكل كائن حىّ يحتوى على صفة وراثية خاصة فى خلاياهُ يورثها سلالته ، وهذه تسمى « الجرثوم الموروث » وعددُ هذه الجرثومات الموجودة فى الطبيعة يختلفُ اختلافاً كبيراً ، وهذه تقرر مع مؤثرات أخرى أوصافَ الكائن الحىّ ، وطريقة عمل الأنزيمات ، وميكانيكية التغيير الغذائى بالخلية ، فعمليةُ التغيير الغذائى للفيران تختلف عن تلك العملية بالنسبة للإنسان ، إذْ أن الفيران لها صفةٌ وراثية فى إنتاج أنزيمات تخلقُ فيتامين ث من جزيئات بسيطة فكلّ كائن حىّ له صفاتهُ الوراثيةُ ذات الأنواع المتعددة ، وكل نوع يحتاجُ إلى موادّ غذائية خاصة ، ومعظم الحيوانات الثديية تتشابهُ من ناحية حاجتها إلى المواد الغذائية .

وهكذا فقدأمدتناالطبيعةُ بهذا التجانسُ والوحدة الغذائية الطبيعية بمعها أيضاً الضمان الكافى لتغذية الجنس البشرى باختيار أنواع الطعام المختلفة من الكائنات الحية، نباتية كانتْ أم حيوانية ، وهذا الاختيارُ يجبُ أن يكونَ بكياسة مع قليل من التفكير السليم .

وهذه الوحدةُ الغذائيةُ الطبيعية موجودةٌ فى الطبيعة من قديم الزمن . فقبلَ أنْ يظهرَ الإنسانُ على وجه الأرض كان هناكَ أحماضٌ أمينية فيتامينات وأملاح كما نشاهدها الآن ، وكل القرائن تدلّ على أن هذه المبادئ الأساسية موجودة ، وتلعبُ دوراً كبيراً ومهماً للغاية، ولا يمكنُ الاستغناءُ عنها لحياة الكائنات الحية .

من هذا كله يتبينُ لنا فى وضوح وجلاء الحكمةَ الإلهيةَ فى وجود الوحدة الغذائية الطبيعية .

الباب الخامس

الأمراض الناشئة عن سوء التغذية

قد يتساءلُ الناسُ عن الأمراض التي تصيبُ الجسمَ نتيجةً لسوء التغذية .

وقد تكونُ الإجابةُ المتوقعة أن من الأمراض الناشئة عن سوء التغذية مرض البلاجرا ، والإسقربوط ، والتهابُ الأعصاب ، والعمى الليلى .

وهذه الإجابةُ قد تكونُ غيركاملة ، أو غير مستوفية نصيبها من الصحة ، وذلكَ لأن الإجابة أغفلت الخلايا التى يتكونُ الجسمُ منها وتقوم بوظائف لا غنى للجسم عنها — أغفلت الإجابةُ هذه الخلايا من حيثُ تغذيتها ، فإن سوءَ تغذية الخلية هو الأساسُ لكل مرض من أمراض سوء التغذية ، وسوءُ تغذية الخلية يقعُ بمعدل عشرات المرّات قبل أن يظهر بالجسم أىّ مرض من هذه الأمراض .

وسوءُ تغذية الأنسجة فى الجسم بسبب نقص مادة معينة فى الغذاء ، أو نقص مادة أخرى هو أساسُ معظم الأمراض التى لا يكونُ الميكروبُ سبباً فيها ، وبما أن كل الخلايا والأنسجة فى أجسامنا تحتاج إلى غذاء كامل ، وكل جزء من أجزاء الجسم قد يتعرضُ إلى عوامل سوء التغذية أو إلى نقص فى المواد الغذائية — فإنا نجد أن الأمراضَ الناشئة عن سوء التغذية كثيرةٌ جداً .

وهذهالأمراضُ لا تعالجُ فى الوقت الحالى علاجاً ناجعاً بالأساليب الطبية العلمية كما ينبغى ، وهذا ما يشغلُ بال علماء التغذية الحيوية فى

الطب ، حتى يتقرر : كيف تعالجُ مثل هذه الأمراض التى تنشأ نتيجةً الخطأ فى غذاء الخلايا .

١ ــ أمراض الجهاز التناسلى

سنتحدثُ عن الأمراض التناسلية أو على الأصح عن سوء التغذية التى تتصلُ أو لها مساسٌ بعملية التكاثر والتناسل .

من الواضح أنه ليس من التجارب العملية أن تجرى تجاربُ على الجنس البشرىّ حتى نتبين كيف يتأثرُ الجهاز التناسلى ، وإلى أى مدى يكونُ هذا التأثر ، ولكنها تجرى فى الحيوان ؛ وقد أجريت هذه التجارب على حيوانات مختلفة ووُجد أن الجهازَ التناسلى وعملية اللقاح يتأثران ، وهذا التأثرُ نتيجةٌ لنقص مواد كثيرة فى الغذاء :

فالفيرانُ ــ مثلاً ــ إذا نقصَ من غذائها فيتامين « ا » أو « ه » لا تنجب ، وإذا وقعَ نقصٌ فى المنجنيز فإنّ هذا النقصَ يجعلُ ذكرَ الفأر يهجرُ الأنثى ، وإذا استمر هذا النقصُ مدةً طويلة فإنّ الذكر يصابُ بالعقم .

وكذلك الحالُ فى نقص الأحماض الدهنية غير المشبعة مثل « النيوليك » أو الأحماض الأمينية ، فإن هذا النقصَ قد يؤدّى إلى العقم .

ويمكنُ القول بأنّ المواد الغذائية التى يجبُ أن تتناولها الفيران حتى تحافظ على كيانها هى الموادّ الغذائية التى يجبُ أن تتناولها الفيرانُ أيضاً للتناسل وإنجاب الصغار .

وعلى هذا الأساس فإنّ القول بأنّ هناك « فيتامين » يقى الحيوان ويحفظه من العقم أن يصابَ به قولٌ غير مرغوب فيه ، لأنّ جميعَ المواد الغذائية التى تدخلُ فى تركيب الخلية مهمةٌ للغاية ، ولها أثرها الفعالُ فى إنتاج الصغار ، وحماية الحيوان من العقم ، ويمكنُ القولُ بأنّ مجموعة « فيتامين ب » المركب هىَ فى الحقيقة « فيتامينات » ضد العقم ، وكذلكَ الأحماضُ الأمينية الضرورية ، وكل الموادّ الغذائية التى لا غنى عنها للجسم تعتبرُ مهمةً للغاية إزاءَ عملية التناسل وإنجاب الصغار .

وكثيرٌ من الأطباء وغيرهم يعتقدون أن « فيتامين هـ » ليس هو الوحيد لعلاج حالات العقم ، أو أن حالات العقم للجنس البشرى يرجعُ سببها إلى نقص هذا الفيتامين فحسب .

وتختلفُ أنواع الحيوانات الثديية فى طريقة استجابتها للعلاج عند نقص عنصر معين فى الغذاء ، وما عرفَ الآن يشيرُ إلى أن سوءَ التغذية بالنسبة للخلايا هو السببُ المهم فى عقم الإنسان ، ولكن لم يثبتْ ذلك بدليل قاطع حاسم ، بالنسبة للجنس البشرىّ ، وعلى هذا يمكنُ القولُ بأنّ نقصَ أى عنصر من : فيتامين ا ، المنجنيز ، فيتامين هـ ، الأحماض الدهنية غير المشبعة ، الأحماض الأمينية الضرورية — هو أكثرُ أهمية ، وأقوى فاعلية من ناحية سبب العقم ، ومن المحتمل أنه فى حالات العقم المتعددة يكون السببُ فيها نقص أكثر من عنصر فى التغذية .

٢ — التشوهات الخلقية

والتشوهات الخلقية فى المولود لدى الجنس البشرىّ قد يكون مرجعها

لى سوء التغذية ، وقد ثبت هذا عندما وُجدَ أن هذه التشوهات تكثُرُ
نسبة كبيرة بين الحيوانات عندما تكونُ مصابةً بسوء التغذية فى أثناء
حملها ، فنجدُ مثلاً أنه إذا كانَ هناكَ نقصٌ فى فيتامين ا ، ونقص
ى الريبوفلافين ، ونقص فى حامض الفوليك ، ونقص فى فيتامين ب ١٢ ،
نقص فى حامض البانتوثنيك ، ونقص فى فيتامين ه ، فإن هذا النقص
ؤدى إلى تشوهات خلقية جسيمة ، وقد شوهد أن من بين هذه التشوهات
ما يلى :

١ ـ صغر العينين .
٢ ـ نقص فى تكوين العينين .
٣ ـ تشوه فى العين .
٤ ـ تشوهات فى تكوين المخ .
٥ ـ « « « القلب .
٦ ـ رجرجة القلب واختلاف فى وضعه الطبيعى .
٧ ـ تشوهات فى تكوين الشرايين الكبيرة .
٨ ـ تشوهات خلقية فى تكوين الكلية .
٩ ـ تشوهات فى تكوين الجهاز التناسلى .
١٠ ـ قصر أو اختفاء القدم أو عظام الساق أو عظام الفك .
١١ ـ تشوهات خلقية فى تكوين سقف الحلق وانشقاق الشفة أو سقف الحلق .
١٢ ـ نقص فى عدد أصابع القدم أو زيادة فى عددها .
١٣ ـ عدم تكوين جدار للبطن .

١٤ — انسداد فى البلعوم .
١٥ — فتق فى الحجاب الحاجز .

ومن الطريف أنه فى كثير من الأحيان ، عندما يوجدُ النقصُ فى المواد الغذائية فى وقت معين من أوقات الحمل فإن هذا النقصَ يسبب هذه التشوهات الخلقية السابقة ، ولكن إذا ما مرّ هذا الوقتُ دون نقص فى الموادّ الغذائية فأىّ نقصٍ بعدَه فى الموادّ الغذائية لا يؤدّى إلى هذه التشوهات ، وهذا مما يؤكدُ أهمية تناول الغذاء الكامل فى أولى مراحل تكوين الجنين .

وكثيرٌ من العلل والأمراض التى تصيبُ الحاملَ مثل فقر الدّم ، وتقلص فى عضلات الساق ، والورم ، كل هذه الأمراض تزولُ عند تحسين الغذاء وكذلك الحالُ وقتَ الرضاعة ، فإن اللبنَ يكثُرُ ويجودُ وتحسن حالته عندَ تناول الغذاء الكامل .

٣ — الأمراض المعدية

وهناكَ مشاهدةٌ فريدة عن مدىَ تأثير الغذاء على الأمراض المعدية ، فقد وُجد أن الحيوانات التى تتناولُ غذاءً ينقصُه فيتامين ا تكونُ عرضةً للإصابة بالتهابات العين والجهاز التنفسى ، ولهذا السبب أطلقَ بعضُ الناس على فيتامين ا أنه فيتامين ضد الالتهابات ، ولكن عندما تعلم أن فيتامين ث له قدرةٌ على تكوين أجسام مضادة للالتهابات وأنه يزيد مناعة الجسم قوة عند حدوث الالتهابات يمكنك أيضاً أن تعتبره فيتامين ضد الالتهابات ، ولهذا إذا تحدّثنا عن الفيتامينات التى تكونُ

الالتهابات فإن الحديث لا يقتصرُ على فيتامين ا على أنه الفيتامين
ئيدُ ضدّ الالتهابات إذْ أن هناك عواملَ أخرى لحماية الإنسان
ضد الالتهابات ، ولزيادة المناعة بالجسم ، والحقيقة أن الأحماض الأمينية
والمعادن والفيتامينات التى تمنحنا الحياة والحيوية هى أصْلاً عوامل ضد
الالتهابات إذ أن المناعة ضد الأمراض هى عمليةٌ مستمرةٌ لا تتوقف ،
وبقاؤها مقرونٌ بالمحافظة على التغذية الكاملة الصحيحة .

وقد أثبتت الدراسات المتعددة أن التغذية الكاملة تساعدُ على الوقاية
من الدرن ، ولهذا السبب فإن المستشفيات الصدرية تراعى هذا ، وتولى
عنايةً خاصةً إزاءَ تغذية النزلاء بغذاء صدرىّ يراعى فيه احتواؤه على
كافة المواد الغذائية الكاملة .

ـ أمراض الجهاز الهضمى

وأمراضُ الجهاز الهضمىّ قد يرجع سببها فى بعض الأحيان إلى سوء
التغذية ، فقد أثبتت التجاربُ على الحيوانات أنّ نقصاً فى حامض
البنتوثنك يؤدّى إلى حدوث تقرحات فى الجهاز الهضمى ، فإذا أصيبَ
الإنسانُ بقرحة فى الاثنى عشر معَ أنه لايتناولُ طعاماً أو مواد كيمياوية
نتيجة فهذا يؤدى إلى الاعتقاد بأن القرحة ناشئةٌ عن سبب داخلىّ « أى
فى أنسجة الاثنى عشر نفسها » وهذا يدل على أن سبب هذه القروح
فى الأمعاء منشؤها سوءُ التغذية . ومما يدل على أن سوءَ التغذية يؤدّى
إلى حدوث تقرحات ما ثبت فى التجارب أن هذه الجروح تشفى فى مدة
أقل وأسرعَ من غيرها عندما تضافُ مادة الجلوتامين (إحدى الأحماض

المائية) إلى المواد الغذائية .

وهناك مرضان مختلفان يحدثان فى الجهاز الهضمى وهما الإمساك والإسهال ، فغالباً ما ينشآن نتيجة لسوء التغذية ، فإذا ما حصلت الخلايا العصبية والخلايا العضلية الموجودة فى جدار الأمعاء على غذائها كاملاً وبقيت فى حالة صحية جيدة فإن حركة الأمعاء ستبقى على خير ما يرام ويترتب على ذلك أن محتويات الأمعاء سوف لا تتراكم وتؤدى إلى الإمساك ، أو تتحرك بسرعة وتؤدى إلى الإسهال وضعف فى امتصاص المواد الغذائية ، وفيتامين باتنوثنك من بين المواد الغذائية التى تلزم لهذه العملية ، وهذا مما يلاحظ بعد إجراء عمليات البطن ، فإن المريض يصاب بآلام شديدة فى البطن ، لأن العضلات فى جدار الأمعاء تكون فى الحقيقة فى شلل ، وهذا يؤدى إلى وقوف فى حركة الأمعاء ، فتتكون الغازات فى الأمعاء ، ويدعو هذا إلى حدوث المغص والآلام بالأمعاء وقد وجد أنه عند إعطاء فيتامين البنتوثنك فى هذه الحالات بكميات مناسبة فإن حركة الأمعاء سوف تبدأ وتطرد الغازات وتعود الأمعاء إلى القيام بوظائفها .

ولما كان فيتامين البنتوثنك هذا عبارة عن مادة غير ضارة ورقيقة وليست مهيجة فقد سأل الناس : ما هو عمل هذا الفيتامين وهذا شأنه

والإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تتبين فيما يلى :

هذا الفيتامين يقوم بهذا العمل عن طريق التغذية ، فهو يعيد الحيوية والصحة إلى الخلايا والأنسجة المعوية المجهدة ، لأنه يدخل فى تركيب عملية الأنزيمات بهذه الخلية فيساعدها على القيام بواجبها خير قيام .

ومن المحتمل أنه إذا بقيت خلايا الأمعاء وأنسجتها فى أعلى درجة ممكنةمن الناحية الغذائية فستختفى معظم العلل والأمراض المعوية ، وعلى النقيض من ذلك نجدُ أنمعظمَ الأمراض يمكنُ أن تنشأ نتيجة لسوء التغذية .

وقد يلاحظ فى كثير من الأحيان أن بعض الأشخاص يشكونَ من نقص فى عنصر معين فى التغذية مع أن هذا العنصرَ قد يكونُ فى الغذاء بكمية وفيرة ، وقد يظهرُ فى هذه الحالة أن عملية الامتصاص قد تكون هى السبب المباشر لهذا النقص فى العنصر الغذائى ، فقد ثبت حديثاً على سبيل المثال أن فيتامين ا الموجود فى الغذاء قد لا يمتص بالدرجة الكافية ، ولكنْ عندما يضافُ فيتامين ه إلى الغذاء نجدُ أن فيتامين ا يمتص بكمية أكبر وبأسرع من الحالة الأولى .

٥ ـ أمراض الجهاز الدورى

قد يكون سوءُ التغذية أساساً لأمراض الجهاز الدّورى ، ومن أهم هذه الأمراض مرضُ فقر الدم أو الأنيميا فالدمُ يصنعُ عدداً كبيراً من الكرات الدّموية الحمراءالتى تحتوى على حامل الأكسيجين وهو الهيموجلوبين أو البروتين ذى اللون الأحمر ، وتختلف الخلايا الحمراء عن بقية الخلايا فى جسم الإنسان فى أنها عندما يكتملُ نموها فإنها تفقدُ النواة وتفقدُ قدرتها على الانقسام ،وهى تعيشُ فى الجسم لمدة أسابيع قليلة ، وبعدها تتكسر ويحل محلها خلايا جديدة ، وعملية إنتاج خلايا جديدة تحتاجُ

إلى كميات كبيرة من البروتين .

والأنيميا تتضمن نقصاً في عدد هذه الكرات أو في كمية الهيموجلوبين بها ، وقد ثبت عملياً حدوث الأنيميا في الحيوانات نتيجة لنقص مواد كثيرة في الغذاء ، فبدون كمية كافية من الحديد يصاب الإنسان أو الحيوان بالأنيميا ، وهذا واضح لأن الحديد يدخل في تركيب الهيموجلوبين .

والنقص في أي من الأحماض الأمينية الضرورية قد يؤدى إلى حدوث الأنيميا ، إذ أن هذه الأحماض الأمينية هي التي تبني البروتين في الكرات الدموية الحمراء .

وقد تنشأ الأنيميا أيضاً نتيجة لنقص أية مادة أخرى في التغذية والتي لا تدخل في تركيب الخلية ، وإلا فلماذا يؤدى نقص النحاس أو فيتامين ب ١٢ الذي يحتوى على الكوبالت أو حامض الفوليك أو البناسين أو البريدوكسين أو فيتامين ث إلى حدوث الأنيميا . مع العلم بأن أي عنصر منها لا يدخل في تركيب الهيموجلوبين ؟

والإجابة عن هذا هي أن الخلايا الحية التي تخلق الكرات الدموية الحمراء تحتاج إلى هذه المواد والعناصر السابقة حتى تستطيع أن تنتج الهيموجلوبين والكرات الدموية الحمراء ، وكل شيء من شأنه أن يضعف هذه الخلايا فهو قادر على أن يؤدى إلى حدوث الأنيميا ، وبهذا يمكن القول بأن أي نقص في عدد كبير من المواد الغذائية سوف يؤدى إلى حدوث هذا المرض .

وحالة أخرى تصيب الجهاز الدورى ، وهي وجود الأوديما أو الورم ، وهذه الحالة قد تنشأ نتيجة لسوء التغذية ، وفي هذه الحالة يوجد اختلال في عملية التنظيم التي تتحكم في ميزان السوائل بالجسم وحفظه ، ونتيجة

لهذا الاختلال فإن الأنسجة تتورمُ وتتشبع بالماء، فمثلاً في حالات مرض البرى برى تنشأ الأوديما نتيجة لنقص فى فيتامين ب ١ وكذلك شوهدت هذه الأوديما فى حالات نقص الأحماض الأمينية ونقص مجموعة فيتامين ب ونقص فى الأحماض الدهنية غير المشبعة ، وفى حالات المجاعة العامة .

والتحكمُ فى ميزان الماء يتضمنُ حيوية الخلايا المختصة، وأى اختلال فى عمل هذه الخلايا سيؤدى إلى اختلال فى هذا الميزان وحدوث الأوديما.

ويؤدى نقصُ عنصر خاص فى الغذاء مثل فيتامين ك إلى هبوط درجة التجلط فى الدم ، وهذه القدرة على التجلط ذات أهمية كبرى فى حماية الإنسان من النزيف حتى الوفاة عند حدوث جرح فى جسمه .

وعملية تجلط الدم من العمليات المعقدة ، وفيتامين ك عبارة عن عامل واحد فى هذه العملية المعقدة ، وهنا تجبُ الإشارةُ إلى أن عملية التجلط الطبيعية يمكنُ أن تنتهى وتتلاشى إذا كانَ هناك سوءٌ فى التغذية .

وارتفاعُ ضغط الدم ، أو عدمُ القدرة على حفظ الدم فى حدوده الطبيعية ، قد ينشأ نتيجة لسوء التغذية ، وقد ثبت هذا بإجراء تجارب على الحيوانات ، فقد أطعمتْ بعضُ الحيوانات أطعمة ينقصها الكولين ، فأصيبتْ بالتهابات فى الكلى وارتفاع فى ضغط الدم وتضخم فى القلب ، وهذا لا يدعونا إلى التعجل والحكم بأن نقص مادة الكولين فى الغذاء تؤدى إلى ارتفاع فى ضغط الدم وضعف فى القلب والتهاب فى الكلى ، فقد ثبت هذا لدى حيوانات التجارب ، وقد تختلفُ الحيواناتُ عن الإنسان فى احتياجها إلى المواد الغذائية .

وثانياً يجب ألا نحكم بأنَّ كل حالات ضغط الدم وتضخم القلب

والتهابات الكلى سببها سوءُ التغذية ونقصٌ فى مادة الكولين ، ولكن هذه الحقيقة — وهى أن حيوانات التجارب تصابُ بحالات ضغط الدم وتضخم القلب والتهابات الكلى نتيجة لنقص مادة الكولين — تجعلنا نضعُ فى الاعتبار أنه قد يكون سوءُ التغذية لدى الإنسان عاملا أساسياً لحدوث حالات ضغط الدم وتضخم القلب والتهابات الكلى .

وقد ثبتَ أن حدوث الحصى بالكلى فى حيوانات التجارب له علاقةٌ وثيقة بنقص كمية المجنيزيوم والبريدكسين ، وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بأنه من المحتمل أن يحدُث الحصى بالكلى لدى الإنسان نتيجة لنقص هاتين المادتين فى الغذاء .

وكثرة الملح فى الطعام قد يساعدُ على ارتفاع فى ضغط الدم ، ويوصفُ فى حالات ارتفاع ضغط الدم تناولُ غذاء به نسبة طفيفةٌ من الملح ، وأحياناً يطلقُ على هذا الغذاء « غذاءٌ خال من الملح » وذلكَ تعبير خاطئٌ إذ أنّ الغذاءَ بوجه عام يحتوى على الملح حتى ولو لم يضفْ إليه ، والملحُ بوجه عام من الأشياء الضرورية التى بدونها لا يستطيعُ أن يعيش الإنسانُ .

وقد ثبتَ فى حيوانات التجارب أن الكلاب تموتُ موتاً مفاجئاً عندما تتناولُ غذاءً ينقصُه حامض البنتوثنك .

وعللُ القلب المختلفةُ فى الإنسان على اتصال وثيق بسوء التغذية ؛ ففى حالات البرى برى الذى يتضمن نقصاً فى فيتامين ب ١ تنشأ إصاباتٌ قلبية بعدَ فترات تبعدُ أو تقرب ، وقد تحدث الوفاة نتيجة لهبوط فى القلب . وهنا يجبُ ألا نصلُ إلى الحكم بأن جميعَ حالات هبوط القلب سببها سوءُ التغذية ، لأن بعضَ هذه الحالات ينشأ نتيجة لسوء التغذية ، وإنما يجبُ أن نعلمَ أن القلبَ مثلُ أى عضو آخر فى

الجسم ، قد ينشأ الهبوطُ فيه نتيجةً لسوء التغذية ، ومن الخطورة بمكان ألا نضعَ هذا فى الاعتبار .

وهنا تجبُ الإشارةُ إلى حالات الذبحة الصّدرية التى ابتدأت تنتشرُ فى الجمهورية العربية المتحدة ، فإن هذا المرض له اتصالٌ بالتغذية من طريق غير مباشر ، فالأساسُ أو الأصلُ فى حالات الأزمة القلبية الحادة أنّ هبوط القلب ينشأ نتيجة لعدم مقدرة عضلة القلب على الحصول على كمية من الأكسيجين اللازم لها ، والذى يصلُ إليها عنْ طريق الشريان التاجى الذى يغذى القلب ، فانسدادُ الشريان التاجى هو العامل الأساسى لحدوث الأزمة القلبية ، وهذه تحدث عندما يكونُ الجدارُ الداخلى للشريان فى حالة مرضية ، وينشأ عن ذلك تراكمُ الكلسترول والجلطة الدموية التى تتكونُ نتيجة للجدار غير الأملس ، والحالة المرضية لجدار الشريان التاجى وتراكم الكسترول وسرعة تكون الجلطة كلها قد تتأثر بالتغذية . وعلاقة التغذية بأمراض شريان القلب التاجى ليست واضحة كل الوضوح ، فأملاح الكلسترول موجودة فى الغذاء مندمجة مع المواد الدهنية ، وبعضُ هذه المواد الدهنية يحتوى على كميات كبيرة من الكلسترول ، والبعض الآخر يحتوى على كميات قليلة ، والكلسترول يتكون فى الجسم عندما تنقطع وسائل إمداد الجسم به من الخارج ، وتنقص كميته فى الغذاء الذى يتناوله الإنسان .

وهناك أسباب أخرى تشتركُ إلى حد ما فى حدوث الذبحة الصدرية ، فمثلاً كثرة تدخين السجاير قد يؤثر على كمية الدم المندفع إلى القلب عن طريق الشريان التاجى ويؤدى هذا إلى حدوث الذبحة الصدرية .

وداء السكتة أو النقطة التى تحدث لبعض الناس تنشأ نتيجة لإخفاق

الخلايا العصبية فى حصولها على الغذاء الكافى ، فإن انفجار شريان المخ أو انسداده بجلطة يؤدى إلى منع الغذاء عن خلايا المخ . والتغذية السليمة تساعد على حفظ الأوعية الدموية سليمة وصحيحة ، وبالتالى لا تكون عرضة للانفجار أو الانسداد .

٦ ــ أمراض التمثيل الغذائى

هناك أمراضٌ ناشئة عن اختلال عملية التمثيل الغذائى بالجسم، مثل التهاب المفاصل ، ومرض السكر ، والسمنة . وتتدخل التغذية فى هذه الأمراض إلى أكبر حد ممكن ، ولكن توجدُ أيضاً عواملُ مساعدة ، من شأنها أن تجعل الإنسانَ عرضةً لهذه الأمراض أكثر من غيره ، فالإنسان الذى لديه استعدادٌ للإصابة بمرض التهاب المفاصل توجد فى دمه عادة نسبةٌ عالية من حامض اليوريك، وهذا الحامض يكون أساسه فى الطعام أو أن الجسمَ يخلق هذا الحامض بنسبة أعلى من أى جسم آخر ، وفى مثل هذا الإنسان نجدُ أن قدرة الكلى على طرد هذا الحامض خارج الجسم أقل من الأشخاص الآخرين .

ومن هذا يتضح أن عامل التغذية مهم جداً فى التهاب المفاصل ، لا لأن الغذاء يحتوى على نسبة عالية من حامض اليوريك فحسب ولكن لأن التغذية السليمة لجميع الخلايا والأنسجة (ويدخل فيها خلايا الكلى) يمكن أن تقاوم تأثير حامض اليوريك ، وتساعد صحة هذه الخلايا على طرد هذا الحامض خارج الجسم عن طريق سلامة الكلية وصحة خلاياها

ومرضُ السكر مرضٌ معقد، وهو يتضمن عدم التوازن بين الأنسولين

الذى يفرزه البنكرياس ووظيفة خلايا الكبد والغدة فوق الكلى والغدة النخامية . وتناولُ كمية كبيرة من المواد النشوية يتعارضُ مع طبيعة مرض السكر ، والمريضُ بالسكر من ناحية أخرى يحتاج إلى غذاء متكامل حتى تستطيع جميع أعضاء جسمه والأجهزة المختلفة فيه أن تقوم بعملها خير قيام وعلى أتم وجه ، وهذه الأجهزة تشمل غدة البنكرياس والغدة فوق الكلى والغدة النخامية والكبد .

ويمكن القول بأن الغذاء السليم يمكنه أن يمنع حدوث مرض السكر الذى قد يكونُ نتيجة لاختلال الخلايا والأنسجة التى تفرز الأنسولين وتتحكم فى التمثيل الغذائى للمواد النشوية وذلك لمن يتناول هذا الغذاء الصحيح قبل حدوث هذا المرض .

والسمنة لها علاقة كبيرة بالغذاء إذ أن السمنة لا يمكن أن تنشأ إلا إذا تراكمت المواد الغذائية بالجسم ، وهذه السمنة متنوعة وذات درجات مختلفة .

ومن الواضح أنه فى بعض الحالات تتراكمُ المواد الدهنية نتيجة لاختلال فى التمثيل الغذائى الذى ينتج عن شراهة الخلية للمواد الدهنية ، هذا يؤدى إلى تراكم المواد الدهنية فى هذه الخلايا على حساب الخلايا الأخرى إلى حد أن الإنسان قد يصاب بسوء التغذية فى نواح متعددة ، بينما تتراكمُ المواد الدهنية فى الخلايا الدهنية نتيجة لهذا الخلل أو الخطأ فى التمثيل الغذائى للخلية ، وفى هذه الحالات قد يتناولَ الإنسانُ مواد غذائية أقل من الطبيعى فتجوع خلايا الجسم الأخرى بينما لا تتأثر الخلايا الدهنية ، واختلال التوازن بين اشتهاء الأكل واحتياج الجسم من أهم العوامل التى تؤدى إلى السمنة ، وعندما يختل هذا التوازنُ يتناولُ الإنسانُ

كميات غذائية زائدة عن احتياجات الجسم وحينئذ تظهر السمنة .

وهذا الاختلال قد يكون صغيراً ، فالإنسان العادى يحتاج إلى حوالى ٨ ثمانية أطنان من المواد الغذائية فى عشر سنوات ، فإذا تناول الإنسان هذا المقدار واستخدم الجسم ٩٩,٥٪ فى المائة من هذه الكمية (بدلاً من ١٠٠ فى المائة) فى عملية التمثيل الغذائى واحترقت هذه الكمية التى استخدمها وجدنا أن النصف فى المائة الباقى سوف يتراكم فى الجسم ويؤدى إلى زيادة الوزن فى حدود ٨٠ رطلاً .

وهذا الاختلال فى التوازن الغذائى قد يكون ناشئاً عن عامل نفسى أو عاطفى وهو يؤثر تأثيراً كبيراً على العمليات الكيمياوية فى أجسامنا ، وبالتالى يؤثر على العمليات الهرمونية .

وعملية التوازن هذه تقع تحت تأثير الخلايا العصبية ، فإذا اختلت هذه الخلايا لأى سبب من الأسباب — وقد يكون من بين هذه الأسباب عدم إمداد هذه الخلايا بالمواد الغذائية الكافية — فسيقع عدم التوازن الذى يؤدى إلى السمنة .

ومن هذا يمكن القول بأن السمنة قد تنشأ نتيجة لسوء التغذية ، فى أثناء حياة الجنين أو الطفل أو الفرد .

ومعروف أيضاً أن صحة الإنسان تضعف بتقدم السن ، ويقابل الكبار كثيراً من المشاكل من أهمها تصلب المفاصل ، فإذا لم تتصلب المفاصل فى سن مبكرة فإنها فى كبار السن تخضع لحكم الواقع وتعيش بقية حياتهم بهذا التصلب ، وما ينطبق على المفاصل ينطبق على بقية أجهزة الجسم الأخرى ، ولكن يجب أن نعلم أن هناك بعض أجزاء فى الجسم وأجهزة تكبر وتضعف بحكم السن قبل غيرها من الأجهزة الأخرى ، وتسمى هذه

« الشيخوخة المبكرة » بالنسبة لهذه الأجهزة، ولهذا يمكن القول بأنه عندما تظهر أعراضُ الشيخوخة فى أجهزة الجسم المختلفة يجب على الإنسان أن يتناولَ الأطعمة المتكاملة بصفة عامة، ويكثر من تناول العناصر اللازمة لأى جهاز ظهرت فيه أعراضُ الشيخوخة بصفة خاصة . فأمراضُ المفاصل ، وأمراض الكلى، وأمراض الجهاز الهضمى ، التى تنشأ بسبب ضعف هذه الأعضاء بحكم السن يمكن علاجها بإمداد الجسم بالغذاء الكامل ، و بالعناصر المهمة اللازمة لهذه الأعضاء المريضة .

ويمكن مستقبلاً أن يتوقع الأطباءُ حدوث الشيخوخة المبكرَة فى أى جهاز من الأجهزة، وتعالج بالأغذية اللازمة لها و بالكمية المحتاجة إليها منها .

وهناك أمراض عضوية كثيرة ، تصيب العين والأذن واللسان والجلد ، كلها لها أصل غذائى .

فتأثير فيتامين ا على العين قد ثبت من التجارب التى أجريت فى الحيوان حينما نقص فيتامين ا من غذائها فتأثرت العين بسبب هذا النقص، ظهرت أعراض هذا التأثر كالالتهاب وضعف الإبصار وغيرهما .

و بجانب تأثير فيتامين ا على العين فإن الخلايا المخاطية تصابُ بأمراض مختلفة حين تفقد قدرتها على إفراز المخاط وحماية نفسها من الالتهابات الخارجية، وهذا يمكن حدوثه حول العين ، كما يحدث أيضاً فى الجهاز التنفسى ، وفى أجزاء أخرى من الجسم ، ومما تقدم نجد أن فيتامين ا مهم جداً لحماية العين فى الإنسان والحيوان ، وأن نقص هذا الفيتامين يؤدى إلى حدوث درجات مختلفة من العمى الليلى ، وقد عولج بعض المصابين بعمى الألوان بإعطائهم كميات كبيرة من فيتامين ا فتحسنت حالتهم ،

وعندما نقص هذا الفيتامين عادت إليهم أعراض عمى الألوان .

ونقص الريبوفلافين «فيتامين ب ٢» يؤدى إلى تكوين عتامة فى عدسة العين (المياه البيضاء) ، وضعف فى قوة الإبصار ، وظهر هذا فى عدد كبير من حيوانات التجارب ، وإذا لم تطل مدة نقص الفيتامين فى الغذاء ، وأعطيت الحيوانات هذا الفيتامين (فيتامين ب ٢) فى غذائها فإن عتامة العين سرعان ما تختفى .

وقد تبين أيضاً أن عتامة عدسة العين فى الإنسان فى بعض الحالات الخاصة تقل عندما يعطى الإنسان كميات كبيرة من هذا الفيتامين .

ويجب ألا نسرع فى الاستنتاج ونجزم بأن عتامة عدسة العين تنشأ نتيجة لنقص الريبوفلافين فى الغذاء فحسب ، ففى الحقيقة ظهرت العتامة فى عدسة العين فى حيوانات التجارب عندما نقص من الغذاء بعض الأحماض الأمينية الهامة ، وفيتامين ث .

ومن المعقول أن نفرض أن نقص أية مادة من مواد الغذاء المختلفة قد يكون له أساس فى تكوين عتامة فى عدسة العين ، وهذا لا ينفى بطبيعة الحال الأسباب الأخرى التى قد تسبب ظهور عتامة فى عدسة العين .

وتأثير التغذية على قوة السمع قد ظهر فى بعض الحالات التى تؤدى إلى نقص تدريجى فى السمع ، ودوخان ، وسماع فرقعة فى الأذن ، فكل هذه الأعراض قد تنشأ من سوء التغذية ، وقد ظهر أن نسبة عالية من المصابين بهذه الأعراض تتحسن حالتهم نسبياً عند إعطائهم كميات كبيرة من الريبوفلافين ، والنياسينامين ، والثيامين ، وفى حالات أخرى يكون التقدم ملحوظاً .

وكذلك تأثير سوء التغذية يظهر على الأسنان واللثة ، فنقص فى

الريبوفلافين ، والنياسين ، والبريدكسين ، وحامض الفوليك ، والبانتوثنيك ، والكوبالامين ، أو المواد الغذائية الأخرى يظهر تأثيرهُ على الأسنان واللثة .

ويؤثر سوء التغذية على الجلد ، ومن النادر أن تجدَ نقصاً فى أى عنصر من عناصر الغذاء دون أن يظهر تأثيرُ هذا النقص على الجلد ، وبعضُ الأعراض المرضية .

وهناك حالات مرضية فى الجلد تتحسنُ إلى حدٍّ كبير عندما يعطى الإنسانُ بعضُ العناصر الغذائية .

وهناكَ براهين على أن حالات الأكزيما ، وحب الشباب ، والالتّهابات الجلدية والصدفية ، قد تنشأ فى حالات خاصة بسبب سوء التغذية .

والجلدُ السليمُ الذى يحصل على تغذية سليمة كاملة يستطيعُ أن يقاومَ الالتّهابات والإكزيما .

والإكزيما والطفح الجلدى لهما أسبابٌ كثيرة متعدّدة ، ولكن غالباً ما يزُولان عندما يتحسنُ الغذاء .

ومن بين العناصر التى تدخلُ فى علاج الحالات المرضية بالجلد هى :

فيتامين ا ، فيتامين د ، فيتامين هـ ، فيتامين ث ، الثيامين ، الريبوفلافين ، البانتوثنك ، البوتين ، فيتامين ب٦ ، الأحماضُ الدهنية غير المشبعة ، الإنوستيول ، حامض البارا أمينونبزيك ، الأحماضُ الأمينية الهامة ، وغيرها من المواد الأخرى ذات الأهمية ، ومضاعفاتُ مرض الحساسية قد يظهر تأثيرها على الجلد .

وعندما يصابُ أى شخص بمرض الحساسية يكون جسمه فى حالة

مرضية ، ويحاولُ الجسمُ جاهداً أن يقاومَ هذا الداء ، وتساعدُ التغذية السليمة على أن ينهضَ الجسم بهذا الإجهاد الواقع عليه نتيجة هذه التفاعلات الناشئة عن مرض الحساسية ، كما أنه يستطيعُ أن يبنيَ خطاً للدفاع فى هذه الحالة لمنع وقوع المرض ،وكذلك الإجهاد العاطفى والشدة التى تحدث نتيجة للتعرض للإشعاع ، يتحسنُ كل منهما عندما يتناول الإنسانُ الأغذية الصحيحة المتكاملة .

وهناك ثلاثُ حالات أخرى تظهرُ على الجلد والأنسجة المشابهة ، ومن المحتمل أن تتأثر بالتغذية ، وهى :

١ ـ قرصة البرد .

٢ ـ آلام القدمين .

٣ ـ التئام الجروح .

فقد شوهد أن احتمال حدوث فرصة البرد عندَ الأطفال تقل عندما تتحسن صحة الطفل بتحسين المواد الغذائية التى يتناولها ، كزيادة كمية اللبن التى يتعاطاها الطفل .

وكذلك آلامُ القدمين وُجدَ أنها تقل بتعاطى البانتوثنات .

وتلتئمُ الجروح بُسرعة عندما يعطىَ الجريح كمية كبيرة من فيتامين ث .

وتحسين التغذية بوجه عام يشمل كثيراً من البروتينات المهمة .

وقد يقترحُ بعضُ العلماء أنه لشفاء القرحات التى تحدث للمريض بسبب رُقاده فى الفراش مدة طويلة أن تزاد كمية البروتين التى يتعاطاها المريض ، وذلك بزيادة عدد مرات تعاطى الكمية التى يتناولها الإنسان الطبيعى من ٢ إلى ٧ .

٧ ــ أمراض الجهاز العصبي

هناك مجموعة كبيرة من الأمراض العصبية والعقلية تصيب مجموعة من الناس بسبب سوء التغذية ، وهذه المجموعة المرضية تتراوح بين صنفين :

صنف أمراضه تنشأ من إصابة فى الجهاز العصبى .

وصنف أمراضه يكون الجهاز العصبي فيها متأثراً فقط بسبب سوء التغذية دون أن يكون هناك إصابات واضحة فى العصب .

وهذا التأثر بالمواد الغذائية يختلف قوة وضعفاً ؛ فهو من مجرد تأثر عصبى لا يمكن اعتباره مرضاً ، إلى أن بعض هذه المؤثرات الغذائية قد تؤدى إلى أمراض عقلية كبيرة .

ومن التجارب التى أجريت على الحيوانات تبين ما يلى :

إذا نقص الغذاء عنصراً هو فيتامين ب أصيبت الحيوانات بعد فترة من الزمن بالتهاب فى الأعصاب ، وعدم القدرة على المشى الطبيعى ، وفقد بعضها القدرة على استعمال الساقين .

إذا نقص الغذاء عنصراً هو فيتامين ب١ (أو الأنيورين) أصيبت أعضاء اليدين بتآكل والتهاب .

إذا نقص الغذاء عنصراً هو فيتامين ب١ فقدت الشهوة إلى الأكل .

وقد يكون مرجع الإصابة بفقد الشهوة إلى الأكل — إلى سوء تغذية الخلايا العصبية التى تؤثر تأثيراً كبيراً على الرغبة فى تناول الطعام ، وبالتالى زيادة الشهوة للأكل أو ضعفها .

وثبت أنه إذا فقدَ هذا الفيتامين (فيتامين ب١) من غذاء الإنسان فقدَ الإنسانُ الشهوةَ إلى الأكل .

وأن الذين يتناولون طعاماً غير متكامل يصابون بضعف القدرة الذهنية وضعف القدرة على التركيز .

وقد لوحظ أن إعطاءَ كميات كبيرة من اللبن مع تحسين الغذاء لمجموعة من تلاميذ المدارس يؤدى إلى زيادة الحيوية الجسمية والعقلية فى هؤلاء التلاميذ أكثر من مجموعة أخرى يتناولون طعاماً غير متكافئ ، فإن المجموعة الثانية تكون حيويتهم ونشاطهم أقل بكثير من المجموعة الأولى .

ولوحظ أن الغذاء الحسن للطلاب يساعدهم على استيعاب دروسهم ، ويسهل لهم القدرة على التركيز وعدم الخوف من الامتحان .

ولوحظ أن نقص الأحماض الأمينية الهامة فى الغذاء يجعل الإنسان أكثر عصبية من غيره ، ويميل دائماً إلى الشر والنكد ، ولا يمكن التحدث معه ومناقشته .

وأن هذه الأعراض سرعان ما تتلاشى عند زيادة كمية هذه الأحماض الأمينية فى الغذاء .

ولوحظ فى أثناء الحرب العالمية الثانية أنه عندما نقصَ من الغذاء بعضُ الأحماض الأمينية ، وبعض الفيتامينات مثل فيتامين ب١ أدى هذا إلى الأرق والقلق وسرعة الغضب وسرعة تأثر الأذن من الصوت ، وظهور بعض الأعراض والأمراض العصبية الأخرى . وبعد هذا هل نكون على حق عندما نقول :

إن كل شخص سريع الغضب ، يميل إلى الشر وتصعب معاملته — هل هذا الشخص مصاب بنقص معين فى أحد العناصر الغذائية ؟

ثل الأحماض الأمينية، أو الثيامين ، أو النياسين ، أو غيرها ؟

الإجابة عن هذا بالنفي ، فلا يمكن التأكد من أن نقص أحد هذه مناصر هو سبب هذه الأعراض ، فقد شوهد أن بعض الناس تتحسن بالتهم ، والبعض الآخر لا تتحسن حالته عندما تزداد نسبة العناصر لأساسية فى الغذاء .

وهذه المشاهدة تختلف فى الأطفال عنها فى الكبار ، فإذا لوحظ أن طفل سريع الغضب ، شرير ، ميال لإحداث النكد ، ففى هذه الحالة ب أن يبحث عن احتمال وجود نقص فى بعض العناصر الغذائية ، فى لذاء هذا الطفل .

أما الكبار فإنه يجب أن نضع فى الاعتبار قدرة الإنسان على التحكم ، أعصابه ، وقدرته على أنه يتناول طعامه بحكمة وروية ، ما استطاع ن ذلك سبيلا .

والأمراض والعلل التى تصيب الجهاز العصبى ، مثل فقد الذاكرة ، . ثبت أن لها اتصالا وثيقاً بالتغذية ، فسوء التغذية قد يؤدى إلى ضعف ـاكرة ، وسرعة النسيان ، والتخيلات المختلفة ، وبعض هذه الحالات ول عند تناول غذاء متكامل .

وكذلك ضعف الذاكرة أو فقدانها ، أو الحالات العصبية ، وحالات لجنون ، التى تظهر أحياناً بين الكبار ومتقدمى السن تنشأ عادة من نقص كمية الغذاء للخلايا العصبية ، نتيجة لانسداد شريان فى المخ ، وعدم برته على حمل المواد الغذائية إلى هذه الخلايا المخية .

وهناك مسألة أخرى، قد يكون لها أساس غذائى ، ألا وهى الأرق ، لدم القدرة على النوم الطبيعى . فنقص الأملاح ؛ مثل الكلسيوم ،

والبوتاسيوم ، وغيرها ، يؤدى عادة إلى حدوث الأرق ، وكذلك النقص فى فيتامين ب١ ، وفيتامين ب٦ ، والنياسين ، وغيرها .

والنوم ما هو إلا عملية طبيعية يقوم بها الجسم ، وبما أنها تتأثر بسوء التغذية فمن الممكن أن نستنتج من ذلك أنها تنشأ بسبب سوء تغذية فى الخلايا العصبية المنظمة لعملية النوم .

والنوم وظيفة طبيعية لها أساس عضوى طبيعي يشمل الخلايا العصبية والأنسجة ، ويظهر هذا جلياً عند استعمال الأقراص المنومة ، فعملية النوم الناشئة عن استعمال الأقراص المنومة ، تختلف بعض الشيء عن عملية النوم الناشئة عن تغذية الخلايا العصبية بكل ما تحتاج إليه من مواد غذائية .

وهناك علة عصبية أخرى تنشأ فى الجهاز العصبي ولها علاقة وثيقة بالتغذية . ألا وهى الصداع، وطبيعى أن هناك أنواعاً متعددة من الصداع وأسباباً أكثر تعدداً ، ولكن بعضها قد ينشأ نتيجة لسوء فى التغذية ، وهناك بعض حالات يختفى فيها الصداع كلية عندما يتناول الشخص بعض الأطعمة . وقد تنشأ حالات ضعف القوى العقلية أو الجنون نتيجة لنقص فى بعض المواد الغذائية ، وأكبر دليل على ذلك المرض المعروف باسم البلاجرا ، الذى يصيب كثيراً من الفلاحين فى الجمهورية العربية المتحدة ، فنجد أن نقص النياسيد (مجموعة فيتامين ب المركب) يؤدى إلى حدوث جنون وإسهال والتهاب فى الجلد ، والحالة العصبية التى تلازم هذا المرض تتكون من تخيلات أو اضطهاد ، أو تعذيب فى النفس ، وأخيراً انعزال عن المجتمع .

وتتحسن هذه الحالات بسرعة مذهلة (فى حوالى ٢٤ ساعة) عندما

يتعاطى المريض الغذاء الناقص ، ألا وهو النياسيد . وسرعان ما تجد حالة هذا المريض تتغير من شخص معذب ثائر إلى شخص هادى رزين عاقل .

وقد ثبت أن النياسيد من الفيتامينات الهامة لعملية التمثيل الغذائى للخلايا العصبية المخية ، وهذا لا يجعلنا نستنتج أو نحكم بأن كل حالات الجنون مرجعها إلى نقص فى التغذية ، إذ أن هناك بعض حالات للجنون تنشأ نتيجة لأمراض عقلية مختلفة ، وهذه تعالج بالأدوية اللازمة لها ، ولكن الحالات التى تنشأ نتيجة لسوء التغذية فإنها تعالج بإمداد الجسم بهذا النقص فى الغذاء .

وقد ظهر أن هناك احتمال حدوث بعض الأمراض العصبية ، مثل الصرع ، وأمراض العضلات وضعفها نتيجة لسوء التغذية فعندما تحسنت تغذية المصابين بهذه الأمراض تحسنت حالتهم نسبياً .

٨ ــ الأورام السرطانية

هل الورم السرطانى له اتصال بالتغذية ؟

تتكون الأورام السرطانية من أنسجة وخلايا ، وهذه الأنسجة والخلايا تحتاج إلى غذاء ، لكى تنمو وتتكاثر ، وعلى هذا الأساس ، هل يمكن وقف الورم السرطانى ؟

يمكن ذلك إذا منعنا الغذاء عن هذا الورم ، وإذا علمنا أن خلايا الورم السرطانى تحتاج إلى نفس الغذاء الذى تحتاج إليه خلايا الجسم الأخرى على اختلاف أنواعها ، فإذا أردنا وقف هذا المرض فسيكون على

حساب تغذية الخلايا الأخرى فى الجسم، والنجاح فى وقف انتشار هذا الورم هو :

أولاً : معرفة طبيعة التمثيل الغذائى للخلية السرطانية، والعنصر الغذائى الذى يعتمد عليه هذا الورم إلى أكبر حد ممكن ،حتى يتيسر منعه من الغذاء ، وبذلك تضمر الخلية السرطانية .

ثانياً : البحث عن نوع من السموم، أو العقاقير التى تؤثر على الخلية السرطانية ، ولا تؤثر على بقية خلايا الجسم .

وقد اكتشف حديثاً أن للأورام السرطانية علاقة بالفيروس، إذ تبين أن هذا الميكروب عندما يصل إلى الخلايا الطبيعية ، فسرعان ما تصاب تلك الخلية التى وصل إليها بالورم السرطانى وهنا تظهر أهمية التغذية والوقاية من الأورام السرطانية، ولهذا يمكن حماية الجنس البشرى من هذه الأورام السرطانية عن طريق تناول الغذاء الكامل ، إذ أن الخلية في الأنسجة البشرية يمكنها أن تقاوم الميكروبات ، ومن بينها الفيروسات التى قد تسبب السرطانات أكثر من غيرها من الخلايا التى لا تحصل على غذاء كامل ، وهذا الاحتمال يمكن قبوله من الناحية النظرية ، ويحتاج إلى كثير من البحث والتنقيب .

الباب السادس

سوء التغذية ومدى انتشاره

لقد ظهرت مجاعات فى قديم الزمان ، لأن المحصول الزراعى إذْ ذاك لم يكن كافياً حاجة السكان ، فإذا زاد عدد السكان وكان المحصول الزراعى واقفاً جامداً لم يواجهْ بزيادته تلك الكثرة الجديدة فى السكان — إذا حدث هذا ارتفعت أسعار الأطعمة ارتفاعاً تخطى قدرة الفرد على شراء طعامه الكافى ، وهذا بمرور الوقت يؤدى إلى الهزال وضعف الصحة ، نتيجة سوء التغذية .

ويظهر سوء التغذية فى حالات أخرى لا تكون كمية الغذاء فيها ناقصة ، ويرجع سوء التغذية فى تلك الحالات إلى نوع الطعام نفسه لا إلى نقص فى كميته .

وأكبر مثل على هذا النوع من سوء التغذية ما ينتج عن الإسراف فى أكل الأرز ، فإنه يؤدى إلى مرض البرى برى .

وملايين من الناس قد لقوا حتفهم من هذا المرض الذى يحاول العالم حالياً أن يتخلص منه ، وطبيعى أن الفقر وعدم القدرة على شراء جميع عناصر الغذاء من العوامل المساعدة والتى تؤدى إلى وجود هذا المرض .

والنقص الأساسى ليس فى الكمية الحرارية التى تخرج من الطعام ، لكن فى أن الجسم لا يستطيع أن يحصل على فيتامين ب١ اللازم له ، إذ أن الجسم يلقى حتفه إذا نقص فيتامين ب١ قبل أن تظهر عليه العلل والأمراض المختلفة .

ولقد عرفت بعض أمراض أخرى جاءت من سوء التغذية لأنها تنقص عنصراً خاصاً فى الغذاء، مثل البلاجرا الناشئة عن نقص فى النياسيناميد، والأسقربوط الناشىء عن نقص فى فيتامين ث ومرض الكساح ولين العظام الناشئ عادة عن نقص فى فيتامين د، والمرض المعروف باسم كواشواركور الناتج عن نقص فى البروتينات، وغير ذلك من الأمراض المختلفة.

وفى الحقيقة يؤدى سوء التغذية إلى أمراض أكثر تعقيداً، إذ أن سوء التغذية كثيراً ما يتناول النقص فيه أكثر من عنصر واحد، ولهذا يؤدى إلى ظهور أعراض مختلفة لهذه الأمراض، علاوة على المضاعفات والأمراض الأخرى الناشئة نتيجة لنقص فى المواد الغذائية الأساسية.

ويمكن تشبيه ما يحدث للإنسان بما ثبت بالتجارب على الحيوان فإذا كان طعام الفراريج (الكتاكيت) طعاماً كاملاً وافياً نمت بسرعة وتضاعف وزنها فى أقصر وقت ممكن وكذلك قدرة الحيوانات على الإنتاج والتناسل فإنها تتناسب تناسباً طردياً مع التغذية السليمة الكاملة، فقد أضيفت بعض المواد البروتينية والأملاح إلى غذاء بعض الحيوانات فلوحظ أنها تتناسل بسرعة أكثر من غيرها من الحيوانات التى لم يضف إلى طعامها أى شىء.

وهناك أيضاً مقياس آخر يشير أو يستدل به على حسن التغذية وهو طول حياة الحيوان، فعندما أعطيت الحيوانات طعاماً سدسه لبن وخمسة أسداسه بقول عاشت ٥٨٧ يوماً، وعندما أعطيت طعاماً ربعه لبن وثلاثة أرباعه بقول عاشت ٦٥٢ يوماً، وهذه النسبة تعادل ١١ فى المائة زيادة فى طول حياة الحيوان.

وإذا طبقت هذه النسبة على الإنسان كان معنى ذلك زيادة فى عمر

الإنسان حوالى ٧ إلى ٨ سنين ، وقد أجريت تجربة أخرى على الحيوانات فوجد أنه عند إضافة البانتوثنات إلى طعامها زاد عمر تلك الحيوانات بنسبة ١٨٪ وإذا طبقت هذه على الإنسان وجدنا أن عمره سيطول حوالى ١٣ سنة ، وهذا لا يدفعنا بطبيعة الحال إلى الشراهة فى تناول الطعام، فقد ثبت أن الشراهة، تشكل خطراً على حياة البشر أكثر من المجاعة حتى إن بعض الأطباء قالوا عن الشراهة فى الأكل :

« إن هؤلاء الناس يحفرون قبورهم بأسنانهم » .

وإذا عرفنا أن التغذية تؤثر على :

١ ــ نمو الحيوانات الصغيرة .
٢ ــ القدرة على التناسل فى الحيوانات .
٣ ــ طول العمر فى الحيوانات .

فإنه يتضح من ذلك أن الحيوانات تصاب أيضاً بسوء التغذية ونقصها مثل الإنسان ما دام هذا النقص له أثره فى نمو الحيوانات ، وقدرتها على التناسل ، وطول عمرها .

وهناك أدلة أخرى على حسن التغذية وتكامل الغذاء بجانب هذه الأدلة السابقة .

ومن هذه الأدلة : الحيوية والحماس فى العمل، فعندما ينقص عنصر البانتوثنات من غذاء الحيوانات تفقد قدرتها على الحيوية والحماس ، وتصاب بنوع من الركود وعدم الاكتراث ، وذلك ما ينطبق أيضاً على الإنسان .

وهذا دليل آخر على حسن التغذية ، وهو القوام ، أو القوة الكامنة

فى الجسم ، ويمكن قياس ذلك بأن يترك الكائن فى حمام سباحة يسبح فيه حتى تنهك قواه ، فمقدار المدة التى يقضيها فى السباحة يدل على مقدار القوة الكامنة فى جسمه .

وقد تبين أن الأحماض الأمينية من أهم العناصر الغذائية التى تزيد من مقدرة الإنسان على القيام بمثل هذه المجهودات ، وقد لوحظ هذا بين الرياضيين ، ومن يقوم بمجهود عضلى عنيف ، فتبين أنه فى حاجة إلى الزيادة من هذه العناصر حتى يؤدى عمله كاملاً وعلى خير وجه .

وضعف التفكير ، وعدم القدرة على التركيز قد يصاحب كلا منهما سوء التغذية ، ويستعمل هذا فى قياس درجة سوء التغذية .

كما أن ضعف قوة الإبصار قد ينشأ من سوء التغذية وتستعمل درجة الضعف هذا فى قياس مقدار ذلك النقص فى التغذية .

والأطفال الذين يحصلون على غذاء كامل من أمهاتهم يكونون على مستوى عال من التغذية ، وليس معنى ذلك ألا نعطيهم أية إضافات عند الوقت المناسب ، مثل إعطائهم الفاكهة والخضر واللحوم فى أولى مراحل نموهم ، فقد ثبت من الإحصائيات فى مختلف بلاد العالم أن نسبة الوفيات والأمراض بين الأطفال الذين يعيشون على لبن أمهاتهم أقل بكثير من هؤلاء الذين يعيشون على غذاء خارجى خلاف لبن الأم مثل لبن البقر ، إذ أنه من المعقول أن يتوقع الشخص أن الأملاح والفيتامينات والأحماض الأمينية التى تناسب الحيوان الصغير قد لا تناسب الطفل الرضيع .

وقد ثبت أخيراً أن لبن الأم يحتوى على عنصر خاص من العناصر الغذائية يشبه الفيتامينات إلى حد كبير ، وهذا العنصر غير موجود فى لبن

الحيوانات مثل البقر ، وطبيعة هذا العنصر لم تكتشف بعد ، وقد يكون عمله أن يؤثر على البكتريا الموجودة فى أمعاء الطفل ، وبعض هذه البكتريا غير ضار بحياة الطفل ، بل قد تساعد على نمو الطفل عن طريق التأثير على هذه البكتريا غير الضارة ، ومن المحتمل أن يستعمل هذا العنصر مباشرة بوساطة أنسجة الطفل الرضيع ليساعد على نموه .

وسوءُ التغذية الذى لا تبدو بسببه أمراضٌ ظاهرة ، نجده كثير الانتشار بينَ الأطفال ، ويظهرُ لك هذا جلياً حينَ تضيفُ اللبنَ إلى الغذاء فى المدارس ، فإنه سرعان ما تجدُ هؤلاء الأطفال ، الذين أضيفَ اللبنُ إلى غذائهم قد تقدمتْ صحتهم ، ونشطوا فى أداء واجباتهم ، وارتفعتْ روحهم المعنوية فى جميع نواحى الحياة المختلفة .

ولقد عرفت الدولُ المتقدمة ذلك ، وأدركتْ أهميته فى شئون الحياة للأطفال وغيرهم ، فعنيت بالتغذية فى المدارس وللأطفال عناية عظيمة ، وأعطتها من الاهتمام ما تستحقه .

وقد حاول البعض إضافة فيتامينات وعناصرَ أخرى إلى الغذاء ، حتى يحصلوا على أكبر فائدة ممكنة ، وحتى يحافظوا على صحة النشء ، وتربيتهم تربيةً سليمة ، وتغذيتهم بالغذاء الصحى السليم .

ومما يدلّ على أن سوء التغذية منتشرٌ إلى حد كبير بين الأطفال ما ظهرَ من أنّ نصفَ الأطفال الذين لا تظهرُ عليهم أعراضٌ مرضية مصابون بلين فى العظام .

وأما بالنسبة للكبار فنقصُ المواد الغذائية التى يتناولونها أو سوءُ التغذية منتشرٌ بينهم إلى حد كبير ، حتى بين الكبار الذين يظهرون بأنهم فى تمام الصحة والعافية ، وفى حالة صحية جيدة ، لأنهم لا يتناولون الغذاء كاملاً .

وقد دلت الإحصائياتُ فى جميع أنحاء العالم على أن نسبة انتشار سوء التغذية مرتفعةٌ إلى حدّ كبير ، حتى ولو لم يظهرْ على الإنسان أى عرض من الأعراض المرضية ، وذلك راجعٌ إلى نقص فى المواد الغذائية .

ويؤيدُ ذلك ما دلت عليه التجاربُ والأبحاث التى قام بها الباحثون فى المرضى بالدرن الرئوى ، فقد دلت هذه التجارب والأبحاثُ على أن المرضى بالدرن الرئوى الذين يضافُ إلى غذائهم كمياتٌ من العناصر الغذائية المختلفة ، التى لم تكن فى غذائهم من قبلُ — قد تحسنت حالتهم عند تناولهم الأدوية أكثر من هؤلاء الذين يتناولونَ الأدوية فحسب ، أى دون أن يضافَ إلى غذائهم شىء من العناصر الغذائية المختلفة . وعلى هذا يمكن أن يستنبطَ ويُقال :

إن المرضى بالدّرن الرئوى الذين لا تتحسن صحتهم إذا تناولوا الأدوية والعقاقير مصابون بسوء التغذية .

وأكثر الناس عرضة للإصابة بأمراض سوء التغذية هم كبارُ السن ويرجعُ السببُ فى ذلكَ إلى أنهم حينَ يتقدمون فى السن تكون الخلايا والأنسجة والأعضاءَ المختلفة فى الجسم عرضةً لعمليات البناء والهدم التى لا يمكنُ أن تستمرّ سليمةً مطردة نافعةً لهم إلا إذا أعطيت الخلايا كمياتٍ كافيةً من الفيتامينات والموادّ الغذائية اللازمة لها ، ولهذا يقررُ بعضُ العلماء أن كبار السن على العموم يصابون عادةً بسوء التغذية وعلى هذا فهمْ محتاجون إلى نسبة أعلى من غيرهم فى المواد الغذائية والعناصر الهامة لبناء الجسم ، وتعويض ما فقد منه بالهرم .

وتشيرُ معظمُ الأبحاث والتجارب التى قام بها الباحثون إلى أن سوءَ التغذية منتشرٌ بين السكان ، أو على الأقل يساهمُ إلى حدّ كبير فى انتشار الأمراض بينهم ، فأىّ قطاع من السكان ، وأية طبقة من الناس يمكنهم

أن يلاحظوا مقدار سوء التغذية المتفشى بينهم إذا جعلنا مقياس هذا المقدار كثرةَ الإنتاج ، والسعادة والهناءة ، والحركة والنشاط ، والقدرة على الإخصاب ، وطولَ العمر ، ودرجة النمو لدَى الأطفال ، فإذا ما لحظنا هبوطَ درجة النمو مثلاً أمكننا أنْ نقول : إن نقص التغذية منتشرٌ فيهم .

وهذا الذى تحدثنا عنه فى سوء التغذية ، وفى جميع الحالات صغيرها وكبيرها منصب فى الأصل على تغذية الخلية ، فإن الخلية تحصلُ على غذائها بدرجات متفاوتة ، فجميعُ الحيوانات يمكنُ أن تحصلَ على غذائها من طعام مختلف أنواعه ، ولكنّ سوءَ التغذية قد يؤثرُ على الوظائف الحيوية التى يقومُ بها الجسمُ إحداها أو جميعها .

وهناك عاملٌ مهم يدخلُ فى التغذية ، وله أثر فيها ، كما أثبته الكشفُ الحديث ، ذلك العاملُ هو استعمالُ المواد المبيدة للحشرات ، فإن استعمالَ هذا المبيد منتشرٌ ما دامت الحربُ قائمة بين الإنسان والحشرات ، وهذا المبيدُ مميتٌ للحشرات ، وقد يؤثر على الإنسان ، إذْ أن المبيدات بوجه عام تؤثرُ على الأنزيمات فى جسم الحشرة تأثيراً ساماً ، وفى الوقت نفسه تؤثر على الأنزيمات فى جسم الإنسان إلى حد ما حين تصلُ هذه المبيداتُ إلى جسم الإنسان عنْ طريق الاستنشاق أو اختلاطها بطعامه ، أو ملامستها لجلده .

والمبيدُ المثالى هو الذى يؤثرُ فى الحشرة تأثيراً ساماً ، ولا يؤثرُ أبداً فى أنزيمات جسم الإنسان ، ولكن الحصول على هذا المبيد المثالى يكادُ يكونُ فى حكم المستحيل . فكل المبيدات الحشرية تؤثر فى الإنسان إلى حد ما ، فإذا استعملَ مبيدٌ حشرى يحتوى على مادة الزرنيخ لمقاومة الآفات الحشرية التى فى أشجار الفاكهة وتناولَ الإنسانُ تلك الفاكهة

الملوثة بالزرنيخ فقد تؤدى بحياته ، أو تصيبه بالتسمم .

وتختلف المبيدات الحشرية فى تأثيرها من واحدة إلى أخرى ، ولكنها جميعها تؤثر فى الأنزيمات التى هى بداخل الجسم ، ولهذا يجب أن يكون استعمال هذه المبيدات الحشرية بدقة ورعاية كاملتين ، إذ أنها تؤثر فى عمل الأنزيمات داخل الجسم ، وتغير طبيعة عمله ، وبالتالى تؤثر فى حاجة الجسم من المواد الغذائية ، فقد تجعل الغذاء المتكامل الصحى ناقصاً غير متكامل لا يفى بحاجات الجسم .

الباب السابع

التثقيف الغذائى

تدعو الحاجةُ الملحةُ من ناحية الصحة العامة والصحة الشخصية إلى أن يعلمَ الناسُ كثيراً عن التغذية والمواد الغذائية اللازمة للجسم ، وحينئذ فلا بدّ لهم من البحث والتنقيب حتى يصلوا إلى درجة يطمأن إليها من التثقيف الغذائى .

وأهم ما يعلمه الإنسانُ ويتبينه هو تغذيةُ الخلية والمواد الغذائيةُ اللازمة لها ، حتى تنال حظها موفوراً من الغذاء ، ثم ما يتصلُ بتلكَ التغذية من عواملَ وملابسات ، ثم علاقة الوراثة بالتغذية ، ثم حاجةُ الفرد من تلك المواد الغذائية .

وقد ذكرنا فيما سبق أن التغذية ليستْ كوحدة مستقلة منفصلة عن غيرها ، ولكنها لجميع أجزاء الجسم الصغيرة المتعددة ، وأعنى بهذا الخلايا والأنسجة التى يتكون الجسمُ منها .

وغذاءُ الخلية لا يتوقفُ على المواد الكيمياوية الموجودة فى الغذاء فحسب ، بلْ يتوقفُ أيضاً على الموادّ الكيمياوية التى تخرجها الخلايا الأخرى الموجودة فى الجسم ، والتى تصلُ إلى الخلية التى هىَ فى حاجة إليها عن طريق الدورة الدموية .

ولهذا يمكنُ القول بأنّ بعضَ خلايا الجسم تعتمدُ فى تغذيتها على خلايا أخرى فى الجسم

أما الوراثةُ وعلاقتها بالتغذية فإنها لا تقل أهميةً عن تغذية الخلية ، فقد دلت التجربةُ والفحصُ على وجود علاقة وثيقة بين حامل الصفة

الوراثية والأنزيمات التى تؤثر تأثيراً كبيراً فى تغذية الخلايا ، والتى سبق الحديث عنها

وقد نال من العلماء من أثبت علاقة الوراثة بالأنزيمات ، وتأثير هذه العلاقة فى تغذية الخلية ، جائزة نوبل ؛ وهما العالمان بيدل وتاتم ، وبعد أن كشفت علاقة الوراثة بالأنزيمات لا يزال الغموض يحوم حولها ، ولا يزال الإبهام يجول فى تفصيلها ، فإذا كان حامل الصفة الوراثية يعتبر أساس الأنزيم وأصلاً له ، وإذا كان كل إنسان يحمل صفات وراثية مختلفة ، وإذا كان كل إنسان يختلف عن غيره فى تلك الصفات ، فبناء على ذلك يمكن القول بأن طبيعة الأنزيمات يختلف بعضها عن بعض من شخص إلى آخر ، وينبنى على هذا أن لكل شخص نظاماً خاصاً يختلف عن غيره فى تغذيته وحاجته إلى المواد الغذائية اللازمة له

وقد أجريت تجارب كثيرة عرف منها أن بعض الأشخاص يحتاجون من الأحماض الأمينية إلى ضعف ما يحتاج إليه الآخرون منها ، أو ثلاثة أضعاف ، أو أكثر من ذلك ، حتى يستوفوا غذاءهم ، ويحافظوا على صحتهم وهذا يدل على العلاقة بين الأنزيمات المختلفة التى فى أجسامهم ، ثم على العلاقة بين هذه الأنزيمات جميعها والصفة الوراثية التى تختلف من شخص إلى آخر.

وهناك أمثلة كثيرة للمواد الغذائية وتأثيرها وعلاقتها بالوراثة ، وأن ذلك كله فى شخص غيره فى شخص آخر.

والتثقيف الغذائى مهم لكل فرد من أفراد المجتمع . فالأولاد من بنين وبنات ، والكبار من رجال ونساء ، هؤلاء جميعهم يحتاجون إلى تثقيف صحى غذائى ، يتبينون منه مدى تأثير الغذاء على صحتهم ووقايتهم من الأمراض المختلفة .

وكثير من أفراد المجتمع قد أفادوا فائدة كبيرة من هذا التثقيف ،

فعملوا جاهدين على أن يحافظوا على كيانهم وقوتهم عن طريق الغذاء السليم الكامل .

وليستطيعَ الفردُ أن يستوعبَ الحقائق العلمية السليمة عن التغذية يجبُ أن يكون ملماً بعض الشيء بالكيمياء والكيمياء الحيوية ، ويعرف شيئاً لا يستهانُ به عنهما ، حتى يستطيعَ أن يصرّف نفسه ويستفيدَ من المواد الكيمياوية فى غذائه ، مثل الأملاح ، والأحماض الأمينية ، والفيتامينات ، والمعادن ، والهرمونات ، والأنزيمات ، والمواد النشوية والدهنية وغيرها من العناصر الأخرى .

وهذا مما دعانى إلى كتابة هذا الكتيب ونشره ، فإنى أعتقدُ أن التثقيفَ الذى يحققُ المستوى المنشودَ فى جميع الأفراد مهم جداً ، وهو حق لكل فرد .

وقد يحتاجُ الفردُ بعدَ قراءة هذا الكتيب إلى الاستفسار من إخصائى التغذية عن العناصر الغذائية الخاصة بالتغذية ، والسبيل القويم إلى الصحة والسعادة عن طريق غذائه .

ونتيجة لتقدم العلم فى الكيمياء والكيمياء الحيوية يمكن التعريف بنوعين من المواد الكيمياوية :

أولاً : النوعُ الأول مواد كيمياوية غريبة عن أجسامنا وعن غذائنا ، وتشمل البنسلين ، والأسبرين ، وغيرهما من المواد الكيمياوية ، التى تعتبر من مضادات الحيوية ، وقد وُجدت عن طريق التجربة والخطأ والاختبارات الكثيرة أنها مفيدة فى علاج كثير من الأمراض ، ولكن يجبُ ألا تستعمل إلا بعد استشارة الطبيب ، ومثلها الهرمونات التى لا توجد عادة فى غذائنا (وهى من النوع التالى) فلا يستعملها الإنسانُ إلا عند اللزوم ، وبعدَ استشارة الطبيب .

ثانياً : النوع الثانى موادٌ أخرى على العكس من النوع الأول ، مثل

لهرمونات ، والفيتامينات ، والأملاح ، والمواد الدهنية والنشوية وغيرها ،
وهذه المواد توجد فى أجسامنا وفى غذائنا وهى مفيدة لحياتنا ،
إذ تدخل فى تركيب أجسامنا ، وفى عملية التمثيل الغذائى فى جسم
الإنسان . وهذا النوع لا يستدعى استعماله استشارة الطبيب .

وعلى هذا الأساس فالنوع الأول من الكيمياويات يجب أن يكون
تحت رقابة شديدة من جانب الحكومة حتى تكفل للشعب سلامته ،
أما النوع الثانى فإنه لا يحتاج إلى تلك الرقابة ، إذ أن زيادة كميته فى
الطعام لا تؤذى ولا تضر بالصحة .

الباب الثامن

نصائح غذائية

ما أكثر النصائحَ والإرشادات !! وكل فرد منا مرّ عليه وقتٌ مليء بالنصائح والإرشادات ، ولا يزالُ من حين إلى حين يلقى فى أذنه منها قليلٌ أو كثير . ولكنه قد يستجيبُ لها ، وقد لا يستجيب ، متبعاً فى ذلك رأيه وهواه .

وسأعرضُ هنا نصائحَ حكيمة فى التغذية ، وقد أقعُ فى خطأ جسيم إذا تناولت بنصائحى هذه : ما يجبُ أنْ يتناوله الفردُ من الطعام ، وما يجبُ ألا يتناوله ، ومتى يتناولُ طعامه ، ومتى لا يتناوله . فما يحتاج إليه شخصٌ من الطعام ، لا يحتاجُ إليه الشخصُ الآخر ، وكل فرد له جهازُه الهضميّ الخاص به ، وله عمليةُ التمثيل الغذائى الخاصة به ، والتى تختلف فيه عنها فى شخص آخر ، وعلى هذا فإذا قلت : لا تأكل على فترات متعددة كثيرة. تناول طعام الصباح كبيراً وكثيراً . إلى غير ذلك . فقد لا يفيدُ هذا بعضَ الناس ، وقد يضرّهم فى بعض الأحيان . فهناك من الناس من يجب أن يأكل على فترات متعددة ، ومن يجب أن يعتدلَ فى تناول طعام الصباح ، ومن كانَ عمله أو حاجة جسمه يحتاجُ إلى تناول طعام الصباح خفيفاً ، وبعدَ هذا فإن كل فرد منا يختلف عن الآخر فى التغذية وحاجة جسمه إلى المواد الغذائية ، إلا أن هناك بعضَ نصائح يستوى فيها الناس ، وتفيدهم جميعهم على اختلاف طبائعهم ، وحاجة أجسامهم إلى مواد الغذاء وعناصره ، وهى التى سأعرضها على القارئ فى هذه العجالة :

١ ـ دع القلق :

من الناس من يحمد ربه ويشكره، على ما منحه من الصحة والعافية، وعلى تناوله طعامه وغذاءه، برغبة وشهوة وهدوء بال، وهذا يمنحه الشعور بالإيمان بربه، والرضا بقدره، وإن جرت أموره على غير ما يريد، وفي هذا الشعور سعادة ما بعدها سعادة.

ومن الناس من إذا جرت أموره على غير ما فكر ودبر، قلق وضجر، وابتأس وتحير، ألا فليعلم هذا الذي حمل نفسه ما لا تطيق من القلق والضجر، أن الأمور تجرى على مشيئة القدر، وليست على ما أراد هو لنفسه وقدر، وليعلم أن هذا القلق يؤثر في صحته تأثيراً كبيراً، ويجعله عرضة للإصابة بسوء التغذية، فإن في استطاعة القلق أن يغير العمل الكيمياوي في الجسم، إلى الدرجة التي يجعل الجسم في حاجة ملحة إلى زيادة في عنصر ما عن القدر اللازم له من هذا العنصر في الأحوال الطبيعية، وقد ثبت هذا في حيوانات التجارب، فقد تبين من تلك التجارب أن الحيوانات التي تكون عرضة للقلق تحتاج إلى نسبة كبيرة من البانتوثنات، حتى تحافظ على عملية بناء الجسم كما ينبغي.

وليس هناك عملية تقوم بوظيفتها وتؤدي رسالتها في دقة وإحكام مثل عملية الغذاء، وأي اختلال في تلك العملية من جراء القلق قد يؤثر على حسن سيرها، فيختل بذلك توازنها.

ومن الناس من يعتقد أن المجتمع المثالي هو ذلك المجتمع الذي فيه

لأطباءُ والمستشفياتُ ، ودور العلاج والإسعاف على أتم استعداد وأحسنه ، يهرعُ إليها المصابُ ومن يشعرُ بأقل وجع أو ألم ، فى أية ساعة من النهار و الليل . والحقيقة أن المجتمع المثالى هو ذلك المجتمعُ الذى فيه الأطباءُ المستشفياتُ ، ودورُ العلاج والإسعاف ، ولكن قليلاً ما يحتاجُ إليها لناسُ ، لتوافر الصحة فى أبدانهم ، وإنما يحتاجُ إليها فى الحالات لمستعجلة القليلة .

١ ـ تنويع الطعام :

والمقصود بالتنويع أن يختارَ الإنسانُ طعامه بحيثُ يشمل عدداً من نواع المواد الغذائية ، وبحيث لا تكونُ الأنواعُ التى يختارها من سلالة واحدة ، فإذا جعلَ المرءُ طعامة من البقول والفول والأرز والخبز كان قد نوّعَ طعامه ولكنه تنويعٌ غير كامل ولا نقصدهُ ، لأن هذه المواد تنتمى إلى سلالة واحدة ، فهى حبوبٌ ومنتجات حبوب ، ومجال التنويع فى الطعام من سلالات مختلفة ومتعددة فسيح أمامه ، وعلى سبيل الإيضاح التقريب إلى الأفهام وتيسير التنوع الذى نعنيه نضع أمامه أنواعاً من المواد لغذائية تنتمى إلى سلالات مختلفة ومتعددة فيما يلى :

ا ـ اللبن ومنتجات الألبان .

ب ـ البقول ومنتجاتها .

حـ ـ اللحوم .

د ـ الأسماك وما شابهها من حيوانات البحار .

هـ ـ الخضر الورقية .

و ــ جذوع النبات وتشمل الجزر والبطاطس .
ز ــ الفواكه على جميع أنواعها وتشمل الطماطم .
ح ــ البيض .

وما أردنا بهذا الإيضاح أنْ نجبرَ كلَ شخص على أن يجعل طعامه تشكيلة تحتوى على هذه المواد الغذائية جميعها ، ولكننا أفسحنا المجال أمامه ليختارَ من هذه المواد الغذائية ما يشاءُ ، على ألا يكونَ اختيارُه منصباً على سلالة واحدة ، وإلا جانبَ التنويع المقصودَ وتركه .

وبعضُ الناس يلتزمونَ تشكيلةً معينةً من الموادِّ الغذائية ويفضلونها على أية تشكيلة أخرى ، وهؤلاء يجبُ أن يعلموا أن التشكيلات التى يلتزمونها ويهتمون بها محافظةً على القوام ، أو نتيجة لعمل رجيم ــ يجب أن يعلموا أنه لابد من اشتمالها على أنواع مختلفة من الموادِّ الغذائية وألا ينحازوا فيها إلى سلالة واحدة .

وأى شخص اختار طعامه مشتملاً على أنواع مختلفة من المواد الغذائية لا تنتمى إلى سلالة معينة . ثم تناوله وترك جسمه فى عملية الاحتراق الداخلية وعملية التمثيل يستخدمُ أجزاءً صغيرةً منها ، فقد أتاحَ لنفسه الفرصة للحصول على غذاء كامل .

٣ ــ التحكم أو التعقل الجسدى :

فى جسم الإنسان شهوةٌ غذائية تدفعه إلى التهام أية مادة من المواد الغذائية ، من غير حساب وفى رغبة قوية ، وفى الجسم أيضاً عمليةٌ تقوم بتنظيم هذه الشهوة الغذائية ، وتتحكم فيها ، حتى لا تخرجها عن دائرة

التعقل ، وهذه العملية تساعدُ الإنسانَ على تقرير أو تحديد كمية الطعام اللازمة له ، وكمية الماء التى يشربها ، وكمية الملح التى يستعملها ، كمية المواد السكرية والدهنية التى يلتهمها ، وكمية الكلسيوم والفوسفات الأصناف الأخرى التى تدخلُ فى طعامه ، وتسمى هذه العملية « التحكم و التعقل الجسدى » وهى غير معروفة تماماً فإذا تناول الشخص ما وضع مامه من طعام على الدوام ومن غير حساب مهما تختلف صنوفه فإن تحكم أو التعقل الجسدى مختل أو ضعيف أو مفقود .

وإذا تناول الإنسانُ طعاماً كثيراً إلى درجة أنه لا يستطيعُ النومَ هادئاً ، أثناء الليل ثم عاد وكرّر تناوله الطعام كثيراً غير عابئ بما يحدث له من تاعب ، فإن التحكم أو التعقل الجسدى فى هذا الشخص مختل أو معيف أو مفقود .

وإذا دأبَ شخص على تناول الأطعمة وشرب المياه التى تؤدّى إلى صابته بالصداع والأرق ، أو أى ألم من الآلام الأخرى ، فإن التحكم التعقل الجسدى فى هذا الشخص مختل أو ضعيف أو مفقود .

هذا التحكم أو التعقل الجسدى موجودٌ فى أجسامنا ، وهو فى غاية همية لنا ، إذْ يساعدنا على اختيار ما نحتاجُ إليه من أنواع الغذاء على ختلاف طبائعنا وحاجاتنا ، فإذا فقدناهُ فسوف تكونُ حياتنا مهدّدة رضة للخطر . والدليلُ على وجوده فى أجسامنا ، وعلى أنه يؤدّى عملية لم الشهوة إلى الطعام ما نشاهده فى الحالات التى يعيشُ فيها الأشخاص يلاً ، وإلى أرذل العمر دُونَ توعية غذائية ، أو إرشاد إلى أىّ نوع الأنواع الغذائية المهمة لهم — ما نشاهده من أنّ التحكم أو التعقل سدى يقومُ مقامَ التوعية الغذائية والإرشاد والنصح دون شعور من

هؤلاء الأشخاص .

وهذا التحكم أو التعقل الجسدى ليس موجوداً فى أجسامنا ع
مستوى واحد ، ولكنه يختلف فينا قوة وضعفاً ، إذ نشاهد أشخا
لا يستطيعون أن يقاوموا شربهم كثيراً من الماء ، فى حين نشاهد أشخا
آخرين يستطيعون أن يمتنعوا عن شربهم كثيراً من الماء فى يسر وسهولة

وهذا التعقل الغذائى فى أوجه وقوته يملكه الفرد فى أيام شبابه
إذ نلاحظ أنه كثيراً ما ينحرف لدى الكبار المسنين حينما نجدهم يتناولو
ما يشاءون من الطعام تلبية لرغبتهم وشهوتهم الغذائية التى فقدت سيط
التحكم أو التعقل الجسدى عليها .

ومن الجدير بالذكر أن نبين أن الأجسام البشرية قد تأقلمت
حد ما ، وأخذت وضعها فى المكانة الغذائية والطبيعة الغذائية ، أما مد
هذا التأقلم ومقداره فلم يعرف بعد ، وقد يختلف فى شخص عنه فى شخ
آخر ، وقد يكون من الخطورة بمكان أن نعتمد على هذا التأقلم
معيشتنا ، فقد لا يلائم بعض الأفراد ، كما قد ينحرف بهم انح
يضرهم .

وإذا تناول أشخاص طعامهم إلى الحد الذى لا يسبب لهم آ
أو متاعب ، أو إلى درجة التحكم والتعقل الجسدى — فإننا نستد
أن نقول حينئذ : إن تغذية هؤلاء الأشخاص سوف تتحسن ، و
بطبيعة الحال لا ينطبق على الأشخاص الذين فقدوا شهوتهم إلى الطعا
لأنهم مصابون بأمراض مختلفة .

ومن الجائز هنا أن يتساءل الناس :

كيف نقوى هذا التعقل الغذائى وننميه ، أو نبنيه عند من فقده

الإجابةُ عن هذا محدودةٌ ، لأنه لم يعرفْ شيءٌ كثيرٌ عن هذا التعقل
ذائى حتى الآن .

ونستطيع هنا أن نقول : لكى نزيدَ التعقل الغذائى قوةً ونموًّا ،
نبنيه عند من فقدوه ، يجب أن يكون غذاؤنا سليماً ، وأن نحرص على
ول جميع العناصر الغذائية على أعلى المستويات من حيث الكمال ،
بع الخطوط الأولية لتناول الغذاء السليم ، وأن نحرصَ أيضاً على كلِّ شيء
شأنه أن يحافظ على الصحة ، ويدفعها إلى الأمام ، مثل النوم العميق
حدود الاعتدال ، وأن تحاط الصحة العامةُ والصحة العقليةُ بسياج
ين من المحافظة والوقاية تحميهما من الضعف ، وتجنبهما الأمراض والعلل ،
ل أولئك يحافظ على التعقل الغذائى ويقويه ويبنيه ، ويدفعنا إلى العمل
زيمة قوية ، ويفتح أمامنا أبواباً من الفرص ، لنحصل على جميع المواد
ذائية اللازمة لبناء الجسم وسلامته .

وهناك دلائلُ كثيرةٌ تكبرُ وتقوى بالأدلة على مر السنين ، ومنها
ياضةُ البدنيةُ وعلاقتها بالتغذية والتعقل الغذائى ، فقد ثبتَ أن الرياضة
دنية ، ولا سيما الرياضة الخفيفة التى تؤدى بعد مجهود ذهنى كبير —
اعدُ على هذا التعقل الغذائى ، وتدفعُ الإنسان إلى تناول الأغذية
غبة وشهوة ، وتساعدُ التمثيل الغذائى بالجسم .

ذلك لأن الرياضة البدنية تنشط الدورة الدموية ، وتدفعُ الدمَ إلى
تضار أكبر كمية من المواد الغذائية والأكسجين إلى جميع الأنسجة ،
ن بينها ذلك الجهاز الذى ينظمُ الشهوة إلى الطعام ويتحكم فيها .
والانشراحُ العقلى يؤثر فى أجسامنا من الناحية الكيمياوية ، ويعملُ
لى تحسين الوظائف العضوية بالجسم .

تلك حقيقة معروفة ، فجميع الأشخاص الذين يواظبون على القيام بالتمرينات الرياضية ، ويثابرون على الرياضة البدنية ، ويقومون بأدائها وهم فرحون مستبشرون ، يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وجيلاً بعد جيل — جميع هؤلاء الأشخاص لا يصابون بمرض السمنة . وسيبقى فيهم جهاز التعقل الغذائى سليماً ، لا يصيبه ضعف ولا علة ، وما دام غذاؤهم متكاملاً لا نقص فيه ، فستبقى أجسامهم سليمة من الأمراض .

وهناك أمثلة كثيرة لأشخاص عمروا طويلاً ، ولبثت صحتهم قوية ، وأجسامهم سليمة ، وكان الفضل فى ذلك راجعاً إلى مثابرتهم على القيام بهذه الرياضة الخفيفة كالمشى والتجديف ، أما تجنب القيام بهذه الرياضة الخفيفة فليس طريقاً لبناء التعقل الغذائى .

وغير خاف أن بعض العلماء فى بعض حالات مرض القلب ينصحون المرضى بالقيام بأداء بعض الرياضة ، وها هو ذا بول دادلى هوايتى أشهر الإخصائيين فى أمراض القلب من أكبر المتحمسين للقيام بأداء هذه الرياضة للمرضى بالقلب ، وها هو ذا برتراند رسل من أشهر الفلاسفة ، وعمره ٨٨ سنة ، يقول :

إن سعادتنا تتوقف على وظائف الأعضاء فى أجسامنا ، أكثر مما تتوقف على محاولتنا أن ننشد ونطلب ، وإن الشخص التعس سوف يخفف من تعاسته ، ويستفيد إذا ما واظب على السير يومياً مسافة ستة أميال أكثر من محاولته تغيير فلسفته فى الحياة .

وأكبر المعمرين توماس بار بإنجلترا ، ويعتبر أكبر معمر عرف فى تاريخ الطب ، فقد عاش حتى بلغ ١٥٢ سنة « من سنة ١٤٨٣ حتى سنة ١٦٣٥ » ، كان متعوداً أن يزرع الأرض حتى بلغ عمره ١٣٠ سنة ،

واستمر حافظاً نشاطه حتى بلغ ١٥٢ سنة ، وقد شاهد تسعة ملوك .

وإذا ما هجر الإنسانُ الرياضة وركنَ إلى الخمول والراحة فسوف يجنى على صحته ويفقد جزءاً كبيراً من التعقل الغذائى .

ولعل العامل الذى لا يشجعُ الناسَ على أداء هذه الرياضة البدنية ، ولا يجعلها حلوة فى نظرهم أنهم يكرهون أن يؤذوا أجسامهم أو يجهدوها بالقيام بهذه الرياضة البدنية ، متخذين المبدأ القائل : إنهم لا يعيشون طويلاً ، ويريدون أن يقضوا بقية حياتهم فى راحة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

وكل إنسان له حريته الشخصية الخاصة ، ولكن مع هذا أستطيع أن أقول : إن الشخص الذى يحبّ الحركة والنشاط ويدأب عليهما أكثر حظاً من السعادة ، من هؤلاء الذين يخلدون إلى الراحة والخمول.
وقد يكون من أسباب طول العمر فى النساء دون الرجال أنهن يؤدين فى أعمالهن ما يشبه التمرينات الرياضية ، وبصفة مستمرة دائمة ، فالمرأة لا تفرغ من عملها ، وهى تفضل أن تلبثَ واقفة على قدميها أكثر من الرجل .

٤ ـ تجنب تناول الأطعمة المكررة (المسبكة) بكثرة :

يقصدُ بكلمة « المكررة » هنا السكريات ، والخمور ، والأرز لطحون ، وإلى حدّ ما منتجات الدقيق الأبيض ، ولو أن الدقيقَ لأبيضَ الآن يضاف إليه عناصرُ غذائية خاصة ، حرصاً على تحسين وادّ الغذائية ، وهذه العناصرُ التى تضافُ إليه هى الفيتامينات وبعض لأملاح التى تفقدُها الغلالُ عند طحنها . ولسائل أن يسأل هنا ويقول :

ما مدى تلك الكثرة ؟ وما حدودها ؟

والإجابة عن هذا السؤال تقوم على أساس من عمر الإنسان ، إذ يعتبرُ عاملاً ضرورياً عند تقدير مدى الكثرة ، وتعيين حدودها .

فالأطفالُ يجب أن يكونَ تجنبهم لتلك الأطعمة المكررة كبيراً ، وأن تحدد كمية هذه المواد الغذائية الوقودية فى أضيق حدود لها ، فالطفل أو البالغُ إذا استبدلَ بكوب من السكر كوباً من اللبن كسائل فى أثناء الغذاء ، فمما لا شك فيه أن كوبَ اللبن أفضلُ كثيراً من كوب السكر .

ويمكن بيانُ السبب الذى من أجله وصّينا بتجنب الأطعمة المكررة بقدر الإمكان إذا تصورنا أن هناك موتوراً يدور بمادة وقودية هي البنزين ، وقد صمم الموتور على أساس أن يضافَ البنزين المستعملُ وقوداً إلى الزيت الذى يستعملُ للتشحيم فحسب ، وعلى أن يوضعَ البنزينُ والزيت معاً فى خزان واحد ، فالبنزين وقودٌ يديرُ الموتورَ ويحافظ على دوام سيره ودورانه ، والزيت مادة تقوم بعملية التشحيم لا غير ، وهى ضرورية لسلامة الموتور وطول أجله .

فإذا قللنا نسبةَ الزيت المضاف إلى البنزين فى خزان الموتور ، قلت نسبة التشحيم تبعاً لذلك ، وحينئذ قد يدور الموتور إذا كان جديداً ، ولكن على حساب قوته وطبيعة صُنعه ، وما ادخرناهُ من ثمن الزيت الذى نقصناه وقللنا نسبته ، سوف نفقدُ أضعافَ هذا الثمن مئات المرات ، نتيجة للخسارة الكبيرة التى تقع من جراء إصابة الموتور بضرر يعوق حركته ، ويقفه عن العمل .

وقد ضربنا هذا المثلَ لأنه ينطبقُ على الإنسان فى تغذيته ، وليقربَ إلى الأفهام عرضَ ما نحن بصدده .

والوقود الذى نستعمله كأجناس بشرية يتكون من المواد الكربوهيدرائية
البروتينات ، والمواد الدهنية ، فى حين أن الأملاح ، والفيتامينات ،
الأحماض الأمينية الهامة ، يمكن تشبيهها بالمواد الزيتية التى تقوم فى
الآلة بعملية التشحيم ، والأنزيمات التى تدخل فى تركيبها هذه المواد هى
فى الحقيقة مواد للتشحيم ، إذ أنها تقوم بعملية تشحيم التفاعلات الكيماوية ،
تساعد فى إتمام هذه التفاعلات بسرعة وهى فى درجة حرارة عادية .

فإذا طعمنا كميات كبيرة من المواد المكررة ، وهى مواد الوقود فينا ؛
المواد السكرية ، والخمور ، والمواد الغذائية المكررة الأخرى — فقدنا
فى غذائنا المادة اللازمة لعملية التشحيم ، والعامل المساعد فى التشحيم ،
التى تشمل الأحماض الأمينية ، والفيتامينات ، والأملاح ، وأصاب
أجسامنا ما أصاب الموتور حين نقصنا الزيت وقللنا نسبته .

وإذا قمنا بأداء الأعمال الرياضية الطبيعية أو العادية اضطررنا إلى
استخدام كميات محددة من السعرات الحرارية فى اليوم أو الأسبوع ،
فإذا استخدمنا حوالى نصف هذه السعرات الحرارية اللازمة لحياتنا العادية
من أغذية مكررة خالية من العناصر التى تقوم بعملية التشحيم ، بدلاً
من أغذية بها عناصر تقوم بعملية التشحيم ، وهى الأحماض الأمينية ،
والفيتامينات ، والأملاح — نكون قد قللنا نسبة مواد التشحيم فى أجسامنا
كما قللنا نسبة الزيت فى خزان الموتور ، وتأثرت حركة وظائف الأعضاء
كما تأثر الموتور.

وإذا كانت كمية السعرات الحرارية فى الأغذية المكررة الخالية من
العناصر التى تقوم بعملية التشحيم تقدر بـ ٦٠٠ سعر حرارى يومياً ،
فمعنى ذلك أننا نقلل عناصر التشحيم إلى الربع ، حتى ولو كانت بقية

المواد الغذائية مختارةً على أعلى درجة من الدقة والإتقان . فقد قدّر الولايات المتحدة وكندا أن متوسط ما يستخدمه الإنسانُ العادى من المو السكرية يوميا حوالى رُبع رطل ، وهذا المقدارُ نفسه يقدر بحوالى ٠٠ سعر حرارى . فعلى المرء أن يلاحظ ذلك . وفيما يلى جدولٌ يبين مقدا السعرات الحرارية فى الأغذية المكررة الخالية من عناصر التشحيم ليساء المرء فى معرفته النسبَ السليمة التى هى أساسٌ لغذائه الصحى السليم :

(ا) الأغذية التى هى فى غالب الأحوال تعطى طاقة حرارية فحسـ

السكر (ملعقتا أكل)	١٠٠ سعر حرار
وهذه غالباً ما تضاف إلى الطعام كالحلوى	
شراب محلى (ملعقة أكل)	٥٠ » »
عسل (ملعقة أكل)	٨٥ » »
كأس ويسكى	١٢٠ » »
كوب بيرة	١٤٥ » »

وهذه المواد السابقة خالية من العامل المساعد الذى يقوم بعمل التشحيم .

(ب) أغذية تعطى طاقة حرارية ، وعاملاً مساعداً للتشحي « للمقارنة »

بيضة واحدة	٧٥ سعر حرار
زبدة مقدار بوصة × ½ بوصة × بوصة	٨٠ » »
¼ كيلو لبن	١٧٠ » »
¼ كيلو لبن خض	٩٠ » »
⅛ كيلو آيس كريم	١٩٠ » »

وتختلف أهمية تجنب هذه المواد الغذائية المكررة من شخص إلى آخر ، فقد يمنع الشيخ المسن من تناول هذه المواد لاحتمال حدوث أمراض الشيخوخة أو أمراض أخرى . وكذلك مدمنو الخمر المصابون بأمراض سوء التغذية يجب أن يمنعوا من تناول هذه المواد الغذائية بأية وسيلة .

والأشخاص الذين يقومون بأداء الرياضة البدنية ، وهؤلاء الذين يمتازون بالنشاط والحركة — يتحملون استخدام هذه المواد الغذائية المكررة أكثر من غيرهم من هؤلاء الذين تنقصهم صفة النشاط والحركة ؛ لأنهم بسبب نشاطهم وحركتهم يحتاجون إلى طاقة حرارية أكبر من غيرهم ، ويضطرون إلى أن يأكلوا طعاماً أكثر ، وحينئذ تكون لديهم فرصة للحصول على العامل المساعد للتشحيم من غذائهم أكثر من غيرهم ، وذلك ما نلاحظه في الريف ، فالفلاحون من السهل عليهم أن يحصلوا على تغذية صحيحة نتيجة لنشاطهم وكثرة حركاتهم .

واستعمال كميات كبيرة من الطعام المشكل ليس مستحباً ، ولا يوصى به بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين تكون تغذيتهم عرضة للتدهور إلى حد بعيد ، لأى سبب من الأسباب .

والطعام المطهى غالباً مايفقد جزءاً كبيراً من المواد الغذائية الهامة . وحفظ الطعام يفقده قدراً كبيراً من العناصر الغذائية ، فإن فيتامين ث — مثلاً — يتأثر بالحرارة والهواء .

أما إذا حفظ الطعام بالطريقة الحديثة القائمة على تفريغ الهواء فإن فيتامين ث يبقى محفوظاً ولا يتأثر بالحفظ .

وعلى هذا يمكن إرشاد الناس إلى تناول كمية من أنواع الخضر الطازجة يوميا ، إذ أن جزءاً منها قد يفقد فى عملية الطهى .

وطهى الخضر – مثلاً – فى كميات كبيرة من الماء ، ثم إلقاء الماء بعد الطهى من العادات غير السليمة ، والتى يجب التخلص منها ، حتى لا يضيع من الطعام فى الماء الملقى جزء مهم من المواد الغذائية ، قوامه الأملاح والفيتامينات ، وبذلك يفقد الطعام عنصراً أو أكثر من العناصر الهامة فى التغذية .

٥ – استعمل متممات أو ملحقات للتغذية عندما تكون هذه المتممات مفصلة :

هناك سببان لاستعمال هذه الملحقات :

١ – دفع الأخطار والأمراض المختلفة الناشئة عن سوء التغذية ، ومثلها أمراض الشيخوخة التى تصيب المرء بسبب كبر سنه ، فإن أىّ جزء من أجهزة الجسم عرضة لأن يصيبه التلف بسبب تقدم السن ، وما يتلف من هذه الأجزاء فى شخص قد لا يتلف فى غيره ، وما يكون من التلف فى بيئة قد لا يكون فى بيئة أخرى ، وذلك تبعاً لعوامل مختلفة فى الأشخاص وفى البيئات ، واستعمال هذه المتممات أو الملحقات قد يضيع أو يقلل ما عسى أن يكون من أمراض أو أضرار تنشأ من جراء هذا التلف ، وعلاج هذه الأمراض أو التلف يجب أن يكون طبقاً لإرشاد الطبيب .

٢ – التأمين ضد الأمراض الناشئة عن سوء التغذية ، فليس هناك إنسانٌ يطمئنّ على نفسه ، ويكونُ على يقين من أنه لن يصابَ بأى مرض من الأمراض الناشئة عن سوء التغذية ، فإذا استعمل الملحقات فسوف يكون فى مأمن من أن يصابَ بمرض من تلك الأمراض ، وبخاصة إذا استعمل الأغذية المكررة . ولهذا السبب نجد بعض الناس الذين يتمتعونَ بصحة جيدة يستعملون هذه الملحقات الغذائية بانتظام .

وهنا نلاحظ عاملين مهمين لهما أثرهما فى استعمال هذه الملحقات :

الأول : عامل المادة ، فليس جميع الناس سواء فى القدرة المالية ، فإذا استطاع شخص أن يحصل على تلك الملحقات باستمرار ، فقد لا يستطيع الشخص الآخر ، وإذا استطاع مرة فقد لا يستطيع مرة أخرى .

الثانى : من الناس من يستطيع ابتلاع الحبوب والأقراص وغيرها إذا كانت من تلك الملحقات ، ومنهم من لا يستطيع ذلك .

وهناك ملاحظة أخرى ، فإنا نجد بعض الناس قد انغمسوا فى ملاذهم فاضت أيديهم بالمال الكثير فى شرب الخمور وغير ذلك من أنواع المتع ، لكن أيديهم تغل إلى أعناقهم حين يطلب إليهم أن ينفقوا شيئاً من أموالهم فى الحصول على تلك الملحقات التى قد تدفع عنهم أمراضاً عديدة ، وتجعلهم يعيشون آمنين مطمئنين .

الباب التاسع

السمانة والحساسية

هناك صنفان من الناس يحتاجون إلى بعض العناية من الناحية الغذائية وإلى نصائح وإرشادات خاصة :

الصنف الأول : الأشخاص المصابون بالسمانة وزيادة الوزن .

الصنف الثانى : الأشخاص الذين يشكون على الدوام من الحساسية بالنسبة لبعض المواد الغذائية .

وزيادة الوزن مشكلة صحية تعد من المشاكل الخطيرة ، ولسوء الحظ قد لا يستطيع كثير من الناس أن يعالجها بحزم وعناية إلى أن يشفى المريض منها شفاء تاما . والنصيحة التى يمكن أن تسدى إليهم هى :

محاولة الوسائل الغذائية الممكنة التى تنقص الوزن ، وعلى المريض ألا يهمل واحدة منها ما دامت فى حدود المعقول ، فبعض هذه الوسائل قد يفيد حالته ، ويلائم زيادة الوزن الخاص به ، ويكون علاجاً له بالذات .

الابتعاد عن المواد الكيماوية الغريبة عن أجسامنا مثل البنسلين والأسبيرين ، وألا تستعمل هذه المواد إلا تحت إشراف الطبيب ، لما لهذه المواد من تأثير على الأنزيمات والتفاعلات الكيماوية بالجسم .

ومشكلة السمانة هذه تستدعى أن يستخدم المريض بها جهاز تنظيم الشهوة إلى الطعام باستمرار ، فلا يتجاوز فى تناول طعامه الدرجة التى يجب أن يقف عندها ، ويكف عن الأكل .

والرأى القائل بأن المرء يجب عليه أن يحسب عدد السعرات الحرارية

[illegible]ى يتناولها ثم يحجم عنه الطعام حينما يحصل على كفايته منها — قد يظهر [illegible]عقولاً . ولكن هذا مجرد رأى من الآراء التى ليست عملية إلا فى أضيق [illegible]لحدود ، إذ أن العادة تجرى بأن يحسب المرء عدد السعرات الحرارية [illegible]طريقة غير صحيحة . وفوق ذلك فإن المرء لا يستطيع أن يعرف متى يكف [illegible]ن تناول الطعام . والأشخاص المصابون بالسمانة وزيادة الوزن مثل غيرهم [illegible] يريدون أن يحجموا عن تناول الطعام ، ما داموا يشعرون بالجوع والرغبة [illegible] تناوله .

إن هؤلاء المصابين بالسمانة وزيادة الوزن إذا استطاعوا أن يكبحوا [illegible]ماح نفوسهم ، ويتناولوا الطعام بانتظام ، وبكمية ملائمة لهم ، وطبقاً [illegible]تتطلبه أجسامهم ؛ فإنهم سوف يتجنبون السمانة وزيادة الوزن ، ويتخلصون [illegible]هما .

وبعض هؤلاء الذين يشكون من السمانة وزيادة الوزن ، قد يتبعون [illegible]هاجاً خاصاً ، فيتناولون الكمية المحدودة من الأطعمة ، ثم يحجمون عن [illegible]ولها متى يكون الأحجام ضرورياً حسب المنهاج المتبع ، ولكنهم سرعان [illegible]يتركون هذا المنهاج ويرتدون عن اتباعه ، فتعود إليهم سمانتهم وزيادة [illegible]بهم .

وبدلاً من أن يلتزم هؤلاء المصابون بالسمانة وزيادة الوزن الطريقة [illegible]ى يحسبون فيها عدد السعرات الحرارية ، والكمية الغذائية التى يجب أن [illegible]اولوها ولا يتجاوزوا أنصح لهم إذا ما أرادوا أن ينقصوا وزنهم أن يقوموا [illegible]ستعمال الميزان ، وملاحظة وزنهم زيادة ونقصاً يوماً بعد يوم ، وهذه [illegible]ريقة كفيلة بأن تعطيهم صورة حقيقية عن طبيعة حالتهم ، ومقدار [illegible]عرات الحرارية والأغذية التى تناولوها ، فإذا لاحظوا زيادة فى وزنهم [illegible] ذلك على أنهم تناولوا كمية من المواد الغذائية أكبر مما تحتاج إليه [illegible]سامهم .

ولا نعنى بذلك أن يلبث المرء جاهلاً ، لا يعرف شيئاً عن الطاقة الحرارية الموجودة فى الأطعمة. فبعض الأطعمة مثل الخضر الطازجة مثلاً تحتوى على كميات كبيرة من الماء ، وهى تحتوى على سعرات حرارية أقل بكثير بالنسبة للوزن إذا وازنا بينها وبين الأغذية الجافة ، أو التى تكون نسبة المياه فيها أقل من هذه الخضر الطازجة .

والأطعمة الدهنية الجافة تحتوى على ضعف السعرات الحرارية بالنسبة للوزن إذا وازنا بينها وبين الأطعمة التى تتكون أساساً من البروتينات والمواد الكربوهيدراتية ، بمعنى أنه إذا أخذنا رطلاً من المواد الدهنية ووازناه برطل من المواد النشوية أو البروتينية ، وجدنا أن رطلاً من المواد الدهنية يحتوى على ضعف كمية السعرات الحرارية الموجودة فى رطل من كل من المواد النشوية والمواد البروتينية ، فإذا وضع المصاب بالسمانة وزيادة الوزن فى الاعتبار هذه القاعدة ، عرف أن الخضر الطازجة أو الفاكهة تحتوى على كمية من السعرات الحرارية أقل من المواد الجافة ، وأن المواد الدهنية تحتوى على كمية من السعرات الحرارية أكبر من المواد الكربوهيدراتية والنشوية .

وإذا لاحظ المصابُ زيادة وزنه أو نقصه باستمرار استطاع أن يكيف نفسه ويتناول من الأطعمة ما ينقص وزنه ، واستطاع هو نفسه أن يحافظ على قوامه ، وأن يتحول من حزب شجر الجميز إلى حزب غصن البان .

وطبيعى أن هناك اختلافاً بين الأشخاص بالنسبة للمواد التى يستخدمونها فى أجسامهم ، فبعض هؤلاء الأشخاص قد يصابون بالسمانة إذا ما تناولوا كمية معينة من الغذاء فى حين أن غيرهم قد يتناولون نفس هذه الكمية من الغذاء نفسه ، ولكنهم لا يتأثرون مطلقاً ، وقد يصابون بالنحافة ، وهذا يتوقف على طبيعة الأنزيمات الموجودة داخل جسم كل فرد ، والتى

تختلف فى شخص عنها فى شخص آخر .

وفى استطاعة المرء أن يحافظ على قوامه ، وذلك بملاحظة زيادة وزنه أو نقصانه مع وضع المواد الغذائية موضع الاعتبار ، فإن كان نحيفاً ونقص وزنه فما عليه إلا أن يكثر من تناول الأطعمة الجافة والمواد الدهنية ، وإن كان سميناً وزاد وزنه فما عليه إلا أن يكثر من تناول الخضر الطازجة والفاكهة .

ونعود إلى موضوع بناء التحكم أو التعقل الجسدى الغذائى وتنميته بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص المصابين بالسمانة وزيادة الوزن فنوصيهم فى ذلك باتباع كل ماهو مقترح ومعقول من النصائح التى توجه إليهم مثل :

١ — يجب اتباع النصائح والتعليمات التى من شأنها أن تؤدى إلى تحسين فى التغذية .

٢ — يجب المثابرة على القيام بالألعاب الرياضية بانتظام .

٣ — يجب الحصول على كمية كافية من المواد الغذائية ، وملاحظة الصحة العقلية السليمة .

ويدخل فى نطاق تحسين التغذية ما يلى :

التنويع فى طعام الفرد ، وتناول الأصناف المختلفة من الأطعمة التى تحتوى على جميع العناصر ، على اختلاف أنواعها وطبيعتها .

تجنب تناول الأطعمة المكررة بكثرة .

استعمال ملحقات الأغذية حينما تستدعى الحال ذلك .

ومشكلة علاج السمانة تتضمن النواحى الجسدية والبشرية إلى درجة أن أى شخص لا يستطيع أن يقرر أن اتباع مثل هذا المنهاج السابق سوف يقضى على السمانة ، ولكن هذا لا يمنع من السير على مثل هذا المنهاج بانتظام وبقوة وعزيمة صادقة .

واستعمال أقراص السكارين قد يكون مفيداً ، إذ أنه لا يمد الجسم

بالمواد السكرية العادية ، أو المواد الغذائية المكررة ، ولكنه يمد الجسم بحلاوة مصطنعة .

وهذه الأقراص تعتبر من المواد الكيماوية الغريبة عن الجسم ، وقد تؤثر فيه ، ولكن استعمالها بكمية طفيفة يجعل تأثيرها فى الجسم يكاد يكون معدوماً . وقد تفيد هذه الأقراص من يشكون من السمانة ، لأنها تساعدهم فى حصولهم على أغذية ملائمة لهم ، إذ أنها تنظم عملية الشهوة إلى الأكل ، ولكنها لا تؤثر فى الشعور بالجوع أو تعطى طاقة حرارية ، بمعنى أنها سوف تتحكم فى مبلغ احتياج الإنسان إلى الطعام ، عن طريق تقوية الشهوة إلى الأكل ، ولكن الإنسان لا يشعر بالشبع معها لصغر حجمها فى المعدة ، التى إذا كانت مملوءة بالطعام قل شعور الإنسان بالجوع ، ولهذا قد يضاف إلى الطعام بعض المواد المصنوعة من السليلولوز لأنها تشغل حيزاً كبيراً من المعدة ، وبالتالى تقلل من شعور الإنسان بالجوع ، وتستعمل هذه المواد السليلولوز فى علاج بعض حالات السمانة .

وهناك عامل مهم أيضاً بالنسبة لحزب شجرة الجميز ، وهو التدخين ، إذ المعروف أن التدخين يؤثر فى الشهوة إلى الطعام ، فبعض الناس قد يزيد وزنهم إذا كفوا عن التدخين ، فإذا عادوا إلى التدخين ثانية قل وزنهم ، وذلك لأن مادة النيكوتين تؤثر على عملية الشهوة إلى الطعام ، إذ أنها تضعفها وتقلل رغبة الإنسان فى تناول الطعام .

وهناك بعض أدوية تستعمل للتأثير على الشهوة إلى الطعام مثلما يؤثر النيكوتين الذى فى السجاير . والطريقة الصحيحة هى تنظيم وزن الجسم مع الاحتفاظ بسلامة عملية الشهوة إلى الطعام فى الجسم وبقائها فى صحة تامة ، دون التأثير فيها ، وذلك بالموازنة بين وزن الجسم والأطعمة التى يتناولها المرء .

أما المصابون بالحساسية فهناك كثير منهم يجأرون بالشكوى من

الحساسية إذا ما تناولوا بعض المواد الغذائية ، وبعض هؤلاء الأشخاص لا يهتمون ولا يعبأون بها ولا يشكون . والواقع المعروف أن بعض الأشخاص يشكون من الحساسية إذا ما تناولوا اللبن أو البيض أو بعض المواد البروتينية ، وبعض أغذية أخرى ، وقد يصابون بعلل كثيرة ، وأمراض عديدة ، ولكن هذه الأمراض والعلل تقف حين يمتنعون عن تناول تلك الأطعمة .

ويقول بعض الأطباء : إن الحساسية للأطعمة المختلفة عادية ومنتشرة انتشاراً كبيراً ، وتسبب أمراضاً عديدة ، وقد لا يظهر فى تلك الأمراض أعراض الحساسية ، وهؤلاء المصابون بأمراض الحساسية الناشئة عن تناول الأطعمة يجب عليهم أن يتبينوا بمعاونة أطبائهم ويعرفوا أى هذه الأطعمة تسبب لهم الحساسية ، وأى هذه الأطعمة يجب الإقلاع عنها وعدم تناولها ، وعليهم بعد ذلك أن يختاروا لهم طعاماً خاصاً يلزمون أنفسهم بتناوله ، ويحتوى على جميع العناصر الغذائية ، على أن يراعى فيه الاختلاف والتنقل بين العناصر الغذائية اللازمة .

وبما أن الحساسية تسبب مجهوداً ، وتفتح على الجسم أبواب الخطورة كان من المحتوم أن يحصل الجسم على جميع العناصر الأساسية فى غذائه حتى يستطيع أن يقاوم هذا المجهود ويقفل أبواب الخطورة .

وعلى هذا فجميع المصابين بالحساسية يجب عليهم أن يتناولوا كل المواد الغذائية اللازمة لهم وملحقات هذه الأغذية حتى يقاوموا هذه الأمراض وغيرها من الأمراض التى يكون سوء التغذية عاملاً أساسياً فى الإصابة بها .

الباب العاشر

الملحقات الغذائية

يرجعُ استعمالُ الملحقات الغذائية إلى أسباب ودوافع منها ما يلي :

١ – حالات العلاج من أمراض كثيرة ، يكون سوء التغذية أكبر عامل فى حدوثها والإصابة بها ، وبخاصة أمراض المعمرين والمسنين .

٢ – مقاومة أمراض سوء التغذية ، والتأمين ضدها ، منعاً لحدوثها والإصابة بها .

وعلاج الأمراض يجب أن يكون تحت إشراف طبي دقيق ، فإن الطبيب أقدرُ الأشخاص على معالجة المرضى ، لما له من صادق الخبرة ، وسعة المعرفة ، ولأنه يمشي على نور من علمه فى مقاومة الأمراض ومعالجة المصابين بها . وكل شخص يحول الكسلُ أو الإهمال أو استصغار الإصابة بينه وبين الطبيب ، ثم يقوم هو بمعالجة نفسه من مرض أصابه ، إنما هو فى الحقيقة يؤذى نفسه ، وقد تزيد حالته الصحية سوءاً على يديه ، فتحدث المضاعفات ويتطور المرض ، وحينئذ يكون علاجه من الصعوبة بمكان ، على حين كان علاجه من هذا المرض يسيراً عند بدء حدوثه .

إن مقاومة المرض ، والقضاء عليه فى مهده ، والحيلولة بينه وبين انتشاره – كل أولئك واجبٌ وطنى ، على كل مواطن أداؤه ، وأن يسعى ما وسعت طاقته إلى المحافظة على صحته ، ووقاية جسمه أن يصيبه مرض أو علة . وأن يقاوم الأمراض ويحاربها بكل وسيلة ممكنة ، حتى ينعم بالصحة والسعادة ، وإذا استطاع كل مواطن أن يجعل نفسه وأفراد أسرته فى مأمَن حصين من الأمراض المختلفة باستعماله الملحقات الغذائية سلم الشعبُ وخاضَ غمرات الحياة بقوة تفيض على الوطن ثراءً وخيراً ،

وارتفع مستوى المعيشة بين طبقاته ، فلست واجداً فيهم معوزاً ولا مقلا ، ولا ضعيفاً ولا خاملاً .

إن العناصر الغذائية الكيماوية ، التى توجدُ عادة فى المواد الغذائية المتنوعة فى متناول أفراد الشعب جميعهم ، وفى غير حاجة إلى تذكرة من طبيب يحررها . وكل فرد مستمتعٌ بحريته المطلقة ، فى الاستفادة من هذه المواد الغذائية كما يحلو له .

وهنا حقيقة ملموسة ، لا ينبغى غض النظر عنها ؛ فمن بين أفراد الشعب إمعاتٌ ، يستجيبون لكل داع ، ويصدقون كل قول ، ويخضعون لكل تأثير ، ومن بين أفراده أناسٌ فرْضيون يعيشون فى الخيال ، وأسرى للأوهام ، إذا أعطيتهم حبوباً من السكر مثلاً ، على أنها تقوى أجسامهم ، وتدفع الأمراض عن أبدانهم ، وتفعل فى صحتهم ما يفعله السحر ، اقتنعوا وأيقنوا ، وعاشوا على أنهم مستمتعون بالصحة الكاملة ، ومن بين أفراد الشعب أناسٌ عقلاء يدركونَ الأمور على حقيقتها ، يتأبوْن على كل من يرومُ التأثير فيهم ، فهؤلاء لا يقتنعونَ إلا إذا وجدوا لما يتناولونه من الأدوية أثراً حسناً ملموساً فى صحتهم .

وبما أننى لا أطرق الناحيةَ العلاجية بهذا الكتيب ، وأن العلاج السليم يجب أن يجرىَ على يد الطبيب ، فسألقى هذه العناصر الغذائية الملحقة جانباً ، وسأضعها فى يد الطبيب المعالج ، يختارُ منها ما يشاء ، حسب الحالات المرضية التى يجدها فى كل فرد .

وسأطرقُ حمايةَ الفرد ووقايته بهذه الملحقات الغذائية ، التى هى من طبيعتها أمنٌ ومثابةٌ لكل فرد يريد أن يجنب نفسه الأمراضَ المختلفة .

وإذا كانت هذه الملحقاتُ الغذائية أمناً ومثابة ، فعلى كل فرد أن يختار أجودَها ، وأكثرها وفاء بالغرض منها . فقد تنفق الأموال الطائلةُ على غذاء يكون فى النهاية فقيراً من الناحية الغذائية النافعة ، وقد يكون

الغذاءُ سليماً ، وكاملاً وافياً ، ولكن طريقة صُنعه ليست على ما يرام ، أو تكونُ سائرةً فى اتجاه خاطئ .

لهذا كان من أغراض هذا الكتيب معرفة اختيار الملحقات الغذائية ، حتى تؤدى الغرض منها .

ومن الناحية المعقولة يمكن القول بأن الملحقات الغذائية إذا أعطيت للإنسان على أساس أن تكون تأميناً غذائياً فإنه يجب أن تحتوى على كميات متوازنة من جميع المواد الغذائية الضرورية للجسم .

ولكنها من الناحية العملية لايمكن تنفيذ ذلك ، لأن المفروض أن هذه الملحقات الغذائية يتناولها الإنسان للتأمين بعد أن يتناول وجباته الغذائية المتكاملة التى لا ينقصها شىء من العناصر الغذائية اللازمة للجسم .

والكميات التى يجب أن يتناولها الإنسان فى الملحقات الغذائية من عناصر الغذاء كالأحماض الأمينية والمواد الدهنية وبعض المعادن كالكلسيوم والفوسفات مثلاً تحتاج إلى وجبات من المواد الغذائية فوق الوجبات الأساسية للتغذية ، وهذه لا طاقة للمعدة باحتمالها ، لأن المعدة لا تتسع لوجبات التغذية الأساسية المتكاملة و وجبات الملحقات الغذائية معاً .

لهذا كان من اللازم فى الملحقات الغذائية من الناحية العملية أن تكون عناصرها ذات حجوم صغيرة تطيق المعدة احتمالها وتتسع لها مع التغذية الأساسية الكاملة بأن تضاف إليها فى « كبسولات » أو أقراص يمكن أن يتناولها الإنسان ويتداولها الأشخاص فى يسر وسهولة .

ولا نريد من الملحقات الغذائية أن تحل محل الطعام المتكامل المحتوى على جميع العناصر اللازمة للجسم ، ولكننا نريدها متممةً لما عسى أن يكون ناقصاً من عناصر الغذاء اللازمة للجسم ، ويمكن أن تضاف إلى الطعام فى « كبسولات » أو أقراص ، كما يمكن أن يتداولها الأشخاص

ويتناولوها ويبلعوها فى يسر وسهولة .

وفى الأعم الأغلب تشمل هذه الملحقات الفيتامينات والمعادن .

وفيما يلى مجموعة من الملحقات الغذائية التى يمكن إعطاؤها إلى بنى الإنسان على شكل أقراص أو حبوب ، وتدخل تحت موضوع « تأمين ضد الأمراض الناشئة عن سوء التغذية » .

ويمكن تقسيم هذه الملحقات على النحو التالى :

النوع الأول — ويشمل الفيتامينات :

فيتامين ا	١٠,٠٠٠ وحدة
فيتامين د	٥٠٠ «
حامض الأسكوربيك	١٠٠ مليجرام (يساوى ١/١٠٠٠ من الجرام)
ثيامين	٢ مليجرام
ريبوفلافين	٢ «
بيريدوكسين	٣ «
نياسينامين	٢٠ «
بانثوثينات	٢٠ «
فيتامين ب ١٢	٥ مليجرام (يساوى ١/مليون من الجرام)
فيتامين ه أو (التوكوفيرول)	٥ مليجرام
أنوسيتول	١٠٠ «
كولين	١٠٠ «

النوع الثانى — ويشمل المعادن

لكلسيوم	٣٠٠ مليجرام
لفوسفات	٢٥٠ «

المجنسيوم	١٠٠	مليجرام
الكوبالت	٠,١	»
النحاس	١	»
الأيودين	٠,١	»
الحديد	١٠	»
المنجنيز	١٠	»
الموليبوديوم	٠,٢	»
الزنك	٥	»

بعض المواد الكيماوية الأخرى التى يمكن أن يطلق عليها أيضاً ملحقات غذائية على الأقل فى بعض الأحيان ، وتشمل ما يلى :

١ — حامض الفوايلك ، فى حالات فقر الدم .

٢ — الروتين ، والمواد التى تتصل به فى الطعام ، لحماية الشعيرات الدموية من الضعف ، والوقاية من النزيف .

٣ — ابجلوتامين ؛ لحماية المعدة من تكوين القرحة ، وفى حالات الإدمان على الخمور ، وحالات الصرع .

٤ — الأسبارجين ، وأملاح حامض الأسبارتيك ؛ لحفظ الحيوية ، وتنشيطها فى الإنسان .

٥ — ليسين ؛ ويمكن أن يحل محل البروتين النباتى .

٦ — حامض الليبويك ؛ أحد العناصر المكتشفة حديثاً ، ويشبه الفيتامين .

٧ — ليسثين ؛ الذى يعطى فوسفات ، وكولين .

٨ — « المعامل الداخلى » ، الذى يتحد مع فيتامين ب ١٢ ويحمى الإنسان من فقر الدم الخبيث .

وما سبق لا يشمل جميع المواد التى تدخل فى المجموعة ، فهذه الأحماض الأمينية ، وبعض المواد الأخرى ، قد تكون مفيدة فى حالات خاصة أخرى .

والغرض الذى نهدف إليه من استعمال الملحقات الغذائية « التأمين الغذائى » ليس مقصوراً على إمداد الجسم بالعناصر التى هو فى مسيس الحاجة إليها ، ولكنه يشمل العناصر التى قد يحتمل أن يكون فى حاجة إليها ، وهى فى الوقت نفسه ليست باهظة الثمن ، كما أنها غير ضارة . وقد أدرجنا المواد السابقة حتى تغطى أكبر عدد ممكن من الأشخاص .

وقد ذكرنا كمية بعض العناصر عالية فوق ما تحتاج إليه الأغلبية العظمى من الناس ، ولكن عشرة فى المائة — مثلاً — قد يحتاجون إلى هذه النسبة العالية ، وقد أردت أن أغطى أيضاً هذه النسبة القليلة .

والنظرة إلى هذه الملحقات الغذائية لا تختلف عن النظرة إلى التأمين ضد الحوادث أو الحريق ، فكما أن الإنسان الذى يؤمن على سيارته ضد الحوادث أو على مصنعه أو منزله ضد الحريق يقوم بالتأمين وأمله كبير جدا فى أن هذه الحوادث أو الحريق لا يقع منها شىء لسيارته أو مصنعه ، وإنما يقوم بالتأمين ويغرم رسومه السنوية التى قد تكون كبيرة فى بعض الأحيان لما عسى أن يقع منها ، فهو من باب الزيادة فى الاطمئنان على سيارته أو مصنعه .

وكذلك الذى يكلف نفسه نفقات الملحقات الغذائية إنما يكلف نفسه تلك النفقات وصدره مملوء بالأمل والرجاء فى ألا يصاب بأى مرض ولكنه يريد أن يقوى هذا الأمل ويزيد فى اطمئنانه على نفسه « والتأمين الغذائى » قد لا يفيد مطلقاً هؤلاء الأشخاص الذين يحرصون على تناول

طعامهم وغذائهم كاملاً ، وبحكمة وتعقل ، ويشمل غذاؤهم جميع العناصر الغذائية الهامة ، والتي تحتاج إليها أجسامهم وصحتهم ، وتلائم حياتهم ونشاطهم، ولكن في الوقت نفسه يستحسن إتاحة الفرصة لهؤلاء الأشخاص حتى يحصلوا على أعلى المستويات الغذائية ، ويكون هذا التأمين في متناول أيديهم ، فذلك لا يحدث ضرراً لهم ، ولكن قد يكون مفيداً عند اللزوم وعند الحاجة .

وأهم شيء يجب أن يوضع في الاعتبار بالنسبة لهذه الملحقات الغذائية عند تكوينها من العناصر أو المواد الغذائية اللازمة هو كمية هذه المواد أو العناصر ، فيجب أن تكون الكمية الموصوفة أو الكمية التي يحتوى عليها « البرشام » أو الأقراص تعادل الكمية التي تطابق احتياج الفرد إليها في اليوم، فإذا كانت كميات هذه العناصر المختلفة ليست موازنة أو مطابقة لما يحتاج إليه الفرد، مثل بعض المقويات التي في الأسواق على هيئة أقراص ، أو « كبسولات » فإنها لا تفيد بعض الأشخاص في حالات معينة .

وقد أجريت اختبارات كثيرة لتقدير الكمية اللازمة من هذه الملحقات الغذائية التي يجب أن تستخدم ، ففي كل عنصر — مثلاً — من هذه العناصر يتساءل الناس عن مقدار الكمية التي يمكن أن تستخدم ؟ وما مقدار الكمية الموجودة في أجسامنا ؟ وإذا زادت كمية عنصر من العناصر عن حد معين فهل تكون ضارة أولا ؟ وكيف ومتى تكون هذه الكمية الزائدة ضارة بالجسم ؟

هذه الأسئلة لسوء الحظ لم تجد إجابة عنها في الملحقات الغذائية ، وتشكيلة المقويات ، من الأقراص و « الكبسولات » الموجودة في الأسواق حالياً ، والتي يلتهم الناس منها كميات كبيرة دون استشارة أطبائهم .

فبعضُ هذه الأقراص يحتوى على مجموعة من الفيتامينات ، ولكنها فى تشكيلة غير متجانسة ، فبعضها يوجدُ بنسبة كبيرة بجانب أخرى موجودة فى نفس التشكيلة ولكن بنسبة ضئيلة لا تكفى حاجة الجسم .

وغالباً ما يوصفُ للمرضى فى دور المراهقة ، أو لبعض المرضى الآخرين مجموعةٌ من الفيتامينات ، يتناولونها يومياً ، دون الإمعان فى اختيار نوع الفيتامين المطلوب لمثل هذه الحالة التى تستدعيها حاجةُ الجسم ، ودونَ إمعان النظر فى كل حالة على حدة حسب مقتضياتها .

وإنّ وصْف مثل هذه التشكيلات المحتوية على فيتامينات سيكونُ صعباً ، ولن يوفى بالغرض المطلوب ، إذا لم توافقْ هذه التشكيلاتُ المكونةُ لتكون من الملحقات الغذائية نوعَ العلة بالدقة الكاملة ، وإذا لم تطابق الكميةُ ونوعُ الفيتامين نوعَ المرض طبقاً لأحدث المكتشفات العلمية .

فمنذ عشرين سنة أو أكثر كان من المعتقد فى ذلك الوقت أنّ سوءَ التغذية بالنسبة لنقص حامض البانتوثنك منتشرٌ جدا إلى أبعد الحدود .

ولكننا الآنَ نعتقدُ بأن سوءَ التغذية منتشرٌ بنسبة كبيرة بالنسبة لفيتامين ب ١ ، وفيتامين ب٢ ، وفيتامين ب ١٢ ، والنياسيناميد .

وسوء التغذية الناشئ من نقص هذه العناصر يعادلُ سوءَ التغذية الناشئ من نقص حامض البانتوثنك .

ومقدار تعرض الإنسان لأمراض سوء التغذية الناشئة من نقص حامض البانتوثنك يتوقفُ على عاملين كبيرين هما :

(ا) مقدار احتياج الجسم لهذه المادة .

(ب) مقدار الكمية التى يحصل عليها الجسمُ من هذه المادة عن طريق غذائه .

فيجب أن يكونَ هناك توازنٌ بين الكمية التى يحتاجُ إليها الجسم ،

والكمية التى يحصلُ هو عليها عن طريق غذائه .

وعلى هذا الأساس يجب ألا ننظرَ إلى نوع العنصر الغذائى ومدى انتشاره بين الأطعمة المختلفة فحسب ، ولكن يجب أيضاً أنْ نضعَ فى الاعتبار كميةَ هذا العنصر ، ونسبةَ تركيزه الموجودة فى الغذاء الذى يتناوله الإنسانُ .

وهناك حقيقةٌ واضحةٌ بالنسبة لحامض البانتوثنك ، تلك هى انتشارُه فى الطبيعة انتشاراً كثيراً ، فهو موجودٌ فى معظم الموادّ الغذائية التى يتناولها الإنسانُ .

وقد يذهبُ بعضُ الناس إلى أنه مادامَ حامضُ البانتوثنك منتشراً فى معظم المواد الغذائية ، وما دام هو أحد مجموعة فيتامين ب المركبة فعلى هذا الأساس يقوم الاعتقادُ فى نفوسهم بأن بقية مجموعة فيتامين ب المركبة منتشرة فى الطبيعة انتشار حامض البانتوثنك لأنها منْ نفس الفصيلة . ولكن هذا الاعتقادَ ليسَ صحيحاً .

ومن الناحية الأولى ، وهى أن حامض البانتوثنك منتشر فى معظم المواد الغذائية ، فقد يتسربُ إلى الأذهان أن الجسم يحصلُ منه على كمية أكبرَ من الكمية التى يحتاجُ إليها منه . ولكن هذا ليس صحيحاً ، لأن الجسمَ يحتاجُ إلى كمية كبيرة جدا من هذا الحامض بالنسبة لبقية مجموعة فيتامين ب المركب ، ولهذا يمكن أن نجد حالات نقص ظاهرة بين بعض الأشخاص ، ولا سيما بعض المرضى ، أو فى حالات الإرهاق .

وزيادةُ حاجة الجسم إلى حامض البانتوثنك أكثر من غيره تظهرُ واضحةً فيما يلى :

فلبن الأم ، وهو الطعامُ الذى وهبته الطبيعةُ للرضع الصغار يحتوى

من حامض البانتوثنلك على ما يعادل ثمان عشرة مرة أكثر من فيتامين ب ١ أو الثيامين ، وهذا يدعو إلى الاعتقاد بأن الطفل يحتاج إلى حوالى ١٨ مرة من حامض البانتوثنلك أكثر من فيتامين ب ١ .

كذلك عضلات جسم الإنسان يحتوى على بانتوثنات ١١ مرة أكثر من فيتامين ب ١ .

وفيما يلى جدول يبين نسبة البانتوثنلك إلى فيتامين ب ١ فى عضلات الإنسان وعضلات بعض الحيوانات المختلفة .

نوع الفصيلة	نسبة البانتوثنات إلى فيتامين ب
الإنسان	١١ : ١
البقر	٨ : ١
الأغنام	٢ : ١
الخنزير	١ : ١
الدجاج	٧ : ١
الأسماك « السلمون »	٥ : ١
الحوت	٢ : ١
الفيران	٤ : ١

ويظهر من هذا الجدول أن لحم الإنسان يحتوى تقريباً على ضعف كمية البانتوثنات الموجودة فى اللحوم الأخرى .

وكمية البانتوثنات الموجودة فى أجسامنا يجب أن يحصل عليها الجسم عن طريق الغذاء . وكل من اللبن والبيض يحتوى على بانتوثنات تعادل عشرة أضعاف فيتامين ب ١ .

وعلى الرّغم من أن هذه الحقائقَ معروفةٌ منذُ عشرين سنةً أو أكثر ، فإنّ أقراص الفيتامينات والمقويات الموجودة فى الأسواق يحتوى معظمها على نسبة متساوية من فيتامين ب ١ وحامض البانتوثنك .

يتبينُ مما سبق أن الجسمَ يحتاج إلى البانتوثنك بنسبة أكبر من فيتامين ب ١ ذلك إلى أن الحرارة تفسد حامض البانتوثنك ، وأن معظمَ الأغذية التى يتناولها الإنسانُ تطهى وتسخن ، وهذا يفسدُ البانتوثنكَ ، وذلك ما يجعلُ احتمالَ حدوث أمراض سوء التغذية راجعاً إلى أن نقص حامض البانتوثنك أكثر شيوعاً وانتشاراً .

وهناك فيتامين آخرُ كثيراً ما يوضعُ فى الأمراض المقوية ، على أنه عاملٌ مهمّ فى الملحقات الغذائية ، وهو فيتامين ب ٦ أو البريدوكسين .

فى الأبحاث الحديثة التى أجريتْ بالنسبة إلى تغذية الأطفال وُجدَ أن هناكَ أطفالاً معينين يحتاجون إلى البريدوكسين ثلاث أو أربعَ مرات أكثر من غيرهم من أطفال كثيرين . ولكىْ نعنى بهؤلاء الأطفال الذين يحتاجونَ إلى كميات من البريدوكسين أكثر من غيرهم فمنَ الواجب أن تكونَ نسبةُ البريدوكسين على الأقل مثل نسبة فيتامين ب ١ ، وليست نصفها أو خمسها كما هو المتبع عادة عند إعطاء هذه المجموعة من فيتامين ب المركب .

وهناكَ بعضُ النواحى الخاصة من هذه الملحقات تحتاجُ إلى تفصيل أكثر :

فمثلاً : حامضُ الفوليك ، وهو عبارةٌ عن فيتامين لا غنى للجسم عنه ، ولكن تبينَ من التجارب الحديثة أنه إذا وُجدَ هذا الفيتامين فى الملحقات الغذائية فى حدود الكمية التى تقى الجسمَ وتحفظه ، فإن الإنسان الذى يتناول هذه الكمية الواقية من هذا الفيتامين قد يصابُ على الرغم من

ذلك بمرض فقر الدم الخبيث ، الذى قد يكونُ غير ظاهر ، لأن حامضَ الفوليك سوفَ يغطى ظهور هذا المرض الخطير .

ولعلاجِ مرضُ فقر الدم الخبيث فإن « العاملَ الداخلىّ » وفيتامين ب ١٢ يجب أن يدخلا فى علاج المريض ، ويكون ذلك تحت إشراف الطبيب .

والخضر ذات الأوراق الخضراء والكبد من المواد الغنية بهذه العناصر التى تقى الإنسانَ وتحفظه من مرض فقر الدم الخبيث .

وفى جدول الملحقات الغذائية السابق أربعةُ عناصر غذائية ذات كميات أصغرَ نسبيا مما يحتاج إليه الإنسانُ منها ، وهذه العناصر هى :
الأنوسيتول ، والكولين ، والكلسيوم ، والفوسفات .

ويرجعُ صغرُ نسبتها فى الجدول السابق إلى أنها على صغر نسبتها تشغلُ حيزاً كبيراً ، وإلى أن تكاليفها مرتفعةٌ فى بعض الأحيان .

فإذا كان الملحقُ الغذائى ذا حجم كبير وغير جذاب ، فستكونُ النتيجة أن يعافه الإنسانُ ويهجره فى بعض الأحيان .

وفى الوقت نفسه إذا رغبَ الإنسانُ فى الحصول على ملحقات غذائية بصرف النظر عن الحيز الذى تشغله هذه الملحقات الغذائية ، فقد لا تؤدى الغرضَ الذى من أجله يتناولُ الناسُ هذه الملحقات الغذائية أو الإضافات الغذائية ، ولهذا يجبُ ألا ننكرَ هذه الحالة إذا خرجنا إلى حيز الواقع العملى .

وعند النظر فى إعطاء إضافات غذائية للجسم يجب أن يوضعَ فى الاعتبار كل عنصر من العناصر الغذائية التى يحتاجُ إليها الجسمُ ، لأن لكل عنصر من هذه العناصر أسبابه الخاصةُ عند إضافته إلى الغذاء ؛ فمثلاً :
لم يدرجْ فيتامين ك ، والبيوتين ، بين المواد الغذائية التى تحتوى عليها

الملحقات الغذائية ، وذلك لأن هذه العناصر تخلقُ وتعملُ بوساطة البكتريا الموجودة فى الأمعاء ، ويستطيعُ الجسمُ أن يصنعها ويُنشئها ، وفوق هذا فإن تكاليفها باهظة .

فإذا فرض وأعطىَ الإنسانُ موادّ مضادةً للحيوية ، من شأنها أن تقبل على هذه البكتريا الموجودة فى الأمعاء — فقد يكونُ من الخطورة أن تعتمد على هذه البكتريا الموجودة فى الأمعاء كأساس لإنتاج فيتامين ك ، لأن نشاط هذه البكتريا قد وقفَ وتعطلَ بسبب هذه المواد المضادة للحيوية ، ولهذا وجب على الإنسان ألا يتناول هذه المركبات المضادة للحيوية من غير استشارة الطبيب .

ومن أهم خصائص الفيتامينات بوجه عام أنها لا تشكلُ خطورة على صحة الإنسان ، إذا تناولها بكميات كبيرة ، لأن جسمَ الإنسان لايستخدمها إلا إذا دخلتْ فى عملية التمثيل الغذائى بالجسم ، وعملية التمثيل الغذائى هذه لا تحتاجُ إلى هذه الكميات الكبيرة المهولة .

ومع هذا فإنه إذا استمر الإنسانُ على تناول هذه الكميات الكبيرة من الفيتامينات التى قد تبلغُ مقدارَ ما يتطلبه الجسمُ مائة مرة أو أكثر فقد تظهرُ بعضُ تأثيرات ضارة .

ومن البيان الآتى الذى ثبت بالتجارب العملية يتضحُ أن هذه الفيتامينات غير ضارة .

فقد أطعمتْ بعضُ حيوانات التجارب حوالى ١٠٠٠ ملجم من البانتوثنات (وهذا ما يعادل حوالى مقدار ما يتطلبه الحيوان العادى ٥٠٠ مرة) لمدة ستة أشهر ، ولكن لم تظهرْ أيةُ تأثيرات ضارة .

وقد أعطىَ بعضُ الناس حوالى ١٠ جم من البانتوثنات يوميا لمدة ٦ أسابيع ولكن لم تظهر أية تأثيرات ضارة . وهذه الكمية تعادل ما يحتاجُ

إليه الإنسانُ يوميا ١٠٠٠ مرة .

وقد ذكرنا سابقاً أن بعضَ المعادن يحتاجُ إليها الجسمُ بكميات طفيفة ولكنه إذا تناولها بكميات كبيرة كانتْ سامة إلى درجة الخطورة . ومن أجل هذا فصَلنا المعادن عن الفيتامينات عندما ذكرنا الجدول الخاص بهما .

فالفيتامينات يمكنُ أن يعطى الإنسانُ منها ضعفَ الكمية اللازمة ولا يحدث أى تأثير ضار ، والأمرُ يختلفُ بالنسبة للمعادن فيجب ألا تتضاعف الكميةُ التى تضاف إلى الطعام من المعادن وإلا أحدثت تسمماً فى الجسم .

ويجب أن يأخذ الناسُ حذرَهم حين يتكلمونَ عن الفيتامينات ، فقد قيلَ : إن هناك فيتامينات طبيعية ، وفيتامينات صناعية ، وفيتامينات مركبة . وقد سبقَ أن قلنا : إن كل عنصر من العناصر الغذائية عبارة عن مادة كيماوية ، والكيماويات الطبيعية هى تلك التى تشملُ كل المواد التى تدخلُ فى تركيب خلايا الحيوان والنبات .

والمواد الكيماوية الصناعية هى تلك الكيماويات الغريبة عن أجسامنا وعن ...امنا . والكيماويات المركبة هى تلك التى يتم تركيبها فى المعامل وبعضها طبيعى وبعضها صناعى .

وقد لوحظَ عند تكوين حامض البانتوثنك بوساطة المعامل :

أولا : أن آثاراً غير مباشرة دلتْ على وجود هذا الحامض .

ثانياً : أنه قد استخلصَ جزء صغيرٌ من هذا الحامض من كميات كبيرة من كبد الحوت .

ثالثاً : أنه قد حددَ تركيبُ هذا الحامض الكيماوى ، ثم عرف كيف يتم تركيبه معملياً .

فى الخطوة الثانية من هذه العملية ، وهى استخلاص جزء صغير من هذا الحامض كانت النتيجة استخلاص حوالى ١٠ ملجم من بانتوثنات الكلسيوم من مئات الأرطال من الكبد ، وتكلفت هذه العملية حوالى أربعة آلاف جنيه ، وهذا هو الفيتامين الطبيعى .

وتأتى بعد ذلك الخطوة الثالثة وهى تحديد تركيبه الكيماوى ، وبعد ذلك يتم صنعه فى المعمل .

وهذا التركيب أو التكوين يطابق تماماً تركيبه أو تكوينه فى الطبيعة ، ولا يستطيع أحد أن يفرق بينهما .

وفائدة تركيب أو تكوين هذا كيماويا تنصب على الناحية المالية إذ أن صنع هذا المركب فى المعمل يوفر آلاف الجنيهات .

وبعض المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان قد لا تفيده ، ولكن قد يوجد بعض عناصر غذائية فى الغذاء وهى مفيدة ولكنها لم تكتشف بعد .

والطريقة السليمة للحصول على هذا العنصر المفيد ولم يكتشف حتى الآن ، إذا صح هذا القول ـ تتحقق إذا ما حرصنا باستمرار على تنويع المواد الغذائية فى الوجبات المختلفة ، ويجب ألا يغيب عن البال أن الملحقات الغذائية يقصد بها أن تكون إضافات للغذاء ، تساعد على تأمين التغذية السليمة ، وليس الغرض منها أن تحل محل المواد الغذائية المختلفة .

وهنا سؤال يدور بخلد الإنسان وهو :

كم من الوقت يمر على الإنسان وهو يستعمل الملحقات الغذائية حتى تظهر نتائج استعمالها ؟

والإجابة عن هذا السؤال غير واضحة ، لأن هناك أكثر من عامل يتدخل فى هذه المشكلة :

منها طبيعةُ تكوين الشخص التى تختلفُ فى شخص عنها فى شخص آخر .

ومنها نوعُ العلة التى يريدُ الإنسانُ أن يحمىَ نفسه منها .

وفى الغالب لا يكونُ تأثيرُ الملحقات الغذائية سريعاً أو قاطعاً ، ولو أنه فى بعض الأحيان يكون سريعاً أو قاطعاً .

فإذا قرر الإنسان استعمالَ التأمين الغذائى عن طريق الإضافات الغذائية فالمدةُ المعقولةُ تبدو فى استمراره على استعمالها طيلة احتياجه إلى هذا التأمين .

وقد ثبتَ فى حيوانات التجارب أن تأثير تحسين الغذاء بالإضافات الغذائية لا يظهرُ إلا فى الأسبوع الأول أو الثانى .

ونظراً لأن معيار عامل الوقت بالنسبة للإنسان يكون قدر ذلك الذى يخصّ الحيوان بمرات عديدة ، فأى شخص يتناول هذه الإضافات الغذائية لمدة تقل عن عدة شهور يجب أن يقتنع بأنه لم يفعلْ شيئاً يستحق الذكر من الناحية الغذائية .

وهناك سببٌ معقول للاعتقاد بأن معظم الناس الذين يتناولون الفيتامينات وهذه الإضافات الغذائية لم يحصلوا على أية فائدة تذكر .

وهذا السببُ هو أنّ هؤلاء يتناولونَ الإضافات بطريقة سطحية ومتقطعة .

فهم لم يحرصوا على تناولها باستمرار وبدون انقطاع .

وهناك سؤال كثيراً ما يدورُ على ألسنة معظم الناس وهو :

متى يتناولُ الإنسانُ هذه الإضافات بالنسبة للوجبة الغذائية ؟

إنّ الاستفادة من هذه الإضافات تتم وتكمل إذا كان ما تحتويه من فيتامينات موزّعاً توزيعاً عادلاً على الطعام ومنتشراً مع الطعام فى القناة

الهضمية ، ولهذا يمكنُ القولُ بأن أخذَ هذه الإضافات فى أوقات تناول الطعام مفيدٌ ، لتحقيق مبدأ الاستفادة التامة .

* * *

هذا وقد بينتُ بعضَ الحقائق عن التغذية السليمة التى سوف تساعدُ الإنسانَ الذى يحرصُ أشد الحرص على تغذية نفسه أو تغذية أولاده أو أسرته بطريقة سليمة مثمرة .

وفى اعتقادى الشخصى أن كل إنسان مسئولٌ عن طريقة سيره فى الحياة ، وعن كل صغيرة وكبيرة فيها ، حتى طريقة تناوله الطعام وتغذية نفسه .

فإذا استطاع كل فرد أن يستفيدَ من الحكمة الإلهية الموجودة فى التغذية، وذلك بتنويع المواد الغذائية ، والابتعاد بقدر الإمكان عن المواد الغذائية المركبة ، وبتربية التعقل الغذائى فى الجسم واستعمال الإضافات الغذائية — فقد كفل لنفسه إلى حد كبير حياة سعيدة ، يستمتع فيها بسلامة جسمه ، وصحة بدنه ، ونشاط عقله ، وتمام طاقته وقدرته .

يحدثُ إسهالٌ حاد ، وتشبه مادته ماء الأرز ، وكل هذا يؤدى إلى شعور بالهبوط وآلام فى البطن والظهر والساقين ، وقد يؤدى هذا إلى الوفاة نتيجة لهبوط فى القلب . أما فى الحالات المزمنة التى يتناولُ المريضُ فيها على الدوام وباستمرار كميات طفيفة من الزرنيخ ، نتيجة لتلوث طعامه به ، فإنا نجد أن الأعراضَ هنا تختلف عن سابقتها ، فإن الأعراضَ هنا تظهرُ فى الجهاز الهضمى ظهوراً طفيفاً ، فقد لا تكون مصحوبة بالقىء .

على أن هذا التسمم المزمنَ قد يصحبه شعورٌ بالقىء ، وأوجاعٌ طفيفةٌ فى البطن ، وإسهالٌ فى بعض الأحيان ، ويظهر معَ هذه الأعراض أعراضٌ أخرى ، فتظهرُ التهاباتٌ بالأنف والحلق والعينين ، وتظهر تقرحاتٌ والتهابات فى الجلد ، وقد تظهرُ ألوانٌ فى الجلد علىَ هيئة نقط سوداء ، وقد تنشأ بعضُ الأورام السرطانية فى الجلد ، وقد تظهر بالأطراف التهاباتٌ فى الأعصاب مصحوبة بتنميل وآلام .

(ب) المركبات الفسفورية : وتستعملُ كثيراً فى رشّ النبات لمقاومة الآفات الحشرية ، وقد تصلُ إلى الإنسان عن طريق تناولها أو ملامستها للجلد .

وتبدو أعراض التسمم بهذه المركبات فى قىء ، وآلام ومغص فى البطن ، وإسهال ، والتهاب فى الأعصاب . وقد يتأثر الكبد ويؤدى إلى حدوث الصفراء .

(حـ) الرصاص : قد يختلط هذا العنصرُ بالموادّ الغذائية فى أثناء طهيها فى أوان تحتوى على الرصاص ، وأعراض التسمم بهذا العنصر يظهر فى شعور بتذوق معدنىّ فى الفم ، وآلام ومغص فى البطن ، مع إمساك شديد ، ويصحبُ هذا شحوبٌ فى الوجه ، وضعف عام ، والتهاب

٢ — التسمم الغذائى نتيجة لتناول مادة حيوانية :

ينشأ هذا التسممُ نتيجة لتناول بعض الأسماك والمحارات التى تكونُ فى حدّ ذاتها سامة، وأعراضُ هذه الحالة تكونُ خفيفة وبسيطة وليست حادة ، وتظهر الأعراضُ فى مغص فى البطن وقىء وإسهال.

٣ — التسمم الغذائى نتيجة للمواد الكيماوية :

قد ينتج التسممُ من وجود موادّ كيماوية خطيرة فى الطعام، ولكنّ هذه الحالة غيرُ منتشرة فى هذه الأيام . وقد يتلوثُ الطعامُ بالموادّ الكيماوية نتيجةً لوضعه فى أوعية استعملتْ قبلَ ذلك فى نقل موادّ كيماوية خطيرة ، أو أنْ يضافَ بعضُ العصارات الحمضية ، مثل عصير الليمون ، إلى الطعام وهو موضوعٌ فى أوعية معدنها رخيص ، ويتحللُ بهذه العناصر الحمضية التى أضيفت إلى الطعام وهو موضوعٌ فى تلكَ الأوعية المصنوعة من هذا المعدن ، وقد يؤدى هذا التحلل إلى أن يختلط بالطعام كيماويات سامة مثل الأنتمون ، والزنك . كما أنه قد تختلطُ الموادّ الكيماوية السامةُ بالنباتات إذا مارشتْ بها هذه النباتاتُ ، لمقاومة الآفات الزراعية وإبادتها ، وقد تحتوى هذه الكيمياويات على مواد سامة بالجسم .

وأهم هذه المواد الكيمياوية التى تسبب تسمماً غذائيا هى :

(١) الزرنيخ : قد يتلوثُ النباتُ عند رشه بالزرنيخ لمقاومة الآفات الحشرية وإبادتها ، وقد يتناول الإنسانُ الزرنيخ عن طريق المصادفة ، وقد يوضعُ الزرنيخ فى الغذاء بقصد جنائى .

وتظهر أعراضُ هذا التسمم فى الحالات الحادة فى شعور بالغثيان ، والإغماء ، ويتبعهما قىء حادّ يقذفُ جميعَ محتويات المعدة ، وقد يصحبُ هذا القىءَ إفراز الصفراء أو بعض المخاط والدم ، وبعدَ ذلك

يحدثُ إسهالٌ حاد ، وتشبه مادته ماء الأرز ، وكل هذا يؤدى إلى شعور بالهبوط وآلام فى البطن والظهر والساقين ، وقد يؤدى هذا إلى الوفاة نتيجة لهبوط فى القلب . أما فى الحالات المزمنة التى يتناولُ المريضُ فيها على الدوام وباستمرار كميات طفيفة من الزرنيخ ، نتيجة لتلوث طعامه به ، فإنا نجد أن الأعراضَ هنا تختلف عن سابقتها ، فإن الأعراضَ هنا تظهرُ فى الجهاز الهضمى ظهوراً طفيفاً ، فقد لا تكون مصحوبة بالقىء .

على أن هذا التسمم المزمنَ قد يصحبه شعورٌ بالقىء ، وأوجاعٌ طفيفةٌ فى البطن ، وإسهالٌ فى بعض الأحيان ، ويظهر معَ هذه الأعراض أعراضٌ أخرى ، فتظهرُ التهاباتٌ بالأنف والحلق والعينين ، وتظهر تقرحاتٌ والتهابات فى الجلد ، وقد تظهرُ ألوانٌ فى الجلد علىَ هيئة نقط سوداء ، وقد تنشأ بعضُ الأورام السرطانية فى الجلد ، وقد تظهر بالأطراف التهاباتٌ فى الأعصاب مصحوبة بتنميل وآلام .

(ب) المركبات الفسفورية : وتستعملُ كثيراً فى رشّ النبات لمقاومة الآفات الحشرية ، وقد تصلُ إلى الإنسان عن طريق تناولها أو ملامستها للجلد .

وتبدو أعراض التسمم بهذه المركبات فى قىء ، وآلام ومغص فى البطن ، وإسهال ، والتهاب فى الأعصاب . وقد يتأثر الكبد ويؤدى إلى حدوث الصفراء .

(حـ) الرصاص : قد يختلط هذا العنصرُ بالموادّ الغذائية فى أثناء طهيها فى أوان تحتوى على الرصاص ، وأعراض التسمم بهذا العنصر يظهر فى شعور بتذوق معدنىّ فى الفم ، وآلام ومغص فى البطن ، مع إمساك شديد ، ويصحبُ هذا شحوبٌ فى الوجه ، وضعف عام ، والتهاب

بالأعصاب ، وآلام شديدة في جميع أجزاء الجسم ، وخاصة في الظهر والمفاصل .

٣ ـ التسمم الغذائي نتيجة للميكروبات :

التسمم الغذائي نتيجة للميكروبات أهم أقسام التسمم وأكثرها انتشاراً، وينقسمُ عادة إلى نوعين :

(أ) النوع الناشئ نتيجة للسموم :

هذا النوع من التسمم ينشأ نتيجة للسموم التي تفرزها الميكروبات ، مثل الميكروب العنقودي وميكروب «بوتيولنيوم» وهذه السموم المفرزة لا تتأثر بالحرارة ، فإذا اختلطت بالطعام هذه السموم فإنها لا تتأثر أو لا تتلاشى عند طهي الطعام ، فإنها تستطيع أن تقاوم درجة الحرارة العالية ، وتبقى الطعام ساماً .

ويحدثُ تلوث الطعام بهذا النوع إذا كانَ الذي يقومُ بإعداد الطعام مصاباً بأي التهابات في يده ، أو يحملُ الميكروب في فمه أو حلقه ، ثم اختلط الميكروب بالطعام ولوثه عن طريق الملامسة باليد المصابة ، أو عن طريق الرذاذ الذي يتطاير إلى الطعام من فم ذلك الطاهي المصاب أو حلقه ، فإن هذه الميكروبات تتكاثر في الطعام وتفرز سمومها ، وتصيب الإنسانَ بالتسمم الغذائي إذا ما تناولَ هذا الطعام الملوث .

والتسمم بالميكروب العنقوديّ يأتي عادة من اختلاطه بالأطعمة مثل اللحوم والكعك ، والآيس كريم واللبن ، وتكثر الإصابة في أثناء الصيف ، وتظهر الأعراضُ بعد تناول الطعام الملوث به بحوالي ساعتين أو أربع ساعات ، وتبدأ هذه الأعراضُ بقيء شديد ، ومغص حادّ في البطن ، وإسهال عنيف ، وقد يؤدي هذا إلى الشعور بالإغماء والإعياء والصدمة وفقدان الوعي .

أما التسمم بالميكروب « البوتيوليونوم » فإنه يأتى عادة من العلب المحفوظة و بالأخص الأغذية المحفوظة ، والتى صنعتْ منزلياً ، مثل المربب (المربى) واللحوم والخضر ، وذلك لأن هذه الأصناف تحفظُ دونَ تعقيمها ، وتظهر أعراضُ التسمم بهذا الميكروب بعد حوالى ١٨ ساعة من تناول المواد الغذائية الملوثة بهذا الميكروب ، وتبدو فى آلام طفيفة فى الجهاز الهضمىّ ، ولكن الجهاز العصبى يتأثر تأثراً شديداً ، إذْ ينشأ الصداع الشديد ، واختلالٌ فى النظر ، وشللٌ فى حركات العين ، وقد يظهرُ الحول ، واتساعُ حدقة العين ، وشللٌ فى مختلف أطراف الجسم ، وقد تحدثُ الوفاةُ نتيجة لهبوط فى القلب أو التنفس .

(ب) النوع الناشئ نتيجة للإصابة بالميكروبات :

ينشأ التسمم بهذا النوع نتيجة للإصابة بالميكروبات نفسها ، إذ يكونُ ميكروب السلمونلا هو السبب والعامل الأساسى فى الإصابة بهذا النوع .

وهذه الميكروبات تسكنُ عادة فى أمعاء بعض الطيور والحيوانات دون أنْ تؤثر فيها ، ولكنها إذا أصابت الإنسان أدّت إلى ظهور أعراض التسمم . وقد يتلوثُ الطعامُ نتيجة لما يلى :

١ — اتصاله بمفرزات الفيران .

٢ — عن طريق الذباب الذى ينقل إليه الميكروب .

٣ — عن طريق الأشخاص المصابين بالأمراض وتكون أيديهم ملوثة بالميكروب . وتتوقف سرعةُ انتشار هذا التسمم وخطورته على حجم كمية الميكروبات التى دخلت جسمَ المصاب .

هذا ومن الجلى الواضح خطورة تكاثر البكتريا التى قد تنشأ عندما يتعرضُ الطعامُ للحرارة أو اللهب ، ويبقى بعد ذلك مدةً طويلة فى جو

دافئ يساعد على تكاثر هذه الميكروبات ، مثل ترك الطعام فى المطبخ لمدة ساعات أو لمدة أيام .

وأصناف الطعام التى تكون عرضة للإصابة بالميكروب هى اللحوم المطبوخة التى طهيت أو سخنت مرتين قبل أكلها ، والشوربة ، والحلوى ، واللبن ، والكريم ، والطعام المحفوظ فى العلب ، والذى يكون فى الواقع معقماً وخالياً من الميكروبات ، ولكنه نتيجة لتركه مدة طويلة قبل أكله يكون عرضة للإصابة بهذه الميكروبات ، ويشكل فى الوقت نفسه أرضاً خصبة لتكاثرها .

وبعض الدجاج نادراً ما يحمل هذه الميكروبات فى حين أن بيض البط كثيراً ما يكون مصاباً بهذه الميكروبات ، لأن أمعاء البط تحمل هذه الميكروبات دون أن يتأثر البط بها ، وعلى هذا الأساس لا ننصح بعمل الكعك من بيض البط ، إذ أنه لقتل هذه الميكروبات لابد من غليانه مدة تتراوح بين ١٠ — ١٥ دقيقة .

وقد دلت التجارب على أن انتشار هذا التسمم يحدث عادة عندما تجهز كمية كبيرة من الطعام وتترك للأخذ منها على فترات طويلة ، إذ تكون بذلك عرضة للإصابة بالميكروبات ، وتزداد الخطورة إذا حفظ هذا الطعام المجهز فى درجة حرارة دافئة بدلا من حفظه فى الثلاجة . ولهذا كان انتشار هذا التسمم بين هؤلاء الذين يتناولون الأطعمة من الكانتينات أو المطاعم أو المستشفيات أكثر من انتشاره فى المنازل .

وتظهر الأعراض فى هذا النوع بعد فترات تتراوح بين ٦ — ٤٨ ساعة من تناول الأطعمة الملوثة ، وتظهر عادة بعد ١٢ ساعة .

وعلى هذا يمكن أن نستنتج أنه إذا ظهرت الأعراض بعد نصف

ساعة من تناول الأطعمة الملوثة ، فعادة يكون التسمم نتيجة للمادة الكيماوية ، وإذا ظهر بعد ٦ ساعات يكون التسمم نتيجة للسموم . أما إذا ظهر بعد ١٢ ساعة فعادة يكون نتيجة للإصابة بالميكروبات .

وتبدأ أعراض هذا التسمم بحدوث قيء وإسهال وآلام فى البطن ثم مغص فيه ، وفى الحالات الخطيرة يحدث هبوط وخفقان وإغماء ، وتكون هذه الحالة مصحوبة بارتفاع فى درجة الحرارة ، وقد يبقى المريض راقداً عدة أيام ، ويكون البراز مائياً ، وله رائحة نفاذة ، وبه قليل من الدم والمواد المخاطية .

الباب الثانى عشر

أقوال غير صحيحة فى التغذية

شاع بين بعض من الناس أقوالٌ خاطئةٌ فى التغذية ، وقد رأيتُ من الخير أن أطرقها ، وألفت نظرهم إليها ، ومن هذه الأقوال ما يلى :

(ا) قالوا فى اللبن :

اللبنُ المبستر ليس منبعاً طيباً لتمويل الجسم بالكلسيوم ، وعللوا هذا بقولهم : إن الأنزيمات التى تجعلُ الحصولَ على الكلسيوم سهلاً ميسوراً سوف تتلف بعملية البسترة . وقالوا أيضاً :

إن اللبنَ المبستر عبارةٌ عن لبن ميت ، لأن الأنزيمات التى فيه قد تلاشت وضاعت .

وهذه الأقوال لا ترتكز على أى أساس من الأسس العلمية ، وهى قائمة على الجهل وعدم الدراية .

ولو انتبهوا إلى أن الأنزيمات على حالتها الطبيعية أى قبل أن تتكسر أو تتلف أو تموت لا يستفيد منها الجسمُ ، لأنه لا يمكن الحصول بوساطتها على الأحماض الأمينية إلا أن تتلف وتتكسر لو انتبهوا إلى ذلك ما وقعوا فى هذا الخطأ .

(ب) وقالوا فى الجلوكوز :

الجلوكوز عبارة عن طعام غير طبيعىّ ، فهو صناعى رخيص ، وهو

يضع على كاهل البنكرياس حملا غير عادى ، ويزيد حالة مرضى السكر سوءا .

وذلك قول أساسه الجهل أيضاً ، فإن السكر عبارة عن الوقود الرئيسى الذى تحتاج إليه أجسامنا ، فنحن نحرق ونستخدم حوالى رطل من السكر تقريباً فى اليوم ، والكمية الموجودة منه فى أجسامنا فى أى وقت كمية صغيرة ، ولكنها تصنع باستمرار ، حتى لا يخلو الجسم منها ، وهى فى غاية الأهمية لتغذية العقل ، وإذا هبطت نسبة السكر فى الدم أصيب الإنسان بغيبوبة ، وهذا الجلوكوز هو نفس السكر الذى يشتريه الإنسان ، ولكنه أغلى من ذلك الذى يصنعه الإنسان من المواد النشوية بعد هضمها .

وقد شرحنا فيما سبق أن استعمال السكر بدون استعمال عوامل التشحم من شأنه أن يساعد على تكوين سوء الهضم ، والجلوكوز فى هذه الأحوال له نفس التأثير الذى لسكر القصب وسكر النبات والنشا أو العسل .

وعسل النحل يحتوى على نسبة عالية جداً من السكر والفركتور الذى لا يختلف عن السكر ، ولا شىء آخر بعد ذلك تقريباً .

والنحل الكبير يستطيع أن يعيش كلية ، ويعتمد اعتماداً أساسيا على عسل النحل ، ولكن النحل الصغير لا يستطيع أن يعيش على هذا العسل فقط ، إذ أنه لا يستطيع أن يعيش على وقود فقط .

(ح) وقالوا فى الفيتامينات المصنوعة :

الفيتامينات المصنوعة خطيرة ، لأن أجسامنا تحتاج إلى فيتامينات طبيعية .

وهذا القول قائم أيضاً على الجهل ، ففى بعض الأحيان يستطيع الكيماويون أن يصنعوا وينتجوا فى معاملهم نفس الفيتامينات التى توجد

فى الطبيعة ، وفى بعض الأحيان الأخرى يجدون صعوبة فى إنتاج هذه الفيتامينات ، أو تكاد تكون مستحيلة .

والكيماويون يعرفون أكثر مما يعرفه غيرهم ، ولكنهم لا يعرفون إلى الآن كيف يصنعون فى معاملهم كل العناصر التى يتركب منها الغذاء الطبيعى ، ولهذا فإن أخصائى التغذية الحصيف ينصح للناس أن يتناولوا طعامهم من الأطعمة المتنوعة فى تعقل ، لأن المرء فى هذه الحالة يستطيع أن يحصل على بعض العناصر التى لا يعرف العلماء عنها شيئاً ، والتى قد تكون موجودة فى بعض الأغذية ، ويزيد تناولها احتمال حصولهم على نتيجة ، لكثرة التنوع فى تناول الأغذية .

(د) وقالوا :

ابتعد عن كل الكيماويات التى تستعمل لزيادة إخصاب التربة الأرضية ، ويقصدون بقولهم هذا أن استعمال السماد « السباخ » وما شابهه أفضل من استعمال أية مادة كيماوية مصنوعة .

وطبيعى أن كل شخص لا ينكر فوائد السماد « السباخ » للتربة الأرضية ، وزيادة إخصابها ، وصلاحيتها للزراعة وكثرة المحصول ، ولكن ينبغى أن نعلم أن كل شخص يحاول أن يقلل من شأن ما يبتكره العلماء جزافاً ومن غير سبب ولا دليل — هو على جهل وخطأ .

« فالسباخ » عبارة عن مركب معقد من الكيماويات المختلفة ، وهو محمل بالميكروبات المفيدة ، وإذا كانت الأرض تختلف بقاعها بعضها عن بعض ، فإن « السباخ » يختلف أيضاً بعضه عن بعض ، وفى هذه الحالة يحتاج الأمر إلى آراء الإخصائيين ، فهم الذين يستطيعون أن يدلوا بآرائهم فيما هو مفيد بالنسبة للتربة وللزراعة .

« والسباخ » يمكن أن يحلل ، فإذا تبين أن نسبة البوتاسيوم قليلة

فيه ، أو أن نسبة الفوسفات قليلة فيه ، أو أن النيتروجين قليل بالنسبة إلى حاجة التربة التى سوف يستعمل فيها — فالحلّ المعقول هو أن نستعمل سماداً به هذه العناصر الناقصة ، وذلك أمرٌ يحتاج إلى الخبراء .

والحل المعقول بمعنى آخر أن تضاف بعضُ الكيماويات إلى الكيماويات التى فى « السباخ » لتكملَ نقصَه ، وتمدّه بالعناصر الكيماوية التى لا يحتويها .

وإذا كان « السباخ » لا يحتوى على عنصر ما من العناصر الكيماوية ، فإن التربة سوف تفقدُ هذا العنصرَ ، وهىَ فى مسيس الحاجة إليه .

والناس الذين يتجنبونَ الكيماويات كعامل لإخصاب التربة وجودة الزراعة يعتمدون فى تجنبهم هذا على ما يقولونه من أن الكيماويين لم ينتجوا بالوسائل المعملية أى شىء يماثلُ ضعفَ ما يعملهُ « السباخ » كما أنهم لم يستطيعوا أن يخلقوا ماءً كماء البحر فى معاملهم حتى تستطيعَ الأعشابُ البحريةُ أن تنمو فيه كما تنمو فى مياه البحر العادية .

وقد نستبينُ فيما يلى حقيقة هذين الأمرين :

« فالسباخ » عبارة عن مركب كيماوى شديد التعقيد أكثر من أنه خليطٌ كيماوى ، وهو يحتوى على أنواع من العناصر الغامضة التركيب والتى لا توجدُ فى خليط صناعى من المواد الكيماوية ، كما يحتوى على ميكروبات لا توجدُ فى هذا الخليط الصناعى .

أما مياهُ البحر فإن الكيماويين لم يحاولوا أن يصنعوا هذه المياه ، ولكن تفكيرهم كان منصباً أصلاً على أنواع أخرى ، هى فى نظرهم أهم ، وذلكَ مثل صنع المياه العذبة من مياه البحر .

ولا يغيبُ عن البال أن مياهَ البحر مركبٌ شديد التعقيد ، فالأملاحُ لتى تكونت منذُ ملايين السنين يدخلُ فى تركيبها تقريباً كل ذرة معروفة

فى دنيانا . ذلك إلى أن تركيب ماء البحر يختلف فى مكان عنه فى مكان آخر ، فمثلاً بعض العناصر النادرة ليست موجودة فى مياه الأطلنطى ، أو الباسفيك بكميات متساوية على أية حال من الأحوال .

لهذا لا يعجب المرء إذا عرف أنه من الصعب محاولة صنع ماء كماء البحر .

و بعد هذا فإن القارئ إذا أراد أن يحصل على معلومات قيمة فى التغذية فعليه أن يستشير أولى الرأى والخبرة ، ولا يحاول أن يأخذ هذه المعلومات من غير المتعمقين فى هذا الفرع من العلم .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم إلى أبناء وبنات الجيل الجديد . . .

مجموعة «كتابك الأول عن . .»

● موضوعات مشوقة طريفة روعى فى كتابتها تبسيط الحقائق المختلفة وعرضها عرضاً جذاباً بأسلوب علمى سهل . . .

صدر فى هذه المجموعة :

	ص		ص
الميكروبات	٢٥	السفر إلى الفضاء	٢٥
الثعابين	٢٠	الثدييات	٢٠
الزجاج	٢٠	الحشرات	٢٠
التليفزيون	٢٥	الهند	٢٥
اليابان	٢٥	النحل	٢٥

خذ المعارف من دار المعارف

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ د.ج فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٠٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

اقرأ

قصص من جوته

الدكتور عبد الغفار مكاوي

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم في ليبيا	١٫٥٠ ديناراً في الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً في العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً في المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً في الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً في السودان	١٢٥ مليماً في تونس	

قصص من جوته

الأقصوصة .. والحكاية

قصص من جوته

الأقصوصة .. والحكاية

ترجمة وتفسير

الدكتور عبد الغفار مكاوى

٢٨٧
اقرأ
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٧ — نوفمبر سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . ع . م .

يوهان فولفجانج جوته

الأقصوصة

كان ضباب الخريف الملبد فى مطلع النهار لا يزال يدثر القاعات الفسيحة فى فناء قصر الأمير ، عندما بدأت العين تميز من خلال القناع الذى يشف رويداً رويداً حملة الصيد كلها وهى تموج بالخيول والمشاة فى حركة مختلطة . كان من السهل على المرء أن يتعرف على المشاغل العاجلة للقريبين : فهذا يمد الركاب ، وهذا يقصره ، وواحد يناول صاحبه البنادق والمخلات ، وآخر يصلح من وضع حقائب الصيد ، بينما الكلاب تنبح فارغة الصبر فى قيودها وتهدد المتباطئين بجرهم معها . كذلك لم يخل الأمر هنا أو هناك من جواد ينم مسلكه عن الشجاعة ، تدفعه طبيعته النارية أو ينبهه مهماز الفارس الذى لم يستطع فى هذا الضوء المعتم أن يخفى قدراً من صلفه واعتداده بنفسه . ومع ذلك فقد كان الجميع فى انتظار الأمير الذى ذهب يودع زوجته فتباطأ عليهم كثيراً .

كان قد عقد قرانهما منذ عهد غير بعيد ، فأحسا بالسعادة التى تظلل وجدانين متجانسين فى طبيعتهما . وكان كلاهما ذا طبع فعال مفعم

بالحياة يشارك عن طيب خاطر فى ميول صاحبه ومطامحه . ولقد كتب لوالد الأمين أن يحيا تلك اللحظة وينتفع بها ، حين أصبح من الأمور الواضحة أن على رجال الدولة جميعاً ، بما يوافق طبيعة كل واحد منهم ، أن يقضوا أيامهم فى العمل والإبداع ، وأن يلتفتوا إلى ما يعود عليهم بالنفع قبل أن ينصرفوا إلى اللذة والاستمتاع .

كشفت هذه الأيام عن مدى نجاح هذا الرأى ، حيث وافق ذلك انعقاد السوق الكبير الذى يستطيع الإنسان بغير مبالغة أن يطلق عليه اسم المهرجان . ولقد صحب الأمير بالأمس زوجته متجولا على صهوة جواديهما بين أكوام البضائع المكدسة ، وأراها كيف تتفاوت الطبيعة فى هذه البقعة بالذات بين الجبل والسهل فيلتقيان التقاء يسر العين ، كما عرف كيف يجذب انتباهها إلى مظاهر الحياة النشيطة فى هذه المنطقة من البلاد .

وإذا كان الأمير قد انصرف فى هذه الأيام الأخيرة انصرافاً تاماً إلى تدبير هذه الأمور الملحة مع رجال حكومته ، وراح يعمل بوجه خاص مع وزير ماليته عملا لا ينقطع ، فلم يتنازل ناظر الصيد مع ذلك عن حقه ، إذ كان من رأيه أن من المستحيل على الإنسان أن يقاوم الإغراء الذى يحفزه فى هذه الأيام المواتية من فصل الخريف إلى أن يقوم برحلة صيد سبق تأجيلها من قبل ، وأن يتيح بذلك لنفسه ولكثير من الأغراب الوافدين عيداً فريداً نادراً .

تخلفت الأميرة عن المشاركة فى رحلة الصيد ، فقد كان فى النية أن يتوغل الأمير وصحبه فى الجبل ، لكى يقلقوا السكان المسالمين فى تلك

غابات بجملتهم التى لم تخطر لهم على بال .

لم ينس الأمير وهو يودع زوجته أن يقترح عليها نزهة تقوم بها فى صحبة عمه فريدريش ، وكذلك أترك لك، كما قال لها، هونوريوسائس الإسطبل ومعه حاجب القصر وخادم البلاط ، الذى سيهتم بكل شيء . بعد أن ختم هذه الكلمات أخذ يلقى ، وهو يهبط درجات السلم ، التعليمات الضرورية إلى شاب حسن البنيان ، ثم سرعان ما اختفى مع سيوفه وحاشيته .

اتجهت الأميرة ، بعد أن لوحت بمنديلها لزوجها وهو يهبط إلى فناء القصر ، إلى الغرفة الخلفية ، التى كانت تطل على الجبل وتسمح للعين بإلقاء نظرة طليقة عليه، يزيد من حسنها أن القصر نفسه كان يقع على مرتفع من النهر ، ويتيح للمتأمل رؤى منوعة حافلة بالمعانى . وجدت المنظار الرائع فى موضعه الذى تركوه فيه بالأمس عندما كانوا يتجاذبون الحديث ويتأملون الأطلال العالية الباقية من البرج العتيق من وراء الدغل والجبل وقمم الأشجار فى الغابة ، يكسوها ضوء المساء بلون عجيب ، وتخلع عليها كتل عظيمة من الأنوار والظلال أوضح صورة لأثر مهيب من آثار الأزمنة السالفة . كذلك أوضح لها صباح اليوم من خلال الزجاج المقرب على نحو ملفت للانتباه تلك الأنواع المختلفة من الأشجار يكسوها الخريف بألوانه وترتفع عالية من بين الأسوار لا يعوقها شيء ولا ينالها بالتلف شيء. بيد أن السيدة الجميلة أمالت المنظار إلى مستوى أعمق ووجهته ناحية أرض مسطحة خربة تكثر فيها الأحجار ، كان لا بد لموكب الصيد أن

يمر بها فى طريقه . أخذت تنتظر اللحظة صابرة ، ولم يخنها إحساسها فإن وضوح الآلة وقدرتها على التكبير قد مكنت عينيها الساطعتين من رؤية الأمير وناظر الإسطبل رؤية جلية ، حتى إنها لم تملك نفسها من التلويح مرة أخرى بمنديلها ، حين خيل إليها كأن الركب يتوقف لحظة عن المسير وأن الأمير يلتفت وراءه ، وإن كان ذلك أقرب إلى التخمين منه إلى الإدراك الواضح .

دلف عم الأمير ، واسمه فريدريش ، من الباب بعد أن أعلن الحاجب مقدمه ومعه رسامه يحمل حقيبة كبيرة تحت إبطه . قال الرجل العجوز المتين البنيان : ها نحن نعرض عليك مناظر قلعة العائلة ، مرسومة من جوانب مختلفة لتبين كيف استطاع هذا البناء الهائل الصامد الواقى من أقدم الأزمنة أن يتصدى للأعوام وتقلبات أجوائها وكيف كان من المحتوم أن يتصدع السور المحيط به هنا وهناك ، وينهار فى هذا الموضع أو ذاك فيصبح أطلالا بالية . لقد قمنا بما يجعل هذه الخربة الموحشة الأطلال ميسورة لكل قدم تريد أن ترتادها ، إذ لم تكن فى حاجة إلى أكثر من ذلك لكى تتملك الدهشة كل سائح وتستولى البهجة على كل زائر .

استطرد الأمير يشرح اللوحات المرسومة واحدة بعد الأخرى : هنا ، حيث يصعد الإنسان مع النفق عبر الأسوار الخارجية المتحلقة فيبلغ القلعة ، تواجهنا صخرة من أشد صخور الجبل كله صلابة ، يرتفع فوقها برج محاط بالأسوار . ومع ذلك فما من أحد يستطيع أن يقول أين تتوقف الطبيعة ، وأين يبدأ الفن والصنعة من يد الإنسان ؟

ثم تبصر العين من الناحية الجانبية حوائط ملتصقة به وساحة تمتد هابطة على هيئة سلالمك . على أننى لا أحسن التعبير تماماً ، فهى فى حقيقة الأمر غابة تلك التى تلتف حول القمة السحيقة القدم . منذ مائة وخمسين عاماً لم تسمع هنا دقة فأس ، وفى كل مكان تسمق الجذوع الهائلة عالية فى السماء ، وحيثما اقتربت من الجدران واجهتك أشجار الجميز الأملس ، والبلوط الخشن ، والصنوبر النحيل بسيقانها وجذورها . علينا أن نلتف حول هذه الأشجار ونتلمس دربنا على هدى وبصيرة . انظرى كيف عبر فناننا البارع عن هذه الجوانب المميزة على الورق فأحسن التعبير ، وكيف بين الأنواع المختلفة من السيقان والجذور وهى تتشابك بين الجدران ، والأغصان القوية وهى تنساب بين الثغرات ! إنها برية موحشة لا نظير لها ، محل شاءت الصدفة أن يكون فريداً فى نوعه ، يتضح فيه كيف تشتبك أقدم آثار القوة الإنسانية التى عفى عليها الزمان مع الطبيعة التى تواصل حياتها وخلقها منذ الأزل فى صراع جاد كل الجد.

ثم استطرد قائلا وهو يقدم لها لوحة أخرى : ماذا تقولين الآن عن فناء القصر الذى لم يرتده أحد منذ أن انهارت بوابة البرج ، ولم تطأه قدم من أعوام لا تعيها ذاكرة إنسان ؟ لقد حاولنا أن نبلغه من الناحية الجانبية ؛ خرقنا الجدران ، وفجرنا الأقبية ، وعبدنا بذلك طريقاً مريحاً ولكنه سوى . لم نجد حاجة لإزاحة شىء من داخل الفناء عن مكانه ، فهنا قمة صخرية ، مسطحة سوتها الطبيعة ، ولكن بعض الأشجار العظيمة قد وجدت الحظ والفرصة المواتية لتضرب بجذورها هنا وهناك ،

لقد نمت فى وداعة ولكن بشكل ملحوظ ، وهى الآن تمد أغصانها حتى تصل إلى داخل الأروقة ، التى كان الفرسان فيما مضى من الزمان يقطعونها جيئة وذهاباً ، بل إنها لتنفذ من خلال الأبواب والنوافذ حتى تبلغ الردهات ذات الأسقف المقوسة ، التى لم نشأ أن نطردها منها ، فقد أصبحت السيدة المسيطرة عليها ، ومن حقها أن تبقى كذلك . لقد اكتشفنا ونحن نكنس الأرض من أكوام ورق الشجر أعجب مكان مستوقد لا تقع العين على شبيه له فى العالم كله .

على أن الجدير بالملاحظة بعد هذا كله أن يرى المرء فى نفس الموضع كيف ضرب جذر الجميز فى الدرجات الصاعدة إلى البرج الرئيسى ، وكيف ارتفع على هيئة شجرة شامخة عظيمة ، حتى ليشق على الإنسان أن ينفذ منها ليعتلى شرفة البرج ويمتع بصره بمشهد غير محدود .

لنشكر إذن الفنان البارع الذى جعلنا نقتنع بكل ما أبدعته يده من صور مختلفة إبداعاً خليقاً بالحمد ، حتى ليخيل إلينا ونحن نشاهدها كأننا ماثلون فيها بأشخاصنا . لقد كرس لذلك أجمل ساعات الأيام والفصول ، وقضى أسابيع طويلة فى الطواف حول هذه الموضوعات . جهزنا له وللحارس الذى عهدنا إليه بمرافقته مسكناً صغيراً مريحاً فى هذا الركن . إنك لا تستطيعين يا عزيزتى أن تتصورى مدى ما بلغته المشاهد التى أعدها لنفسه هناك من جمال ، لكى يطل منها على الطبيعة والفناء والأسوار . إنه بعد أن خطط كل شىء تخطيطاً صافياً مميزاً ، سينصرف

نا إلى تنفيذها على راحته . نريد أن نزين بهو حديقتنا بهذه الصور ،
لا نسمح لأحد بأن يمتع عينيه بحوض زهورنا وعرشنا وممراتنا الظليلة
لمهدة حتى نتأكد من رغبته فى أن يعتلى هذا المرتفع الماثل هناك ويتملى
ن رؤية القديم والجديد ، والجامد والصامد رؤية صادقة ، ويتفكر فى
كل مالا تنال منه يد الزمان وما ينبض بنضارة الحياة ، فى ما يتثنى وينساب
فى مالا سبيل إلى مقاومة سحره .

دخل هونوريو وأعلن أن الجياد معدة للركوب ، فقالت الأميرة ،
ملتفتة إلى عمها : دعنا ننطلق بخيولنا إلى أعلى حتى تريني فى الواقع ما
ثلته لى فى الصورة . منذ أن حضرت إلى هذا المكان وأنا أسمع بهذا
المشروع ، وها أنا أحس بالشوق الشديد يدفعني إلى أن أرى بعيني ما بدا
فى الرواية مستحيلا ، وما يظل فى المحاكاة أمراً لا يحتمل التصديق .

الأمير قائلا : « لم يئن الأوان بعد يا حبيبتي ، إن ما شاهدته هنا هو
يمكن أن يكون وما سيكون ، فلم تزل هناك صعوبات لم يتم تذليلها ،
الفن ينبغى عليه أن يبلغ الكمال ، إذا أراد ألا يخجل من الطبيعة »..
لننطلق على الأقل فى الطريق الصاعد ، حتى ولو لم نصل إلا إلى السفح ،
ى أحس اليوم بشوق شديد إلى التوغل فى العالم والتطلع إلى ما فيه » .
نابها الأمير قائلا : « ليكن لك كل ما تشائين » — واستطردت السيدة
لة : ولكن دعنا نقم بجولة خلال المدينة ، فنعبر السوق الكبير ، الذى
تشد بعدد لا حصر له من الدكاكين التى بدت على هيئة مدينة صغيرة
مخيم عسكرى . لكأنى بحاجات الأسر جميعها فى هذه البلاد وبمشاغلها

قد انطلقت من مكانها وتجمعت فى هذا المركز وبرزت فى ضوء النهار ؛ ذلك أن الملاحظ المدقق يرى هنا كل ما ينجزه الإنسان وكل ما يحتاج إليه ، وقد يتوهم المرء لحظة أن المال لم تعد له ضرورة ، وأن كل تجارة يمكن أن تتم هنا عن طريق التبادل ، وكذلك الأمر فى الحقيقة . منذ أن أتاح لى الأمير بالأمس أن ألقى نظرة شاملة على هذا كله ، وأنا أجد لذة فى أن أفكر كيف يستطيع سكان الجبال وسكان الريف — وهما يتلاقيان على حدود مشتركة — أن يعبروا بمثل هذا الوضوح عما يحتاجون إليه و يرغبون فيه . فكما يعرف ساكن المناطق المرتفعة كيف يشكل خشب غاباته فى مئات من الصور والأشكال ، ويصنع من الحديد أنواعاً متعددة توافق كل طلب ، فكذلك يقابله ساكن الريف بألوان مختلفة من البضائع يكاد الإنسان يعجز عن تحديد المادة التى صنعت منها ، كما يعجز فى أغلب الأحيان عن تبين الهدف من ورائها .

رد الأمير قائلا : أعلم أن ابن أخى يوجه لهذه المسألة أوفى نصيب من عنايته ، إذ أن من أهم الأمور فى هذا الفصل من فصول السنة أن يأخذ الإنسان أكثر مما يعطى ، وإن تحقيق ذلك لهو فى نهاية الأمر غاية تدبير سياسة الدولة كلها ، كما هو لب التدبير المنزلى فى أصغر البيوت وأقلها شأناً . لكننى ألتمس منك المعذرة يا عزيزتى ، فإننى لا أتجول أبداً عن طيب خاطر على صهوة جوادى فى الأسواق والمهرجانات : ففى كل خطوة أجد من يعترض طريقى ويوقف سيرى ، وعندئذ يشب لهب الكارثة الفظيعة مرة أخرى فى مخيلتى ، تلك الكارثة التى اشتعلت أمام عينى

ما رأيت النار تأكل مثل هذه الأكداس المكدسة من البضائع ، إنى
كد . . .

قاطعته الأميرة بقولها : لا تدعنا نضيع على أنفسنا هذه الساعات
يلة . فقد سبق لهذا الشيخ الجليل أن أفزعها بالوصف المفصل لتلك
رثة ، إذ كان فى رحلة طويلة ، وقد لجأ إلى فراشه بعد أن أضناه
ب ، فى أفضل فندق فى السوق الذى كان يضج باحتفالات المهرجان
ى ، عندما هب من نومه فزعاً على أصوات الصراخ وألسنة اللهب
كانت تزحف على غرفته .

أسرعت الأميرة تعتلى صهوة جوادها الأثير ، وقادت صاحبها نحو
ب الأمامى منحدرة مع الطريق الهابط من الجبل ، بدلا من أن تسير
حو الباب الخلفى على الطريق الصاعد إليه ، والأمير على أثرها يتنازعه
ل والعصيان ، إذ من ذا الذى لا يقبل عن طيب خاطر أن يرافقها ،
من كان يتردد عن متابعتها راضياً سعيداً ؟ وكذلك تأخر هونوريو
ض اختياره عن اللحاق بموكب الصيد الذى كان دائماً ينتظر موعده
غ الصبر ، لكى يكون رهن إشارتها هى وحدها .

هكذا راحا يشقان طريقهما فى السوق خطوة خطوة كما كان منتظراً
، ولكن الجميلة الجديرة بالحب كانت تضفى على كل وقفة يقفانها
اً من المرح بملاحظة من ملاحظاتها الذكية .

قالت : إنى أستعيد الدرس الذى تلقيته بالأمس ، إذ أن الضرورة

تشاء على ما يبدو أن تمتحن صبرنا . والواقع أن جموع الناس كانت تتدفق على الفارسين تدفقاً جعلهما يتابعان طريقهما فى بطء شديد . تطلع الشعب مبتهجاً إلى السيدة الشابة ، وتجلى على الوجوه العديدة المبتسمة ارتياح غامر وهى ترى كيف أن السيدة الأولى فى البلاد هى فى نفس الوقت أجمل السيدات وأرقهن .

كانت الجماهير المحتشدة فى السوق مزيجاً من سكان الجبال الذين يرعون مساكنهم الهادئة بين الصخور وأشجار الصنوبر ، ومن سكان السهول القادمين من التلال والمراعى والمروج ، وأرباب الحرف والصنائع من المدن الصغيرة وغيرهم ممن تجمعوا هناك . ألقت الأميرة نظرة هادئة على الجموع المتزاحمة قبل أن تعبر لصاحبها عما لاحظته قائلة إن هؤلاء الناس جميعاً ، على اختلاف مواطنهم ، قد لبسوا من الثياب أكثر من حاجتهم ، ومن الأقمشة وأشرطة الزينة ما يفيض عليهم ، وكأن النساء لا يقنعن بالتباهى ، والرجال لا يشبعون من اللهو والفراغ .

رد عليها الأمير قائلا : فلندع لهم التصرف فى ذلك كما يحلو لهم ، فحيثما وجد الإنسان ما يفيض على حاجته الضرورية كان أكثر ما يرضيه ويدخل السرور على قلبه أن يتزين به ويزدان . هزت السيدة الجميلة رأسها موافقة على هذا الكلام .

وهكذا بلغا فى مسيرهما ساحة خالية كانت تؤدى إلى مدخل المدينة ، وتبينا بوضوح مبنى عظيماً نصب من القوائم والألواح يقع فى نهاية عدد

كبير من الدكاكين ومحال التجارة الصغيرة ، ما كادا يلمحانه حتى سمعا صراخاً هائلا يمزق الآذان .

كان يبدو أن ساعة إطعام الحيوانات المتوحشة التى تعرض هناك قد دنت ، أخذ الأسد يزأر بصوته الذى تعرفه الغابات والصحارى زئيراً عالياً ، وراحت الجياد تنتفض ، ولم يكن فى وسع المرء أن يمنع نفسه من أن يلاحظ كيف يعلن ملك القفار عن نفسه على هذا النحو المخيف وسط العالم المتحضر المسالم بطبيعته وأفعاله . لم يكن فى وسعهما وهما يقتربان من صالة العرض أن يغفلا اللوحات الملونة الهائلة التى تصور بألوان صارخة ورسوم قوية التأثير تلك الحيوانات الغريبة ، التى لا بد أن المواطن المسالم يحس متعة غلابة فى التفرج عليها . كان هناك نمر عابس ضخم يقفز على زنجى أسود يريد أن يمزقه إربا ، وأسد يقف فى جلال وقفة مهيبة ، كأنه لا يرى أمامه فريسة جديرة بأن يهجم عليها ، وكانت هناك إلى جانب ذلك مخلوقات عجيبة ملونة لم تكن تستحق سوى نصيب ضئيل من الاهتمام .

قالت الأميرة : نريد عند عودتنا أن نهبط من على ظهور جيادنا ونتأمل الضيوف النادرة عن كثب . رد الأمير قائلا : من العجيب حقاً أن الإنسان يريد دائماً أن يستثيره شىء مفزع . إن النمر يرقد فى قفصه فى غاية الهدوء ، أما فى هذه الصورة فلابد له أن يقفز فى شراسة على زنجى ، لكى يعتقد الناس أنهم سيرون مثل هذا المشهد فى الداخل ، وكأن البشر

لا يكفيهم ما فى العالم من قتل واغتيال ، ومن حريق ودمار ، فيضطر المغنون فى الشوارع أن يكرروا عند كل زاوية أن الناس يريدون دائماً أن يدخل نفوسهم الرعب لكي يشعروا بعد ذلك كم هو جميل أن يتنفس الإنسان فى حرية وكم هو شيء خليق بالحمد والثناء .

ومهما يكن من الضيق الذى تركته هذه الصور المفزعة فى النفوس ، فقد زال كل أثر له على الفور عندما وصلا إلى الباب ووجدا أنفسهما يدخلان منطقة بهيجة صافية الأديم . كان الطريق يفضى إلى حافة النهر ، الذى لم يزد عن أن يكون مجرى ضيقاً من الماء لا يحمل غير القوارب الخفيفة ، وإن كان قد اشتهر اسمه على مر الأيام فعرف بالنهر العظيم الذى يمر ببلدان عديدة فينعشها بالحياة. ثم واصل الركب صعوده فى هدوء ورفق بين بساتين فاكهة وحدائق زينة بولغ فى العناية بها ، وأخذوا يتطلعون حولهم إلى الناحية الطليقة الآهلة بالسكان حتى اعترضتهم أجمة شقوا طريقهم خلالها . ثم احتوتهم غابة صغيرة وزادت المناظر الخلابة نظرتهم حدة وأنعشتهم . وتلقاهم بالترحاب واد من المراعى مائل إلى الارتفاع يشبه بساطاً من القطيفة اجتثت أعشابه للمرة الثانية منذ عهد قريب ، ترويه عين ثرة تسيل فى غزارة وحيوية من مرتفع قائم فوقه . وهكذا تابعوا سيرهم متجهين إلى موضع أكثر ارتفاعاً ورحابة ، بلغوه وهم فى سبيلهم إلى الخروج من الغابة بعد أن بذلوا فى الصعود إليه جهداً شاقاً ، عندئذ أبصروا القلعة العتيقة ، هدف رحلتهم ، على مسافة غير قليلة منهم ، تسمق شامخة خلف مجموعات جديدة من الأشجار وكأنها قمة صخرية

أو ذؤابة شجر فى الغابة . ولمحوا خلفهم – إذ أن من المستحيل على الإنسان أن يبلغ هذا المكان دون أن يتلفت وراءه – من خلال ثغرات اتفق وجودها بين الأشجار العالية ، قصر الأمير فى الجهة اليسرى ، تغمره أشعة شمس الصباح ، والجزء العلوى من المدينة تلفه سحب خفيفة من الدخان ، أما فى الجانب الأيمن فقد لحوا على الفور الجزء الأسفل من المدينة والنهر بتعرجاته ومراعيه وطواحينه ، كما تبينوا قبالتهم منطقة شاسعة حافلة بالزرع والثمر .

بعد أن أشبعوا عيونهم من رؤية هذا المشهد ، أو بالأحرى بعد أن أحسوا بالشوق يدفعهم إلى رؤية مشهد آخر أبعد منه وأرحب ، على نحو ما يحدث لنا عادة حين نتلفت حولنا من مكان شامخ كهذا ، مضوا بخيولهم نحو بقعة مسطحة عريضة مملوءة بالأحجار ، وهناك واجههم الطلل العظيم كأنه قمة يعلوها تاج أخضر ، وعند قدميه على عمق كبير تنمو بعض الأشجار الهرمة . انطلقوا يعبرون هذه المنطقة الصخرية حتى وجدوا أنفسهم يقفون أمام أشد جوانبها انحداراً وأكثرها وعورة . كان ثمة صخور هائلة تقف فى مكانها من أقدم الأزمنة ، لم تمسسها يد التحول ، ثابتة ، متينة البنيان ، تتعالى على هيئة الأبراج . أما الأكوام المنهارة بينها من الصفائح الضخمة والأنقاض المتراكمة المختلطة فقد بدت عصية على هجوم أشجع الشجعان . ولكن يظهر أن المنحدر يوافق طبع الشباب ، فالإقدام على قهره والمخاطرة بغزوه والانقضاض عليه متعة تلذ للأعضاء الشابة . أبدت الأميرة رغبتها فى المحاولة ، ووقف هونوريو على أهبة

الاستعداد لمرافقتها ، أما الأمير العم فقد تمهل قليلا قبل أن يبدى موافقته ، إذ لم يشأ أن يظهر فى مظهر الضعيف عنهم . كان عليهم أن يوثقوا الجياد فى الأشجار القائمة عند السفح ، وأن يبلغوا نقطة تبرز عندها صخرة هائلة تنبسط فوقها بقعة مستوية يمكن للعين أن ترى منها مشهداً ربما اقترب من نظرة الطائر ولكنه مع ذلك يمتد فى مشاهد متعددة بهيجة الألوان .

كانت الشمس ، وقد أوشكت أن تتبوأ سمتها الأعلى ، ترسل ضوءا باهراً . وبدا قصر الأمير بأجزائه المختلفة ، وأبنيته الرئيسية ، وأجنحته وقبابه وأبراجه فخماً رائعاً ، والجزء الأعلى من المدينة فى كامل امتداده ، وكان من السهل أن يتوغل الإنسان ببصره فى جزئها الأسفل ، بل لقد كان فى وسعه أن يميز بين محال التجارة المنتشرة فى السوق من خلال المنظار المكبر . وكان من عادة هونوريو أن يحكم وضع مثل هذه الأداة النافعة ، فاستطاع الناظرون من خلالها أن يروا النهر المنحدر شمالا وجنوباً ، وأن يتأملوا الأراضى الخصبة من الناحية القريبة على هيئة سلاسل من الجبال متدرجة متقطعة ، ومن الناحية البعيدة على شكل تلال معتدلة ، وأن يلمحوا من القرى ما لا حصر له ، فقد تعود الناس من قديم الزمان أن يختلفوا على العدد الذى يمكن أن تراه العين منها من فوق هذا المكان المرتفع .

على مدى الأفق الشاسع رقد سكون صاف ، على نحو ما هو مألوف

فى ساعات الظهيرة ، حين كان العجائز يقولون إن « پان »* ينام فى مثل هذا الوقت وأن الطبيعة تحبس أنفاسها لكى لا توقظه .

قالت الأميرة : ليست هذه هى أول مرة أقف فيها على مثل هذا المرتفع الشاهق المطل على المدى البعيد وأتأمل كيف تبدو الطبيعة الصافية نقية مسالمة وكيف توحى للإنسان كأنه لا يمكن أن يكون فى العالم شىء منغص على الإطلاق ، حتى إذا عاد المرء إلى مساكن البشر ، سواء أكانت عالية أم وطيئة ، رحبة أم ضيقة ، وجد دائماً ما يكافح من أجله ويتنازع ، وما يصحح وضعه أو يصالح .

هتف هونوريو ، الذى كان يتطلع فى هذه الأثناء من خلال المنظار المكبر ، قائلا : انظروا إلى هناك ! انظروا إلى هناك ! لقد بدأ السوق يحترق ! وتطلع الجميع إلى حيث أشار ، فلاحظوا الدخان يتصاعد ، واللهب يرسل سحابة من البخار تحجب وجه النهار . وهتف صوت كان صاحبه ما يزال يتطلع من خلال المنظار : إن النار تنتشر فيما حولها ! وظهرت الكارثة واضحة لعينى الأميرة بغير حاجة إلى المنظار ، كانت الأعين ترى من حين إلى حين وهجا ساطع الاحمرار ، وتصاعد البخار إلى أعلى وتكلم الأمير العم قائلا : هيا نعد أدراجنا ، ليس هذا حسناً ،

(*) أحد آلهة الخصب والرعى فى الأساطير الإغريقية ، ويصور فى هيئة بشرية ولكن بقدمى عنزة وقرنين . (م)

لقد كنت أخشى دائماً أن أحيا الكارثة للمرة الثانية .

فلما هبطوا إلى السفح وامتطوا صهوة جيادهم قالت الأميرة للسيد العجوز : أسرع أنت إلى هناك ، ولا تنس أن تأخذ السائس معك ، اترك لى هونوريو ، وسوف نتبعكم فى الحال .

أحس العم بما فى هذه الكلمات من الحكمة ، لا بل من الضرورة ، وانطلق مسرعاً بجواده ، بقدر ما تسمح به الأرض ، هابطاً على المنحدر الحجرى الحرب .

قال هونوريو بعد أن اعتدلت الأميرة فى جلستها على ظهر الجواد : يا صاحبة السمو ! أبتهل إليك أن تسيرى ببطء ! إن رجال الإطفاء فى المدينة والقصر على أحسن نظام ، ولن يربكهم مثل هذا الحادث المفاجئ الفظيع . أما هنا فالأرض كثيرة المزالق ، مملوءة بالأحجار الصغيرة والأعشاب القصيرة ، والإسراع بالركوب لا يؤتمن ، ولن نبلغ المدينة حتى تكون النار قد أخمدت . لم تستطع الأميرة أن تصدق ما قال ، فقد رأت الدخان ينتشر ، واعتقدت أنها لمحت برقاً متوهجاً ، وسمعت رعداً ، وتحركت فى مخيلتها كل الصور المفزعة التى أفلحت للأسف حكاية العم المبجل المتكررة عن حريق السوق الذى رآه ذات ليلة فى أن تحفرها فيها حفراً عميقاً .

كانت تلك الحادثة مخيفة حقاً ، مباغتة ومؤثرة بحيث تترك فى النفس فكرة مفزعة عن الكارثة المتكررة لا تزول عنها مدى الحياة . كان الوقت ليلاً عندما شب فى أرض السوق الواسعة التى تغص بالمحال الصغيرة حريق

مفاجئ راح يأكلها واحداً بعد الآخر ، قبل أن يتمكن النائمون فى هذه الأكواخ الهشة وحولها أن يجفلوا من أحلامهم العميقة ، وقفز الأمير نفسه إلى النافذة ، وهو المسافر الغريب الذى وصل من سفره متعباً ولم يكد يستسلم للنوم ، ورأى كل ما أمامه يتوهج بنار مخيفة ، وألسنة اللهب تقفز على اليمين والشمال وتوشك أن تمتد إليه .

انعكست ظلال النيران على البيوت المنتشرة فى السوق فكستها بالحمرة ، وبدت كأنها تتوهج بالفعل ، وتهدد بالاحتراق بين لحظة وأخرى ، ثار العنصر فى الأدوار السفلى ثورة غاضبة متصلة ، وقعقعت الألواح الخشبية ، وانشقت عوارض السقف ، وتطايرت الثياب فى الهواء وتناثرت مزقها المهلهلة الملتهبة التى اسودت من الدخان فى الجو ، وكأن الأرواح الشريرة التى تتقلب فى عنصرها ، وتتشكل أشكالا مختلفة تأكل بعضها بعضاً وهى ترقص جذلة نشوانة ثم تعود فتحاول هنا وهناك أن تشرئب برؤوسها من بين أمواج اللهب . أنقذ كل ما وقعت عليه يده وهو يصرخ صراخاً مفزعاً ، وبذل الخدم والأتباع مع أسيادهم أقصى جهدهم ليجروا معهم الأمتعة التى دهمتها ألسنة اللهب ، ويستخلصوا من الأطقم المشتعلة ما يستطيعون استخلاصه من بين براثن النيران ، لكى يضعوها فى الصناديق التى لم يجدوا فى نهاية الأمر مناصاً من أن يتركوها طعاماً للهب المتدافع نحوهم . وكم من واحد منهم تمنى لو تسكن النار الزاحفة لحظة واحدة ، لكى يلقى نظرة متأملة على ما حوله ، فإذا بالنيران المشتعلة تتلقفه وتأكل متاعه ، وما كان يحترق ويتوهج فى ناحية ، كان لا يزال فى ناحية أخرى غارقاً فى ليل

معتم السواد . أصحاب طباع عنيدة ، أناس ذوو إرادة قوية وقفوا فى ضراوة يقاومون العدو الضارى ، واستطاعوا أن ينقذوا بعض أشيائهم بعد أن خسروا حواجبهم وشعورهم . تجددت للأسف صورة هذه البلبلة المفزعة أمام روح الأميرة الجميل ، فبدا الأفق المتألق فى ضوء الصباح وصفائه غائماً متدثراً بالضباب ، وكست عينيها سحابة حزن معتمة ، واكتسبت الغابة والمراعى مظهرا غريباً يخنق الأنفاس .

لم يكد الركب يهبط إلى الوادى المسالم الوديع ، دون أن يلتفت إلى الرطوبة المنعشة المنبعثة منه ، ويقطع بضع خطوات بعيداً عن النبع المتدفق فى جدول قريب منساب ، حتى لمحت الأميرة شيئاً عجيباً يتحرك فى دغل يقع فى وادى المراعى السفلى ، عرفت على الفور أنه النمر ، يقفز قادماً نحوها كما رأته مرسوماً منذ حين ، واجتمعت هذه الصورة إلى الصور المفزعة التى كانت تشغل بالها فى هذه اللحظة فأثارت فى نفسها أعجب الانطباعات . هتف هونوريو : اهربى ياسيدتى الكريمة ! اهربى بنفسك! لوت زمام الجواد ، وسارت به ناحية الجبل الوعر ، الذى هبط الركب عليه منذ قليل . أما الشاب فواجه الوحش ، وانتزع مسدسه وأطلق عليه الرصاص ، عندما ظن أنه قريب منه بمسافة كافية ، غير أن الرصاصة أخطأته للأسف ، فقد قفز النمر جانباً ، وتعثر الجواد ، وتابع الحيوان العابس طريقه ، وأخذ يصعد الجبل فى أعقاب الأميرة مباشرة . راحت تحث الجواد بأقصى سرعة ممكنة ، صاعدة على الطريق الحجرى الوعر ، لا يكاد يخالجها الخوف من أن يعجز المخلوق الرقيق الذى لم يتعود على مثل

هذا المجهود الشاق عن احتمالها . انطلق الجواد بسرعة تفوق طاقته ، تحفزه صاحبته المكروبة ، فاصطدم بالصخور المستديرة على المنحدر مرتين ، حتى سقط على الأرض فاقد القوة بعد مجهود شاق . لم يعجز السيدة الجميلة أن تقف على قدميها على الفور ، مصممة خفيفة الحركة ، وكذلك نهض الجواد ، ولكن النمر كان يزداد اقتراباً ، وإن كان قد كفكف من سرعته قليلا ، فقد بدا كأن الأرض الوعرة ، والأحجار الناتئة ، قد عطلت من اندفاعه ، ولكن انطلاق هونوريو على أثره ، وخطاه المعتدلة التى كادت أن تحاذيه ، كان يبدو كأنها تستحث قوته وتحفزها من جديد .

بلغ المتسابقان فى نفس الوقت الموضع الذى كانت تقف فيه الأميرة مستندة على جوادها ، مال الفارس منحنياً بجسده ، أطلق الرصاص من بندقيته الثانية وأصاب الوحش فى رأسه ، فسقط لساعته ، وتمدد بطوله على الأرض فاتضح للعين بأسه وضراوته المرعبة ، التى لم يبق منها غير صورتها الجسدية .

كان هونوريو قد قفز من على جواده وركع على ركبته أمام الحيوان ، وراح يسكن اختلاجاته الأخيرة بينما أمسك فى يده اليمنى ببندقيته . كان الشاب جميل الطلعة ، وكان قد وثب مندفعاً إلى الأمام كما اعتادت الأميرة أن تراه فى ألعاب الرماية والمصارعة. كذلك كانت تصيب رصاصاته فى مسابقات الفروسية الرأس التركى المثبت فوق العمود ، وتنفذ إلى الجبهة

تحت العمامة مباشرة ، وكذلك كان يغرز بقفزة خفيفة منه سيفه الناصع في رأس العبد الأسود فيلتقطه من الأرض . كان في جميع هذه الفنون بارعاً موفور الحظ ، وقد اجتمعت كلها هنا على أحسن وجه .

قالت الأميرة : أجهز عليه ، فإنى أخاف أن يؤذيك بمخالبه ، فأجابها الشاب قائلا : معذرة : إنه قد شبع موتاً ، ولست أحب أن أفسد جلده ، الذى يصلح لأن يزين لكم مركبة الجليد فى الشتاء القادم .

قالت الأميرة : لا تجدّف ! إن كل ما يكمن فى أعماق القلب من التقوى والورع ، يتفتق فى هذه اللحظة . هتف هونوريو : أنا أيضاً لم أكن فى أى وقت مضى أتقى منى فى هذه اللحظة ، وأنا لذلك أفكر فيما يضفى البهجة على القلب ، حين أتطلع إلى هذا الجلد وأتصور أنه سيجلب لك المتعة فى رحلاتك . ردت الأميرة قائلة : إنه سوف يذكرنى دائماً بهذه اللحظة المفزعة .

أجاب الشاب ووجنتاه تلتهبان : وما هو فى الحقيقة إلا علامة انتصار بريئة ، كما تعرض أسلحة العدو المنهزم أمام القائد المظفر . قالت الأميرة : سوف أذكر دائماً جسارتك وبراعتك ، ولا يجوز لى أن أضيف أن فى استطاعتك أن تثق مدى الحياة فى امتنانى لك وتتأكد من عفو الأمير عنك .

ولكن قف على قدميك ، لقد زال من الحيوان كل أثر للحياة ،

لنتدبر ما بقى أمامنا ، قف على قدميك أولا !

أجابها الشاب قائلا : لما كنت أركع الآن أمامك ، فى وضع قد يُحرّم علىّ فى كل مناسبة أخرى ، فدعينى فى هذه اللحظات التى أحظى فيها بالتفاتك ألتمس اليقين من عطفك والتأكد من عفوك ورحمتك . لقد طالما توسلت إلى زوجك النبيل أن يأذن لى بالسفر فى رحلة بعيدة . إن الواجب على من يسعده الحظ بالجلوس إلى مائدتكم ، ومن تشرفونه بمسامرة جماعتكم أن يكون قد رأى العالم . إن المسافرين يتدفقون علينا من كل مكان ، وعندما يدور الحديث عن مدينة من المدن ، أو عن بقعة هامة فى أى جزء من أجزاء العالم ، يسأل الحاضرون زوجكم إن كان قد زارها بنفسه ؟ ولا يوصف أحد بالفهم حتى يكون قد رأى ذلك كله ، وكأن الإنسان لا يتعلم إلا ليعلم غيره .

عادت الأميرة تقول : قف على قدميك ! إننى أكره أن أطلب شيئاً أو أتمنى شيئاً يخالف ما يقتنع به زوجى ، ولكننى أعتقد ، إن لم أكن مخطئة ، أن السبب الذى جعله يستبقيك حتى الآن سيزول قريباً . لقد كان غرضه أن يراك وقد أصبحت نبيلا ناضجاً مستقلا ، يشرفه ويشرف نفسه فى خارج البلاد ، كما شرفه فى البلاط ، وأحسب أن صنيعك هذا هو خير جواز سفر يمكن أن يحمله شاب مثلك ليجوب به أنحاء العالم .

لم يكن لدى الأميرة متسع من الوقت لتلاحظ الحزن الذى كسا وجه

الشاب بدلا من فرحة الشباب ، ولا كان لدى الشاب وقت للتعبير عن إحساسه ، فقد هرولت امرأة صاعدة على الجبل وهى تمسك بصبي فى يدها نحو الجماعة التى نعرفها ، ولم يكد هونوريو ينهض على قدميه ويفيق إلى نفسه حتى كانت تلقى بنفسها فوق جثة النمر وهى تولول وتصرخ . كان من السهل أن يدرك المرء على الفور من مسلكها ، ومن ملابسها الملونة الغريبة ، التى كانت مع ذلك نظيفة محتشمة ، أنها هى صاحبة هذا المخلوق الممدد على الأرض وحارسته — ركع الصبي إلى جانبها ، وكان أسود العينين ، أسود خصلات الشعر ، يحمل فى يده نايا ، ويبكى بكاء أمه ، فى تأثر عميق ، وإن يكن أقل منها عنفاً .

تفجرت لوعة هذه المرأة الشقية جياشة عارمة ، ثم فاض منها نهر من الكلمات مختنق متدافع ، كما يتدفق الجدول منحدراً من صخرة إلى صخرة ، فى لغة فطرية ، قصيرة ومتقطعة ، نفاذة ومؤثرة ، عبثاً يحاول المرء أن يترجمها إلى لهجاتنا المألوفة ، ولا يجوز لنا أن نتكتم عن القارئ مضمونها على وجه التقريب : قتلوك أيها الحيوان المسكين ! قتلوك بغير داع ! كنت أليفاً وكان أحب شيء إليك أن ترقد فى هدوء وتنتظر حتى نحضر إليك ، فقد كانت أقدامك تؤلمك ، ومخالبك زالت عنها القوة ! وكنت تفتقد الشمس الدافئة التى تشد بأسها . بين أشباهك كنت أجمل النمور ، من قدر له أن يرى نمراً ملوكياً فى هذه العظمة ممدداً فى نومه ، كما ترقد أنت الآن ، ميتاً ، لا يستطيع أن يقف على قدميه . حين كنت تستيقظ فى مطلع النهار وتفتح حنكك وتمد لسانك المحمر كنت تبدو وكأنك تبتسم لنا ، وكنت ،

على الرغم من زئيرك ، تتناول طعامك وأنت تمرح وتلعب من يدى امرأة ، من بين أصابع طفل ! ما أكثر ما صحبناك فى أسفارك ، وما أكثر ما كانت صحبتك ضرورية لنا ومثمرة !

لم تكن قد فرغت من شكواها حين لمح الحاضرون فوق المرتفع الأوسط من الجبل المطل على القصر فرسانا يندفعون نحوهم ، سرعان ما عرفوا فيهم الأتباع المرافقين للأمير فى رحلة الصيد ، يتقدمهم الأمير نفسه ، كانوا يصطادون فى المناطق الجبلية الخلفية حين رأوا سحب الدخان تتصاعد من الحريق ، فاجتازوا الوديان والمهاوى وكأنهم يطاردون صيدا محموماً ، سالكين الطريق المستقيم المؤدى إلى هذه العلامة المحزنة . وما إن بلغ ركبهم القمةالحجرية العارية حتى توقفوا عن السير وأخذوا يبحلقون أمامهم ، فقد لمحوا الجماعة التى نعرفها متميزة تميزاً عجيباً على الأرض المستوية الخالية . وبعد التعارف الأول عقدت الدهشة الألسنة ، وبعد أن استراحوا بعض الشيء أخذوا يشرحون لهم بكلمات قليلة ما غمض عليهم من المشهد الذى وجدوه أمامهم . وهكذا وقف الأمير أمام الحادث النادر العجيب ، تحيط به كوكبة من الفرسان والأتباع الذين أسرعوا يلحقون به عند قدميه . لم يكن ثمة مجال للتردد فيما ينبغى فعله ، فقد أخذ الأميريصدر أوامره ويشرف على تنفيذها حين اندفع إلى داخل الحلقة رجل عظيم البنيان ، عليه ملابس ملونة عجيبة تشبه ملابس المرأة والصبى . عبرت الأسرة مجتمعة عن ألمها واستغرابها . أما الرجل فقد وقف فى اتزان أمام الأمير ، تفصله عنه مسافة من البعد يفرضها الخشوع والإجلال

وقال : ليس هذا هو أوان الشكوى ، آه يا سيدى . يا أيها الصياد العظيم ، إن الأسد أيضاً قد أفلت من مكمنه وانطلق نحو الجبل ، ولكن ترفقوا به ولا تؤذوه ، كونوا رحماء حتى لا يقتل كما قتل هذا الحيوان الطيب .

سأل الأمير : الأسد ؟ وهل تعلم أثره ؟

ـ أجل يا سيدى . إن فلاحاً يسكن هناك فى الوادى، استطاع أن ينجو بنفسه فوق شجرة ، قد دلنى على الطريق الصاعد إلى اليسار ، ولكننى أبصرت أمامى جماعة كبيرة من الناس والجياد ، فأسرعت إلى هنا يدفعنى حب الاستطلاع والتماس المعونة .

قال الأمير مصدراً أوامره : إذن فعلى ركب الصيد أن يتجه إلى هذه الناحية ، عليكم أن تعمروا بنادقكم ، انصرفوا إلى عملكم فى رفق وأناة ، لن يقع شر لو طاردتموه إلى مجاهل الغابات ، ولكننا لن نستطيع فى نهاية المطاف ، أيها الرجل الطيب أن نصون مخلوقكم من الأذى ، ما الذى جعلك تهمل فى حراسته حتى أفلت منك ؟

أجاب الرجل قائلا : شب الحريق ، تمسكنا بالهدوء وأعصابنا متوفزة ، انتشرت النار بسرعة ، ولكنها بقيت بعيدة عنا ، كان عندنا ما يكفينا من الماء للدفاع عن أنفسنا ، ولكن شحنة من البارود طارت فى الجو وقذفت بالنيران على مسافة قريبة منا ، أسرعنا بالفرار وها نحن الآن قوم تعساء .

كان الأمير ما يزال مشغولا بإصدار أوامره ، ومضت لحظة بدا فيها

كأن كل شيء يتعثر ، عندما رأى الحاضرون رجلا يهرول نحوهم من القلعة العتيقة ، سرعان ما عرفوا فيه الخفير المعين لحراسة مرسم الفنان ، فقد كان يقيم فيه ويتولى الإشراف على العمال . أقبل يقفز نحوهم وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه ، ولم تمض لحظة حتى كان يعلن بكلمات قليلة أن الأسد قد لجأ إلى السور العالى وأنه يتمدد هناك فى ضوء الشمس ، ويرقد فى غاية الهدوء عند أقدام شجرة من أشجار الزان . ثم أضاف الرجل فى سخط : لماذا حملت بندقيتى أمس إلى المدينة للتنظيف ! لو أنها كانت الآن فى يدى لما عاد إلى الوقوف على قدميه ، ولأصبح جلده ملكاً لى ، واستطعت أن أتدثر به مدى الحياة .

عندئذ قال الأمير ، الذى نفعته تجاربه العسكرية السابقة فى هذا الموقف أيضاً ، حين كان يجد نفسه فى حالات كثيرة فى مواجهة شر لا محيد عنه يتهدده من نواح كثيرة : إذا صُنا أسدك فأى ضمان تقدمه لى على ألا يؤذى أهل مملكتى ؟ رد الوالد متعجلا : هذه المرأة هنا وهذا الصبي على استعداد لأن يروضاه ويحافظا على هدوئه حتى أحضر الصندوق المطعم، فنعيده إلىمكانه ، دون أن يناله ضرر أو يصيب أحداً بأذى.

بدا على الصبي أنه يريد أن يجرب نايه ، وكانت آلة من ذلك النوع الذى اعتاد الناس أن يسموه بالناى الناعم الحلو ، كانت معقوفة كالغليون، ومن عرف كيف ينفخ فيها استطاع أن يخرج منها أعذب الأنغام . سأل الأمير الحارس كيف تمكن الأسد من الوصول إلى ذلك المرتفع . فرد

هذا قائلا : عبر النفق الذى تحيط به الأسوار من جانبيه ، وهو الذى كان دائماً المدخل الوحيد وينبغى أن يظل كذلك ، لقد غيرنا معالم الدربين الصاعدين بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى القلعة المسحورة حتى يسلك ذلك الطريق الأول الضيق ، الذى يريد الأمير فريدريش أن ينمقه بما يشاء له روحه وذوقه .

تفكر الأمير قليلا ، وأخذ يتطلع إلى الصبى الذى كان لا يزال يجرب نايه فيخرج منه نغم هادئ رقيق ، ثم التفت إلى هونوريو وقال : لقد حققت اليوم الكثير ، فأتم عمل اليوم . قم باحتلال الطريق الضيق ، وجهز بنادقك فى حالة استعداد ، ولكن لا تطلق الرصاص إلا إذا لم تجد وسيلة أخرى لتخويفه ورده على أعقابه مذعوراً ، أشعلوا على كل الأحوال ناراً ليخاف منها إذا أراد أن ينزل من مكانه . وما بقى بعد ذلك فسيتعهد به الرجل وزوجته. أسرع هونوريو ينفذ ما ألقى إليه من الأوامر .

أخذ الصبى يتابع لحنه ، الذى لم يكن فى الحقيقة لحناً بل سلسلة من الأنغام لا تخضع لقانون ، وربما كان هذا هو السبب الذى جعلها تأسر القلب . بدا على الواقفين حوله كأنهم مسحورون من وقع هذا النغم الذى ينساب كالنشيد ، عندما بدأ الوالد يتكلم فى حماس معتدل ويقول : الرب وهب الأمير الحكمة ، كما ألهمه المعرفة بأن جميع أعماله حكيمة ، كل بحسب طبيعته : انظروا إلى الصخر كيف يقف ثابتاً لا يتحرك ،

وكيف يتحدى تقلبات الجو وضوء الشمس ، أشجار سحيقة القدم تزين هامته ، يطل على ما حوله والتاج فرق رأسه ، حتى إذا انهار جزء منه إلى المنخفض ، لم يرد أن يبقى على حاله القديم ، بل تساقط متفتتا إلى قطع عديدة ، وغطى جانب المنحدر . إلا أن هذه القطع الصغيرة لا تريد أن تتلبث فى مكانها ، إنها تقفز مرحة إلى أسفل ، الجدول يلتقطها ، وإلى النهر يحملها. إنها لا تقاوم ولاتعاند، ولا هى حادة الأضلاع بل ملساء مستديرة ، تشق طريقها مسرعة وتجرى من نهر إلى نهر ، حتى تنتهى إلى المحيط ، هناك يخطر العمالقة جماعات ، وفى الأعماق يتزاحم الأقزام .

ومع ذلك فمن ذا الذى يمجد الرب الذى تسبح النجوم بحمده من الأزل إلى الأبد ؟ لماذا تتلفتون بعيداً ؟ تأملوا هذه النحل ! إنها تنشط فى أواخر الخريف فتجمع غذاءها وتبنى لها بيتاً ، ذا زوايا أفقية وحادة ، يشترك فيه ملكتها وعاملاتها . انظروا إلى هذه النملة ! إنها تعرف طريقها ولا تضله ، تبنى مسكنها من الأعشاب والحصى وإبر الشوك ، إنها تبنيه على ارتفاع وتحكم بناءه ، لكن تعبها قد ذهب هباء ، فالحصان يضرب الأرض بحوافره ويهدم كل ما بنته ، انظروا هناك ! إنه يدوس على قوائم سقفها ، ويبعثر ألواحها ، ويلهث فارغ الصبر ولا يريد أن يهدأ ، ذلك أن الرب قد جعل الخيل رفيقاً للريح وخدنا للعاصفة ، حتى يحمل الرجل إلى حيث يريد ، والمرأة إلى حيث تشتهى . لكنه دخل غابة النخيل ، الأسد دخل غابة النخيل ، جاد الخطى ساريتوغل فى الصحراء ، هناك يسود جميع الحيوان وما من أحد يقف فى وجهه .

ومع ذلك فالإنسان يعرف كيف يروضه ،ا وأشد المخلوقات ضراوة يرهب صورة الرب ، التى جبل الملائكة أنفسهم على مثالها ، أولئك الذين يطيعون الله ويطيعون من يطيعه . ذلك أن دانيال لم يخش شيئاً حين وجد نفسه فى مغارة الأسد ، بقى مؤمناً ثابت الجنان ، لم يقطع الزئير الوحشى صلاته الورعة .

صاحب الصبى هذه الخطبة المعبرة عن الحماس الفطرى هنا وهناك بأنغام ساحرة ، فلما فرغ الأب منها بدأ الصبى يغنى بحنجرة نقية ، وصوت جلى ، وتوقيعات بارعة ، وما لبث الأب أن أمسك بالناى وأخذ يصاحب ابنه الذى راح ينشد :

من المغارات ، فى الحفر
أسمع أنشودة النبى
ترف من حوله الملائك
تنعشه بالندى النقىّ
فأى شر ، وأى ضر
يحدث للطيب التقىّ ؟
تطوف من حوله الأسود
تريد لو أشبعته لثما
لو زادها الحب منه قرباً
سحر الأناشيد والأغانى

تفيض من قلبه الوفى
قد عطفت قلبها إليه

استمر الأب فى مصاحبة هذا المقطع بصفارته ، وشاركت الأم هنا وهناك بصوتها .

زاد من تأثير الغناء على الحاضرين أن الصبى راح يعيد سطور هذه المقطوعة بترتيب آخر وأنه ، وإن لم يأت بمعنى جديد ، قد زاد العاطفة فى ذاتها تأثراً وانفعالا :

ملائكة الله فى موكب
ترفرف صاعدة هابطة
لتنعش أرواحنا بالنغم
وتسعدنا بغناء السماء !
بجوف المغارات ، أو فى الحفر
أليس الصبى هنا فى أمان ؟
أغان تفيض علينا التقى
وتنقذنا من مهاوى الشقاء
ملائكة الله فى موكب
ترفرف صاعدة هابطة
وتلك مشيئته والقضاء !

وهنا بدأ الثلاثة جميعاً ينشدون بصوت قوى مرتفع :

الخالد يحكم فى الأرض
نظرته سادت فى البحر ،
الأسد انقلبت حملانا
والموج تراجع للخلف ،
والسيف المصقول اللامع
أمسى يتجمد فى الغمد ،
الأمل تحقق والدين
وتجلت معجزة الحب
نورا فى صلوات المؤمن .

وقف الجميع فى سكون ، يرهفون الأسماع وينصتون ، حتى إذا خفتت الأنغام بدا أثرها عليهم واضحاً ملحوظاً . كانوا كأنما هبط عليهم السلام ، وغلب التأثر كل واحد منهم فظهر على وجهه فى صورة مختلفة . أما الأمير ، الذى بدا عليه كأنه بدأ الآن يدرك الكارثة التى هددته منذ قليل ، فقد انحنى ينظر إلى زوجته التى استندت إليه ولم تستطع أن تملك نفسها من إخراج المنديل المطرز لتغطى به عينيها . شعرت بالارتياح إذ أحست بصدرها الشاب يتخفف من عبء أثقلته به اللحظات السابقة . خيم على الجميع سكون شامل ، وبدا كأنهم قد نسوا الأخطار التى تهددهم ؛ الحريق من تحتهم ومن فوقهم الأسد الرابض فى هدوء مريب .

أشار الأمير بإحضار الخيول فأشاع الحركة فى الجمع الساكن من

جديد ثم التفت إلى المرآة قائلا : هل تعتقدين إذن أنكم تستطيعون بغنائكم وغناء هذا الصبي وعلى رنين نغمات الناى أن تهدئوا روع الأسد الهارب حيثما لقيتموه ، وأن تعيدوه إلى مكمنه دون أن يناله الضرر أو يمس أحداً بشر ؟

ردوا بالإيجاب ، وأمنوا على قولهم مؤكدين ، وطلبوا أن يصحبهم الحاجب ليدلهم على الطريق فأجيبوا إلى طلبهم . ثم أسرع الأمير مبتعداً مع نفر من أتباعه ، وتبعته الأميرة مبطئة مع بقية الحاشية . أما الأم وولدها فمضيا يصعدان الطريق الوعر المؤدى إلى الجبل ، يرافقهما الحارس الذى أحكم بندقيته على كتفه .

وقبل أن يضعوا أقدامهم على النفق المؤدى إلى مدخل القلعة ، وجدوا الصيادين مشغولين بتكويم الحطب الجاف ، لكى يتمكنوا من إشعال النار إذا دعت الحاجة إلى ذلك . قالت المرأة : لاداعى لهذا ، فسوف يتم كل شيء فى سلام .

لمحوا هونوريو من بعيد جالساً على جانب من السور ، واضعاً بندقيته ذات الفوهتين فى حجره ، وكأنه يستعد لمواجهة كل حادث طارئ . ولكن لم يبد عليه أنه انتبه إلى القادمين نحوه ، فقد جلس فى مكانه كأنه مستغرق فى أفكاره ، يتلفت حوله كما لو كان شارد البال . توسلت المرأة إليه ألا يأمر بإشعال النار ، ولكن بدا عليه أنه لم يعرها غير قليل من الانتباه ، وعادت المرأة تستعطفه فى حرارة وتهتف قائلة : أيها الشاب

الجميل ، لقد قتلت نمرى ، أنا لا ألعنك ، أبق على أسدى ، أيها الشاب الطيب ، إننى أباركك .

تطلع هونوريو أمامه ، هنالك حيث كانت الشمس تميل للغروب . هتفت به المرأة : أنت تتطلع للسماء . حسناً تفعل . هناك يستطيع المرء أن يفعل الكثير ، أسرع فحسب ، لا تتردد ، سوف تتغلب . ولكن تغلب على نفسك أولا .

هنالك بدا عليه كأنه يبتسم . مضت المرأة صاعدة على الطريق الوعر المرتفع ، ولكنها لم تستطيع أن تتمالك نفسها من الالتفات وراءها مرة أخرى لتلقى نظرة على الشاب الذى تخلف وحده . كانت شمس الغروب تكسو وجهه بالاحمرار ، وخيل لها كأنها لم ترفى حياتها شاباً فى مثل هذا الجمال .

قال الحارس المرافق لها : إذا استطاع طفلك ، كما تعتقدين ، أن يستدرج الأسد ويهدئه بالغناء والعزف على الناى ، فسوف نتمكن من السيطرة عليه فى غاية السهولة ، إذ أن الحيوان الضارى قد اتخذ له مأوى قريباً من القبو المفتوح ، الذى أفلحنا فى أن نقيم فيه مدخلا يؤدى إلى القلعة بعد أن اندثرت البوابة الرئيسية . فإذا تمكن الصبى من استدراجه إلى الفناء ، فسوف يكون من السهل على أن أغلق الفتحة بجهد بسيط ، أما الصبى فيستطيع عندئذ ، إن راق له ذلك ، أن يفلت من الوحش عن طريق أحد السلالم اللولبية الصغيرة التى يراها فى الزاوية . نريد أن نتخفى ، أما أنا فسأضع نفسى بحيث تكون رصاصتى على استعداد لنجدة الصبى

فى أية لحظة .

قالت المرأة : ليس هناك ضرورة لكل هذه الاحتياطات ، إن الله والفن ، والتقوى والحظ ستدبر حتما ما فيه الخير .

أجاب الحارس : ليكن الأمر كما تقولين ، ولكننى أعرف واجباتى . سأتقدمكما أولا على طريق صاعد شاق ونعتلى السور المواجه للمدخل الذى ذكرته مباشرة ، والذى يستطيع الصبى أن يهبط منه كما لو كان يهبط إلى ساحة الملعب ، ويستدرج الحيوان إلى هناك بعد أن يهدئه .

تم بالفعل ما أشار به الحارس ، وأخذ هو والأم ينظران من مخبئهما فوق السور كيف ظهر الصبى فى الفناء المكشوف بعد أن هبط السلالم اللولبية ، وكيف اختفى فى الركن المعتم المواجه لهما ، ثم سمعا فى نفس الوقت نغماً ينساب من الناى ، أخذ يخفت شيئاً فشيئاً حتى انقطع . مرت فترة من السكون مفزعة حقاً ، وبعث الموقف الإنسانى النادر الخوف فى قلب الصائد العجوز الذى جرب الأخطار .

قال فى نفسه إن من الأفضل أن يتقدم لمواجهة الوحش الخطير بنفسه أما الأم التى مالت على السور وراحت تتصنت صافية الأسارير فلم يبد عليها ما ينم عن القلق .

واخيراً سمع صوت الناى من جديد ، وبرز الصبى من المغارة بعينين لامعتين راضيتين ، يتبعه الأسد بخطوات بطيئة ولكنها تكشف على ما يبدو

عن ألم يعانى منه . كان يظهر عليه من حين إلى حين كأنه يريد أن يتمدّد بجسده على الأرض ، غير أن الصبي راح يسوقه فى نصف دائرة خلال الأشجار الزاهية التى تساقطت بعض أوراقها ، فلما أرسلت الشمس أشعتها الأخيرة من خلال كوة فى الأطلال الخربة جلس الصبي أخيراً على الأرض ، وكأنه قد تجلى واستحال نوراً خالصاً ، وبدأ ينشد من جديد أغنيته التى تبعث فى النفس الطمأنينة والسلام ، والتى لا يسعنا نحن أيضاً إلا أن نعيدها :

من المغارات فى الحفر
أسمع أنشودة النبىّ ،
تطوف من حوله الملائك
تنعشه بالندى النقىّ ،
فأى شر ، وأى ضر
يحدث للطيب التقىّ ؟
تطوف من حوله الأسود
تريد لو أشبعته لثما
لو زادها الحب منه قربا
سحر الأناشيد والأغانى
تنساب من قلبه الوفىّ
قد عطفت قلبها إليه

كان الأسد في هذه الأثناء قد تمدد على الأرض وانعطف بكليته على الصبي ، ورفع مخلب يمناه الأمامية الثقيل فوضعه على حجره ، فراح الصبي يربت عليه في رفق وهو ما يزال يردد أغنيته ، ولكنه سرعان ما لاحظ شوكة حادة قد نفذت بين حنايا اللحم . مدّ يده في حرص فاستل الشوكة الجارحة ، وتناول مبتسما منديله الحريري الملون الذى يلفه حول رقبته ، وربط به مخلب الوحش المخيف ، واشتد الفرح بالأم التي مالت إلى الوراء مادة ذراعيها ، ومن يدري ، فلعلها كانت تهتف وتصفق على مألوف عادتها ، لو لم ينبهها الحارس بلكزة غليظة من قبضة يده إلى أن الخطر لم يزل بعد .

انطلق الطفل يغنى في نشوة الانتصار ، بعد أن مهد لأنشودته ببعض الأنغام :

الخالدُ يحكم في الأرض
نظرته سادت في البحر
الأسد انقلبت حملانا
والموج تراجع للخلف
والسيف المصقول اللامع
أمسى يتجمد في الغمد
الأمل تحقق والدين
وتجلت معجزة الحب
نورا في صلوات المؤمن

لو أمكن للإنسان أن يتصور فى ملامح مثل هذا المخلوق الباطش ، جبار الغابات ، وطاغية مملكة الحيوان تعبيراً عن الود والامتنان ، فله أن يتصور أن ذلك هو ما حدث هنا . والحق أن الطفل قد بدا فى صفاته كأنما هو غالب قوى منتصر ، أما الأسد فلم يبد كالمغلوب ، لأن قوته ظلت كامنة مستورة فيه ، بل ظهر فى صورة الوحش المروّض الذى استسلم لإرادته المسالمة. استمر الصبي يصفر فى الناى ويغنى ، على عادته فى إدماج السطور فى بعضها البعض وإضافة الجديد منها إليها :

طوبى لأطفال صغار
يهديهم الملكُ الرحيم ،
الشرّ يمنعُ عنهم
ويشجع الفعلَ الجميل ،
واللحن والحس التقى ،
يقيدان ويأسران
بالسحر جبار الوحوش
لركبة الولد الحبيب .

الحكاية

على ضفة النهر العظيم ، الذى هطلت عليه منذ قليل أمطار غزيرة ففاض الماء على شاطئيه ، رقد المراكبى العجوز فى كوخه الصغير ، مضنى من عناء النهار ، واستسلم للنوم . فى منتصف الليل أيقظته أصوات مرتفعة ، سمع مسافرين ينادون عليه يريدون أن يعبروا إلى الشاطئ الآخر . عندما دلف من باب الكوخ ، رأى نورين عظيمين تائهين * يرفان فوق القارب الموثق ، أكدا له أنهما فى عجلة شديدة وأنهما يريدان أن يكونا على الشاطئ الآخر فى أسرع وقت ممكن . لم يتردد العجوز فدفع قاربه وراح بمهارته المعهودة يشق به عرض النهر ، بينما طفق المسافران الغريبان يوشوشان معاً بلغة مجهولة سريعة الإيقاع ، وينفجران من حين إلى حين ضاحكين بصوت عال ، ويقفزان مرة على جدران القارب ومقاعده وأخرى على أرضه .

(*) Irrlichter أنوار ضعيفة على هيئة شعلات ساكنة ترى فوق الأراضى التى تكثر فيها المستنقعات والأدغال والمراعى الرطبة ، ويظن أنها تنشأ عن االالتهاب الذاتى لغاز الميثان الموجود فى هذه الجهات .وقد كا نت هذه الظاهرة سبباً فى إطلاق الكلمة فى الخرافات الشعبية على بعض الأرواح الصغيرة العابثة التى تضلل المسافرين وتقفز فوق ظهورهم . . . (م)

هتف العجوز : « القارب يترنح ، وإذا لم تسكنا إلى الهدوء فقد ينقلب فى الماء ! اجلسا أيها النوران ! »

انفجرا ضاحكين بصوت عال من هذا المطلب الجرىء ، وأخذا يسخران بالعجوز ، وزادت ضوضاؤهما عما قبل ، وتحمل « النوتى » العجوز هذرهما صابرا ، وما هو إلا قليل حتى رسا بقاربه على الشاطئ الآخر .

« خذ هذا أجرا على تعبك » ! بهذا ناداه المسافران ، ونفضا أنفسهما فسقطت قطع ذهبية عديدة لامعة على أرض القارب المبتلة . وهتف العجوز :

« بحق السماء ، ماذا تصنعان ؟ إنكما تصبان على أعظم الشقاء . فلو أن قطعة ذهبية سقطت فى الماء ، لارتفعت أمواج النهر الذى لا يطيق هذا المعدن ارتفاعاً مفزعاً ، فابتلعت السفينة وابتلعتنى معها . ومن يدرى عندئذ ماذا يمكن أن يقع لكما ! أعيدا نقودكما إلى مكانها ! »

فأجابه النوران التائهان قائلين : « لا نستطيع أن نرد شيئاً نفضناه عن أنفسنا » .

قال العجوز وهو ينحنى ليجمع القطع الذهبية فى قبعته : إذن فأذنا لى أن أفتش عنها وأحملها إلى الشاطئ وأدفنها هناك .

كان النوران التائهان قد قفزا من القارب وناداهما العجوز :

« أين إذن أجرى ؟ »

هتف به النوران : من لا يقبل ذهبا فليعمل بلا أجر » !

ــ فلتعلما أن من الممكن دفع أجرتى من ثمار الأرض .

ــ من ثمار الأرض ؟ إننا نزدريها ولم نذق لها طعماً أبداً :

ــ ومع ذلك فلا أستطيع أن أترككما حتى تعدانى بأن تحضرا لى ثلاثة رءوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات وثلاث بصلات كبيرة .

أراد النوران التائهان أن يتسللا فى مرح مبتعدين ، غير أنهما أحسا وكأن شيئاً مجهولا يقيدهما بالأرض على نحو عجيب . كان إحساساً شديد الإيلام لم يشعرا به من قبل . وعدا العجوز بأن يحققا له طلبه فى أقرب فرصة تسنح لهما ، فتركهما ودفع قاربه فى اليم . كان قد ابتعد عنهما بمسافة كبيرة حين ناديا عليه : « أيها العجوز ! اسمع ، أيها العجوز ! لقد نسينا أهم شىء ! »

ولكنه كان قد ابتعد ولم يسمع شيئاً . كان قد ترك قاربه ينحدر بحذاء ضفة النهر نفسها ، متجهاً إلى ناحية جبلية لا يصل إليها الماء أبدا ، ليدفن الذهب الخطر فيها .

وهناك بين الصخور العالية عثر على حفرة هائلة ، ألقى بالقطع الذهبية فيها وقفل راجعاً إلى كوخه .

فى هذه الحفرة كانت تسكن الحية الجميلة الخضراء التى استيقظت

من نومها على رنين القطع الذهبية ، لم تكد تقع عيناها على القطع البراقة ، حتى هجمت عليها فابتلعتها فى نهم عظيم ، وراحت تفتش بعناية عن كل قطعة تناثرت فى الدغل أو بين شقوق الصخور .

لم تكد القطع الذهبية تستقر فى جوفها حتى شعرت شعوراً لذيذاً منعشاً بالذهب يذوب فى أحشائها وينتشر فى بقية جسدها ، ولاحظت والبهجة العظيمة تغمرها كيف أنها أصبحت شفافة ولامعة . كانت طالما قد سمعت من يؤكد لها أن هذه الظاهرة ممكنة الحدوث ، غير أن الشك كان يساورها فيما إذا كان هذا النور سيبقى على لمعانه ، فدفعها حب الاستطلاع والرغبة فى تأمين مستقبلها إلى أن تخرج من الصخرة لكى تفتش عمن عساه أن يكون قد نثر الذهب الجميل فى مسكنها . لم تجد أحداً ، وزاد من نشوتها أن تعجب بنفسها وهى تزحف بين الحشائش والأعشاب وأن تزدهر بالنور الساحر الرقيق الذى ينتشر منها فيضىء العشب اليانع — بدت الأوراق كلها وكأنها من زمرد ، والورود جميعاً ظهرت صافية فى أبدع صورة . عبثاً راحت تجوب البرية الموحشة ، ومع ذلك فقد ازداد رجاؤها حين وصلت إلى الأرض المستوية وأبصرت نوراً شبيهاً بنورها يلمع من بعيد ، وهتفت صائحة وهى تتجه نحوه :

« ها أنا أجد أخيراً من يشبهنى ! » لم تكترث بالمشقة التى تعانيها من الزحف فى المستنقع وبين أعواد الغاب الطويلة ، فمع أنها كانت تعشق الحياه فوق أعشاب الجبل وبين شقوق الصخور العالية على كل حياة.

سواها ، ومع أنها كانت تستطيب طعم الأعشاب ذات التوابل وتروى عطشها فى العادة من قطرات الندى الرقيق ، ومن ماء النبع المنعش ، فإنها لم تكن لتتردد عن الإقدام على أية مهمة تلقى عليها من أجل الذهب الجميل ومن أجل النور الباهر .

انتهى بها المطاف وقد أضناها التعب إلى مستنقع ؛ وكان النوران التائهان يلعبان فوقه جيئة وذهاباً . اندفعت بسرعة نحوهما وحيتهما ، وأسعدها أن تجد أمامها مثل هذين السيدين اللطيفين من أقاربها . أخذ النوران يرفان حولها مداعبين ، ويقفزان فوقها ، ويضحكان على طريقتهما . قالا لها :

« يا عمة ، إذا كنت من أصحاب الخط الأفقى ، فلا يعنى هذا شيئاً على الإطلاق ، حقاً إن قرابتنا من ناحية المظهر واحدة ، انظرى إلينا — وهنا ضحت الشعلتان بعرضهما كله فمدا فى طولهما وزادا من حدة أطرافهما بقدر طاقتهما — كم يناسبنا هذا الطول الرشيق ، نحن السادة أصحاب الخط العمودى ! لا تعتبى علينا أيتها الصديقة ، ولا تظنى بنا السوء ، ولكن أية عائلة يمكنها أن تتباهى مثلنا بذلك ؟ منذ أن وجدت الأنوار التائهة لم يجلس من بينها نور واحد ، ولم يخلد إلى الرقاد .

شعرت الحية بالضيق الشديد فى حضور هؤلاء الأقرباء ، فكلما حاولت أن ترفع رأسها إلى أقصى ما تريد أحست بأنها لا بد أن تعود فتحنيه إلى الأرض لكى تستطيع أن تتحرك من مكانها ، وإذا كانت قد نعمت بالحياة وسعدت بها كل السعادة عندما كانت تعيش فى الدغل المظلم ،

فقد بدا لها أن بريقها يخفت فى كل لحظة أمام أولاد العم هؤلاء ؛ بل لقد خشيت أن ينطفىء فى نهاية الأمر انطفاء تاماً .

وأسرعت فى حيرتها هذه تسأل إن كان السيدان يستطيعان أن يخبراها من أين جاء الذهب البراق الذى سقط منذ قليل فى حفرة الصخر ، وأضافت أنها تخمن أنه مطر ذهبىّ تساقط مباشرة من السماء . ضحك النوران التائهان ونفضا نفسيهما فتساقط مقدار عظيم من القطع الذهبية راح يقفز حولهما .

أسرعت الحية نحوها تريد أن تبتلعها فقال السادة المهذبون :

— « لتهنئى بطعمها ياعمة ، فى استطاعتنا أن نقدم لك المزيد » .

وعاد النوران التائهان ينفضان نفسيهما مرات متوالية وبسرعة خاطفة ، حتى كاد يتعذر على الحية أن تزدرد الطعام الثمين بنفس السرعة . بدأ نورها ينمو نموا ملحوظاً ، فلمعت لمعاناً باهراً حقاً ، بينما ذبل النوران التائهان ، وتضاءل بريقهما ، بغير أن يفقدا شيئاً ولو قليلا من مرحهما واعتدال مزاجهما .

« سأظل ممتنة لكما إلى الأبد » قالت الحية هذه الكلمات بعد أن استعادت أنفاسها إثر الأكلة الشهية واستطردت تقول : اطلبا منى ما تشاءان ! كل ما أملكه أريد أن أقدمه لكما . هتف النوران التائهان :

حسن جداً ! ، قولى ؛ أين تسكن الزنبقة الحسناء ؟ سيرى بنا بأسرع

ما يمكن إلى قصر الزنبقة الحسناء وحديقتها . إن اشتياقنا إلى أن نلقى بأنفسنا عند أقدامها يكاد يهلكنا .

أجابت الحية بتنهيدة عميقة : لست أستطيع أن أقدم لكما هذه الخدمة فى الحال . إن الزنبقة الحسناء تسكن على الجانب الآخر من الماء .

ــ على الجانب الآخر من الماء ؟ وندع العجوز يعبر بنا النهر فى هذه الليلة العاصفة ؟

ما أفظع النهر الذى يفرّق الآن بيننا ! أما من وسيلة لننادى بها العجوز من جديد ؟

ردّت الحية قائلة : سوف تضيعان جهدكما سدى ؛ إذ أنكما ولو قابلتماه على هذه الضفة ، فلن يأخذكما معه ، لقد سمح له أن ينقل كل أحد إلى هذا الشاطئ ، ولكن حرم عليه أن ينقل أحداً إلى الشاطئ الآخر .

ــ إذن فقد حبسنا أنفسنا بأيدينا ! أما من وسيلة نعبر بها الماء ؟

ــ بل هناك وسائل كثيرة ، ولكن ليس فى هذه اللحظة . أنا نفسى أستطيع أن أنقل السادة إلى الضفة الأخرى ، ولكننى لن أقدر على ذلك قبل حلول ساعة الظهيرة .

ــ هذا وقت لا نميل إلى السفر فيه .

ــ إذن فى استطاعتكما إذا حلّ المساء أن تعبرا النهر فوق ظلّ العملاق !

ـ كيف ذلك ؟

ـ إن العملاق العظيم ، الذى يسكن غير بعيد من هنا ، لا يقدر بجسده على شيء ، إن يديه لا تستطيعان أن ترفعا عود قش ، وكتفيه لا يقويان على حمل حزمة أرز ، ولكن ظله يستطيع أن يفعل الكثير ، بل يستطيع أن يفعل كل شيء . لذلك كان أشدّ ما يكون قوة عند شروق الشمس وغروبها ، وما على الإنسان ، إذا حلّ المساء ، إلا أن يجلس على رقبة ظله . وما هو إلا أن يتجه العملاق فى رفق ناحية الشاطئ وبذلك ينقل الظلّ المسافر إلى الضفة الأخرى . أما إذا أردتما أن تحضرا فى وقت الظهيرة عند ذلك الجانب من الغابة حيث يلتحم الدغل بالشاطئ فإننى أستطيع عندئذ أن أنقلكما إلى الشاطئ الآخر وأن أقدمكما إلى الزنبقة الحسناء ، أما إذا كنتما تشفقان على أنفسكما من وهج الظهيرة ، فما عليكما إلا أن تزورا العملاق فى ذلك الخليج الصخرى عندما يقترب المساء ، ولا شك أنه سيحسن ضيافتكما .

وبانحناءة طفيفة ابتعد السيدان الشابان ، وسرّ الحية أن تتخلص منهما ، لكى يتاح لها من ناحية أن تبتهج بنورها ، وتشبع من ناحية أخرى رغبة عذبتها منذ أمد طويل عذاباً غريباً .

كانت قد اكتشفت اكتشافاً عجيباً فى موضع من الحفر الصخرية التى اعتادت من حين لآخر أن تزحف فيها . فعلى الرغم من أنها كانت تضطر إلى الزحف خلال هذه الحفر بغير نور يهديها ، فقد كان فى

استطاعتها أن تميز بإحساسها بين الأشياء التى تقابلها . كان من عادتها ألا تجد حيثما ذهبت غير منتجات طبيعية غير منتظمة ، فحينا تتلوى لتنفذ بين أطراف بلورات عظيمة مدببة ، وحيناً تشعر بزوايا الفضة المترامية وشعراتها فتأخذ معها هذا الحجر الثمين أو ذاك إلى النور . بيد أنها كانت والدهشة العظيمة تستولى عليها قد احست فى موضع صخرى مغلق من كل ناحية بأشياء تشى بيد الإنسان المصورة ؛ جدران ملساء لا تستطيع أن تتسلق عليها ، حواف حادة منتظمة ، أعمدة بديعة الصنع ، وأشكال بشرية أثارت فيها أشد العجب ، ولفت جسدها مراراً حولها واعتقدت أنها من نحاس أو مرمر مصقول بديع الصقل .

اشتهت أن تستجمع كل هذه التجارب مرة أخرى بحاسة العين فتتأكد مما لم يتيسر لها أن تعرفه إلا بالتخمين . اعتقدت أنها تستطيع الآن بالضوء الذى يشع منها أن تنير هذا القبو السفلى العجيب ، وداعبها الأمل المفاجئ فى أن تتعرف على هذه الأشياء الغريبة تعرفاً تاماً . انطلقت تزحف على طريقتها المألوفة ، وسرعان ما عثرت على الشق الذى تعودت أن تتسلل منه إلى المعبد المقدس .

لما وصلت إلى المكان تلفتت حولها مدفوعة بحب الاستطلاع ، ومع أن الضوء المنبعث منها لم يكف لإنارة كل الأشياء المنتشرة حولها ، فقد استطاعت أن ترى الأشياء القريبة منها رؤية واضحة .

تطلعت فى رهبة ودهشة إلى فجوة تلمع فوقها ، نصب فيها تمثال ملك جليل من الذهب الخالص .

كان التمثال يزيد فى حجمه على حجم الإنسان الطبيعى ، ولكنه بدا لها من ناحية الشكل أقرب إلى أن يكون لرجل صغير السن منه لرجل ضخم عظيم . كان يلفع جسمه المتناسق معطف بسيط ، وتشدّ شعره باقة من ورق البلوط .

لم تكد الحية تبصر هذا التمثال الجليل حتى فتح الملك فمه بالكلام وسأل :

– « من أين تأتين ؟ »

أجابت الحية : « من الحفر التى يسكنها الذهب » .

سأل الملك : أى شىء أروع من الذهب ؟

فأجابت الحية : « النور » .

عاد الملك يسأل « أى شىء أعذب من النور؟ »

فردّت الحية : الحديث .

كانت فى خلال هذا الحديث قد ألقت نظرة جانبية على الفجوة القريبة فأبصرت صورة أخرى رائعة . كان يجلس فى هذه الفجوة ملك فضى ذو قوام طويل أقرب إلى النحول ؛ وكان يغطى جسده رداء مزركش وتاج وحزام وصولجان مزين بالأحجار الثمينة ، وكان يظهر على وجهه مرح الكبرياء ، وبدا عليه أنه يريد الكلام حين لمع على حين فجأة فى الجدار المرمرىّ عرق كان يتخلله بلون معتم ، وأرسل فى المعبد كله نورا

بهيجاً . أبصرت الحية الملك الثالث على هذا النور ، وكان ملكاً من نحاس في هيئة تدل على البأس والسلطان ، استند على عجزه ، وزينت هامته باقة من الغار ، وبدا أشبه بصخر منه بإنسان . أرادت الحية أن تلتفت إلى الملك الرابع ، وكان يبدو على مسافة شديدة البعد عنها ، عندما انشقّ الجدار وانتفض العرق المضيء كالبرق الخاطف ثم اختفى .

لفت انتباه الحية رجل متوسط الحجم يخرج من الجدار .

كان يرتدي ملابس فلاح ويحمل في يده مصباحاً صغيراً يطيب للمرء أن يتطلع إلى شعلته الساكنة التي تغمر بنورها على نحو مدهش جوانب المعبد الكنسيّ كله ، دون أن تلقي حولها ظلا واحداً .

سأل الملك الذهبي : لم أتيت وعندنا نور ؟

ــ تعلمون أنه لا يجوز لي أن أنير المعتم !

وسأل الملك الفضيّ : « هل تنتهي دولتي ؟ »

فردّ العجوز : « في وقت متأخر أو ان تنتهي أبداً » .

وشرع الملك النحاسيّ يسأل في صوت قوي : متى أقف على قدميّ ؟

أجاب العجوز : « قريبا » .

عاد الملك يسأل : « مع من ينبغي عليّ أن أتحد ؟ »

قال العجوز : « مع إخوتك الكبار ».

سأل الملك : « وماذا سيكون مصير الأخ الأصغر ؟ »

قال العجوز : « سوف يجلس » .

هتف الملك الرابع فى صوت خشن : « لست متعباً »

بينما كان هؤلاء يتحدثون تسللت الحية فى رفق ، وراحت تتجول فى جنبات المعبد ، فتأملت كل شىء ، وأخذت تتطلع إلى الملك الرابع عن كثب. كان يقف مستنداً إلى أحد الأعمدة ، وكانت هيئته الشامخة أقرب إلى الفظاظة منها إلى الجمال ، غير أنه كان عسيراً على المرء أن يميز المعدن الذى صُبّ منه التمثال .

حتى إذا تأملته العين تأملا دقيقاً، تبين أنه خليط من المعادن الثلاثة التى صبّ منها إخوته .

ولكن يبدو أن هذه المعادن الثلاثة لم تذب مع بعضها تماماً عند صبّ التمثال ، فتخللت العروقَ الذهبية والفضية كتلة من المعدن الخام على غير انتظام ، مما جعل منظر التمثال لا تستريح له العين .

عندئذ سأل الملك الذهبي الرجل : « كم من الأسرار تعرف ؟ »

فأجاب العجوز : « ثلاثة » .

سأله الملك الفضىّ : « وأيها أهمّ ؟ »

فأجاب العجوز : « السرّ المكشوف » .

سأل الملك النحاسىّ : « وهل تكشف لنا نحن أيضاً عنه ؟ »

قال العجوز : « بمجرد أن أعرف الرابع » .

فدمدم الملك المركب من معادن مختلطة كأنه يكلم نفسه :

« وما شأنى أنا بهذا ! »

قالت الحية : « أنا أعرف السرّ الرابع »

واقتربت من العجوز ووشوشت شيئاً فى أذنه — هتف العجوز بصوت رهيب :

« لقد آن الأوان » ! . وترددت أصداء الصوت فى المعبد ، ورنت التماثيل المعدنية ، وفى لحظة غاص العجوز ناحية الغرب ، والحية ناحية الشرق ، وأسرع كلاهما يعبر الهاوية الصخرية لا يلوى على شيء .

امتلأت كل الدروب التى جابها العجوز فى لمح البصر بالذهب ، ذلك أن مصباحه كان يمتلك خاصية عجيبة تجعله يحوّل كل الأحجار إلى ذهب ، وكل خشب إلى فضة ، والحيوانات الميتة إلى أحجار ثمينة ، كما تجعله يحيل جميع المعادن إلى تراب ، وكان لا بد للمصباح ، لكى يفعل فعله هذا ، من أن ينفرد وحده بالإنارة ؛ فإذا اشتعل نور آخر بجواره ، لم يصدر عنه سوى ظل جميل لامع ، فيشيع البهجة والانتعاش دائماً فى كل حىّ .

دخل العجوز كوخه الذى بناه فوق الجبل ، ووجد امرأته فى همّ شديد ، كانت تجلس باكية أمام الموقد ، عاجزة عن أن تدخل الطمأنينة إلى نفسها . هتفت بزوجها :

« ما أشقانى ! ما كنت اليوم أريد أن أتركك تغادر الكوخ ! »

سألها العجوز فى هدوء تام « ماذا جرى إذن ؟ »

قالت وهى تنشج بالبكاء : ما كدت تخرج حتّى جاء سائحان شرسا الطبع ، فوقفا أمام الباب ؛ وبغير حذر منى تركتهما يدخلان ؛ فقد بديا لى سيدين مهذبين ، لطيفين ؛ وكانا يتلفعان بهالتين خفيفتين ، مما يحمل على الظن بأنهما نوران تائهان ، وما كادا يدخلان البيت حتّى شرعا يتملقانى بألفاظ وقحة ، ويبالغان فى إلحاحهما علىّ حتّى لأخجل من مجرّد التفكير فيهما .

قال الرجل وهو يبتسم : « لا شك أن السيدين أرادا أن يمزحا معك ؛ فقد كان عليهما مراعاة لسنك أن يعاملاك بأدب كما يقضى العرف بذلك» .

هتفت المرأة قائلة : « ماذا أيها العجوز ! أيها العجوز ! هل علىّ دائماً أن أسمعك تتحدث عن عمرى ؟ وكم يبلغ عمرى ! ذلك الأدب الذى يقضى به العرف ! إننى أعرف ما أعرف . تلفت حولك فحسب ، لترى كيف تبدو الجدران ؛ تطلع إلى الأحجار القديمة ، التى لم أرها منذ مائة عام ، كل ما كان عليها من ذهب قد لعقاه ، ولا يمكنك أن تصدق بأى سرعة خاطفة فعلا ذلك ، وأكدا دائماً أن طعمه ألذّ بكثير من الذهب المعروف . وبعد أن مسحا ما على الجدران ، بدت عليهما الغبطة الشديدة ، والحق أنهما أصبحا فى وقت قصير ، أكبر بكثير مما كانا عليه ، وأعرض ، وأشد بريقاً ، ثم إذا بهما يعودان إلى مداعبتى ، فيتمسحان بى ، ويلقبانى ملكتهما ، وينفضان أنفسهما ، فيتساقط قدر كبير من الذهب وما زلت ترى كيف يلتمع نورهما تحت الأريكة . ولكن

وأسفاه ؛ التهم كلبنا الصغير السمين بعض قطع الذهب ، وها أنت تراه يرقد ميتاً عند الموقد ؛ ياللحيوان المسكين ! ما أبعد السرور عنى ! إننى لم أتبين ذلك إلا بعد انصرافهما ، ولو عرفت لما وعدتهما بتسديد دينهما للمراكبىّ .

سأل العجوز : « بأى شىء يدينان له ؟ »

قالت المرأة : « بثلاثة رءوس قرنبيط ، وثلاث خرشوفات ، وثلاث بصلات ؛ لقد وعدتهما إذا أصبح الصباح أن أحملها جميعاً إلى النهر .

قال العجوز : تستطيعين أن تصنعى فيهما هذا الجميل ، فسوف يردّانه لنا فى المستقبل .

ـ لا أدرى إن كانا سيقدمان لنا خدماتهما ؛ ولكننى وعدتهما وأقسمت أن أبرّ بوعدى .

كانت نار الموقد فى أثناء ذلك قد خمدت ، فأهال عليها العجوز كثيراً من الرماد ، وجمع القطع الذهبيه جانباً ، وإذا بمصباحه الصغير يعود فيلمع من نفسه أجمل لمعان ، والجدران تكسوها طبقة من الذهب ، والكلب الصغير السمين يتحول إلى أجمل حجر من العقيق ، يستحيل أن يتصوّره الإنسان . وتبدلت الألوان على الحجر الثمين ، بين اللون البنى واللون الأسود ، فجعلت منه تحفة فنية نادرة الوجود .

قال العجوز : خذى سلتك ، وضعى حجر العقيق فيها ؛ ثم خذى

رءوس القرنبيط الثلاثة ، والخرشوفات الثلاث ، والبصلات الثلاث ، فضعيها حولها ، واحملي الجميع إلى النهر ! فإذا جاء وقت الظهيرة ، فاجعلي الحية تحملك إلى الشاطئ الآخر ، وزورى الزنبقة الحسناء وأعطيها حجر العقيق! إنها ستعيده حيا ! مثلما تميت بلمستها كل حيّ ! وسوف تجد فيه صاحبا غالياً . قولى لها : إن عليها ألا تبتئس ، إن يوم خلاصها قد اقترب ، والشقاء العظيم تستطيع أن تعدّه سعادة عظيمة ، فقد آن الأوان » .

عند طلوع النهار تناولت العجوز سلتها ، ومضت فى طريقها ، كانت الشمس المشرقة تسطع على صفحة النهر الذى كان يلمع من بعيد ؛ مضت العجوز فى خطى متئدة ، فقد كانت السلة تضغط على رأسها ولو لم يكن حجر العقيق هو الذى يرزح بثقله عليها . لم تحس بما كانت تحمله من كائنات ميتة ، بل إن السلة كانت ترتفع إلى أعلى وتطير فوق رأسها ولكن حمل خضر طازجة أو حيوان صغير حيّ فقد كان ثقيلا عليها ثقلا شديداً .

كانت قد مضت فى طريقها بعض الوقت وهى تشعر بالضيق والملل ، وعلى حين فجأة وقفت ساكنة مفزوعة ؛ فقد كادت تدوس على ظل العملاق ، الذى كان يتمدد على الأرض ويكاد يصل إليها .

ثم وقع بصرها على العملاق الجبار ، الذى كان يخرج من الماء بعد أن استحم فى النهر . وتحيرت كيف تتحاشاه . لم يكد يراها حتى بدأ

يحييها فى مرح ، ثم امتدت يدا ظله على الفور إلى السلة فأخرجا فى خفة ومهارة رأس قرنبيط ، وخرشوفة و بصلة ، وناولاها إلى فم العملاق الذى تابع عندئذ رحلته النهرية ، وأفسح للمرأة الطريق .

أخذت تسأل نفسها إن كان من الأفضل أن تعود أدراجها فتحضر بدل القطع الناقصة من حديقتها ، ومضت بين هذه الشكوك التى تساورها إلى الأمام ، فسرعان ما بلغت ضفة النهر . لبثت طويلا تنتظر المراكبي حتى لمحته أخيراً يعبر النهر ومعه مسافر عجيب ، ونزل من المركب شاب نبيل ، جميل الطلعة ، لم تكد تشبع عينيها من النظر إليه .

نادى المراكبي العجوز : ماذا تحضرين معك ؟ . أجابت العجوز وهى تشير إلى بضاعتها :

إنها الخضراوات التى تدين لكم بها الأنوار الناشهة .

لما وجد العجوز من كل صنف قطعتين فحسب ، استولى عليه الضيق ، وأكد لها أنه لا يستطيع أن يقبلها . وراحت العجوز تتوسل إليه فى حرارة ، وتصف له كيف أنها لا تستطيع أن تعود على الفور إلى البيت ، وأنه يشق عليها أن تقطع الطريق مرة أخرى والحمل الثقيل يرزح فوق رأسها . بقى العجوز مصراً على رفضه ، وأخذ يؤكد لها أن الأمر ليس بيده قائلا : على أن أجمع نصيبي المستحق لى وأتركه تسع ساعات ، ولا يصح لى أن أقبل شيئاً حتى ألقى للنهر بثلثه . بعد أخذ ورد طويلين قال العجوز أخيراً : ما زالت هناك وسيلة واحدة : إذا تعهدت للنهر

وقبلت أن تعترف له بدينك ، فإنى على استعداد لأن آخذ القطع الستة ، ولكن هذا لا يخلو من خطر .

– وإذا حافظت على كلمتى ، فهل يمنع ذلك الخطر عنى ؟ !

استطرد العجوز قائلا :

– لن تتعرضى لأقل شيء ، اغمسى يدك فى النهر ، واقطعى عهداً بأن توفى دينك فى خلال أربع وعشرين ساعة .

فعلت العجوز بما أشار عليها ، ولكن كم كانت دهشتها حين جذبت يدها فى الماء فألفتها سوداء بلون الفحم ! أخذت توبخ العجوز توبيخاً مراً ، وتؤكد أن يديها كانتا دائماً أجمل ما فيها ، وأنها على الرغم من العمل الشاق قد عرفت دائماً كيف تحافظ على بياض هذين العضوين النبيلين ورقتهما . تطلعت إلى اليد فى ضيق شديد ، وهتفت فى يأس مرير :

إن هذا لأسوأ ! أرى أنها تقلصت ، لقد صارت أصغر بكثير من اليد الأخرى .

قال العجوز : « إنها الآن تبدو كذلك فحسب ، ولكنك إذا لم تحافظى على كلمتك ، فقد يتحقق ما تخشين منه ، وتتقلص اليد شيئاً فشيئاً ، حتى تختفى فى النهاية تماماً ، بدون أن تحرمى من القدرة على استعمالها . سوف يكون فى استطاعتك أن تقضى بها كل حوائجك ، ولكن لن يراها أحد » . قالت العجوز : « وددت لو عجزت عن

استعمالها ولم يلحظ أحد عليها شيئاً . ومع هذا فلا أهمية لذلك ؛ سوف أحافظ على عهدى ، لكى أتخلص سريعاً من هذا الجلد الأسود وهذا الهمّ الثقيل . » وأسرعت تتأمل السلة التى ارتفعت من تلقاء نفسها فوق قمة رأسها وطارت حرّة فى الفضاء ، وعجلت من سيرها لتلحق بالشاب الذى كان يمضى على الشاطئ وديعاً تائهاً فى أفكاره . كانت هيئته الرائعة وحلته العجيبة قد تركا فى نفسها انطباعاً عميقاً .

كان يغطى صدره درع برّاق تتحرّك من خلاله كل أجزاء جسده الجميل ، ويلفع كتفيه معطف قرمزى ، وعلى رأسه العارى تنمو خصلات جميلة من الشعر البنى ، وكانت أشعة الشمس تلفح وجهه النقى الصبوح ، كما تلفح قدميه المتناسقتين . مضى يسير فى اتزان على الرمل الساخن بقدميه العاريتين ، و بدا كأن ألماً عميقاً يقيد كل انطباعاته الظاهرة ويخيم عليها .

حاولت العجوز الثرثارة أن تجذبه للحديث ؛ غير أن كلماته القليلة كانت تصدها دائماً عنه ، حتى يئست أخيراً ، على الرغم من عينيه الجميلتين ، من محاولة الحديث بغير طائل ، فودعته قائلة :

إنك يا سيدى تسير ببطء شديد ولا يجوز لى أن أترك هذه اللحظة تفلت منى حتى أعبر النهر على ظهر الحية الخضراء وأقدم للزنبقة الحسناء الهدية الرائعة التى حملنى لها زوجى .

ألقت هذه الكلمات وانطلقت مسرعة ، ولم تكد تصل إلى سمع

الشاب الجميل حتى أسرع يلاحقها وهو يهتف : « هل تذهبين إلى الزنبقة الحسناء ؟ إذن فنحن نسير على درب واحد ، ما هذه الهدية التى تحملينها لها ؟ »

ردّت المرأة قائلة : « لا يليق بك ياسيدى ، بعدما رفضت الإجابة على أسئلتى رفضاً قاطعاً أن تحاول التعرف على أسرارى بهذا الإصرار. فإن قبلت أن تبادلنى سراً بسر وكشفت لى عن أقدار حياتك ، فلن أخفى عليك قصتى وقصة هديتى . . وكان أن اتفقا سريعاً ، فروت له المرأة حكايتها وأخبرته بحكاية الكلب وتركته يتأمل الهدية الرائعة .

مدّ الشاب يده فتناول التحفة الطبيعية من السلة وأخذ الكلب الذى بدا كأنه استسلم لنوم هادئ وديع بين ذراعيه ، وهتف قائلا : أيها الحيوان السعيد ! سوف تلمسك يداها ، وسوف تعيدان إليك الحياة ، أما الأحياء فإنهم يهربون منها ، خشية أن يصيبهم قدر حزين ، ولكن أى حزن ترانى أتحدث عنه ؟ أليس أدعى للهمّ والحزن أن يصاب الإنسان بالشلل إذا حضر أمامها ، من أن يموت بلمسة من يدها ؟ ثم التفت إلى العجوز قائلا :

انظرى إلىّ ، أى تعاسة كتب علىّ أن أحتملها وأنا فى مثل هذه السن ! هذا الدرع الذى كنت أحمله على صدرى وأحارب به فى شرف ، وهذا المعطف القرمزى الذى أردت بحكمى الرشيد أن أكون جديراً به ، لقد تركهما لى القدر عبئاً ثقيلا أحمله بغير داع ، وحلية سخيفة لا يلتفت

إليها أحد : التاج ، والصولجان ، والسيف ، ذهبت جميعاً ؛ وأنا بعد عار ومحتاج مثل سواى من أبناء الأرض ، هكذا تصنع عيناها الجمليتان الزرقاوان فتسلبان كل كائن حىّ طاقة الحياة ، وتجعلان كل من لم تلمسه يدها لمسة الموت يشعر كأنه استحال إلى شبح حىّ .

هكذا راح يرسل شكواه ، فلم يشبع بحال رغبة العجوز التى لم يكن يهمها أن تخبر باطنه بقدر ما كانت تريد أن تعرف ظاهره . لم تعرف منه اسم أبيه ولا اسم مملكته . مسح بيده على الكلب المتحجر الذى بدا كأن أشعة الشمس وصدر الشاب الدافئ قد غمراه بالدفء وبعثا فيه الحياة . أخذ يسأل و يطيل فى السؤال عن الرجل ذى المصباح ، وعن آثار النور المقدس ، وبدا كأنه يعدُّ نفسه من وراء ذلك كله خيراً كثيراً يستعين به على حاله البائسة .

وبينما هما مسترسلان فى الحديث، إذا بهما يبصران الجسر من بعيد يصل بين الشاطئين فى هيئة قوس رائع الجمال ، يلتمع فى أبهى صورة فى وهج الشمس . ملكتهما الدهشة فلم يسبق لهما رؤية هذا البناء على هذه الصورة من الحسن والروعة وهتف الأمير قائلا :

ماذا ؟ ألم يكن على درجة كافية من الجمال عندما مثل أمام أعيننا كأنه بنى من حجر اليشب ، والحجر اليمانى الأخضر ؟ ألا يجفل الإنسان خوفاً من أن يخطو بقدميه فوقه وهو يبدو كأنما ركب من الزمرد والزبرجد والياقوت فى تنوّع فتان ؟

لم يكن أحد منهما يعلم بما جرى للحية ، لقد كانت هى التى تنصب نفسها فى كل يوم عند الظهيرة فوق النهر وتظهر فى هيئة جسر جرىء البنيان. تقدّم المسافران فى إجلال ورهبة فعبراه صامتين .

ما كادا يبلغان الشاطىء الآخر حتى بدأ الجسر يخفق ويتحرك ، وما هى إلا برهة قصيرة حتى لامس سطح الماء وبرزت الحية الخضراء فى هيئتها الأصلية زاحفة على اليابسة لتلحق بالمسافرين — ما كادا ينتهيان من تقديم الشكر إليها على سماحها لهما بعبور النهر فوق ظهرها حتى أحسا بأنه لا بد أن يكون فى صحبة ثلاثتهم أشخاص آخرون ، وإن لم يستطيعوا أن يروهم رأى العين . تناهى إلى سمعهم صوت فحيح ردّت الحية عليه بفحيح مثله ، أصغوا بانتباه ، واستطاعوا أخيراً أن يميزوا هذه الكلمات التى راحت تتبادلها أصوات مشتركة فى الحديث :

سوف نبدأ بالتجوال خفية فى حديقة الزنبقة الحسناء فننظر فيها ، ونرجوكما عند مطلع النهار بمجرد أن تلمحا صورتنا أن تقدّمانا إلى الجمال الكامل . سوف تجدانا عند حافة البحيرة العظيمة. أجابت الحية قائلة : « ليكن الأمر كذلك » . وضاع صوت فحيح فى الهواء .

تشاور مسافرونا الثلاث فيما بينهم حول النظام الذى يمثلون به بين يدى الجميلة ، فهما تعدّد الأشخاص الذين يمكنهم أن يحيطوا بها ، فلم يكن يجوز لهم إلا أن يأتوا وينصرفوا كل على حدة حتى لا تصيبهم آلام حادة .

اقتربت المرأة التى تحمل الكلب الممسوخ فى سلتها من الحديقة وراحت تبحث عن ولية نعمتها التى كان من السهل عليها أن تجدها ، فقد كانت تغنى على القيثاره، والأنغام الحبيبة التى تنساب منها تبدو فى شكل حلقات تطوف على سطح البحيرة الساكنة ، وتحرّك العشب والأغصان كأنها نسمات خفيفة . كانت تجلس فى مكان مغلق مخضر ، فى ظلّ مجموعة رائعة من أشجار مختلفة الأشكال ، يشع السحر منها من جديد ، فيفتن بصر العجوز وسمعها وقلبها فتدنو فى نشوة منها ، وتحلف بينها وبين نفسها أن الجميلة فى فترة غيابها عنها ، لم تزد إلا جمالا ! ولم تنتظر المرأة الطيبة فنادت الحسناء الحبيبة من بعيد ، محيية مادحة :

« أى سعادة أن تراك عينا إنسان ! أىّ سماء يبسطها وجودك من حولك ! يا لسحر القيثارة فى حجرك ، وذراعيك تلتفان بها فى حنان ! ما أجملها وهى تبدو كأنها تشتاق إلى صدرك ، وما أعذب رنينها تحت لمسات أصابعك النحيلة! سعدت أيها الشاب ثلاث مرات ، يا من قدر لك أن تحتل مكانها ! » بهذه الكلمات ازدادت منها اقترابا ؛ فتحت الزنبقة الحسناء عينيها وتركت يديها تسقطان وردّت قائلة : لا تعكرى صفوى بمديح يأتى فى غير أوانه فما يزيدنى قولك إلا شعوراً بتعاستى ، انظرى عند قدمىّ ، ترى طائر الكناريا المسكين يرقد ميتاً ، وهو الذى طالما صاحب أغانىّ بأحلى النغم . كان من عادته أن يجلس على قيثارتى ، وينصب قامته بحذر حتى لا يلامسنى ، واليوم وأنا أدندن بأغنية الصباح الهادئة ، بعد أن صحوت منتعشة من النوم ، وبينما مغنى الصغير يرسل

ألحانه المنسجمة فى مرح لم يسبق إليه ، إذا بصقر ينطاق من فوق رأسى ؛ ويهرب الحيوان المسكين الصغير مفزوعاً إلى صدرى ، فأشعر فى نفس اللحظة بالاختلاجات الأخيرة لحياته التى تفارقه . حقاً لقد أصابت اللص نظرتى ، فترنح هناك وسقط صريعاً على الماء ، ولكن ماذا يفيدنى الجزاء الذى لاقاه ! حبيبى مات ، وقبره لن يزيد إلا من ضراوة الدغل المحزن فى حديقتى .

هتفت المرأة وهى تجفف دمعة أثارتها حكاية الفتاة البائسة فى عينيها : تشجعى أيتها الزنبقة الحسناء ! تماسكى ! زوجى العجوز كلفنى أن أقول لك إن عليك أن تعتدلى فى حزنك ، وأن ترى فى الشقاء العظيم رسولا ينبئ بسعادة أعظم ، ذلك أن الأوان قد آن . واستطردت العجوز تقول : « حقاً ما أعجب ما يحدث فى العالم ! انظرى فحسب إلى يدى ، لترى كيف أصبحت سوداء ! حقاً لقد صارت أصغر بكثير مما كانت عليه ، لا بد أن أسرع قبل أن تختفى تماماً ! لم كان على أن أحسن إلى الأنوار التائهة ، لم كان على أن أقابل العملاق وأن أغمس يدى فى ماء النهر ؟ ألا تستطيعين أن تعطينى رأس قرنبيط ، وخرشوفة ، وبصلة ؟ سوف أحملها إلى النهر ، فترتد يدى بيضاء كما كانت ، حتى لأكاد أضعها إلى جانب يدك » .

ــ قد تجدين القرنبيط والبصل ، أما الخرشوف فسوف تبحثين عنه عبثا ؛ كل النباتات فى بستانى الكبير لا تحمل زهراً ولا ثمراً ؛ ولكن كل

نبتة أقطفها وأضعها على قبر حبيب تخضر على الفور وتترعرع .

كل هذه المجموعات من الأشجار ، هذه الأعشاب البرية ، هذه المروج قد رأيتها للأسف وهى تنمو ، مظلات أشجار الصنوبر هذه ، سلات أشجار السرو ، الكتل الضخمة من أشجار البلوط والزان ، كلها كانت نبتات صغيرة ، أثراً محزناً غرسته يدى فى أرض كانت من قبل عقيمة .

لم تنتبه العجوز كثيراً لهذا الكلام ، فقد كانت مشغولة بتأمل يدها التى كانت تزداد فى وجود الزنبقة الجميلة سواداً ، فبدت كأنها تتضاءل بين لحظة وأخرى . أرادت أن تتناول سلتها وتمضى مسرعة حين تنبهت إلى أنها نسيت أعز شىء جاءت من أجله . مدت يدها فأخرجت الكلب الممسوخ من السلة ووضعته على العشب غير بعيد من الحسناء ، وخاطبتها قائلة : « زوجى يرسل لك هذا التذكار : تعلمين أنك تستطعين أن تردى الحياة إلى هذا الحجر الثمين بلمسة منك . يقينا سوف يسعدك الحيوان اللطيف الوفى ، والهم الذى يصيبنى إذا تصورت أننى سأفقده لن يخفف منه إلا التفكير فى أنك أنت التى ستملكينه » .

نظرت الزنبقة الحسناء إلى الحيوان اللطيف نظرة مبتهجة لم تخل من الدهشة وقالت :

إن علامات كثيرة تأتى معاً وتبعث فى نفسى بعض الأمل ؛ ولكن آه ! أليس ذلك مجرد وهم من أوهام طبيعتنا ، أن نصور لأنفسنا ، حين

يجتمع علينا الكثير من البؤس والشقاء ، أن الخير قد اقترب ؟ .

ماذا تفيدنى العلامات الكثيرة الطيبة ؟
موت الطائر ويد الصديقة السوداء ؟
والكلب الذى تحوّل إلى حجر ثمين ، هل هناك ما يشبهه ؟
ألم يبعث به المصباح إلىّ ؟
ها أنا بعيدة عن كل متعة عذبة يحظى بها البشر .
لا أرى إلفاً لنفسى غير الحزن والاكتئاب .
آه ! لم لا أرى المعبد على ضفة النهر ؟
آه ! لم تأخر بناء الجسر ؟

استمعت المرأة الطيبة نافدة الصبر إلى هذا الغناء الذى صاحبته الزنبقة الحسناء بأعذب أنغام قيثارتها ، وكان حرّياً أن يرسل النشوة إلى كل من يستمع إليه . أرادت أن تستأذن فى الانصراف حين عطلها وصول الحية الخضراء .

كانت الحية قد سمعت الأسطر الأخيرة من الأغنية فأسرعت تبث الثقة والاطمئنان فى نفس الزنبقة الحسناء ، وهتفت قائلة : نبوءة الجسر قد تحققت ! ما عليك إلا أن تسألى هذه المرأة الطيبة ، وستصف لك كيف يبدو القوس الآن فى صورة رائعة ، ما كان من قبل حجر يشب غير شفاف ، وما كان حجراً يمانياً أخضر فحسب ، لا ينفذ فيه النور إلا عند الحواف ، قد صار الآن حجراً ثميناً شفافاً ، ما من برلنتى بلغ هذا

الصفاء ، وما من زمرّد فاق هذه الألوان الجميلة » .

قالت الزنبقة : « أهنئك على هذا ، ولكن اعذريني إذا كنت أرى أن النبوءة لم تتحقق . فعلى قوس الجسر المرتفع يستطيع المشاة وحدهم أن يسيروا ، بينما كان الوعد أن تتمكن الخيول والعربات والمسافرون من عبوره من الناحيتين ، ألم يرد فى النبوءة ذكر الأعمدة العظيمة التى تنبثق من النهر نفسه ؟ » . كانت العجوز تثبت عينيها على يدها ، فقطعت هذا الحديث واستأذنت فى الانصراف فقالت الزنبقة الحسناء : « تريثى لحظة واحدة ، وخذى طائر الكناريا المسكين معك ! توسلى للمصباح أن يحوّله إلى حجر ترو باس جميل ، أريد أن أردّ إليه الحياة بلمسة منى . أسرعى بقدر ما تستطيعين ! فلن تغيب الشمس حتى يدبّ الفساد إلى جثمان الحيوان المسكين ، ويمزّق إلى الأبد التناسق الجميل فى هيئته » . وضعت العجوز الجثمان الصغير بين أوراق الشجر الرقيقة فى السلة ومضت مسرعة .

استطردت الحية تصل الحديث المقطوع قائلة : مهما يكن الأمر فقد تمّ بناء المعبد .

فردت الحسناء قائلة : « ولكنه لا يطل على النهر » .

قالت الحية : « ما زال يسكن فى أعماق الأرض ، لقد رأيت الملوك وتحدثت معهم » .

— ومتى يبعثون من رقادهم ؟

ـ سمعت الكلمات الكبيرة تتردّد فى المعبد : « لقد آن الأوان » .

عمت السعادة الصافية وجه الحسناء وقالت : ها أنا أسمع اليوم الكلمات السعيدة للمرة الثانية ، متى يأتى اليوم الذى أسمعها فيه للمرة الثالثة ؟

نهضت واقفة ، وإذا بغادة ساحرة تدلف قادمة من الدغل وتأخذ القيثارة من يدها ، وتبعتها غادة أخرى ضمت الكرسى العاجىّ المنقوش الذى كانت تجلس عليه الحسناء ، وتناولت المخدّة الفضّية تحت ذراعها.

ثم ظهرت ثالثة كانت تحمل فى يدها مظلة مطرزّة باللؤلؤ وبدا عليها كأنها تنتظر إشارة من الحسناء لتعرف منها إن كانت تحتاج إليها لتصاحبها فى نزهة قصيرة . كانت الغادات الثلاث من الحسن والرقة بما يعجز عن وصفه كل تعبير ، ومع ذلك فلم يزدن الزنبقة إلا حسناً فوق حسن ، إذ كان على كل منهن أن تعترف بأنها لا تستطيع بحال أن تقارن نفسها بها .

كانت الزنبقة الحسناء فى أثناء ذلك، تتأمل الكلب العجيب منشرحة الصدر ، انحنت عليه ولمسته ، فانطلق فى نفس اللحظة يقفز أمامها ! أخذ يتلفت حوله فى مرح إلى ولية نعته ويحييها أصدق تحية .

تناولته بين يديها ، وضمته إلى صدرها ، وهتفت قائلة : « مرحباً بك؛ مع أنك لا تزال بارد الأعضاء، ومع أن نصف حياة فحسب تختلج فيك ، فإنى أقول لك : سوف أمنحك الحب فى حنان ، وأمرح معك فى وداعة ، وأمسح عليك كما يفعل الصديق ، وأشدّك إلى صدرىَ . ثم أطلقته من بين يديها، وصرفته عنها، وعادت تنادى عليه، وتعابثه

متلطفة ، وتتسلى معه فى مرح وبراعة على العشب مرسلة النشوة فى كل من يرى فرحتها ولا يملك إلا أن يشاركها فيها ، مثلما فاض حزنها من لحظات قليلة من كل قلب فشاطرها فيها .

وصل الشاب الحزين فقطع هذه البهجة وهذا المرح الخلاب . دخل كما عرفناه من قبل ، ولكن بدا عليه كأن لفح الظهيرة قد زاده إجهاداً ، كما بدا عليه فى حضور المحبوبة كأنه يزداد شحوباً فى كل لحظة ، كان يحمل الصقر على كفه وقد استراح عليها فى هدوء وترك جناحيه تسقطان إلى جانبه .

بادرته الزنيبقة هاتفة : ليس من الود فى شىء أن تحضر معك هذا الحيوان الكريه وتضعه أمام عينىّ ، هذا الوحش الذى قتل اليوم مغنى الصغير .

أجابها الشاب قائلا : « لا تعتبى على الطائر البائس ، بل وجهى التهمة إلى نفسك وإلى القدر ، وأذنى لى أن أصاحب رفيق تعاستى » .

لم يكفّ الكلب خلال ذلك عن مداعبة الجميلة ، وراحت بدورها تعامل المحبوب الشفاف معاملة الصديق للصديق ؛ أخذت تصفعه بيديها ، لكى تبعده عنها ، ثم تجرى نحوه لكى تعود فتجذبه إليها . كانت تحاول أن تمسك به حين يفلت منها ، وتطرده حين يحاول الإلحاح على مداعبتها . أخذ الشاب يتطلع إليها صامتاً وحنقه يزداد ، حتى إذا مدت يديها أخيراً

فتناولت الحيوان المقيت الذى بدا له بشعا غاية البشاعة ، بين ذراعيها ، وضمته إلى صدرها الناصع البياض ، ولثمت شفتاها السماويتان خيشومه الأسود ، نفذ صبره كله وصاح فى يأس مرير : هل يتحتم على ، أنا الذى حكم عليه القدر الحزين حكماً قد يدوم إلى الأبد بفراقك ، بينما أعيش إلى جوارك ، أنا الذى فقدت بسببك كل شىء ، لا بل فقدت نفسى ، هل يتحتم على أن أشهد بعينى كيف يثير مثل هذا المسخ المشوه السعادة فيك ، وكيف يأسر عاطفتك ويتمتع بضمك ؟ هل حكم على أن أظل رائحاً غادياً وأن أقيس الدائرة المحزنة وأنا أعبر النهر جيئة وذهاباً ؟ لا ! فلم تزل تتقد فى صدرى شرارة من بسالتى القديمة ! فلتشتعل فى هذه اللحظة للمرة الأخيرة ! إن كانت الأحجار يباح لها أن تستريح على صدرك فلأتحول بدورى إلى حجر وإن كانت لمسة منك تميت ، فلأمت بلمسة من يديك » .

لم يكد يفرغ من هذه الكلمات حتى صدرت عنه حركة عنيفة ، فطار الصقر من يده ، أما هو فاندفع يلقى بنفسه على الجميلة ، ومدت يديها تريد أن توقفه ، ولكن لمسها له كانت أسرع منها .

غاب عنه الوعى ، وأحست والفزع يستولى عليها بالحمل الجميل يستقر على صدرها . أجفلت إلى الوراء صارخة وسقط الشاب الطاهر من بين ذراعيها على الأرض فاقد الحياة . . .

كانت الكارثة قد وقعت ! وقفت الزنبقة الحلوة بلا حراك تحدق فى

جمود إلى الجثمان الذى فارقته الروح . شعرت كأن قلبها يتوقف فى صدرها ، وكانت عيناها بلا دموع . حاول الكلب عبثاً أن يستدرجها إلى مداعبته ؛ كان العالم كله فى عينيها قد مات بموت صديقها . لم يتلفت بأسها الأخرس يطلب المساعدة ، فلم تكن تدرى كيف السبيل إليها .

غير أن الحية على العكس من ذلك زادت نشاطها ؛ بدا عليها كأنها تفكر فى وسيلة للنجاة ، وساعدت حركتها العجيبة حقاً فى أن تعطل النتائج المفزعة للكارثة لبعض الوقت على أقل تقدير . مدّدت جسدها الطرى المتثنى فى دائرة واسعة حول الجثمان ، وأمسكت طرف ذيلها بأنيابها وبقيت راقدة فى هدوء .

لم يمض وقت طويل حتى ظهرت إحدى خادمات الزنبقة الجميلات تحمل الكرسىّ العاجى ، وأخذت تلح على الجميلة بإشاراتها الودودة حتى جلست .

وجاءت الخادمة الثانية فى أثرها ، تحمل قناعاً بلون النار فزينت به وجه سيدتها أكثر من أن تغطيه به . أما الثالثة فناولتها القيثارة ، ولم تكد الزنبقة الحسناء تضغط الآلة الساحرة على صدرها وتضرب على أوتارها بعض النغمات حتى رجعت الخادمة الأولى تحمل فى يدها مرآة ناصعة مستديرة ، جلست بها أمام الجميلة وراحت تتلقف نظراتها وتعرض عليها أعذب صورة فى الطبيعة يمكن أن تقع عليها عين الإنسان . زاد الألم من جمالها ،

والقناع من سحرها ، والقيثارة من رقتها و بمثل ما تمنى كل إنسان أن تتبدل حالها الحزينة ، فقد ود لو يتشبث إلى الأبد بصورتها كما تنعكس على المرآة .

راحت تتطلع فى سكون إلى المرآة ، وتنتزع من الأوتار أنغاماً مؤثرة ويزداد عليها الألم فتردد الأوتار لوعتها فى قوة ، وفتحت فمها مرة لتغنى ، ولكن صوتها لم يطاوعها ؛ ثم سرعان ما ذاب حزنها فى دموعها ، وأمسكت فتاتان بذراعيها تعينانها ، وسقطت القيثارة من حجرها فتلقفتها الخادمة بسرعة وحملتها جانباً .

فحت الحية فى صوت خفيض ولكنه مسموع : « من يحضر لنا الرجل ذا المصباح قبل أن تغيب الشمس ؟ »

تطلعت الفتيات إلى بعضهن وانهمرت دموع الزنبقة ، وفى هذه اللحظة رجعت المرأة ذات السلة لاهثة الأنفاس ، أخذت تصيح : لقد ضعت وشوهت ! انظرن كيف أوشكت يدى أن تختفى ، لا الملاح ولا العملاق قبل أن يعبرا بى النهر ، لأننى ما زلت مدينة له ؛ عبثاً حاولت أن أقدم لهما مائة رأس قرنبيط ومائة خرشوفة . إنهما لا يريدان أكثر من الثمار الثلاثة ، وما من خرشوفة واحدة أستطيع العثور عليها فى هذه الناحية ؛ قالت الحية : انسى ما أصابك من هم ، وحاولى الآن أن تعاونينا فقد يكون فى ذلك العون لك أيضاً . أسرعى بقدر ما تستطيعين ففتشى عن النورين التائهين . ما زال ضوء النهار يحول دون رؤيتهما ،

ولكنك ربما سمعتهما يضحكان ويتداعبان . إنهما إن أسرعا فسوف يعبر العملاق بهما النهر وحينئذ يستطيعان أن يجدا الرجل ذا المصباح ويرسلاه إلينا .

أسرعت المرأة بقدر ما استطاعت ، وبدا على الحية كما بدا على الزنبقة أنهما ينتظران عودة العجوز والمصباح بفارغ الصبر . غير أن شعاع الشمس الغاربة كان قد كسى للأسف أعلى قمم الأشجار فى الدغل الكثيف ، كما تمددت الظلال الطويلة فوق البحيرة والدغل . تململت الحية نافذة الصبر ، وانهمرت دموع الزنبقة .

تلفتت الحية حولها فى هذه المحنة ، فقد خشيت أن تغيب الشمس بين لحظة وأخرى ، وينفذ الفساد إلى الدائرة السحرية فيعاجل الشاب الجميل بغير إبطاء — وأخيراً لمحت الصقر يخفق ريشه الأحمر القرمزى فى الأعالى ويتلقى بصدره أشعة الشمس الأخيرة ، أخذت تنعش نفسها فرحة بالفأل الطيب ، ولم تخدع نفسها ، فما هى إلا لحظات قصيرة حتى ظهر الرجل ذو المصباح يتقدم عابرا البحيرة ، وكأنه يتزحلق على الجليد .

لم تغير الحية من موضعها ، ولكن الزنبقة نهضت واقفة ونادت عليه قائلة :

أى روح طيب بعث بك فى هذه اللحظة التى نتلمسك فيها ونحتاج إليك أشد الاحتياج ؟

أجابها العجوز قائلا : إن روح مصباحى هو الذى يدفعنى ،

والصقر هو الذى يسوقنى إلى هذا المكان ، حين يحتاجنى أحد يتلألأ المصباح ، وأتلفت حولى أفتش فى الأجواء المحيطة بى عن علامة ، فإذا بطائر أو شهاب يدلنى على الاتجاه الذى يكون علىّ أن أسير فيه ، اهدئى ، يا أجمل الفتيات ! لست أدرى إن كان فى مقدورى أن أساعدك. إن الإنسان بمفرده لا يملك العون ، ولكن يملكه من يتحد مع غيره فى الساعة المناسبة . لندع الأمر يسير فى مجراه ، ولنتذرع بالرجاء . « حافظى على أن تبقى دائرتك مغلقة » . قال العجوز ذلك موجهاً كلامه إلى الحية ، وجلس على مرتفع من الأرض بجانبها وسلط نور مصباحه على الجسد الميت . ثم قال موجهاً حديثه للفتيات :

أحضرن كذلك طائر الكناريا وضعنه فى الدائرة ! فعلت الفتيات كما قال العجوز ، فتناولن الجثمان الصغير من السلة التى تركتها العجوز فى مكانها .

كانت الشمس فى أثناء ذلك قد أفلت ، وحين تراكم الظلام لم تبدأ الحية ومصباح الرجل فى إرسال ضوئهما كل على طريقته فحسب ، بل إن قناع الزنبقة راح يشع نوراً رقيقاً كأنه شفق ناعم لوّن وجنتيها الشاحبتين وثوبها الناصع بفتنة ساحرة لا سبيل إلى وصفها. تأمل الحاضرون بعضهم فى صمت ، وهدأ الرجاء اليقينُ من الهمّ واللوعة .

من أجل ذلك كان مما يدعو إلى السرور أن تظهر المرأة العجوز فى صحبة الشعلتين المضيئتين ، اللتين بدا عليهما أنهما قد بذرا من ضوئهما

تبذيراً شديداً حقاً ، إذ ظهرتا نحيلتين شديدتى النحول ، وإن لم يزدهما ذلك إلا لطفاً فى معاملة الأمير وبقية النساء . أخذا يتكلمان فى ثقة تامة ، وبصوت معبر عن أمور عادية ، وبدا عليهما بوجه خاص أنهما مأخوذان بالسحر الذى كان ينشره القناع المنير على الزنبقة وصاحباتها ، خفضت النساء أبصارهن فى تواضع ، وزداهن إطراء الجمال جمالا .

كان الجميع مغتبطين هادئين ما خلا العجوز : فعلى الرغم من تأكيد زوجها لها بأن يدها لا يمكن أن تتقلص أكثر مما هى عليه طالما كان ضوء مصباحه يسطع عليها ، فقد راحت تكرر وتعيد زاعمة أن الحال لو استمرّ على ما هو عليه لاختفى هذا العضو النبيل قبل أن ينتصف الليل .

أنصت العجوز ذو المصباح إلى حديث النورين التائهين فى انتباه وسرّه أن شغل الزنبقة عن همّها وأعاد إليها مرحها . كان الليل قد انتصف حقاً ، ولم يدر أحد كيف — تطلع العجوز إلى النجوم وشرع يقول :

« ها هى الساعة السعيده تجمعنا ، فليقم كل بعمله ، وليؤد واجبه ، وسوف تذيب السعادة المشتركة الآلام واحداً واحداً ، كما يلتهم الشقاء المشترك الأفراح كلا على حدة » .

بعد أن انتهى العجوز من إلقاء هذه الكلمات سمع خليط عجيب من الأصوات ، فقد أخذ كل واحد من الحاضرين يكلم نفسه ، وينطق بصوت عال بما عليه أن يفعل ، ما خلا الفتيات الثلاث فقد خيم

عليهن الصمت . كانت إحداهن قد غلب عليها النوم بجانب القيثارة ، والأخرى بجانب المظلة ، والثالثة بجوار الكرسى ، ولم يكن لأحد أن يلومهن فقد كان الوقت متأخراً ، أما الصبيان المشتعلان فبعد أن غمرا الجميع بمظاهر الأدب العابرة ، التى لم يحرما الخادمات أيضاً منها ، فقد انصرفا أخيراً بكليتهما إلى الزنبقة وحدها التى كانت أروعهن جمالا .

قال العجوز للصقر : أمسك بالمرآة ، وبشعاع الشمس الأول ، أنر النائمات وأيقظهن بنور مرتد من الأعالى !

بدأت الحية تحرك نفسها ، ففكت الدائرة المغلقة وراحت تزحف زحفاً بطيئاً فى حلقات كبيرة نحو النهر . تبعها النوران التائهان فى احتفال ، حتى ليحسبهما الإنسان أكثر الشعلات جداً ووقاراً ، وأمسكت العجوز وزوجها بالسلة التى لم يكد أحد حتى الآن يلاحظ النور الرقيق المنبعث منها ، وتناولاها من طرفيها ، وهى تزداد بين أيديهما بهاء ، وتكبر شيئاً فشيئاً ، ورفعا جثمان الشاب ، ومدداه فيها ووضعا طائر الكناريا على صدره ؛ ارتفعت السلة فى الفضاء وأخذت ترف فوق رأس العجوز التى سارت فى أثر النورين التائهين ، فتناولت الزنبقة الحسناء الكلب ووضعته على ذراعيها . وتبعت العجوز ، أما الرجل ذو المصباح فسار فى المؤخرة من الموكب ، وغمرت هذه الأضواء كلها الناحية فنورتها بنور ساطع غريب ، ولكن لم يقل عجب هذه الجماعة من المسافرين عندما وصلت إلى النهر فأبصرت قوساً رائعاً يمتد ، عبدت به الحية طريقاً مضيئاً .

وإذا كانوا قد أعجبوا فى مطلع النهار بالأحجار الثمينة الشفافة التى بدا كأن الجسر صنع منها ، فقد تملكتهم الدهشة فى الليل وهم يتأملون روعتها الباهرة السناء .

حفّ الجانب العلويّ من الدائرة الساطعة بالسماء المعتمة ، أما فى ناحيتها السفلى فقد اختلجت أشعة متدفقة بالحيوية فى اتجاه المركز فأوضحت الثبات المتحرك للبناء .

عبر الموكب فى بطء على الجسر ، وأطلّ المراكبيّ من كوخه على البعد يتأمل فى دهشة الدائرة الساطعة والأنوار العجيبة التى تعبرها .

لم يكد الموكب يصل إلى الضفة الأخرى من النهر حتى بدأ القوس يتأرجح على طريقته وينعطف انعطاف الأمواج ناحية النهر ، وسرعان ما زحفت الحية على اليابسة ، وهبطت السلة على الأرض فعادت الحية فطوقتها بدائرتها ؛ انحنى العجوز أمامها وقال : « ماذا قررت أن تصنعى » ؟ فأجابت الحية : « أن أضحى بنفسى قبل أن يُضحى بى ، عدنى بأنك لن تترك حجراً واحداً على اليابسة » .

وعد العجوز بما قالت ثم خاطب الزنبقة الحسناء قائلا : « المسى الحية بيسراك وحبيبك بيمناك » .

ركعت الزنبقة ومدت يدها فلمست الحية والجثمان ، الذى بدا عليه أنه ينتقل فى نفس اللحظة إلى الحياة ؛ ثم أخذ يتحرك فى السلة ، بل

انتصب فى جلسته وجلس ، أرادت الزنبقة أن تعانقه ولكن العجوز منعها من ذلك ، واتجه إلى الشاب يعينه على النهوض ، وأخذ بيده فخرج به من السلة ومن الدائرة .

نهض الشاب واقفاً ، ورفّ طائر الكناريا فوق كتفه ، كانت الحياة قد دبت فيهما ، ولكن الروح لم يكن قد عاد إليهما ؛ كان الصديق الجميل مفتوح العينين ، ولكنه لم يكن يرى شيئاً ، أو كان يبدو عليه على الأقل كأنه ينظر حوله بغير أن يشارك فى شىء مما يرى ، ولم يكد عجب الحاضرين من ذلك يخف قليلا حتى لاحظوا التغير العجيب الذى طرأ على الحية . كان جسدها الجميل النحيل قد تفتت إلى آلاف وآلاف من الأحجار الثمينة المضيئة ؛ لم تحترس العجوز التى أرادت أن تمدّ يدها إلى السلة فاصطدمت بها ، ولم يعد أحديرى شيئاً من بقية الحية ، فلم يبق منها غير دائرة جميلة من الأحجار البراقة ملقاة بين الأعشاب .

شرع العجوز على الفور فى جمع الأحجار فى السلة ، وكان على زوجته أن تساعده فى ذلك . حملا السلة إلى الشاطئ ، فوضعاها فى مكان مرتفع ، وأفرغ الرجل الحمل كله فى النهر ، ولم يبرأ من معارضة الزنبقة الحسناء ، وزوجته اللتين ودّتا لو تستطيعان اختيار شىء منها لأنفسهما . سبحت الأحجار مع الأمواج كأنها نجوم لامعة براقة ، ولم يكن أحد يستطيع أن يتبين إن كانت قد ضاعت مع التيار أو سقطت فى قاع النهر .

قال العجوز فى خشوع موجهاً حديثة للنورين التائهين : سادتى ! الآن أريد أن أريكما الطريق وأفتح لكما الدرب ؛ ولكنكما تسديان إلينا خدمة عظيمة إن فتحتما لنا بوابة المعبد المقدس ، التى يتحتم علينا الآن أن ندخل منها : والتى لا يستطيع أحد غيركما أن يفتحها .

انحنى النوران التائهان انحناءة مهذبة ولبثا فى مكانهما . وتقدم العجوز ذو المصباح إلى الصخر فانفتح له . لحق الشاب به على الفور فى حركة آلية ، وبقيت الزنبقة على بعد قليل منه هادئة غير واثقة من نفسها ، أما العجوز فلم تشأ أن تتخلف ومدّت يدها لكى يتسنى للنور المنبعث من مصباح زوجها أن يقع عليها . وسار النوران التائهان فى مؤخرة الموكب ومالت أطراف شعلتيهما إلى بعضها فبدا عليهما كأنهما مستغرقان فى الحديث .

لم يكن قد طال بهم السير حين ألفى الموكب نفسه أمام باب عظيم صنع من الحديد، وأغلق جناحاه بقفل ذهبىّ . نادى العجوز على النورين التائهين ، ولم يكونا فى حاجة لمن يدعوهما إلى العمل ، فقد أقبلا على القفل والمزلاج يلتهمانهما بشعلتيهما ذات الأطراف الحادة .

رنّ صوت المعدن عالياً حين انفتحت البوابات فى سرعة مذهلة ، وظهرت تماثيل الملوك ذات الجلال وقد غمرتها الأنوار التى سقطت عليها . أحنى الحاضرون رؤسهم أمام الملوك الأجلاء ولم يقصر النوران التائهان أيضاً فى تقديم انحناءاتهما العجيبة المتثنيه .

مرّت فترة من السكون قبل أن يسأل الملك الذهبي :

من أين تأتون ؟

أجاب العجوز : من العالم ! . . .

سأل الملك الفضى : وإلى أين تذهبون ؟

فقال العجوز : إلى العالم !

سأل الملك الحديدى : ماذا تطلبون عندنا ؟

أجاب العجوز : « أن نكون فى صحبتكم »

أراد الملك المختلط أن يبدأ الكلام حين سمع الملك الذهبي يقول للنورين التائهين اللذين اقتربا منه اقتراباً شديداً : « ابتعدا عنى » ! إن ذهبي لم يخلق لحلوقكم !

فما كان منهما إلا أن اتجها ناحية الملك الذهبي والتصقا به والتمع رداؤه بالنور الأصفر المنعكس منهما التماعاً جميلا وقال : مرحباً بكما ، وإن كنت لا أستطيع أن أطعمكما ، أشبعا بطونكما عند غيرى ثم أحضرا لى نوركما ! »

ابتعدا عنه وتسللا مختفيين من جانب الملك الحديدى ، الذى لم يبد عليه أنه انتبه إليهما وذهبا إلى الملك المركب من معادن مختلطة ، هتف بهما الملك فى صوت متلعثم :

« من الذى سيحكم العالم ؟ فأجاب العجوز قائلا :

« الذى يقف على قدميه . قال الملك المختلط :

أنا هو الحاكم !

قال العجوز : سوف يتضح الأمر عما قريب ، لأن الأوان قد آن .

ألقت الزنبقة الحسناء بنفسها على العجوز فطوّقت رقبته بذراعيها وقبلته قبلة صادقة ، حارة ، قالت له : يا أبى المقدس ، ألف مرة أشكرك ، فها أنا أسمع الكلمة الموحية للمرة الثالثة !

ولم تكد تنتهى من حديثها حتى وجدت نفسها تزداد تشبثاً بالعجوز . فقد بدأت الأرض تهتز من تحتها ، والتحم العجوز والشاب ببعضهما ، أما النوران التائهان المتدفقان حركة فلم يفطنا إلى شىء .

أحسّ الحاضرون إحساساً واضحاً بأن المعبد يتحرك كله كسفينة تبتعد رويداً رويداً عن الميناء حين تفك مراسيها ، وبدا كأن أعماق الأرض تتفتح أمامه ليشق طريقه فيها .

لم يصطدم بشىء ، لم يقف شىء فى طريقه .

مرّت لحظات قليلة خيل فيها للحاضرين كأن رذاذاً خفيفاً يتقطر من كوّة فى القبة ؛ ضمّ العجوز الزنبقة الحسناء إليه وقال لها : « نحن الآن تحت النهر ، ونوشك أن نبلغ الهدف » انقضت لحظات حسبوا فيها أنهم ثابتون فى مكانهم ، ولكنهم كانوا مخطئين ، فقد كان المعبد يرتفع إلى أعلى .

سمعوا ضجة غريبة فوق رؤسهم ، وراحت ألواح وعروق من الخشب

تنهال على رؤسهم فى صخب واختلاط من كوّة القبة . قفزت الزنبقة والعجوز جانباً ، وتشبث الرجل ذو المصباح بالشاب ولم يبرح مكانه . سقط كوخ المراكبي الصغير — فقد كان هذا الكوخ هو ما اقتلعه المعبد من الأرض وحمله معه عند ارتفاعه — شيئاً فشيئاً ، وغطى الشاب والعجوز .

تعالت صيحات النساء وارتجّ المعبد كالسفينة التى ترتطم باليابسة. أخذت النساء تهيم فى الغسق طائفات حول الكوخ ؛ كان الباب مغلقاً، ولم يستجب أحد لطرقاتهن ، اشتد طرقهن عنفاً ، ولم يقلّ عجبهن حين انتهى إلى سمعهن رنين ينبعث من الخشب ، كان الكوخ قد تحول بفضل المصباح المحبوس فيه إلى فضة تتلألأ من الداخل إلى الخارج .

ولم يمض وقت طويل حتى تحوّل شكل الكوخ نفسه ، فقد فارق المعدن الكريه الصور العارضة للألواح والأعمدة والقوائم الخشبية ، وتمدّد فصار مبنى رائعاً من المعدن المطروق . وهكذا نشأ معبد رائع صغير فى وسط المعبد الكبير ، أو إن شئنا فمذبح جدير بجلال المعبد .

ارتقى الشاب النبيل درجات سلم يرتفع من الداخل ؛ وأنار له الرجل ذو المصباح الطريق وبدا كأن رجلا آخر يساعده على الصعود ، ويرتدى ثوباً ناصعاً قصيراً ويحمل فى يده مجدافاً من الفضة ، عرف فيه الحاضرون المراكبيّ ، ذلك الساكن القديم للكوخ المتحول .

صعدت الزنبقة الحسناء الدرجات المتطرفة التى تؤدى من المعبد إلى

المذبح ؛ وكان ما يزال عليها أن تظل بعيدة عن حبيبها . وهتفت العجوز التي كانت يدها تتضائل شيئا فشيئاً ما بقي المصباح في مخبئة : هل كتب على أن أبقى شقية ؟ أليست هناك معجزة من بين هذه المعجزات الكثيرة تنقذ يدى ؟ أشار زوجها للباب المفتوح وقال :

انظرى ! إن النهار يطلع ، أسرعى واستحمى في النهر ! . .

صاحت قائلة : يالها من نصيحة ! إذن فقد قدر لى أن أصبح سوداء فاحمة السواد وأن أختفى تماماً من الوجود ؛ إننى لم أقم بسداد دينى !

قال العجوز : اذهبى واتبعينى . كل الديون قد سددت .

هرولت العجوز مسرعة ، ولاح نور الشمس المشرقة في نفس اللحظة يجلل هامة القبة . تقدم العجوز فوقف بين الشاب والعذراء ونادى بصوت مرتفع :

« ثلاثة يحكمون الأرض : الحكمة ، والمظهر ، والسلطان » .

انتصب الملك الذهبى عند سماعه الكلمة الأولى ، والملك الفضى عند سماعه الثانية ، وسمع الملك الحديدى الكلمة الثالثة فنهض يتحامل على نفسه في بطء .

بينما جلس الملك المختلط فجأة بطريقة خلت من كل حذق حتى إن كل من رآه لم يملك أن يمنع نفسه من الضحك ، ذلك أنه لم يكن يجلس ، ولم يكن يرقد ، ولم يكن يستند إلى شيء ، بل انهار منكمشاً على نفسه .

تنحى النوران التائهان جانباً ، وكانا طوال الوقت عاكفين عليه مشغولين به .

وبالرغم من شحوبهما فى ضوء المصباح ، فقد بدت شعلتهما ناضرة حية . كانت ألسنتهما الحادة المدببة قد امتدت إلى العروق الذهبية المنتشرة فى التمثال الهائل فلعقتها ، وأوغلت فى صميمها . بقيت الفراغات غير المنتظمة الناتجة عن ذلك مفتوحة بعض الوقت ، كما بقى الشكل العام على هيئته السابقة . حتى إذا التهمت الألسنة الحادة العروق المتناهية فى الدقة انهار التمثال كله مرة واحدة ، وكان انهياره مع الأسف فى تلك المواضع التى تبقى عادة على حالها عند الجلوس ، أما المفاصل ، التى كان ينتظر أن تنثنى فقد بقيت على العكس من ذلك متصلبة . اضطر كل من لم يقو على الضحك إلى أن يحول عينيه بعيداً ، فقد كان مما يؤذى العين أن ترى شيئاً وسطاً بين الشكل المنسق ، والكومة المتكورة .

هبط الرجل ذو المصباح درجات المذبح وتقدم الشاب الجميل الذى ما لبث يتطلع جامد العينين أمامه متجهاً بها إلى الملك الحديدى .

كان هناك سيف ملقى عند قدمى الأمير الجبار فى غمده الحديدى ، فمد يده وتحزم به . صاح به الملك الجبار : ضع السيف فى يسراك ، ودع يمناك حرة طليقة !

ثم ذهب إلى الملك الفضى الذى أدنى صولجانه من الشاب ، فقبض عليه بيسراه وقال له الملك فى صوت عذب : « ارع الأغنام » !

فلما جاء إلى الملك الذهبي مدّ هذا يده الأبوية يبارك بها الشاب ويضع على رأسه إكليلا من أوراق شجر البلوط وقال : « اعرف أعلى الموجودات » ! .

كان العجوز أثناء هذه الجولة يراقب الشاب مراقبة دقيقة ، فما إن تحزّم بالسيف حتّى ارتفع صدره ، وتحرّك ذراعاه ، وازدادت خطواته صلابة ، وما إن أمسك الصولجان بيده حتّى بدا كأن قوّته قد وهنت ، وكأن سحراً لا سبيل إلى وصفه قد زادها مع ذلك بأساً وقوة ؛ حتّى إذا زان إكليل البلوط خصلات شعره ، فاضت الحيوية على ملامح وجهه ، ولمعت عيناه بروحانية لا يمكن التعبير عنها ، وكانت أول كلمة نطق بها فه « زنبقة ! يا حبيبتى الزنبقة ! هتف بهذه الكلمات وهو يصعد الدرجات الفضية مسرعاً إلى لقائها ، فقد كانت قد تابعت رحلته من شرفة المذبح : « أيتها الزنبقة يا حبيبتى ! ماذا يستطيع الرجل الذى أنعمت عليه الطبيعة بكل شيء أن يشتهى لنفسه أعذب من البراءة والانعطاف الوديع اللذين يحتويهما صدرك ؟ » ثم اتجه إلى العجوز وتأمل التماثيل الثلاثة المقدسة واستطرد يقول : آه يا صديقى ! رائعة ومأمونة هى مملكة آبائنا ، ولكنك نسيت القوة الرابعة ، التى هى أسبق منها جميعاً فى حكم العالم ، وأعمّ وأبعد يقيناً : قوة الحب » . قال ذلك وألقى بنفسه على الحسناء فطوق رقبتها ؛ كانت قد نزعت القناع وألقته بعيداً عنها ، ولوّنت خديها حمرة فاتنة باقية الجمال .

أجاب العجوز مبتسماً : « الحب لا يحكم ، بل يربى ، وهلذا أكثر » .

لم ينتبه الحاضرون فى غمرة الاحتفال والسعادة والنشوة إلى وضوح النهار ، فإذا بأبصارهم تقع — عبر الباب المفتوح — على أشياء لم يتوقعوها ، رأوا فناء عظيماً تحيط به الأعمدة وفى نهايته جسر طويل رائع البهاء يمتد على النهر بأقواسه الكثيرة ؛ وعلى جانبيه ممرّان مصطفان بالأعمدة أعدّ لنزهة العابرين فوقه إعداداً مريحاً أخاذاً وكم من ألوف منهم دأبوا على العبور عليه جيئة وذهاباً . كان الطريق الطويل فى منتصفه يمتلىء بالقطعان والبغال ، بالخيالة والعربات التى ازدحمت على جانبيه ، وراحت تنساب انسياب النهر هنا وهناك بغير أن تعوق بعضها البعض عن السير . كان يبدو عليهم جميعاً كأنهم مأخوذون بالروعة والنزق من حولهم ، وأسعد الملك الجديد وزوجته رؤية الحياة والنشاط تدب فى هذا الشعب العظيم بمقدار ما أسعدهما حبهما المتبادل .

قال الرجل ذو المصباح : « أكرم ذكرى الحية ! إنك مدين لها بالحياة كما تدين شعوبك لها بالجسر الذى جعل من هذين الشاطئين المتجاورين بلدين تدب فيهما الحياة ، وربط بينهما . تلك الأحجار الثمينة التى تسبح برّاقة على النهر هى بقايا جسدها الذى ضحت به ، وهى أعمدة هذا الجسر الرائع ، لقد بنى عليها وسيحتفظ ببنائه فوقها .

أراد الحاضرون أن يسألوه أن يكشف لهم هذا السر العجيب حين

دلفت أربع فتيات حسان من باب المعبد .

تعرف الحاضرون فيهن على رفيقات الزنبقة من القيثارة والمظلة والكرسى . أما الحسناء الرابعة المجهولة التى فاقت الثلاث جمالا ، فقد دخلت من الباب بسرعة وهى تمرح بينهن مرحاً أخوياً ، ثم صعدت السلالم الفضية .

قال الرجل ذو المصباح للحسناء : « هل ستصدقيننى فى المستقبل ، يا زوجتى العزيزة ؟ طوبى لك ولكل مخلوق يستحم هذا الصباح فى ماء النهر ! » .

أقبلت العجوز التى ارتد إليها شبابها وجمالها ، والتى لم يبق لحلقتها السابقة أى أثر على الرجل ذى المصباح فضمته بذراعين شابتين متدفقتين بالحياة ، فتقبل عناقها مسروراً وقال لها وهو يبتسم : إن رأيت أننى عجوز بالنسبة لك ، فى استطاعتك أن تختارى لك زوجاً آخر ، لن يصح بعد اليوم زواج إلا إذا انعقدت أواصره من جديد » .

أجابت قائلة : « ألا تدرى أنك أصبحت شاباً ؟ — يسرنى أن أبدو لعينيك الشابتين فى مظهر الفتى المقدام ؛ وها أنا آخذ يدك من جديد ، سعيداً بأن أعيش معك الألف عام المقبلة . »

رحبت الملكة بصديقتها الجديدة ، وهبطت معها درجات المذبح ، تصحبها رفيقاتها الأخر ، فى حين راح الملك الذى توسط الرجلين ، يتأمل

مواكب الشعب المصطخبة فى انتباه .

ولكن سعادته لم تدم طويلا ، فقد رأى ما بعث الضجر فى نفسه ؛ كان العملاق الكبير ، الذى بدا عليه أنه لم يفق من نوم الصباح تماماً ، يتمايل قادماً إلى الجسر ، وينشر الاضطراب العظيم من حواه . كان قد نهض فى سكرة النوم كعادته يريد أن يستحم فى خليج النهر الذى يعرفه . فلم يجد فى مكانهما إلا اليابسة ، ومضى يخبط على الرصيف العريض ، ومع أنه مرق بين البشر والبهائم بلا حذق أو تدبر ، فقد أدهش الجميع وجوده وإن لم يشعر به أحد ، فلما انعكست الشمس على عينيه ورفع يديه ليمسحهما بهما ، أخذ ظل قبضته الجبار يتقلب هنا وهناك فى قوة واضطراب بين الجماهير حتى تدافعت حشود الناس والحيوانات ، فاصطدمت ببعضها البعض . وأصابها الأذى وتعرّضت لخطر السقوط فى النهر .

عند ما رأى الملك هذا الفعل البشع امتدّت يده بحركة غير مقصودة لتقبض على السيف ، ثم ما لبث أن تروّى وأخذ ينظر إلى صولجانه ، ثم إلى المصباح والمجداف فى يد رفيقيه . قال الرجل ذو المصباح : « إننى أحدس بما يدور فى خاطرك ، ولكننا وكل ما فى طاقتنا من قوة عاجزون عن مواجهة هذا العاجز . تذرع بالهدوء ! فهذه هى المرة الأخيرة التى يؤذينا فيها ومن حسن الحظ أن ظله قد ارتدّ عنا » .

اقترب العملاق فى أثناء ذلك اقتراباً شديداً ، وأصابه الذهول مما رآه بعينين مفتوحتين فترك يديه تسقطان ، ولم يعد يؤذى أحداً ، وسار مدهوشاً

إلى الفناء الأمامى . اتجه مباشرة نحو باب المعبد ، وإذا به يجمد فجأة فى منتصف الفناء ويتصلب فى مكانه تمثالا ضخماً هائلا من الحجر الأحمر اللامع ، يشير ظله إلى الساعات التى رصّعت من حوله فى دائرة على الأرض ، لا فى شكل أعداد بل على هيئة صور نبيلة دالة المعانى .

لم تكن فرحة الملك قليلة وهو يشاهد ظل العملاق الهائل يتجه وجهة نافعة ، ولم يكن عجب الملكة قليلا وهى تصعد فى أبهى زينتها إلى المذبح ، والعذارى فى رفقتها ؛ فإذا بها تلمح التمثال الغريب الذى كاد يحجب الرؤية من المعبد إلى الجسر .

كان الشعب فى أثناء ذلك قد تدافع نحو العملاق الساكن فى مكانه ، فأحاط به من كل جانب وأخذ يتطلع مدهوشاً إلى التحول الذى طرأ عليه . ومن هناك اتجهت الجماهير بأبصارها إلى المعبد الذى كان يبدو عليها كأنها تراه لأول مرة ، وتدفقت مندفعة نحو الباب .

فى هذه اللحظة رفّ الصقر الذى يحمل المرآة عالياً فوق المعبد ، والتقط نور الشمس وألقى به فوق الجماعة الواقفة فوق المذبح . ظهر الملك والملكة ورفاقهما فى غبش الضوء المنتشر فى قبو المعبد فى هالة من النور السماوى ، وخرّ الشعب ساجداً على وجهه ، وحين أفاقت الجماهير ونهضت ، كان الملك تتبعه حاشيته قد هبط درجات المذبح فى طريقه إلى قصره عابراً ردهات خفية ، وتفرّق الشعب فى جنبات المعبد لكى يرضى شهوته إلى التطلع .

أخذ يتأمل الملوك الثلاثة المنتصبين فى وقفتهم بعيون ملؤها الدهشة والإجلال ، ولكن حبه للاستطلاع جعله يتوق إلى معرفة ذلك الشيء المتكوّر تحت السجادة فى الفجوة الرابعة ؛ وأياً ما كان ذلك الشيء ، فقد شاء التواضع العطوف أن يبسط على الملك المنهار غطاء باهر الجمال ، لا تملك عين أن تنفذ منه ، ولا تجسر يد أن تكشف عنه .

لم يكن لتأمل الشعب أو لإعجابه أن يقف عند حد ، ولا للجماهير المتدفقة المتزاحمة أن تنجو من الاختناق فى المعبد لو لم يتحوّل انتباهها من جديد إلى الميدان الكبير .

رنت قطع ذهبية على الألواح المرمرية على غير انتظار ، وكأنما سقطت من الهواء ، واندفع المتجولون القريبون منها يتزاحمون عليها ليفوزوا بها ، وتكرّرت هذه المعجزة مرّة فمرّة ، هنا وهناك . ويفهم القارئ بلا شك أن النورين التائهين قد سمحا لنفسيهما قبل أن ينصرفا بشيء من المزاح فراحا فى مرح يبددان الذهب المتناثر من أعضاء الملك المنهار . انقطع سقوط الذهب ، ولم ينقطع نهم الشعب ، فظل يجرى هنا وهناك ، ويتدافع ويكاد يمزق بعضه بعضا . وفى نهاية المطاف تفرّق شمله ، ومضى فى طريقه . ولم يزل الجسر إلى يومنا هذا يعجّ بالسائحين ، ولم يزل المعبد أكثر الأماكن على وجه الأرض عمراناً بالزائرين .

تفسير الأقصوصة

فى الرابع من أكتوبر عام ١٨٢٦ أمسك جوته بالقلم ودوّن فى مذكراته هذه العبارة : « موضوع الصيد العجيب من جديد . » كان عليه أن ينتظر ثلاثين عاماً كاملة قبل أن يبدأ فى تحقيق المشروع الذى أراد أن يكتبه شعراً ملحمياً بعد فراغه من قصيدته الكبرى « هرمان ودوروثيا » مباشرة ، كما ذكر ذلك عدة مرات فى رسائله المتبادلة بينه وبين شيلر .

وفتش عن الملاحظات التى دوّنها فى عام ١٧٩٧ فلم يجدها تحت يديه. ولكنه بعد هذه المدة الطويلة التى انقضت بين الفكرة والتحقيق يشعر بالسعادة ، فما كان للمشروع القديم إلا أن يربكه ويحيره . إنه يقول الآن لإيكرمان فى أحد أحاديثه المشهورة معه * :

« حقاً لقد بقى الفعل وتطوّر الحدث على ما هما عليه ، غير أنه أصبح يختلف عنه اختلافاً تاماً فى التفاصيل ؛ لقد كان فى نيّتى أن أتناوله تناولا ملحمياً فى أوزان سداسية ، وهكذا ما كان ليصلح على الإطلاق للاستفادة منه فى هذا التصوير النثرى » .

(*) الحديث بتاريخ ١٥ يناير ١٨٢٧ .

لم يتغير إذن مجرى الأحداث كما خططها قبل ثلاثين عاماً : عالم المدينة الصغيرة ، جو الصيد المرح ، الوحش الكاسر يدخل فى صورة النمر والأسد فيصرعه الصياد البطل ببندقيته ، أو يروّضه الطفل الوديع بمزماره . بقيت الحكاية ملحمية كما كانت . الأسلوب وحده هو الذى تغير ؛ إنه الآن يكتبها نثراً بعد أن كان يريد أن يجعل منها قصيدة ملحمية . وبقى الختام كذلك على حاله . إن هونوريو ليس هو البطل الملحمى الذى يحمل الحدث على أكتافه إلى النهاية ، إذ لا يكاد يتمّ فعله البطولىّ الذى يصرع به النمر حتى يتخلى عن الساحة للطفل والوحش وحدهما .

فى بداية الأقصوصة يعرض الأمير العمّ على الأمير لوحات مصوّرة للقلعة العتيقة ، فيتذكر قارئ جوته مشاهد الطبيعة فى روايته « الأنساب المختارة* » . كانت الطبيعة هنا — إن جاز هذا التعبير — طبيعة إنسانية ، تعكس ما يضطرم فى قلب الإنسان من عواطف ، حتى تكاد هى نفسها أن تصبح طرفاً من أطراف المأساة . إن شارلوته وادوارد والضابط يتدخلون فى مجرى الطبيعة ، كما لو كانوا يفصلونها على هواهم ، ويد الإنسان تزين كل شىء ، حتى القبور والحفر والهوى السحيقة . والنهر يثور تحت سياط العاصفة ليغرق الطفل المسكين ، والحديقة تمرّ عليها يد شارلوته فتزينها وترعاها ، وتثبت أن الإنسان يستطيع حين يعتصم بالأخلاق أن يواجه ثورة الطبيعة ، ويكبح جماح عناصرها الشيطانية المدمرة ، وإن كتب

(*) ترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى .

عليه فى نهاية الأمر أن يسقط صريعاً تحت أقدام قدرها الباطش المجنون . ولكن الطبيعة فى الأقصوصة يسودها روح آخر . فالعمّ يعترف « بالقوة الحية الفعالة أبداً » التى تبقى فى حين يندثر ما تشيده يد الإنسان. إن الأسوار تهدم، والقلعة لايبقى منها غير أطلال، ولكن الجذوع الضخمة، والأغصان الممتدة لا تستطيع أن تلمسها يد الفناء . « لقد أصبحت (الطبيعة) سيدة ومن حقها أن تبقى كذلك . غلبت الطبيعة فما استطاع الإنسان أن يشق لنفسه غير طريق خفىّ يؤدى إلى ساحة الفناء الداخلى . هنالك مدّت شجرة بلوط جذوعها فى الدرجات المؤدية إلى البر ج الرئيسى » . إنها « تسمو فى الهواء مرتفعة فوق كل شىء » رمزاً لانتصار الطبيعة ، وعنواناً على خلقها المتصل وجلالها الأبدىّ . إنها تتحدث الآن بقوة لسكان القصر الجديد . وسوف تزين الصور أبهاء الحديقة ، فليس لأحد « أن يمتع عينيه بحوض زهورنا ولا بتكعيبتنا وممراتنا الظليلة الممهدة ما لم تكن لديه الرغبة الأكيدة فى أن يعتلى هذا المرتفع الماثل هناك ويتملى من رؤية القديم والجديد ، والجامد والصامد رؤية صادقة، ويتفكر فى كل ما لا تنال منه يد الزمان وما ينبض بنضارة الحياة . » ذلك هو واجب « التأمل الور ع » الذى يفرضه القديم على الجديد ، وتقتضيه الطبيعة العجوز الشابة أبداً من بنى الإنسان الفانين . هنالك لا تكون حادثة النمر والأسد مجرّد مناسبة تتيح للشاعر أن يضفى على أرض الشمال جلال الروح الكلاسيكية العريقة . إن تأمل الطبيعة فى حدّ ذاته يحمل السعادة للنفس ، ويأتى بالإنسان الزائل فى أحضان الطبيعة الخالدة ، ويردّ الماضى المشرق إلى الحاضر الشاحب ،

كما يبعث الحياة فى عالم ما أشدّ حاجته إلى التغيير والتجديد * .

إن جماعة الصيد الغريبة تبقى على حالها ، وكذلك سيدات البلاط وسادته. لكن العنصر الإنسانى الخالد يضىء بين هذه الجماعة وتلك ، على بريق الألوان والمشاهد المتغيرة ، فى صورة يعجز العقل عن إدراكها والوجدان عن الحدس بها ، ولكنها صورة مقدسة جياشة بالحياة .

والطريق إلى هذا العنصر الخالد ، على الرغم من قصر الأقصوصة ، طريق طويل . إنه يقودنا على درب تألفه العين تارة ويفاجئها تارة أخرى. ولكن النظرة الخبيرة تستطيع أن تستشف من وراء ما تراه من مشاهد الطبيعة المتغيرة شيئاً ثابتاً لا يتغير ، ومن وراء تعدد المظاهر قانوناً واحداً خالداً ، كما يستشعر القلب من خلال الأسلوب الهادئ النبيل وجداناً نفسياً وأخلاقياً عميقاً .

إن العم والأميرة وهونوريو يعبرون السوق على ظهور خيولهم ، فتوحى إليهم حركة البيع والشراء النشيطة « كأن المال لا ضرورة له ، وكأن كل تجارة يمكن أن تتمّ عن طريق التبادل » ، أى كأن هناك حالة أصيلة عريقة فى القدم تخفى وراء ما يرونه من أحوال جديدة علاقات أبدية متصلة تربط الإنسان بالإنسان . ومع ذلك فليست هناك حادثة فى ذاتها ،

* راجع فى هذا كله إميل شتيجر فى كتابه جوته ، الجزء الثالث ، ص ١٨٥ وما بعدها .

ولا واقعة مجرّدة منعزلة ، بل واقع واحد تحدده نظرة الإنسان المتأمل كما تحدده سائر الموضوعات المحيطة به المؤثرة عليه .

إن الشاعر يمهد لكل مشهد نراه ولكل خطوة نخطوها : فلا يكاد يظهر أمامنا شيء إلا وقد ذكر من قبل ، أو دار الحديث عنه ، أو رأيناه فى لوحة أو صورة . فالرسام قد أعدّ لوحات تخطيطية تعطينا فكرة عن القلعة قبل أن ندخلها ، وصور الوحوش المعلقة فى مكان العرض فى السوق تمهد لحادث النمر والأسد وتسلبه عنصر المفاجأة إلى حد كبير . حتّى الحريق المفزع لم يعد يفزعنا كثيراً . إن العم قد وصفه من قبل وأفاض فى وصفه ، وكل ما يروعنا منه هو التذكر الأليم . والأميرة ترى النظام والفعل الدائب فى كل ما تراه ، والحارس يمجد التناسق والكمال فى الكون الكبير . كلاهما يرى الحالة الأصلية فى الوجود ، ويعرف أن المثال قائم وراء الظواهر ، والثبات باق وراء التغير ، والنظام أسبق من الاضطراب . حتّى الحادثة التى كان ينبغى أن تفاجئنا لم تعد تثير فينا شيئاً من المفاجأة. فلا يكاد النمر يفلت من قيده ويهدد الأميرة وتابعها هونوريو حتّى نجد جوته يؤخر أثر المفاجأة ويقول : أبصراه يقفز نحوهما ، على نحو ما رأياه منذ قليل . فلو لا صورته التى أبصراها على اللوحة فى الطريق لما شعرا بكل هذا الخوف نحوه ، ولما « قتلاه بغير داع » . ولكن حارسته هى التى ستفجع فيه ، وسنعرف من بكائها أنه كان نمراً أليفاً ، لو ترك فى حاله لتمدد على الأرض فى سكون .

وتقترب الجماعة من القلعة ، ونقرأ عن وقت الظهيرة هذه الكلمات :
« على الأفق الرحيب رقد سكون صاف ، على نحو ما هو مألوف فى ساعات الظهيرة ، حين كان القدماء يقولون إن " بان " ينام وإن الطبيعة كلها تحبس أنفاسها حتى لا توقظه من نومه . » نظرة إلى الأمام والتفاتة إلى الخلف ، فكرة وهاجة ثم إذا بنا أمام الكمال التام ، نواجه الوجود الساكن فى ذاته ، الطليق من كل زمان . إن جوته لا يقول كلمة واحدة تتجاوز حدود الصورة المحدودة . ومع ذلك فنحن نحس كأننا عرق ينبض فى جسد الطبيعة الكبير ، أو كأننا ننمو مع الكون الهادئ المتجدد حتى ندرك القمة . ومع ذلك فهذه اللحظة التى نشعر فيها بالسر الخالد لحظة منعزلة ، كأنها جزيرة وحيدة . إن الخطر يتهددها من الخارج ، وما نسميه بالعناصر يقف لها بالمرصاد . ولا تكاد الشمس تفارق سمتها الأعلى حتى يثور هذا الشيء الموحش المتوحش . فالحريق يندلع ، والرعب يمد ظله على الطبيعة المسالمة . ولكن الطبيعة لا تفارق سلامها ، فالنفس وحدها هى التى أصبحت عاجزة عن التجاوب معها ، غارقة فى بحر السواد والاكتئاب . إن قوى العناصر الشريرة تبدو كأنها اتحدت مع بعضها ، فلا تكاد النار تشب حتى تفزع الوحوش من أوكارها . إن النمر يقفز متجهاً نحو الجماعة ، كأنه رسول النيران إليهم . ويسرع هونوريو على جواده يريد أن يلحق به « فيصيب الوحش فى رأسه برصاصة من مسدسه فيسقط صريعاً ويتمدد بطوله على الأرض ويكشف عن القوة والرعب التى لم يبق منها غير جانبها الجسدى » . إن اندلاع العناصر يردنا إلى عصر البطولة ، فإذا بنا نسمع صدى الفارس الحديدى فى هذه

الكلمات القصيرة التى تصف هونوريو : « كان هونوريو قد قفز من على ظهر جواده وركع أمام الحيوان ، وراح يسكن اختلاجاته الأخيرة فى حين أمسكت يده اليمنى ببندقيته . كان الشاب جميل الطلعة ، وكان قد وثب مندفعاً إلى الأمام كما اعتادت الأميرة أن تراه فى ألعاب الرماية والمصارعة » .

غير أن القصاص لا يقف عند هذا المشهد البطولى ، ولا يريد أن يصف الصورة من أجل الصورة وحدها . وإذا كان فى الأقصوصة كلها يقتصر على المشاهد الخارجية ، فهو لا شك يحاول أن يكتم عنا الكثير من لواعج الباطن وأسراره . إن الحديث الغامض بين هونوريو والأميرة يتبع مباشرة ، لا يكاد يشير بغير التلميح إلى الحب المعذب الذى يضمره لها ، والذى يحاول بالسفر البعيد أن يسيطر عليه مثلما سيطر على الوحش الكاسر منذ قليل . إن حديثه المتحفظ المستقيم معها يخفى عذابه الدفين ، والكلمة التى يقولها تشير إلى الرغبة التى لا يملك الإفصاح عنها . والورع الذى يسود هذا المشهد كله يجعل الفارس الجميل يطبق شفتيه على حبه اليائس . إنه يظل راكعاً أمامها ، برغم إلحاحها عليه أن ينهض على قدميه ، كما يجيبها « ملتهب الوجنتين » ولا يفوه بكلمة تزيد على ما يقتضيه واجب الاحتشام . ويمتد ظل الاكتئاب على وجهه بدلا من فرحة الشباب ، « ثم يقف على قدميه وهو يتفكر » .

إن هونوريو ، الراكع أمام النمر ، لا الواقف وقفة الظافر المنتصر ، قد روّض العنصر الشرير فى الحيوان ، كما قيد اللهب المشبوب فى صدره ،

ومع ذلك فإن المشهد البطولى يعجز عجز العاطفة المحتدمة فى قلب الشاب عن التعبير عن فكرة الكمال الأخلاقى عند جوته . لقد غلبت العاطفة حقاً ، ولكنها لم تسكن سكون السعادة والصفاء . إن على وجه الشاب ظل اكتئاب ، ووجوده قد تمزّق وانشق على نفسه . ومع ذلك فسوف نلمح شبح ابتسامة على شفتيه .

ويغيب عنا هونوريو بعد هذا المشهد أو يكاد ، فلا نعرف ما يحس به عند رؤية المرأة الباكية فوق جثة النمر . ولكن لعله كان يؤنب نفسه ويحاسبها على بطولة لم تكن هناك حاجة إليها . إن الخوف والإقدام هما اللذان خلقا الخطر الموهوم . فها نحن نعلم من شكوى المرأة أن الوحش الكاسر كان صديقاً للبشر ، وأن صحبته لحراسه ضرورية ونافعة : « لنا ، لنا نحن جاء الطعام من الآكلين ، والرىّ العذب من الأقوياء . لن يكون شىء من ذلك . ويلى ! ويلى ! » كلمات كأنها تتلى من العهد القديم ، من سفر أيوب أو سفر القضاة ، مفعمة بالرهبة والخشوع ، لا يطلقها واعظ على منبر ، بل امرأة مفجوعة تحت قبة السماء ، فى جو الشمال المعتم .

وتبعث عقيدة طواها النسيان ، وتنبثق مقاييس تقادم عليها الزمان ، تدعو الإنسان إلى التأمل ، لا فى هذه الفكرة أو تلك ، ولا فى هذا الفعل أو ذاك ، بل تضع الأصول التى تقوم عليها الحياة نفسها موضع السؤال .

وهكذا يأخذ جوته بأيدينا ، فى حذر وتدرّج ، إلى عالم الشرق القريب من المنبع الأصيل . ثم يظهر الزوج على مسرح الأحداث ، ويعيد الشاعر خطبته الشاعرية العالية ، التى تكاد تقترب من القصيدة ، وفيها يمجدّ الخالق ويسبح بحكمته . وحين يتردد هذا الشعر – هذه الأم القديمة الطيبة للجنس البشرى – فى أسماعنا ، ندرك كم تحتاج العصور الحديثة إلى أن تجدد شبابها من إكسير الحياة ، من نبع الشعر .

لكن بعث النثر من جديد هو فى الحقيقة عود به إلى مبدأه القديم . إن الزوج يتحدث عن ملائكة وأنبياء وعمالقة وأقزام وأحجار ونباتات وحيوانات وبشر فى صور بدائية عريقة فى القدم ، توقظ فى نفس الإنسان الأوربىّ الحديث من الحيرة والخشوع ما توقظه فيه آثار حضارات وثنية قديمة غامضة . لكن كلماته ترن فى الآذان التى لديها الاستعداد لسماعها وكأنها كلمات مألوفة . إن الرجل يتحدث حديث العارف عن جبروت العناصر ، وجلال الجرانيت ، كما يتحدث عن القوة الخلاقة الكامنة فى المثال الأول والنموذج الأصيل ، الذى يطبع صورته على ما لا نهاية له من الظواهر والأشياء (لنذكر هنا رأى جوته المشهور فى الظاهرة الأولى Das Urphanomen التى تقرّبه من أفلاطون فى نظرية مثله كما تقرّبه من أفلوطين فى نظرية الفيض عن الواحد) . إنه يحيى النظام الذى يسود الطبيعة ، مثلما يسود فى جو البلاط والقصور . هكذا يحوّل حديثه تيار السخط أو الخوف إلى الخضوع والتأثر . إن خطبته تعود بنا إلى النبع الأول الذى يغترف منه

البشر من آلاف السنين . إنها تمنحنا ما كنا نملكه ثم نسيناه أو تنكرنا له أو جهلنا قيمته . بل إن صورة الرجل والمرأة تعود بنا إلى عالم الشرق القديم وكأنهما رسولان يبشران بذلك الإنسان الفطريّ المنتشى بخمر الحكمة ، البعيد عن العقل والفكرة ، القريب من القلب والإيمان . ونذكر قول جوته فى أولى قصائد الديوان الشرقى ، هجرة :

هنالك حيث الطهر والحق ،
أريد أن أقود أجناس البشر
إلى أعماق المنبع الأصيل ،
حيث كانت لا تزال تتلقى من الله
وحى السماء بلغات الأرض
ولا تحطم الرأس بالتفكير ؛
حيث كانت تبجل الآباء
وتتحاشى كل خدمة غريبة
أريد أن أبتهج بحدود الشباب :
الإيمان رحب ، والفكرة ضيقة ،
حيث كان للكلمة شأنها الخطير
لأنها كانت كلمة تنطق بها الشفاه .

ويصاحب الطفل كلمات أبيه على نايه الناعم العذب ، بلحن « ما هو فى الحقيقة بلحن » ، و « سلسلة من الأنغام لا تخضع لقانون » . وبعد

العنصر الشرير فى الحريق وطلقات الرصاص يأتى العنصر الصديق فى الموسيقى ، لا ليفسد أو يدمر ، بل ليسعد ويحرّر . وإذا بالأب ينتزع الناى من يد ولده الذى يصاحب عزفه بهذه الأبيات :

من المغارات ، فى الحفر
أسمع أنشودة النبي
الملائكة ترف لتنعشه
فهل يحسّ الطيبّ بضيق ؟
الأسد واللبؤة يطوفان حوله
يتمسحان فيه ،
نعم ، فالأغانى الناعمة التقية
قد أحدثت فيهما هذا الأثر !

وتدور هذه الأبيات حول حكاية النبي دانيال التى ذكرها الأب فى خطبته . وكما يعود بنا اللحن إلى النبع الأصيل ، يعود جوته كذلك ويغترف من نبع ذكرياته القديمة . فنى مذكراته المعروفة باسم « شعر وحقيقة » نجد هذه العبارة : « دانيال فى مغارة الكهف فى موزر » . (وقد كان هذا هو عنوان ملحمة نثرية ظهرت فى عام ١٧٦٣ أثرت أعظم تأثير على وجدانه الشاب وأثبت البحث الحديث على يد إرنست بويتلر فى مقاله « أصل ومضمون أقصوصة جوته » أن بعض تفاصيل مشاهد الأقصوصة بل بعض أجزاء أناشيدها تطابق صفحة العنوان فى طبعة الملحمة التى أشرنا إليها

والتى وجدها أمامه وهو بعد صبىّ) .

ها هو الشيخ يعود إلى طفولته الحالمة ، حيث لا يعرف الزمن ولا التعب ، ولا يسأل من أين ولا إلى أين . دانيال يصلى فى جبّ الأسود — والأسد راقد فى القلعة . مسافة القرون تمحى . ما يكون اليوم قد كان دائماً . الأسد واللبؤة يطوفان رائحين غاديين ، ويتمسحان بالنبىّ الذى وجد فى الله مأواه واستغرق فى الصلاة فأمن شرّ الأسد . ومن الحب يشرق نور الإيمان والأمل ، فى مقطوعة غنائية يصعب أن نجد أرق منها فى أشعار جوته :

لأن الخالد يحكم فوق الأرض

على البحار ! تسود نظرته ،

على الأسد أن تصير حملانا

والموجة ترجع إلى الوراء

السيف الناصع يجمد فى الغمد ،

الإيمان والأمل يتحققان ؛

معجز هو الحب ،

الذى يتكشف فى الصلاة

وبعد هذه المقطوعة تسود سكينة تذكرنا بساعة الظهيرة التى مرّت منذ حين . إن العالم يبدو من جديد فى غاية كماله . وكأن بركة هذه الأبيات

الشهيرة فى « الديوان الشرقى » قد حلت عليه :

« الشرق لله

والغرب لله

أراضى الشمال وأراضى الجنوب

تستريح آمنة فى كنف الرحمن »

لكأن الهم والخوف قد زالا حين لفهما سر الطمأنينة التى تغمر الأرض وما عليها :

« بدا كأن الحاضرين قد نسوا الأخطار المحدقة بهم ، الحريق من تحتهم ومن فوقهم الأسد الهادئ هدوءاً مريباً » .

الطفل ينشد أغنيته . إنها بالنسبة للأمير وصحبه من رجال البلاط لا تزيد على أن تكون شعراً وموسيقى . ولكنهم لا يريدون ولا يستطيعون أن يستسلموا لسحرها .

لقد أنشد الطفل منذ قليل :

« وهكذا تمّ الأمر » .

فهل يكون فى وسع الشعر أن يصبح فعلا ؟ وهل تستطيع الأغنية أن تحقق الخلاص الذى تبشر به ؟ إن الطفل يعيش فى الزمن الحاضر وحده . المستقبل القريب بالنسبة له حاضر ، مثله فى ذلك مثل الماضى البعيد . وكل

مايتعلق بالزمن من انتظار وتصميم ، ومن إقدام وحذر يواجهه الطفل بابتسامته.
أما نحن ، قراء وشهوداً ، فدائرون مع الزمن ، مقيدون بقيده .

وهنا ينصرف الأمير وحاشيته فى أثره . وقد يبدو انصرافه فى هذه اللحظة الحاسمة أمراً غريباً . ولكن القصاص يقصد إلى ذلك قصداً ، لكى يمهد للخاتمة الوديعة ، التى تبزغ كالوردة من بين الأوراق الخضراء (على حد قوله لإكرمان فى ١٨ يناير ١٨٢٧) .

وتلتقى الأم وولدها فى أثناء صعودهما إلى القلعة بهونوريو ، الذى راح يتطلع إلى الشمس فى سكون : « أنت تتطلع إلى السماء . حسناً تفعل . هنالك يستطيع الإنسان أن يفعل الكثير . أسرع فحسب . لا تتردد . فسوف تتغلب . ولكن تغلب على نفسك أولا » .

لقد ترك الصراع مع النمر وراءه ، ولحظة البطولة لم يعد لها الآن مكان . رأته الأميرة جميلا وهو يثب على النمر ويصرعه . ولكن المرأة تراه الآن أشد جمالا وهو يتطلع نحو الشمس الغاربة . ذلك أن جمال العازف الصاد ، أروع وأسمى من جمال البطل الفارس المكدود . وها هى نفسه تشع بالخلاص والسلام ، ويغمرها نور غير متناه .

إن أخطار العاطفة الجامحة فى قلب هونوريو شبيهة بالأخطار التى تهدد الطبيعة الآمنة من جانب القوى الأولية المدمرة . والجمع بين المرأة الحكيمة حكمة الشرق وبين الشاب الغارق فى الحب اليائس المستحيل

إشارة إلى أن التقوى وحدها هي التي تستطيع أن تقهر القوى الأولية ، سواء كانت تهدد الإنسان من الداخل أو من الخارج . إن النفس الإنسانية هنا فى حاجة إلى أن ترجع إلى حالتها الأصيلة ، أن تقترب من منبعها الأول ، أن تتمسك بهذا الشيء الخالد الذى يبقى وراء التغير ، ويصمد برغم التاريخ . إن وجه هونوريو الجميل يعبر عن الزهادة والصدود التى تطالعنا كثيراً فى أعمال جوته المتأخرة ، وبخاصة فى « الأنساب المختارة » وفى الجزء الثانى من روايته الكبرى « فيلهلم ميستر » المعروف « بسنوات التجوال » . « ازهد وصدّ . إن الصدود عليك واجب » . هو البيت الذى يعبر به جوته عن حكمة شيخوخته . وليست الزهادة والصدود ، ولا العزوف والإباء من أفعال الإرادة ، بل هى نتيجة تأتى من مشاهدة الحقيقة ، وتصل إليها النفس بغير مشيئتها ، نتيجة رؤية الكلّ ، سواء تمثل ذلك الكلّ فى حياة الإنسان نفسه أو فى النظام الخالص الذى يسود الكون ، أى رؤية الله ، التى يعبر عنها جوته بكلمة الورع .

ويبدأ سر الأمر الذى « تمّ من قبل » فى الظهور ، ويحتفل به الصبىّ ويباركه بأغنيته البريئة السعيدة . إن أرق المخلوقات ليس أضعفها ، وجبار الوحوش ليس هو أقساها . ولولا أن كل موجود يستطيع أن يرتد إلى حالة البراءة الأولى لما استطاع الطفل أن يجرّ الأسد وراءه ! إن ترويض قوى العناصر عن طريق الموسيقى قد سبق إليه موتسارت فى أوبراه « الناى السحرى » . التى كان جوته يحبها ولا يملّ من الثناء عليها :

نحن نتجوّل تحت سلطان النغم

فرحين خلال ليل الموت المعتّم

ويتردد صدى هذه الكلمات فى السطور التى تتابع الطفل لدى خروجه من مغارة السرّ إلى النور ، « بعينين لامعتين راضيتين ، يتبعه الأسد بخطوات بطيئة ، ولكنها تكشف فيما يبدو عن ألم يعانى منه » . *

وتتكرر موسيقى الأنشودة الراقصة فى الواقع ؛ ويخطر الموكب الصغير بين الأشجار ، كأنه حفل تكريم للروح الإلهية التى ترفّ مقبلة من الأعالى ، معلنة الإيمان والأمل والمحبة .

الأسد يتبع الطفل ، ولكنه يتبعه بمشقة . لقد دخلت شوكة فى راحة قدمه اليمنى . إنه ، وهو الوحش الكاسر ، فى حاجة إلى من يساعده . ويملكنا التأثر ، ونتذكر حكاية أندر وكليس والأسد . ويعود الطفل إلى الغناء منتصراً مجيداً كأنه بطل تم له النصر حتى على بطولته . واستمر الطفل يصفر فى الناى ويغنى ، حالما ، مضيئاً ، بلاهدف :

وهكذا يمضى الملاك المبارك

مع الأطفال الطيبين .

(*) راجع فى هذا « إميل شتايجر ؛ نفائس اللغة الألمانية ، زيورخ ١٩٤٨ الطبعة الثانية ، ص ١٦١ .

ويسدى إليهم النصيحة ،
يمنع الشرّ عنهم
ويشجع على الفعل الجميل

* * *

تفاوتت أحكام النقاد ومؤرخي الأدب فى شأن الأقصوصة تفاوتاً كبيراً ، فالناقد الكبير فريدريش جوندلف* يغض من شأنها إلى أبعد حد . إنها فى رأيه تنتمى إلى ذلك النوع من « الأشعار التربوية المطلقة » التى تنبع من الفرحة الجمالية بالتعبير عن دافع من الدوافع بما يطابق أحد فنون الأدب ، لا من رجفه نفسية أو هدف من الأهداف . » وحجته فى هذا أن جوته اختار لقصته عنواناً مجرّداً ، أضاف إليه أداة التعريف ليدلّ بذلك صراحة على أنه يريد أن يضع أمام القراء والكتاب الأنموذج الأصيل لفن أدبىّ بعينه ، لا أن يعبر عن تجربة حية فاض بها وجدانه .

ويلاحظ الكاتب الفرنسى أندريه جيد فى مذكراته (١٩٣٩ — ١٩٤٢) أن الأقصوصة سخيفة سخفاً لا يصدق ! » فقد غلبت عليها الصنعة ، مع أن العمل الفنى لا يتم بمجرّد تطبيق قواعد جيدة ، يمكن فى حالة الأقصوصة بالذات أن توضع موضع الشك والنزاع . ثم يقول إن جوته لم يكن ليكتب مثل هذه الأقصوصة فى أيامنا هذه .

(*) فى كتابه عن جوته ، برلين ١٩١٨ ، ص ٧٤٣ .

وإلى جانب هذه الأحكام التى تقلل من قيمة الأقصوصة نجد أحكاماً أخرى يتفاوت حظها من التعمق والحماس . فالباحث الشهير المتخصص فى جوته ، وأعنى به إرنست بويتلر ، يريد أن يصل بهذا العمل الصغير فى حجمه ، الكبير فى قيمته ، إلى جذوره الدينية ، أو بتعبير أدق إلى جذوره المسيحية : « إننى أرى فى الأقصوصة تعبيراً عن مسعى جوته ، لا بل عن جهده فى تحويل الإيمان المسيحى إلى ورع طبيعىّ . إن الأمر هنا أمر تحوّل فى التدين نفسه ، لا يضحى فيه مع ذلك بالمحتوى الأصيل ، ولا بقوة العقيدة أو قوة الخلق . » ويجمع هذا الناقد مع غيره (من أمثال إميل شتيجر ، وباول شتوكلين ، وكورت ماى) على ما فى هذا العمل المتأخر من أعمال جوته من تميز وعمق وطرافة .

أما جوته نفسه فقد أحب أقصوصته دائماً . لقد صحبته زمناً طويلا من حياته ولم ينسها وهو على عتبة الموت فى أحاديثه المشهورة مع صديقه الأمين إكرمان . فإكرمان يروى لنا حديثه مع جوته فى ٢٩ يناير ١٨٢٧ وكيف أخذا يفتشان معا عن عنوان يصلح للأقصوصة ، ويورد كلمته المشهورة عن جوهر الأقصوصة بوجه عام : « عندئذ أخذنا نتحدث عن العنوان الذى ينبغى أن تحمله الأقصوصة ، وأدلى كل منا باقتراحاته ، فكان بعضها مناسباً للبداية ، وبعضها الآخر للخاتمة ، ولكننا لم نجد واحداً منها يصلح للأقصوصة فى مجموعها . قال جوته : هل تعرف ، نريد أن نسميها « الأقصوصة » ، إذ ما هى الأقصوصة إن لم تكن حادثة لم يسمع بها من

قبل ؟ هذا هو مفهومها الحقيقى ، وأكثر ما ينشر فى ألمانيا باسم الأقصوصة ليس فى الواقع شيئاً من ذلك ، بل مجرّد حكاية أو ما تشاء له من أسماء . بهذا المعنى الأصلىّ للحادثة التى لم يسمع بها ترد الأقصوصة كذلك فى « فيلهلم ميستر — سنوات التجوال » .

كما نجد جوته فى حديث آخر مع هذا الصديق الوفىّ فى الثامن عشر من شهر يناير عام ١٨٢٧ يعبر عن الفكرة الرئيسية فى الأقصوصة بقوله : « كانت مهمة هذه الأقصوصة أن تبين كيف أن الوحش الذى لا يقهر يمكن ترويضه فى أغلب الأحيان عن طريق الحب والورع خيراً من قهره بالعنف والقوة . وهذا الهدف الجميل ، الذى يعبر عنه فى الطفل والأسد ، هو الذى حفزنى على كتابتها. هذا هو المثال ، هذه هى الزهرة . إن نضارة العرض الواقعىّ الخالص موجودة لهذا السبب ، وهى لهذا السبب أيضاً ذات قيمة . إذ ما هو الهدف من الواقع لذاته ؟ إننا نحسّ نحوه بالفرحة عند ما يصوّر تصويراً صادقاً ، بل إنه يستطيع أيضاً أن يعطينا عن بعض الأشياء معرفة أكثر وضوحاً ؛ ولكن الكسب الحقيقى الذى تجنيه طبيعتنا العالية يكمن فى المثال وحده ، الذى انبثق من قلب الشاعر » .

جوهر الأقصوصة إذن هو هذه المثالية التى ليست مجرّد فكرة ذهنية ، بل عاطفة يحسّ بها القلب ، وإن كان أسلوب جوته المتحفظ الذى اتسمت به كتاباته فى شيخوخته لا يعبر عنها تعبيراً مباشراً ، بل يحوّلها عن طريق الصور الشاعرية إلى رموز موحية . هنا يكمن سحر هذا العمل الذى

يتفتح من خضرة الواقع الناضرة بضرورة فنية قاهرة ، فيؤثر فى نفس القارئ بما يرويه من أحداث عجيبة تأثير الأساطير والخرفات . ليس فيه شىء يثير العجب بمفرده ، فكل شىء قد مهد له كما رأينا بعناية ، حتى الرعب الذى يمكن أن نشعر به قد سبقته المخاوف التى تنسجها ملكة التخيل فأعدتنا لتلقيه . كل صغيرة فيه قد حددت تحديداً موضوعياً دقيقاً ، ولكن الكل يبهج ويدهش كما تفعل المعجزة .

إن الباعث الرئيسى فى الأقصوصة باعث دينى بالمعنى الواسع لهذه الكلمة : إنه التغلب على القوة والبطش عن طريق المحبة والورع . الشخصيات المعبرة عنه — الرجل والمرأة والطفل — تبدو كأنها قادمة من أرض الشرق . واللغة التى تتحدث بها لغة الطفولة والطبيعة والتوراة . إنها تظل فى عالمنا التاريخى شخصيات سابقة على التاريخ . إن صلتها بالله والطبيعة صلة مباشرة . لقد قيدت العناصر الأولية بالتقوى والغناء فألفتها ولم تعد بالنسبة لها قوى شيطانية معادية : « ولكن الأسد دخل غابة النخيل . بخطوة جادة راح يتوغل فى الصحراء . هناك يسود جميع الحيوان وما من أحد يقف فى وجهه . ومع ذلك فالإنسان يعرف كيف يروضه ، وأشد المخلوقات ضراوة يرهب صورة الرب التى جبل الملائكة أنفسهم على مثالها » .

إن الورع هنا معناه التجاوب والانسجام مع كل ما هو حى . وليست المعجزة الحقيقية فى ترويض الأسد، بل فى نقاء القلب وطهارته ،

وفى سلطان الأغنية على الوحش الكاسر . إن القوى الطبيعية العمياء تستسلم لسحر الشعر والغناء حتى ليستطيع الطفل البرىء أن يجرها وراءه فى هدوء :
« بدا الطفل فى صفائه كأنه قاهر منتصر ، أما الأسد فلم يبد كالمغلوب ، لأن قوته ظلت كامنة مستورة فيه ، بل ظهر فى صورة الوحش المروّض الذى استسلم لإرادته المسالمة » .

إنه الاستسلام الذى ينبع من الإجلال للطبيعية ، والخشوع أمام الله . ومن هنا كانت معجزة الأقصوصة ، كما يقول بنو فون فيزه * ، فى أنها تعيد يوماً من أيام الخلق الأولى إلى عالمنا الحديث ، وترينا العالم بعينى آدم كما رآه لأول مرة . إنها تعكس القوة العالية التى تتحكم فى ضمير الإنسان وتوجه مصيره ، كما تسود الطبيعة الحرّة العذراء . إن طاقتها الخلاّقة تسرى فى كل موجود ؛ فى الصخرة والشجرة ، وفى الحيوان والإنسان . هذه القوة الحقة الخالدة تجرى فى جميع مظاهرها على اختلاف صورها ؛ فى المجتمع والطبيعة ، فى عالم الصخور وعالم النبات . إن نظام التكوين يكمل درجة درجة ، من الصخرة إلى النبات ، ومنها إلى الحيوان فالإنسان . كل مرحلة تتهددها أخطار العناصر المدمرة . وفوق الجميع يسبح الروح الخالد ، ثابتاً وراء التغير ، كاملا وراء النقصان . ذلك لأن :

(*) فى تعليقه على الأقصوصة ، فى أعمال جوته الكاملة ، المجلد السادس طبعة هامبورج ، ص ٧١٥ .

الخالد يحكم في الأرض
وعلى البحار تسود نظرته ؛
على الأسود أن تصير حملانا ،
والموجة تتراجع إلى الوراء .
السيف الناصع يجمد في غمده
والعقيدة والأمل يتحققان ؛
معجزة هو الحب ،
الذى يتكشف في الصلاة .

إن عالم جوته كله حاضر فى هذه الأقصوصة الصغيرة . الطبيعة والإنسان فى علاقتهما الخالصة . العناصر الأولية والروح التى تشكلها . العاطفة الملتهبة والصدود الأبىّ .تلاقى الأضداد من تغير وثبات ، وحياة وموت ، ومظهر وحقيقة ، وسماح وجبروت ، وشباب وشيخوخة . كل هذا يعبر عنه جوته المربى — وذلك هو طابعه الأصيل — فى أسلوبه الهادئ البسيط النبيل ، بينما ينظر نظرة النسر الطيب من عل ، فإذا بالعالم وكأنه كرة نحملها بين أيدينا ، ونتذكر أغنية لينكويس حارس البرج وهو يقول فى الفصل الخامس من القسم الثانى من فاوست :

ولدت لأرى
خلقت لأشاهد
موكلا بالبرج

يعجبنى العالم

أتطلع بعيداً

وأنظر قريباً

للقمر والنجوم

والغابة والغزال

وأرى فى كل شىء

الزينة الأبدية

أيتها العيون السعيدة

كل ما رأيته ،

وليكن ما يشاء ،

لقد كان جميلا !

* * *

تفسير الحكاية

سجل صيف عام ١٧٩٥ حادثاً نادراً فى تاريخ الأدب الألمانى ، بل لعله من أندرها فى تاريخ الآداب العالمية بوجه عام ، ونعنى به انعقاد أواصر الصداقة الوطيدة بين الشاعرين العظيمين جوته وشيلر *. كان شيلر فى ذلك الحين قد شرع فى إعداد مجلته الشهرية المعروفة باسم « الهورن » ** ، وكان من الطبيعى أن يطلب من جوته أن يساهم فى تحريرها ، فلم يتردد الصديق . وكان فى نية شيلر أن ينشر فى أعدادها الأولى بعض مقالاته الفلسفية ومقالات صديقه فيلهلم فون همبولت . ولكن كان على المجلة التى تتجه إلى دائرة متسعة من المثقفين ألا تقتصر على هذا اللون الجاف من ألوان الكتابة ، وأن تقدم من القصص ما يضمن لها الذيوع والانتشار . ووعد جوته فى أول الأمر أن يقدم قصة قصيرة ، ما لبثت أن تحولت إلى مجموعة من القصص ، فى إطار روائى طويل .

كان جوته فى ذلك الحين مشغولا بإعداد الجزء الأول من روايته

(*) راجع فى هذا الموضوع مقالا لكاتب السطور بعنوان « الشاعر العاطفى والشاعر الساذج » نشر فى مجلة الشعر ، عدد يولية ١٩٦٤ .

(**) "Die Horen".

الكبرى فيلهلم ميستر ، وهو المعروف « بسنوات التعلم » ، كما كان فى الوقت نفسه منكباً على إتمام دراساته عن « نظرية الألوان » ، ووضع الخطوط الرئيسية فى أبحاثه عن العظام ، وكان إشرافه على مسرح فيمار يكلفه الكثير من وقته وجهده . فلم يكن هناك مفرّ من أن تظل الحكايات القصيرة التى وعد بتقديمها لمجلة «الهورن» عملا جانبياً إلى جانب الأعمال الأخرى التى تشغله ، وإن لم ينف هذا أنه أقبل على كتابتها فى شغف ولذة همّا طابع كل قصاص أصيل . وكان أن تجمعت كل هذه الأقاصيص فى شكل رواية قصيرة على هيئة مسامرات سماها بالفعل « مسامرات مهاجرين ألمان » ووضع الحكاية التى نعرفها فى نهايتها .

والمسامرات * — إن جوته لا يترفع عن المشاركة فى أدب التسلية الذى كان منتشراً فى عصره بل يجد فى ممارسة القصة والارتفاع بشكلها والسمو بغايتها واجباً من أمتع الواجبات — مجموعة من الأحاديث تدور حول أسرة من الأسر النبيلة هاجرت من أحد أملاكها النائية فراراً من جيوش نابليون الزاحفة . ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه المسامرات **

(*) "Unterhaltungen Deutscher Ausgewanderten".

(**) تعد مسامرات المهاجرين الألمان التى ظهرت فى مجلة «الهورن» فى عام ١٧٩٥ بداية فن القصة الألمانية القصيرة فى القرن التاسع عشر . وليست أقاصيص جوته التالية هى وحدها التى تبدأ من هنا ، بل كذلك أقاصيص الرومانتيكيين أنهم يقتفون أثره ، وإذا بنا نرى فيلاند ينشر قصته « هيكسا ميرون » روزنهيم (١٨٠٥) ، وأرنيم «حديقة الشتاء» (١٨٠٩) ، وتيك =

فلهذا موضع آخر. ويكفى أن نشير إلى أنها تبدأ بمناقشات حادة حول الثورة الفرنسية تدور بين متعصب لها وساخط عليها ، فيحاول القسيس العجوز الذى يرافق العائلة ، مدفوعاً من البارونة الحكيمة ربة الأسرة ، أن يعيد الاتزان والبهجة إلى الحاضرين بحكاياته ، وأن يبعد بهم عن القضايا الوقتية ليوجههم إلى قضايا الإنسان الخالدة . إن العجوز يسلى الحاضرين ، وبخاصة الشباب منهم بحكاياته ، لا بالمعنى الشائع لكلمة التسلية ، من تشتيت البال وصرف الانتباه عن قضايا الساعة الملحة ، ولكن ليصرفهم عن المنازعات السياسية العقيمة والمسائل السطحية العابرة ، ليعدّهم لما هو أعمق من مسائل الفكر والشعور . إنه يضرب لهم المثل — وبخاصة فى أقصوصة فرديناند الشاب الذى يكفر عن جريمة اختلاس أموال أبيه بالوفاء والتضحية ، وأقصوصة التاجر الإيطالى العجوز وزوجته الشابة التى يطول غيابه عنها فتبحث عن الحبيب والصديق فى شخص محام شاب يدفعها بالصوم والصلاة — أى إلى حد كبير بإماتة الجسد ومجاهدته كما يقول المتصوفة — إلى أن تقهر نزواتها وتنتصر على ذاتها — أقول إنه بهذه الأقاصيص التى أخذ بعضها عن بوكاتشيو يضرب لهم المثل على الإنسان

= «فانتازوس» وكثيرون غيرهم . وأحب الناس الأقصوصة وعرفوا أهمية هذا الشكل الفنى . وأصبحت الحكاية التى سبق إليها « موزايوس » وجرى فيها على أسلوب عصر التنوير الذى ساد فيه سلطان العقل عملا من أعمال الخيال الخالص عند جوته . ومن هذا النبع الصافى اغترف شاعر الرومانتيكية الكبير نوفاليس (فريدرش فون هاردنبرج) .

الذى لا تقوى كارثة من الخارج ولا عاطفة من الداخل على أن تفقده توازنه ، الإنسان الذى يحافظ دائماً على المسلك الهادئ ، ويجد نفسه على الدوام مدفوعاً إلى أن يعيش لغيره ، ويضحى بنفسه فى سبيل الآخرين .

وفى الحكاية التى يختم بها القسيس العجوز مسامراته نجده يصف لنا تلك الحالة التى تفيض بالنعمة والسعادة والتى ما كان لهذه الشخصيات العجيبة أن تصل إليها لولم تتغلب واحدة منها (الحية) على نفسها وتضحى بذاتها فى سبيل المجموع . إنها تبنى من جسدها جسراً مسحوراً يصل الواقع بالمثال ، والحياة بالفن ، كما يربط عالم الشاب الملتهب بالحب والعذاب بعالم الزنبقة الفياض بالسعادة والتجانس والكمال . والقسيس بهذا يحاول أن يكشف عن جوهر الإنسان ، كما يطالبه فى الوقت نفسه بأن يكبح جماح غرائزه ، ويعرف حدوده فلا يتعداها .

فى أقصوصتى فرديناند والتاجر العجوز يحرص الراوى على التزام الشكل ، أما فى الحكاية فتصبح طريقته فى القصة ، وقد تحررت من قيود الواقع ، لعباً خالصاً وصورة خالصة — شيئاً يتعذر أن نجد له نظيراً فى فنون الكتابة ، إذ هو أقرب ما يكون إلى جوهر الموسيقى .

لقد كان جوته فى ذلك الحين يقرأ كتابات شيلر الفلسفية ، ويرى كيف يحاول الصديق أن يتغلب على اختلاط الغرائز وفساد العصر عن طريق الفن والجمال . ولعله قد تذكر كلمة صديقه المشهورة التى وردت

فى رسائله الفلسفية عن التربية الجمالية للإنسان * (الرسالة الخامسة عشر) : « لا يكون الإنسان بكليته إلا حين يلعب » . ولكنه رأى كذلك كيف ترك الصديق أرض الواقع وحلق بجناحيه فى مملكة المثال العالية، وكلما ازداد تحليقه كلما تعرض لأخطار الحماس والخطابة . ولعله أيضاً قد عرف مصداق التفرقة التى أقامها شيلر بين الشاعر العاطفى الذى يبدأ من الفكرة والمثل الأعلى وقد يعود أو لا يعود إلى الواقع — وقد قصد بذلك نفسه — وبين الشاعر الساذج الذى يبدأ من المشاهد والمحسوس ليصعد درجة درجة إلى الفكرة والمثال — وقد قصد بذلك صاحبه ومنافسه جوته .

لقد رفرف هذا بجناحيه فى مملكة الخيال الحرّة السعيدة ، ولكن حكايته بقيت مغزولة من نسيج الواقع ، ضاربة فى جذور المحسوس .

* * *

ظلت الحكاية بالنسبة لمعاصرى جوته وللأجيال التالية لغزاً مستوراً . وتتابعت تفسيرات المفسرين تحاول أن تتغلغل فى أسرارها ، ولكنه هو نفسه لزم الصمت وآثر الكتمان فلم يحاول أن يفسر رموزها بكلمة واحدة . ولم تكد تظهر فى مجلة « الهورن » فى شهر أكتوبر عام ١٧٩٥ حتى بدأت محاولات المفسرين ولم تزل مستمرة إلى اليوم .

(*) Die æsthetische Erziehung des Menschen.

حاول نقاد القرن التاسع عشر أن يفسروها تفسيرات مجازية ، وأن يجدوا فى إشاراتها دلالات سياسية تقترن بالثورة الفرنسية وبشخصية نابليون . ورأى نقاد القرن العشرين فيها رموزاً حاولوا فى حذر أن يربطوها برموز أخرى تتكرر كثيراً فى بقية أعمال جوته وفى فاوست الثانية بوجه خاص مثل النور والأرض والماء والفضة والذهب. . . إلخ . وصرّح جوته مرّة لصديقه همبولت (فى ١٧٩٦/٥/٢٧) بأن الحكاية ينبغى أن تؤخذ مأخذ الرمز لا مأخذ الاستعارة أو المجاز . غير أنه لم يبح بشئ عن طبيعة هذا الرمز .

والحقيقة أن كلمات القسيس العجوز الذى يروى الحكاية للأسرة المهاجرة تعبر عن هذا الرأى نفسه حين يقول : « إنها تذكر بلا شيء وبكل شيء » ؛ فالرمز هنا غنى بالعلاقات التى تربطه بما يرمز إليه ، ولكن العقل لا يستطيع أن يستنفد كنوزه . وربما كان جوته يحمل جزءاً من المسئولية عن الحيرة التى يجد المفسر فيها نفسه بإزاء هذا العمل .

إنه يقول للأمير أوجست فون جوتا فى ٢١ ديسمبر ١٧٩٥ : « إننى أجد فى العمل الذى تمدحونه ، والذى لا يستطيع عصر آخر غير العصر الذى نعيش فيه أن يطلق عليه اسم الحكاية ، كل دلائل التنبؤ . . . ذلك لأن المرء يرى بوضوح أنها تتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل . . . على نحو ما سوف ترونه سموكم من تفسيرى لها ، الذى لا يخطر لى مع ذلك أن أقدمه قبل أن أرى تسعاً وتسعين مفسراً سبقونى إليه ! »

ولقد حاول ما يزيد عن هذا العدد ، وفى مقدمتهم شيلر ، أن يستوضحوه سرّها ، ولكنه بقى صامتاً . ومضى على موت شيلر أكثر من ربع قرن ، وحاول كارلايل أن يستفسر من جوته عن الحكاية التى أعجب بها واعتبرها من أعمق أعماله وأكثرها شاعرية — وما من شك فى أن جوته كان يودّ لو استطاع أن يجيب على سؤال الأديب الإنجليزى الكبير الذى يحسّ أنه يدين له بالكثير ، ولكنه لم يجد أكثر من قوله :

« إنها قطعة فنية يندر أن تتكرّر مرتين » .

لقد سبق لجوته أن تحدث بنفسه عن بعض أعماله ، وبخاصة قصائده الغنائية ، فكان يذكر بعض ملابسات حياته التى ارتبطت بإنشائها ، أو يعيد مضمونها بعبارات نثرية أو يحاول شرحها شرحاً موضوعياً . ولكنه كان يحرص دائماً على ألا يمس سرّ العمل الفنى وألا « يفسره » بالمعنى التحليلى المعروف من هذه الكلمة . فكل تحليل يفسد العمل الفنى الذى ينبغى أن ينظر إليه دائماً ككل ، وإلا كان الناقد كالطبيب الذى يريد أن يشرّح الجسد ليضع يده على سرّ الحياة فيه ، مع أن التشريح لا يكون إلا لميت ، بينما القصيدة أو العمل الفنى كائن عضوى يفيض بالحياة ! .

وإذن فليس عجيباً أن نراه يرفض تفسير الحكاية . ومن يدرى ؟ فلعله لم يكن ليستطيع أن يقدم مثل هذا التفسير على الإطلاق .

إن الحكاية تروى بطريقة موضوعية جادة ، وتنتهى بخاتمة لا تخلو

من الاحتفال . كلماتها الأولى تنقلنا إلى عالم غريب ، يصفه لنا الراوية وكأننا نعرفه : هناك النهر ، والمراكبى ، والحية . . . إلخ. هذا العالم الغريب يبدو كأنه عالم الأحلام . ليست هناك حدود تفصل بين الأرواح والبشر والحيوانات والكائنات العضوية وغير العضوية . إن كل شىء يتداخل فى كل شىء . ولكن هذا العالم غير المحدود لا يخلو مع ذلك من القوانين والقيود : فهناك قانون يتحكم فى النهر فلا يقبل ذهباً ، وفى المراكبى فيعبر بالمسافرين فى اتجاه واحد فحسب ، وفى العملاق فلا تكمن قوته إلا فى ظله ، وفى المصباح فيذيب كل جامد ، وفى الزنبقة فتميت بلمستها كل حى . . . إلخ . تقابل ذلك مثل هذه العبارات التى تسود الحكاية بأكملها : لقد آن الأوان . إن الخلاص قريب . الشقاء رسول يسبق السعادة . النبوءة قد تحققت . ثم يأتى التحوّل العظيم فى النهاية ، فيتحد المتفرق ، ويطمئن اليائس ، ويتحرر المغلول ، وتنشأ حياة جديدة بعد أن تلتئم القوى المختلفة فى تجانس وانسجام .

كل المشاهد والأحداث تؤدى إلى هذا التحوّل السعيد ، فى بناء واضح شديد الوضوح ، يظل يتعقد إلى أن يصل إلى هاوية الشقاء (عندما تلمس الزنبقة حبيبها لمسة الموت ويفتش الجميع عن وسيلة للخلاص) . ثم يبلغ ذروة السعادة (عند ما يتحد الحبيبان وتتحوّل الحية إلى جسر متألق يفضى إلى المعبد الخالد) . ثلاثة دوافع تخلق التوتر وتحرك الحدث وتمضى به إلى الأمام : ما هو نوع الخلاص القريب ؟ ما هو مصير اليد التى أصبحت فى سواد الفحم ؟ ماذا ستفعل الحية ؟

أما اليد السوداء فهى أظهر عناصر التوتر . إن العجوز قلقة على يدها ، تخشى أن يحل الموعد المضروب قبل أن يحمل لها الشفاء . أما الحية فهى تتوارى وراء الأحداث فترة من الزمن ، ثم تظهر على مسرحها فى شكل دائرة مسحورة تحيط بالجميع فى انسجام ووئام ، وتحمل لهم النجاة والخلاص . إنها تجعل من نفسها جسراً يربط بين الشاطئين البعيدين ، وما أشدّ افتخارها بذلك ! ولكنها سرعان ما تدرك أن فعلها هذا لا يكفى . إنها تواجه الآن صراعاً باطنا يطالبها بأن تتخذ موقفاً قد يكون فيه فناؤها . فهى لا تستطيع أن توحد بين المتفرقين وأن تبقى مع ذلك على حالها . ليس أمامها إذن إلا أن تضحى بنفسها ، وأن تصبح شيئاً آخر لا حياة فيه . فهل هى مقدمة على هذه التضحية ؟

إن الحكاية البهيجة ، ابنة الخيال الخالص ، تنسج الجمال لموقف أخلاقى قد يكون من الصعب علينا أن نتوقعه فى هذا المقام . ولكننا سنتبين فى النهاية أن تضحية الحية ما هى إلا عنصر من عناصر الخلاص الشامل ، وأن مشكلة اليد المهددة بالزوال ستجد الحلّ الطبيعىّ لها من خلال التحوّل الإجمالىّ الذى يبشر الجميع بالنجاة . وهكذا يجد كل شىء مكانه المرسوم ، ويرتبط أصغر الأشياء بأعظمها شأناً ، فى وحدة منسجمة رائعة الانسجام . ما من عنصر يمكن الاستغناء عنه ، ولا من حدث يمكن إغفاله . فلا بدّ للحية من أن تضىء المعبد ، وأن تلتهم الذهب ، لكى تتمكن الزنبقة من الاجتماع بالملوك فى معبدهم المقدس . ولكن لا بد لها فى سبيل ذلك من الأنوار التائهة التى تتولى عنها التهام الذهب . ولا بدّ لهذه الأنوار التائهة

بدورها من عبور النهر . فكل حدث يفترض الحدث الذى يليه ، حتى إذا قام كل بدوره – حتى الأنوار العابثة ظهر أنها لا تخلو من طيبة القلب ! – واتحد الجميع فى نهاية الأمر ، زال القانون القديم ، وغمرت الجميع حالة من السعادة الخالصة ، لا وجود لها إلا فى الحكايات والأحلام والأساطير .

كل الأحداث التى تصفها الحكاية تظهر فى صور حية بهيجة الألوان . فالصقر الذى يرف فى الهواء تنعكس عليه أشعة الشمس الغاربة فتكسوه بلون قرمزىّ ، والجسر يشع فى ظلمة الليل كأنه عقد متألق من النجوم ، وحركة المعبد والشخصيات تتم فى مكان شفاف منسوج بخيوط الأحلام . هذه الصور والشخصيات جميعاً يغمرها « النور المقدس » كما يحدد اتجاهها ومصيرها . أما الذهب فينعكس فى رمز الفاكهة . وكل هذه موضوعات رمزية ترد فى صورة مشابهة فى « فاوست الثانية » وفى سواها من أعمال جوته .

فالسرّ المكشوف الذى يتحدث عنه العجوز تعبير يتردد فى كتابات جوته ، فتتناوله إحدى قصائده الفلسفية التى تحمل عنوان « أبيريما » * وتلخص تأملاته فى الطبيعة والحياة :

عليك عندما تتأمل الطبيعة
أن تنتبه إلى الواحد كما تنتبه إلى الكل ؛
لا شىء فى الداخل ، لا شىء فى الخارج .

(*) راجع أعمال جوته ، طبعة هامبورج ، المجلد الأول ، ص ٣٥٨ .

لأن ما هو فى الداخل فهو كذلك فى الخارج .
فضع يدك بغير ما تردد
على السرّ المقدس المكشوف
ابتهجوا بالمظهر الحق
وباللعب الجاد ،
ما من حىّ فى واحد ،
إنه على الدوام كثير .
كما يقول فى الديوان الشرقىّ على لسان حافظ :

سر مكشوف

سموك ، يا حافظ المقدس
اللسان الصوفىّ ،
ولم يعرفوا ، وهم علماء الكلام ،
قيمة الكلمة .
أنت عندهم متصوف ،
لأنهم يحسبون أن الطيش عندك
ويشربون على اسمك ،
خمرهم العكرة
لكنك متصوف نقىّ
لأنهم لا يفهمونك ،

أنت الإنسان المبارك
وإن لم تكن تقيا !
وذلك ما لا يريدون
أن يعترفوا لك به .

ويقول فى « الحكم والتأملات » : إن من تبدأ الطبيعة فى إماطة اللثام عن سرّها الظاهر المكشوف له ، يحسّ بشوق غلاّب إلى الفن أنبل مفسريها .

ومطالعة وجه الله ورؤية ما وراء العالم فى كل ما هو أرضى مباشر هو فعل صوفىّ أوسر مكشوف لا يتفتح إلا بالدهشة* فالدهشة هى الطريق الوحيد الذى يمكننا من أى نرى الوجود الحق فى ما يعطى لنا كل يوم وأن نعرف السرّ الذى يربط الشيء الصغير بالروح الكونىّ الكبير . والدهشة التى تهز كياننا نوع من الارتعاش ، يعبر عنه فاوست فى الجزء الثانى من المأساةفيقول :

على أننى لا أفتش عن نجاتى فى الجمود
الارتعاش هو خير ما فى وجود الإنسان

فاوست الثانية — البيت ٦٢٧٢

ولكن أمثال هذه الصور الرمزية تتكشف فتصبح استعارات ، كما

(*) راجع لكاتب السطور مقالا من « الدهشة أصل الفلسفة » نشر فى مجلة « المجلة » ، أغسطس ١٩٦٣ .

نرى فى الحية عند ما تتكوّر على نفسها ، وهى استعارة قديمة تدل على الصحة والحياة والخلود . والاستعارة ظاهرة كذلك فى وصف الملوك الثلاثة الذين تقابل معادنهم (الذهب والفضة والمعدن الخام) الحكمة والمظهر والسلطان ، أو العقل والفتنة والقوة ، أو المعرفة والشعور والإرادة ، كما هى ظاهرة فى العلاقة بين مملكة الحسيات (التى تمثلها الحية الخضراء) وبين مملكة الحرية أو مملكة ما فوق المحسوس (التى تمثلها الزنبقة) .

ولكننا نخطئ إذا تصورنا أن بقية الصور التى تتتابع فى كثرة مذهلة يمكن أن تحدد دلالاتها هذا التحديد . فلو فعلنا هذا لكنا كمن يحاول معرفة السر بالعقل والاستدلال ، بينما الأمر فيه متروك للشعور والوجدان . ونخطئ كذلك لو حاولنا أن نعطى بعض الجمل التى تجرى مجرى الحكم دلالات ثابتة . فحين يسأل الملك ، « أى شىء أروع من الذهب ؟ » فتجيب الحية : « النور » ثم يعود فيسألها : وأى شىء أعذب من النور ؟ فتجيب «الحديث» ، أو حين يسألها العجوز : « علام صممت ؟ » فتجيبه قائلة : « على أن أضحى بنفسى قبل أن يضحى بى » ، أو حين يقول العجوز ذو المصباح للفارس الجميل : « إن الحب لا يتسلط ، ولكن يربى ، وهذا أكثر . » سنجد أنفسنا فى حيرة من هذه العبارات جميعاً ، فلا ندرى كيف نفسر علاقتها بالحكاية فى مجموعها . إن الحديث الذى تشير إليه الحية هو هنا نوع من التفاهم والتجاوب بين السائل والمجيب ، ولون من الالتقاء بين من يتحدث ومن يستمع إليه . إنه يصل إلى ذروته فى الحب ، وهذا يؤدى إلى التضحية والفداء . وتضحية الحية بنفسها هى

التى تتوج الحكاية ، وتخلق روح التجانس التى سترفرف على الجميع . وكذلك لا يخرج الضد إلا عن ضده ، ولا تولد السعادة إلا من أعماق الشقاء .

مزيج عجيب من جميل ونادر ، ومضحك ومدهش تروى كلها فى مستوى واحد وعلى وتيرة واحدة . فالضحك لا يضحكنا بالمعنى المألوف لنا فى حياتنا اليومية ، والمدهش لا يثير دهشتنا ، وكل ما هو جميل أو نادر فهو شىء نتوقعه سلفاً فى عالم الأحلام . هنا ينطلق الخيال فيلعب فى حرية وبراءة ، وينثر صورة سحرية وراء أخرى ، خالصاً من قيود الواقع وقوانينه (وإن لم يخلص من قوانين الأفكار) حتى يشبه أن يكون لحناً موسيقياً أو تأليفاً غريباً من يد رسامى الرموز والأحلام ، هى إذن مملكة أحلام ، وهى فى الوقت نفسه صورة عقلية عالية لا تعاليم فيها ولا عظات ، بل لعب خالص من كل هدف ، يحاول أن يربط الكائن المحدود بالعالم غير المحدود .

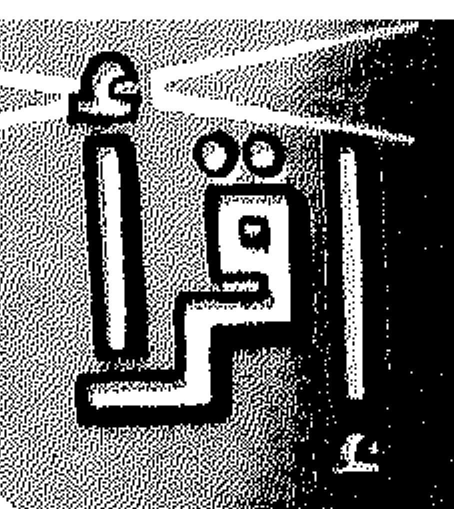
لقد نسجت الحكاية من رموز عاشت فى ضمير الإنسانية من آلاف السنين ، ورددتها الشعوب فى أساطيرها وحكاياتها وخرافاتها وأشعارها وفنون سحرها . فالحية والنهر واللهب والذهب . . . إلخ . تنبع من هذا النبع الحىّ القديم ، ولكن الحكاية تحاول إلى جانب ذلك أن تجيب على السؤال الخالد عن جوهر الإنسان ومصيره ، وعن موقفه من هذا العالم وواجبه فيه . فالإنسان خالق الحضارة هو الكائن الوسط الذى

يقف بين شاطئين ، ويعيش بين طرفين ، ويتأرجح بين لامتناهيين (كما عرف اليونان وكما قال باسكال فى عبارته المشهورة) ؛ بين الهوّة والقمة ، والحيوان والإله ، والضعة والكمال . والحكمة كلها فى إقامة الجسر الذى يربط بين شاطئى نهر الحياة ، بين الطبيعة والفن ، والأرض والسماء ، والليل والنهار ، والواقع والمثال . ولكنه لن يقيم هذا الجسر حتى يدفع الثمن من حياته ودمه . ولقد ضربت الحية له المثل الرائع الأليم ، فعرفت « حين آن الأوان » كيف تضحى بنفسها فى سبيل غيرها . وتبنى من جسدها تلك الدائرة المسحورة التى تضم السعادة والتجانس والكمال . . .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



اكتملت سعادتها
باستعمال
صابون
لاڤندر
٣ أحجام
منتجات قسمه
لاڤندر



قصص الحب العربية

عبد الحميد إبراهيم محمد

دار المعارف بمصر

قصص الحبّ العربية

عبد الحميد إبراهيم محمد

قصص الحبّ العربية

أغراضها .. وتطورها

اقرأ ٢٨٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٨ — ديسمبر سنة ١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

١

عاطفة الحب عاطفة إنسانية أصيلة ، يغرى الحديث عنها كل فرد ، ويجذب كل إنسان . وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة ، وسيظل إلى أن تنتهى الخليقة .

وقد أولع العرب بنوع من الحب العفيف ، المبنى على التصون والتحرز ، وتنزيه المرأة عن المباذل والدنايا . فقد كانوا يقدرون المحب العذرى ويحترمونه ، فأخو الفزارية كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال لهم : « دعونى ، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام » . وهناك عاشق أصاب السبع معشوقته فلحق بها ، فعظم القوم تضحيته وقالوا : « والله لننحرن عليه تعظيماً له ، فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة ، وتسامع الناس ، فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلثمائة ناقة » ، وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة ، ويعطفون على أصحابها ، فمعاوية يقول : « لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما » ، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة فجميل يذكر فى نهاية القصة التى رواها عن معشوقة افترسها الأسد ولما علم عاشقها بذلك انتحر ولحق بها — يذكر جميل أن الزوج تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما . وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطاً يربط بينهما ، كذلك الرباط الذى يربط بين الزوجين ، وكان إذا غضب مع معشوقته يرد عليها هذا الرباط ، كما يطلق الرجل امرأته ، فالرماح بن مالك القيسى غضب مع معشوقته فقال لها : « الوصل عليك مردود »

فقالت له : « ماقضى الله فهو خير » . وتنتهى بعض القصص بنوع من الخيال يومئ إلى انتصار الحب على الجاه والثروة ، وعلى العادات والتقاليد ، فعروة وعفراء حين حال المال بينهما فى الحياة فرفض الأب أن يزوجه منها لفقره ، يتعانقان بعد الموت على هيئة شجرتين ملتفتين ، كانت المارة تنظر إليهما ، ولا يعرفان أى ضرب من النبات . وعتبة وريا ، حين حالت العادات بينهما وبين إكمال عرسهما ، نبتت على قبرهما شجرة عليها ألوان من الورق يقال لها شجرة العروسين .

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب ، فمنهم من درس الغزل كالدكتور أحمد الحوفى ، ومنهم من درس الحياة العاطفية كالدكتور محمد غنيمى هلال ، ومنهم من درس الحب العذرى كالأستاذ موسى خليل سليمان والأستاذ أحمد عبدالستار الجوارى ومنهم من درس حب ابن أبى ربيعة وشعره كالدكتور زكى مبارك . . . إلخ .

وهناك جانب أريد أن أهتم به وهو « قصص الحب العربية » وهو جانب لايقل أهمية عن الجوانب السابقة التى اهتم بها الباحثون ، وهو فى الوقت نفسه يقوم دليلا عمليًّا أمام الاتهامات التى اتهم بها العرب ، وأنهم جنس أدنى من الجنس الآرى ، لا يعرفون القصة ولا الخيال المبتكر .

٢

وأعنى بتلك القصص هذه الأخبار التى كانت تدور حول فريق من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون ، ومنهم

من هو مجهول مغمور كأن يكون أعرابيًا . وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص كانت معروفة منذ العصر الجاهلى ، وكان لها رواتها وقصاصها ، ولها مستمعوها وطالبوها .

وهذه النظرة إلى هذه الأخبار ، وأنها شيء لا يتحرى الدقة التاريخية وأنها حكايات شاعت بين الناس ، قد تزيدوا فيها كما قال قيس بن ذريح ، وهو يعتذر لقيس بن الملوح أمام ليلى . فإن قيساً المجنون قال : إنه رأى ليلى فقط ليلة الغيل . ولكن الناس قد تزيدوا فى ذلك — هذه النظرة تفسر الاضطراب فى الروايات التى قد تسند خبراً إلى قيس ، ثم نراه مسنداً إلى جميل . أو شعراً إلى عروة، ثم نراه منسوباً إلى ابن ذريح . . إلخ . وهذه النظرة تنتشل فريقاً من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيد والاضطراب كما احتار الأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى أمام هذه الأخبار فى كتابه « الحب العذرى » .

٣

على أن هناك فريقاً من الباحثين ، نظر إلى هذه الأخبار تلك النظرة وذلك فى أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب ، أو تنفرد بها رسالة .

فالدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « الغزل فى العصر الجاهلى » حين تعرض لحياة العذريين وما روى عنهم قال : « ولست على يقين من صحة هذه التفاصيل ، التى تروى عن حياة هؤلاء المحبين ، لأن الخيال القصصى قد أضاف إليها أحداثاً ومثيرات ، لذا نجد اختلافاً فى الروايات وتناقضاً أحياناً ، ونجد

تشابهاً بين نهاية محب ونهاية محب آخر » (ص ٢٠٥ من الطبعة الثانية) .

والأستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التي شاعت في العصر الأموي . فذكر أن أخبار حب جميل وبثينة ، قد استولت على خيال الشعب العربي حتى صنع منها قصة غرام . وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتتزايد باطراد حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية . ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح ، وقد ساق صاحب الأغاني أخباره في إطار من البواعث الضعيفة في إحكامها الفني ، ثم رأى أن ما ساقه الرواة من أخبار ابن ذريح أعلى درجة من أخبار المجنون ، ولكن الأستاذ سنجر (Singar) يرى أن قصة ابن ذريح تعكس أهم عناصر القسم الثاني من قصة تريستان المشهورة . ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصة غرامية . ثم ختم الحديث بوضاح اليمن ، فذكر أنه بطل من أبطال القصص الغرامية ، وأن البواعث التي ذكرتها القصة في نهاية حياته موجودة إلى الآن عند أهل مهرة في قصة ذكرها « يان» . (انظر : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/١٩٩ — ٢٠٢) .

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصة عند العرب ، منذ عصر ما قبل الإسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر، تحدث فيما تحدث عن «قصص الحب» (The Love Story) فرأى أنها ترجع إلى عهد الأمويين ، وأن مؤلفيها مجهولون ، وأنها تخاطب غرائز الجنس والشر ، وعواطف الحب والشهامة ، لذلك التصقت بذاكرة الشعب ، وكما يقول (F. C. Bartlet) : « نجحت في إحداث التأثيرات الدرامية على عقول الشعب ، وفي

خلق الدهشة والاستغراب » (انظر: "The Modern Arabic Short Story")

والأستاذ موسى خليل سليمان عقد فى كتابه « الأدب القصصى عند العرب » فصلا للقصص الإخبارى ، وعنى بها الحكايات القصيرة والأسمار الكثيرة ، والنوادر الظريفة ، والأخبار المشتتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول لأنها لم تدون فى مكان واحد معين ولم يكتبها كاتب واحد معروف ، لغرض من الأغراض الأدبية . . إلخ . ثم رأى أن أهم مايلفت النظر من هذه الحكايات لونان : الحكايات الحبية والحكايات الغنائية . ولكنه فى هذا الكتاب اكتفى بدراسة الحكايات الغنائية ولم يدرسها دراسة أدبية ، بل عرض للغناء ، وترجم لأشهر المغنين والمغنيات ، ثم ذكر أن لها فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية . ولكنه لم يطنب فى ذكر هذه الفوائد ، ولا ننتظر منه أن يطنب فى جزء من كتاب تحدث عن الأدب القصصى بوجه عام الدخيل منه والموضوع . على أنه فى كتابه « يحكى عن العرب » أورد نماذج للقصص العربى ، وذكر – فيما ذكر – نماذج للحكايات الحبية ، فعرض لقصة مجنون ليلى ، وقيس ولبنى ، وعروة وعفراء ... إلخ . وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة ، وكان فى تحليله لا يتعمق تعمقاً كبيراً مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية ، وقد ذكر المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن يمر الطالب مروراً عابراً بهذا التراث القصصى الضخم ، ولهذا عرض تلك النماذج خدمة للطالب العربى .

والأستاذ محمد مفيد الشوباشى خصص جزءاً فى كتابه « القصة العربية القديمة » لدراسة قصص الحب العذرى . وعرض – فيما عرض – قصة جميل وبثينة وقصة قيس ولبنى . ورأى أن

العرب فى ذلك أو بعضهم على الأقل ، قد ضارعوا المبرزين من مؤلفى القصص العصرية فى ابتداع الأحداث والمشكلات ، وإماطة اللثام عن كنهها ومضمونها .

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من كتابه «حديث الأربعاء» . فقد رأى أنه اكتشف فناً أدبياً ظهر بعد الإسلام وهو فن القصص الغرامى . ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن ، وتعرض لطائفة من هذه القصص ، وأظهر ما فى بعضها من تكلف وسخف ، وما فى البعض الآخر من جودة وإتقان .

٤

هذه هى أهم البحوث التى دارت حول هذا الموضوع . وهذا الكتاب سار فى الدرب نفسه الذى بدأه هؤلاء السادة الأفاضل ، فدرس قصص الحب العربية على أنها نوع من الأدب الذى انتشر بين عامة الشعب ، ينبغى أن يدرس ، وأن يكشف عما فيه من بذور فنية . وعن الأغراض التى من أجلها أنشئت بعض هذه القصص وعن الأسباب التى قعدت بها عن النمو الكامل والتطور الملموس ، وكل ما أرجوه أن أقطع قدراً من الشوط ، وأن ألقى شعاعاً من الضوء .

الفصل الأول

قصص الحب

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أراده « بو » Poe السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية بصدد حديثة عن حكايات ناثانيال هاوثورن Nathanial Hawthorne (١٨٤٢ م) فقد قال : « علينا ألا نكتب أية عبارة — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — منبثقة عن ميل لم يكن موجوداً فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن واضحة المعالم ، غير مهزوزة » . وأكده بعد مرور أربعين عاماً براندر ماتيوس Brander Matheus فى بحثه المشهور عن فلسفة القصة القصيرة ، قال فى الجزء الثانى من هذا البحث : « إن القصة الخليقة بأن تكون قصة شى آخر أسمى من أن يعتبر قصة ذات حجم قصير . القصة القصيرة الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساساً فى الوحدة العامة للانطباع ، بعبارة دقيقة وموجزة. . ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالباً ماتتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى الكلاسيكى ، والذى يظهر فى فعل واحد ، فى مكان واحد وزمان واحد . والقصة القصيرة أيضاً تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد » .

لست أقصد هذا المعنى ، إذ أنه لم يكن معروفاً فى العالم قبل

القرن التاسع عشر . وإنما أقصد ذلك المعنى الذى جاء فى القواميس العربية لهذه المادة ، وأعنى تلك الطبيعة الخاصة للقالب القصصى العربى .

فى لسان العرب تحت مادة (قصص) : «والقصة الخبر وهو القصص ، وقص على خبره يقصه قصًّا وقصصاً أورده ، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التى تكتب . . وتقصص كلامه حفظه ، وتقصص الخبر تتبعه ، والقصة الأمر والحديث ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه . . . والقص البيان ، والقصص بالفتح الاسم . والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها . . . وقص آثارهم يقصها قصاً وقصصاً وتقصصا تتبعها بالليل ، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان . . . قال الأزهرى : القص اتباع الأثر ، ويقال خرج فلان قصصا فى إثر فلان وقصا ، وذلك إذا اقتص أثره وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبراً بعد خبر وسوقه الكلام سوقاً» .

ذلك هو مايتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوى لهذه المادة ، فمعناها العام «المتابعة» ، فقص آثارهم تتبعها بالليل أو فى أى وقت كان ، وتقصص الخبر تتبعه .

ولا نطلب من اللغويين أكثر من هذه المعانى العامة للكلمة ، فإن مهمة أصحاب اللغة هى الإشارة إلى ماتثيره الكلمة من صور ذهنية عند أصحاب اللغة ، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال الكلمة ، فإن كلمة «بديع» مثلا فى اللغة غير المعنى المراد لها عند أصحاب البلاغة . وإذاً فمن حقنا أن

نلوم أصحاب البلاغة على تجاهلهم التحديد الفنى لمعنى القصة وكان هناك أكثر من مناسبة تتيح لهم الحديث عن معنى القصة ، فمثلا كان يمكنهم ذلك فى أثناء شرحهم للاستعارة التمثيلية ، وأنها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية قد حصلت وضرب فيها مثل ، كأن تضرب المثل « الصيف ضيعت اللبن » فى حالة تشابه حكاية المرأة مع الرجل العجوز الذى طلب منها الزواج ففضلت عليه شاباً ، ثم حدث أن احتاجت إليه فى أمر ، فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلا .

ومن حقنا أيضاً أن نلوم أصحاب الكتب الأدبية كابن عبد ربه والجاحظ وكان ذا عقلية قصصية شعبية ، إذ لم يتعرض أحد منهم لمعنى القصة ولا لتحديدها الفنى .

وهذا التجاهل فرع من القضية الكبرى وهى ازورار أصحاب البلاغة الفصحى ، وعلماء الأدب الفصيح عن هذا اللون الهام من الأدب .

بل إن الجاحظ فى كتابه العظيم « البيان والتبيين » نلمح فى كلامه السخرية من القصاص ، فكان مرة يتحدث عن جهلهم ، وثانية عن نوادرهم ، وثالثة عن فلسهم . وسخر ابن عبد ربه فى الجزء الثالث من العقد الفريد من القصص ، فتحت عنوان : « مجانين القصص » أورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم .

أمر نحمده لهؤلاء المفسرين ، فقد حددوا معنى للقصة أثناء تفسيرهم للآيات التى وردت فيها هذه الكلمة ، وهذا المعنى ملائم لاتجاههم ، وللغرض الذى يريده أصحاب الدين من القصة.

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية الكريمة : « إن هذا

لهو القصص الحق ... إلخ . » مايلى : «والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة » (١) .

بل تقدم المفسرون خطوة أكثر من هذا ، فتحدثوا عن عناصر القصة ، فلا مانع لديهم من أن يكون فى القصة عناصر ليست صادقة صدقاً خارجيًا ، بل هى أمور خيالية يؤتى بها للتوضيح والتمثيل .جاء فى الكشاف : «فإن قلت ما معنى ذكر النعاج ، قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا وكلامهم تمثيلا ، لأن التمثيل أبلغ فى التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحيي من كشفه فيكنى عنه ، كما يكنى عما يستسمج الإفصاح به وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته . . إلخ . فإن قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن أنفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولا هو من شأنهم ، قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوروها فى أنفسهم ، وكانوا فى صورة الأناسى ، كما تقول فى تصوير المسائل : زيد له أربعون شاة ، وعمرو له أربعون وأنت تشير إليها ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمرو سبد ولا لبد ، وتقول أيضاً فى تصويرها : لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكما من الأربعين أربعة ولا ربعها » (٢) .

فالزمخشرى يرى أن القرآن قد يلجأ إلى عناصر توضيحية ،

---

(١) التفسير الكبير ٢/٤٧٤ (القاهرة — المطبعة الخيرية — الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ ﻫ) .

(٢) الكشاف ٣/٣٢٣-٣٢٤ (مطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٤ ﻫ) .

يجسد بها قصصه ، ويكشف أحداثه ، وكان النيسابورى أصرح فى الإشارة إلى هذه العناصر ، فقد قال : « ونحن نرى أن الإنسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى ، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة ، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ، ولكن مع منازعة الخيال . وإذا ذكر التشبيه معه أدركه العقل مع معاونة الخيال . ولا شك أن الثانى يكون أكمل ، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل بياناً لكل شىء »[1] .

ويخطو الزمخشرى — رحمه الله — خطوة أخرى ، فيتحدث عن أثر القصة وما تفعله فى نفوس النشء فيقول : « فإن قلت لم جاءت عن طريق التمثيل والتعريض دون التصريح (وذلك بصدد حديثه عن تمثل الملائكة فى صورة أناس ودخولهم محراب داود عليه السلام يختصمون إليه فى أمر النعاج ويلمحون بذلك إلى أمر داود مع امرأة أوريا) . قلت : لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن المتأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع فى نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه ، من أن يبادره صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة ، ألا ترى إلى الحكماء كيف أوصوا فى سياسة الولد ، إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بإنكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، إذا تأملها استسمج حال صاحب الحكاية ، فاستسمج حال نفسه وذلك أزجر له ، لأنه ينصب ذلك مثالا

---

(١) غرائب القرآن ١٩٩/١ (مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ) .

لحاله ومقياساً لشأنه ، فيتصور قبح ماوجد فيه بصورة مكشوفة مع أنه أصون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة » [١].

كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات ، فتدفعهم إلى البحث عن القصة وعناصرها التى تكون لها الجمال الفنى الرائع. ولكنهم وقفوا عند هذا الحد ، وكأن الأدب لا يعرف من أنواع القصة إلا القصة الدينية ، وكأن المفسرين هم فقط المسئولون عن القصص .

وغلبة المعنى الدينى على القصص تلمحها أيضاً فى المعاجم العربية ، فلو وفقها الله وأرادت أن تتوسع فى الحديث عن القصص ، فإنها تتكلم عن القصص الدينية ، جاء فى اللسان: « وفى الحديث لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال» ، أى لا ينبغى ذلك إلا لأمير يعظ الناس ويخبرهم بما مضى ليعتبروا ، وإما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسباً ، أو يكون القاص مختالا يفعل ذلك تكبراً عن الناس ، أو مرائياً يرائى الناس بقوله وعمله لا يكون وعظه وكلامه حقيقة وقيل أراد الخطبة لأن الأمراء كانوا يلونها فى الأول ويعظون الناس فيها ويقصون عليهم أخبار الأمم السالفة . وفى الحديث القاص ينتظر المقت لما يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ، ومنه الحديث إن بنى إسرائيل لما قصوا هلكوا ، وفى رواية لما هلكوا قصّوا ... »

ويخيل للقارئ فى كتب المفسرين وفى المعاجم وفى كتب الأدب أن كلمة « قصة » قد تخصصت بعد نزول القرآن ، فبعد أن كانت عامة تطلق — فيما تطلق — على « الأمر والتى تكتب »

(١) الكشاف ٣/٣٢٢ (طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ) .



كما يقول صاحب القاموس ، أصبحت ترادف كلمة وعظ ؛ أى الأمر الذى يلين قلوب الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة ، حتى إن الزمخشرى فى أساس البلاغة يجعل من المعانى الحقيقية لهذه المادة ، ذلك المعنى الذى نستطيع أن نلمحه من قوله : «والقصاص يقصون على الناس مايرق قلوبهم».

وقد كثر استعمال هذه المادة « قصة » وخصوصاً بعد نزول القرآن ولجوئه إلى القصص كوسيلة للتأثير على القلوب ، وقد استخدم القرآن هذه المادة فى آياته أكثر من سبع وعشرين مرة وذلك على حسب الإحصاء الذى ورد فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

فاستخدام هذه المادة فى القرآن الكريم ، وورودها فى نصوص أدبية وفى كتب الأدب والتفسير ، وفى المعاجم — كل هذا جعلنى لا أجد غضاضة فى إطلاق هذه المادة على هذه الحكايات التى شاعت فى الأدب العربى عن العشاق وما جرى لهم .

ومن ناحية ثانية فإن كلمة « قصة » — فى ظنى — أنسب من استخدام كلمة سمر ، أوخرافة ، أوخبر ، أوحديث ، أوحكاية .

فإن السمر : يعنى — فيما يعنى — الليل وحديثه كما جاء فى القاموس ، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث والقصص التى يسمر بها الناس فى حياة الصحراء كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية .

أما الخرافة : فإنها — وإن كان مصدرها — أن رجلاً من عذرة — القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصدد الحديث عن قصصهم — استهوته الجن فكان يحدث بما رأى ، فكذبوه وقالوا : «حديث خرافة» فمع أن مصدرها جل من عذرة لكنها تطلق على حديث مستملح

كذب ، كما ذكر القاموس . » وقد تطور مدلولها فأصبح لا يدل إلا على الأساطير المستحيلة ، إذا قوبلت بغيرها من الحكايات التى يقبلها العقل وإن كانت من نسيج الخيال «[١] .

أما الخبر والحديث : فيطلقان فى المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين ، فالحديث هو الخبر[٢] ، وعن ابن سيده أن الخبر هو النبأ[٣] . ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص وهو اصطلاح الأصوليين ، إذ يعنى بهما ماينسب إلى النبى عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير . فيستحسن — إذن — ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحى الذى يسرع إلى الذهن بمجرد التلفظ بهما ، ويبحث عن مادة أليق بالفن وأدخل فيه .

أما كلمة « حكاية » فلم تستعمل فى «اللسان» بمعنى القصة ، فمما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة : « الحكاية كقولك حكيت فلاناً وحاكيته فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه . . . والمحاكاة المشابهة، تقول : فلان يحكى الشمس ويحاكيها بمعنى » . وتلخص دائرة المعارف الإسلامية المعانى التى كانت تطلق على الحكاية فى القرون الأربعة الأولى من السنة الهجرية ، فتقول : « مما تقدم تبين أن كلمة حكاية تطابق الكلمة اليونانية « νιυζβιs » ومن ثم جاءت جميع معانيها فهى أولا تأتى بمعنى المحاكاة رغبة فى التسرية ، والحاكية المحترف هو الذى يقلد أيضاً . ثم ترد بمعنى رواية القول ، فنقول : حكيت عنه الحديث حكاية . وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شىء يحاكى آخر لشبه بينهما » . وإذا صح ماجاء فى هذه الدائرة من أن الحكاية لم

---

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية مادة « الحكاية » .

(٢) لسان العرب مادة « حدث » .

(٣) المرجع السابق مادة « خبر » .

يكن من معانيها القصة في القرون الأربعة الأولى على الأقل ، فإن الرازى حين يقول : «وإنما سميت الحكاية قصة ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئاً فشيئاً » — يجعل الأخبار التى تروى عن الأمم السالفة حكايات ، ثم أطلق عليها لفظ قصة ، لأن الحكايات يتبع بعضها بعضاً مع أن العكس هو الصحيح إذ أن تلك الأخبار يسميها القرآن قصصاً . ثم أطلق على تلك القصص — فى وقت متأخر يحدده بعضهم بعصر الحريرى — حكايات ، لأن الذى يقص القصص — على ما أرى — يحاول أن يحاكى فى قوله الأصل الذى وقعت فيه ، وهذا التعليل يصدق إن كان للحكاية أصل تحاول أن تقلده . أما إذا كانت بنت القريحة فإننى أرى أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التى لها أصل ، ثم أصبح يدخل فى مدلوله — من باب الغلبة — القصة التى لا أصل لها .

وفذلكة الموضوع أن الكلمات : خبر وحديث وحكاية وقصة تفيد معنى واحداً ، ففي تزيين الأسواق عقد مؤلفه عنواناً « أخبار المجنون وصاحبته ليلى » ، ثم قال فى أثناء هذه الأخبار : « وسيجىء ذكر ما رأى له من أشعار أورده آخر القصة » وفى كتاب « قصص الأنبياء » أورد الكسائى كل قصة تحت عنوان « حديث » وابن المقفع يستعمل كلمة « حكى » لما أورده من إحدى القصص .

ولكنى مع ذلك أوثر كلمة «قصة» على غيرها ، لأنها أقرب إلى محيط الأدب . ولأن كلمة خبر وحديث قد غلب عليهما المصطلح الدينى . ولأن كلمة حكاية لم تستعمل — أو على الأقل لم تشتهر — بمعنى القصة فى العصر الأموى ، ذلك العصر الذى ازدهرت فيه قصص الحب كما بينت فى رسالتى للماجستير .

على أننى أعود فأكرر أننى لا أعنى بالقصة ذلك المعنى الحديث الذى قال به « بو » مثلا . إذ لا أطالب الأقدمين بشىء قد اخترعه المحدثون .

وخاصة أن فن القصة فن سريع النمو ، وإنه لتشتتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب ، فمن كلاسيكية ، إلى رومانتيكية إلى واقعية وطبيعية إلى نفسية إلى اللامعقولية . . . إلخ . وكل مذهب من المذاهب له فهم خاص للقصة يتمشى مع نظرته وبنائه الفلسفى .

وإنما أعنى معنى يتفق وطبيعة القصة العربية ، ويتمشى مع نسق هذه الأخبار الغرامية .

على أى حال انتشر بين العرب – والطبقة الشعبية منهم بنوع خاص – نوع من القصص تدور حول العشاق يتسامرون بها فى مجالسهم وحول النيران وبجوار الخيمة . وقد انتشرت هذه القصص بين الناس انتشاراً واسعاً ، حتى إن ابن داود لم يجد فائدة فى ذكر كثير من هذه الأخبار فى كتابه « الزهرة » ، لأنها على حد قوله : « قد كثرت فى أيدى الناس فقل من يستفيدها » . وألفت كتب كثيرة حول هذا الموضوع أغلبها فقد . فقد مات رجل من بنى أسد بسبب عشق جارية فصنعوا له كتاباً فى ذلك مثل كتاب جميل وبثينة وعفراء وعروة وكثير وعزة . وابن النديم فى الفهرست يذكر ثبتاً بأسماء تلك الكتب يزيد على مائة وستة وثلاثين كتاباً ، وداود الأنطاكى ينقل عن كتب كثيرة فى كتابه « تزيين الأسواق » تزيد على ثمانية عشر كتاباً ، وابن أبى حجلة فى كتابه « ديوان الصبابة » ينقل عن كتب كثيرة من هذا النوع .

وقد نافست هذه القصص الغناء والشعر ، فمعبد يذكر أنه جاء إلى مكة والتقى بالغريض فغناه لحناً فى شعر جميل ثم غناه الغريض أيضاً لحناً فى شعر جميل ، ثم بعد ذلك أراد أن يعرف خبر جميل وبثينة فقال : « ليتنى عرفت إنساناً يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر ، فأكون قد أخذت بفضيلة الأمر كله فى الغناء والشعر » فسأل عن ذلك فإذا الحديث مشهور ، وقيل له : « إن أردت أن تخبر بمشاهدته فأت بنى حنظلة فإن فيهم شيخاً

منهم يقال له فلان يخبرك الخبر ، فأتى الشيخ فسأله فقص على معبد قصة رائعة حدثت فى الربيع بن جميل وبثينة بمحضر من هذا الشيخ »(١).

ونقرأ كتب الأدب فنجد الناس يحرصون على هذه القصص ، ويفتشون عنها ويرجعون إلى أهل الذكر ليفيضوا لهم فيها ، فعبد الملك بن مروان يسأل كثيراً عن أعجب خبر له مع عزة فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة (٢) . ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك ، فيقول له : « حدثنى يانصيب ببعض مامر بك » فيقص عليه قصة حبه لجارية خطبها فأبت أن تتزوجه لسواده ، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد فقبلته (٣) . ويدخل على عبد العزيز بن مروان فيسأله : هل عشقت قط ؟ فيقص عليه قصة عشقه لأمة من بنى مدلج (٤) . ويقف الناس بباب بعض الولاة ويطول وقوفهم ، ويصيبهم الضيق وإذا بأعرابى طريف يتغلب على هذا الضيق فينادى: « من أراد أن يسمع العجائب فليدن منى » ثم يقص عليهم قصة حبه لأم جحدر (٥) .

فكثير ونصيب وهذا الأعرابى ماهم إلا أفراد من تلك الفئة التى عندها كثير من هذه القصص ، يسألهم الناس عنها .

وهذا الكتيب سيكشف عن شىء من طبيعة هذه القصص ، فيتحدث أولا عن أغراضها ، ثم يتتبع ثانياً تطورها على مختلف العصور وفى شتى المناحى .

بقيت كلمة أخيرة إذ أن دراستى لهذه القصص ستوسع المعنى

---

(١) انظر هذه القصة كاملة فى الأغانى ٢ / ١٣٩ « طبعة ساسى » .
(٢) المرجع السابق / ٢٩٩ « طبعة دار الكتب » .
(٣) المرجع السابق١ / ٥٤ .
(٤) المرجع السابق ١ / ٢٧٥ .
(٥) تزيين الأسواق ١ /٣٧ (مطبعة بولاق ١٢٩١ ﻫ) .

الضيق الذى تصوره الباحثون لأنواع النثر ، فهم فى دراستهم وفى كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء ، وعن الرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التى فيها تأنق وصناعة وأرستقراطية .

وفاتهم أن هناك نوعاً من النثر فيه شعبية وديمقراطية ، كان يجرى على ألسنة العامة فى يسر وسلاسة وبعد عن التأنق والصناعة .

وربما كان هذا النوع من النثر أصدق فى الدلالة على نفوس منشئيه ومتلقيه من هذا النوع الذى نشأ كثير منه فى بلاط الخلافة وفوق أخشاب المنابر .

والحق أننا فى حاجة إلى تخطيط جديد لدراسة النثر فى أدبنا العربى متسم بالنظرة الكلية التى تلتفت إلى أدب الشعب بجانب أدب الخاصة . وبخاصة فى ذلك العصر الذى يتسم بالاشتراكية والتسمع لنداءات الطبقة العاملة . ويتخلص من تلك الدائرة الضيقة التى حصر فيها الباحثون أنفسهم الأمر الذى دعا البعض إلى اتهام الأدب العربى بالعقم والتكلف(١)

وهذا الإهمال لذلك الجانب الحيوى — من النقاد والمثقفين — أدى إلى أن هذه القصص الشعبية أخذت تنمو فى بطء وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة .

(١) انظر مقالا لى نشر بمجلة المجلة (نوفبر سنة ١٩٦٤) «القصة العربية القديمة» .

الفصل الثانى

أغراض قصص الحب

ربما كان لبعض هؤلاء المحبين وجود تاريخى ، فقد يكون التاريخ شاهد يوماً قيس بن الملوح ، أو قيس بن ذريح .

على أن الذى أشك فيه هو تلك الحكايات والأساطير التى دارت حولهم فإن عقل المؤرخ لايستطيع أن يضفى على هذه القصص صفة الصدق الواقعى والوجود التاريخى .

وكل ماهنالك أن هذه الأسماء اشتهرت وذاعت : فانتقلت من مجال الدلالة على شخصية بعينها إلى مجال الرمز لأشياء يحكيها الناس ويقصون حولها الغرائب والمخترعات . جاء فى الأغانى أن ابن المولى أنشد لنفسه :

وأبكى ، فلا ليلى بكت من صبابة إلىّ ، ولا ليلى لذى الود تبذل
وأخنع بالعتبى ، إن كنت مذنباً وإن أذنبت ، كنت الذى أتنصل

فقال له أبو السائب وعبيد الله بن مسلم بن جندب : من ليلى هذه حتى نقودها إليك ؟ فقال لهما : ماهى والله إلا قوسى هذه سميتها بليلى .

وبعض الشعراء قد اعترف بأن هذه الأخبار من خياله واسترساله فحين وقفت ليلى الأخيلية على قول توبة :

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه وأطراف عيدان شديد سيورها

غضبت وأمسكت عن كلامه برهة فتوسل إليها وعرض عليها أنه سيسقى نفسه السم إن لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها بحيث يخفون عليه . فلما آنسته قالت : أى خدر دخلت معى حتى تقول ماتقول ؟ فقال :

هذا استرسال الشعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنصل، ففرحت بسماع أهلها ذلك . ومعاوية بن أبى سيفان كان يدرك أيضاً تزيد خيال الشعراء والقصاص فى هذا، فحين شاعت قصة أبى دهبل مع عاتكة استدعاه معاوية وسأله عن ذلك فتبرأ منه . فقال له معاوية : أما من جهتى فلا خوف عليك لأنى أعلم صيانة ابنتى نفسها وأعلم أن فتيان الشعراء لم يتركوا أن يقولوا فى النسيب فى كل من جاز أن يقولوه فيه .

وكثير من القدماء لم يطمئنوا إلى هذه الأخبار ، فداود الأنطاكى يذكر أن بعض أخبار قيس لم تصح عنده مثل خبر قبضه على الجمر بكلتا يديه حتى احترقتا، ومثل خبر ذهابه إلى ليلى يقترض منها سمناً ، فخرجت إليه بنحى وجعلت تسكب فى وعائه، وهما يتحادثان حتى غرقت أرجلهما ومثل خبر مجيئه إلى ليلى يستقبس ناراً فكان يتحدث معها ويقطع من برد عليه يعلف النار ، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى حتى صار عرياناً . وصاحب الأغانى يذكر قصة حب لجارية التى بها الأحوص ومعبد على غدير وكانت تنشد شعراً للأحوص ثم عقب على ذلك بقوله : « وليس يشبه الشعر شعر الأحوص ولا هو من طرازه . وكذلك ذكر عمر بن شبه فى خبره » .

وهذه الأخبار كان سبيلها إلينا الرواية والرواة .

والرواة لم يكونوا يتحرون الدقة فى أمثال هذه الأخبار التى يقصد بها إلى التسلية والظرف وإطراف العامة. وإليك مثالا على أنهم لم يكونوا يتحرون الدقة والتحديد . فإننا نعرف أن قيساً لم يكن ابن عم لبنى ، بل إن أباه عارض فى تزويجه منها لأنها غريبة ، وهو يريد أن يزوجه إحدى بنات عمه، ولكننا نقرأ فى مصارع العشاق مايفيد أن لبنى كانت ابنة عم قيس فقد دخل عليها زوجها وهى تمسك بغراب وتنشد شعراً ، فسألها عن

ذلك فقالت : « دعانى أن ابن عمى وحبيبى قيساً أمرهن بالوقوع فلم يقعن » .

وكان الرواة حين أرادوا جمع اللغة ومعرفة أخبار العرب يشافهون الأعراب وينقلون عنهم . وكان الأعراب يعرفون شغف هؤلاء بهذه الأخبار وشدة ولعهم بها فكانوا يتزيدون عليهم ويختلقون لهم الحكايات . ليروجوا بضاعتهم وليحسنوا فى أعين هؤلاء الرواة ، فحين ورد داود بن متمم ابن نويرة إلى البصرة جعل أبو عبيده وابن نوح يسألانه عن شعر أبيه. فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه وكره أن تنقطع عناية الرواة به ، أخذ يضع على أبيه ما لم يقل . وحماد الراوية كان يكذب ويتزيد فى أخباره كما ذكر ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » .

على أن الأمر لم يقف عند تكذيب لأخبار قيلت حول فريق من الشعراء المشهورين ، بل تعداه إلى نفى شخصيات بعينها ، حيكت حولها أخبار كثيرة . فقيس ذلك المجنون الذى اشتهر أمره بين الناس ينكره فريق من الناس كالأصمعى . وقد نفى عامرى أن يكون قيس من قبيلتهم المعروفة بالجلد وقال : « انما تموت من الحب هذه اليمانية الضعاف قلوبهم » ومن الرواة من يزعم أن هذا الشعر لفتى من بنى مروان كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر مابينه وبينها فاستتر وراء هذا الاسم ونظم كل الأشعار التى تنسب إلى المجنون ، والأصمعى يقول : « رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا بالاسم : مجنون بنى عامر وابن القرية فإنهما وضعهما الرواة » .

واشتهرت هذه القصص بين الناس ولقيت رواجاً واسعاً عند العامة ، فانطلق كثير من المؤلفين ، يرضون هذه الحاجة العارمة ، وجعلوا يكتبون كتبا عن هؤلاء العشاق ، فظهرت أسماء لمؤلفين ألفوا حول هذه الأخبار مثل : عيسى بن داب وهشام الكلبى والهيثم بن عدى وغيرهم



وقد أورد ابن النديم ثبتاً بتلك الكتب فذكر تحت عنوان: « أسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام» وألّف فى أخبارهم نحواً من اثنين وأربعين كتاباً . وذكر تحت عنوان : « أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر » نحواً من ثمانية وثلاثين كتاباً . وذكر تحت عنوان: « أسماء الحبائب المتظرفات» نحواً من اثنى عشر كتاباً . وذكر تحت عنوان « أسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن للإنس » نحواً من ستة عشر كتاباً . ثم ختم هذا بقول محمد بن إسحاق :« كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها مشتهاة أيام خلفاء بنى العباس ولا سيما فى أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا ، وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان واسمه أحمد بن محمد بن دلان وآخر يعرف بابن العطار وجماعة » .

وكل ذلك لا يهمنى فى شئ . لا يهمنى أن يكون لهذه القصص صدق واقعى ووجود تاريخى ، فقد يهم هذا رجلا مؤرخاً ، أما فى كتابى هذا فإننى أتجاوز ذلك إلى أمر آخر .

لا يهمنى أن يكون قيس أو جميل أو عروة قد وجدوا تاريخيًّا. وإنما الذى يهمنى هنا أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية ، ولهذا لن أتطلب منها الصدق الواقعى والوجود التاريخى ، وإنما سأسلك مسلك باحث الأدب ، فأنظر مافى هذه القصص من دلالات أدبية وإشارات فنية .

فمثلا لن أنظر إلى كتاب « الأغانى » أو « تزيين الأسواق » على أنهما كتابا تاريخ أولا وقبل كل شىء ، بل سأنظر إليهما على أنهما كتابا أدب أولا وقبل كل شىء . وربما كانت هذه النظرة هى التى أرادها المؤلفان . فالأنطاكي يرى أن الغرض من كتابه هو إراحة النفس بالأخبار ولطائف الحكايات والأشعار ، حتى تنشط وتعود إلى المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب : وأنه حين اغترب بمصر وأصبح

لايجد – وهو الغريب – من يؤنسه رأى أن يريح نفسه فيمتطى غارب الأدب ووقع اختياره على اختصار أسواق الأشواق . وأبو الفرج يتحدث فى مقدمة كتابه عن منهجه وأنه لم يرد ترتيب الكتاب على طرائق المغنين أو طرائق الغناء « وإذا كان هذا هكذا ، فما رتبناه أحلى وأحسن ليكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره ، ومن قصة إلى سواها ، ومن أخبار قديمة إلى محدثة . ومليك إلى سوقه وجد إلى هزل ، أنشط لقراءته وأشهر لتصفح فنونه » .

فإذا اتفقت معكم على هذا المنهج ، وهو أننى لا أريد من قيس أو غيره شخصيته التاريخية وإنما أريد شخصيته القصصية الأدبية – إذا اتفقت معكم على هذا فاسمحوا لى أن أنتقل إلى نقطة هى أشد التصاقاً ببحثنا وهى :

هل كان لهذه القصص أغراض ، أو أنها كانت خبط عشواء ، تنبت كنبات الصحراء بدون غاية مرسومة أو هدف معلوم ؟!

١ – قصص لتفسير أبيات شعرية :

تردد الغناء فى أرجاء الجزيرة العربية وملأ أركانها ، فلم يدع شيخاً ورعاً ، ولا حاكماً حازماً ، ولا امرأة محجبة ، إلا وقد مسه هذا الطائف .

وقد أدى الغناء بدوره إلى شيوع الشعر الغنائى ، الذى يبدئ ويعيد فى قصة الحب ، فغلب على الحجاز فى ذلك الحين هذا النوع من الشعر ولم يترك مكاناً مرموقاً لشعر الهجاء ، أو نصيباً موفوراً لشعر المديح أو لشعر السياسة . حتى إن بعض المشايخ المحافظين كأبى الأسود الدؤلى ، وبعض الزهاد الورعين كالقس كانت لهم أشعار تغنى وتلحن . وشاع هذا الشعر بين طبقات الشعب حتى رأينا عجوزاً تحمل روث البهائم تنتقد

أبياتاً لكثير وتفضل عليه امرأ القيس فيرشوها بمطرفه .

وفى بعض هذه الأشعار بذور حكايات وقصص . كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته وما لاقى من الصعاب . وحين انتشرت هذه البذور وتلك الإشارات أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التى تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض .

وهذا يكشف لنا عن السر الذى نلاحظه فى بعض القصص ، إذ يلاحظ أن أشعارها جيدة وقوية ، وأن هيكل الحكاية فى درجة أقل جودة وقوة . وتفسير ذلك سهل وهو أن تلك الأشعار أنشدها شعراء معروفون قد وهبوا تلك الطاقة الشعرية ووقفوا أنفسهم على النمو بهذه الموهبة ، فهم من طبقة الخاصة . أما واضعو بعض هذه القصص فقد يكون من طبقة العامة الذين اختصموا حول أشعار تلك الطبقة وأرادوا تفسيرها وشرحها .

١ ــ أنشد كثير تلك الأبيات :

وقضّين ما قضين ثم تركْننى ... بفيفا خريم ، قائماً أتلدد

تأطرْن حتى قلت لسن بوارحاً ... وذبن كما ذاب السديف المسرْهد

أقول لماء العين : أمعن لعله ... لما لا يرى من غائب الوجد يشهد

فلم أر مثل العين ضنت بمائها ... علىّ ، ولا مثلى على الدمع يحسد

وبين التراقى واللهاة حرارة ... مكان الشجى ، ما إن تبوح فتبرد

قال كثير هذه الأبيات وشاعت بين الناس ، وفيها حديث عن فيفا خريم وعن بكاء كثير صاحب عزة وعن خيبته وحسرته ، فلا أقل من أن يأخذ القاص أو الخيال الشعبى هذه المواد فيحوك حولها قصة ، وهذا نصها كما جاءت فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة :

« خرج كثير إلى مصر وعزة بالمدينة فاشتاق إليها ، فقام إلى بغلة

له فأسرجها وتوجه نحو المدينة ولم يعلم به أحد . فبينا هو يسير فى التيه بمكان يقال له : فيفا خريم ، إذا هو بعير قد أقبلت من ناحية المدينة ، فى أوائلها محامل فيها نسوة وكثير متلثم بعمامة له وفى النسوة عزة فلما نظرت إليه عرفته وأنكرها ، فقالت لقائد قطارها : إذا دنا منك الراكب فاحبس . فلما دنا كثير حبس القائد القطار ، فابتدرته عزة فقالت من الرجل ؟ قال : من الناس . قالت : أقسمت . قال : كثير . قالت : فأين تريد فى هذه المفازة ؟ قال : ذكرت عزة وأنا بمصر ، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التى ترين . قالت : فلو أن عزة لقيتك فأمرتك بالبكاء ، أكنت تبكى ؟ قال : نعم . فنزعت عزة اللثام عن وجهها وقالت : أنا عزة ، فإن كنت صادقاً فافعل ماقلت . فأفحم . فقالت للقائد : قد قطارك . فقاده . وبقى كثير مكانه لايحير ولا ينطق حتى توارت . فلما فقدها سالت دموعه وأنشأ يقول : وقضين ماقضين ثم تركننى . . . . . الأبيات » .

وواضح أن هذه القصة موضوعة لتفسير تلك الأبيات ، وإلا فانظر إلى تلك المصادفة العجيبة التى تجمع بين كثير وعزة فى التيه ! وإلى هذا الطلب الغريب المضحك الذى طلبته عزة من كثير ، وماذا تجد فى بكاء كثير ؟! وإلى بلاهة كثير الذى لبط مكانه وترك حبيبته تذوب كما ذاب السديف المسرهد وهو الذى سافر من مصر لأجلها ! وإلى تلك السذاجة التى تبدو فى خيال القاص الشعبى فكأن مصر ضاحية من ضواحى المدينة ، يتذكر الشخص أن له هوى بالمدينة فيقوم إلى بغلته ويسرجها ويسرع نحو المدينة على حاله ولم يعلم به أحد . . ! !

ب ــ أنشد جميل هذه الأبيات :

أبثين إنك قد ملكت فاسجحى   وخذى بحظك من كريم واصل

فلرب عارضة علينا وصلها بالجد ، تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في حبي كقدر قُلامة فضلا ، وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن إنك قد رضيت بباطل منها ، فهل لك في اجتناب الباطل

وأبياتاً أخرى ذكرها أبو الفرج يتحدث فيها جميل عن لوم اللائمين وتقريع النسوة له ، وأبياتاً يتحدث فيها عن وعد بثينة إياه وعدم وفائها بهذا الوعد .

فيجمع القاص هذه الأبيات وما فيها من إشارات وينشئ حولها قصة ملخصها أن بثينة واعدت جميلا أن يلتقيا في بعض المواقع ، فأتى لوعدها . وجاء أعرابي يستضيف القوم فأنزلوه وقروه ، فقال لهم : قد رأيت في بطن هذا الوادي ثلاثة نفر متوارين في الشجر . وأنا خائف عليكم أن يسلبوا بعض إبلكم ، فعرفوا أنه جميل وصاحباه ، فحرسوا بثينة ومنعوها من الوفاء بوعده . فلما أسفر له الصبح انصرف كئيباً سيئ الظن بها ورجع إلى أهله ، فجعل نساء الحي يقرعنه بذلك ويقلن له : إنما حصلت منها على الباطل وغيرها أولى بوصلك منها ، كما أن غيرك يحظى بها ، فقال في ذلك الأبيات السابقة .

ولعلكم معي في أن هذه القصة قد وضعت لوصل الأبيات بعضها ببعض ، وأن واضعها كان طيب القلب ، إذ عز عليه أن ترمى بثينة بعدم الوفاء ، ومن صفات العاشقة في هذه القصص أن تكون وفية لحبيبها ، فاختلق القاص لها تلك العقبة التي حالت بينها وبين حبيبها ، وبذلك بدت لنا بثينة نقية بريئة وفية بوعدها . ولكن القاص لم يكن موفقاً في بعض المواقف . فما لزوم أن يستدعي جميل شخصين معه لموعد يحب فيه أن يخلو بمعشوقته؟ ولماذا وقف قوم بثينة مكتوفي الأيدي وقد عرفوا أن جميلا قريب منهم وأن السلطان قد أهدر لهم دمه ؟! وكيف عرف

نساء الحى هذه الحادثة ؟! وهل العربيات بتلك الصفاقة فيلحين جميلا فى هواه ويعرضن أنفسهن عليه بديلا عن بثينة الغادرة ؟! أسئلة لم يوفق الخيال الشعبى فى الإجابة عنها .

٢ - قصص للتسلية :

أظلت الحضارة العرب بعد الاسلام ، فتبعها ألوان من الترف واللذات وكثر الظرفاء والمضحكون . ثم قامت القصة بدورها فى التسلية فى مجتمع حضارى .

يجتمع قوم يتنزهون بالعقيق ومعهم ابن عائشة ، وكان عنيداً لايغنى إذا طلب منه ذلك ، فأخذوا يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما عسى أن يهيجوه فيغنى ، ولكنه لم يفعل . ثم قص يونس الكاتب قصة غرام هيجته وجعلته يغنى مما أمتع الناس وجعلهم يقضون يومهم فى فرح وسرور . ولنترك يونس الكاتب يروى لنا هذا الحديث : «كنا يوماً متنزهين بالعقيق أنا وجماعة من قريش ، فبينا نحن على حالنا إذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بنى ليث وهو متوكئ على يده فلما رأى جماعتنا وسمعنى أغنى جاءنا فسلم وجلس إلينا وتحدث معنا ، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه إذا سئل أن يغنى فأقبل بعضهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء ، يستجرون بذلك أن يطرب فيغنى فلم يجدوا عنده ما أرادوا . فقلت لهم : لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثاً يأكل الأحاديث ، فإن شئتم حدثتكم إياه . قالوا : هات . قلت : حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة ، فإذا صبيان يتغاطسون فى غدير . وإذا شاب جميل منهوك الجسم عليه أثر العلة والنحول فى جسمه بين وهو جالس ينظر إليهم ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام وقال : من أين وضح الراكب؟ قلت : من الحمى .

قال : ومتى عهدك به؟ قلت : رائحاً. قال : وأين كان بيتك؟ قلت : بيتي فلان . فقال : أوه. وألقى بنفسه على ظهره وتنفس الصعداء. فقلت : إنه قد خرق حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمى تحله — من المزن ما يَروى به ويُسيم
وان لم أكن من قاطنيه فإنه — يحل به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه — لدىّ ، وإن شط المزار ، نعيم
ومن لامني فيه حميم وصاحب — فرد بغيظ صاحب وحميم

ثم سكن كالمغشي عليه . فصحت بالنسوة فأتين بالماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب القريب رأى خشوعي — وأنفاسي تزين بالخشوع
ولى عين أضر بها التفاني — إلى الأجراع مطلقة الدموع
إلى الخلوات يأنس فيك قلبي — كما أنس الغريب إلى الجميع

فقلت له : ألا أنزل فأساعدك، أو أكر عودى على بدئي إلى الحمى ، إن كانت لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جزيت خيراً وصحبتك السلامة امض لطيتك ، فلو أنى علمت أنك تغني عني شيئاً لكنت موضعاً للرغبة وحقيقاً بإسعاف المسألة ، ولكنك أدركتني في صبابة من حياتي يسيرة . فانصرفت وأنا لا أراه يمسى ليلته إلا ميتاً . فقال القوم : ما أعجب هذا الحديث ! واندفع ابن عائشة يغني في الشعرين جميعاً وطرب وشرب بقية يومه ، ولم يزل مغنياً إلى أن انصرفنا » [1] .

وواضح أن هذه القصة موضوعة للتسلية ، فقوم يتنزهون بالعقيق ، فيتحدثون بأحاديث جميل وكثير وغيرهما من العشاق الذين يحلو ذكرهم

(١) انظر الأمالي ١ /٣٧ .

فى هذه الأويقات ويقص يونس الكاتب حديثاً عن أعرابى يأكل كل الأحاديث ، فيهيج ابن عائشة ، ويغنى بالشعر الذى ورد فى القصة ، ويطربون ويشربون .

فالقصص فى هذا المجتمع الحضارى كانت تقوم بدورها وتنافس الشعر والغناء فى مجالس السرور والأنس .

ولم تقف قصص العشق عند حد اتخاذها وسيلة لتفسير المواقف الغرامية التى جاءت فى شعر الشعراء ، أوعند قيامها بدور وظيفى فى مجتمع حضارى بل استغلت لأغراض أخرى . فاستخدمت لأغراض شخصية ، ولمرام شعوبية ، ولأهداف دينية .

٣ ــ قصص الدعاية :

عرف كثير من الأذكياء قيمة القصة فى الدعاية لفنهم والترويج لشعرهم ، وخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وسط الشعب فاستغلوا القصص ، وحملوها ما يريدون أن يحملوا ، وجعلوها تنتقل وسط الناس ، لاهجة باسمهم ، مذكرة بهم .

(١) قال حماد الراوية :

« أتيت مكة فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة ، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك . إنه كان لى خليل من عذرة ، وكان مستهتراً بحديث النساء . يشبب بهن وينشد فيهن ، على أنه لاعاهر الخلوة ولا سريع السلوة . وكان يوافى الموسم كل سنة . فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار ، وتوقفت له السمار حتى يقدم ، وأنه راث عنى ذات سنة خبره ، وقدم وفد عذرة فأتيت القوم

أنشد عن صاحبى ، فإذا غلام قد تنفس الصعداء ثم قال عن أبى المسهر تسأل ؟ قلت : عنه نشدت وإياه أردت ، قال : هيهات أصبح والله أبو المسهر لا موئسا منه فيهمل ولا مرجوًّا فيعلل ، أصبح والله كما قال:

لعمرك ما حبى لأسماء تاركى صحيحاً ، ولا أقضى به فأموت

قلت : وما الذى به ؟ قال : به مثل الذى بك من طول انهماككما فى الضلال وجركما أذيال الخسار ، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار . قلت من أنت منه يابن أخى ؟ قال : أنا أخوه . قلت : والله ما منعك من أن تركب طريق أخيك التى ركبها ، وتسلك مسلكه الذى سلك ، إلا أنك وأخاك كالوشى والبجاد لا يرقعك ولا ترقعه . ثم انطلقت وأنا أقول :

أرائحة حجاج عذرة روحة ولما يرح فى القدم جعد بن مهجع

خليلين نشكو مانلاقى من الهوى فتى ما أقل يسمع، وإن قال أسمع

فلا يبعدنك الله خلا فإننى سألقى، كمالاقيت فى الحب مصرعى

فلما حججت وقفت فى الموضع الذى كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات وإذا أنا براكب قد أقبل حتى وقف وقد تغير لونه وساءت هيئته ، فما عرفته إلا بناقته ، فأقبل حتى خالف بين عنق ناقتى وناقته . ثم اعتنقنى وجعل يبكى ، فقلت : ما الذى دهاك وما غالك ؟ فقال : برح العذل وطول المطل ، ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلة ذات بث لقد علمت بأن الحب داء

ألم تنظر إلى تغيير جسمى وأنى لايزايلنى البكاء

وإنى لو تكلفت الذى بى لعفى الكلم وانكشف الغطاء

إذا العذرى مات بحتف أنف فذاك العبد يبكيه الرشاء

فقلت : يا أبا مسهر ، إنها ساعة عظيمة . وإنك فى جمع من أقطار الأرض ولو دعوت كنت قميناً أن تظفر بحاجتك وأن تنصر على عدوك . قال : فجعل يدعو حتى تدلت الشمس للغروب وهم الناس أن

يفيضوا وسمعته يهمهم ، فأصخت له مستمعاً وهو يقول :

يارب كل غدوة وروحه من محرم يشكو الضحى ولوحه
أنت حسيب الخطب يوم الدوحه

فقلت له : وما يوم الدوحة ؟ قال : سأخبرك إن شاء الله، إنى امرؤ ذو مال كثير من نعم وشاء، وإنى خشيت على مالى التلف، فأتيت أخوالى من كلب فأوسعوا لى عن صدر المجلس وسقونى بجمة البئر فكانوا خير أخوال حتى هممت بمواقعة إبل لى بماء يقال له الخرزات فركبت وتعلقت معى شراباً كان قد أهداه إلى بعض الكلبيين وانطلقت حتى إذا كنت بين الحى ومرعى الغنم رفعت لى دوحة عظيمة . فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة وتروحت مبرداً ، فنزلت ، فشددت فرسى بغصن من أغصانها ثم جلست تحتها ، فإذا أنا بغبار قد سطع . فتبينت فبدت لى شخوص ثلاثة . فإذا رجل يطرد مسحلة وأتاناً . فلما قرب منى إذا عليه درع أصفر وعمامة خز سوداء ، وإذا هو تنال فروع شعره كتفيه . فقلت فى نفسى : غلام حديث عهد بعرس فأعجلته لذة الصيد فنسى ثوبه وأخذ ثوب امرأته ، فما لبث أن لحق بالمسحل ، فصرعه ثم ثنى طعنة للأتان فصرعها ، ثم أقبل وهو يقول :

لطعنهم سلكى ومخلوجة كرك اللأمين على نابل

قال : فقلت : إنك قد تعبت وأتعبت ، فلو نزلت ، فثنى رجله فنزل فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، ثم أقبل حتى جلس قريباً منى فجعل يحدثنى حديثاً ذكرت به قول الشاعر :

وإن حديثاً منك لو تبذلينــه جنى النحل، فى ألبان عوذ مطافل

قال : فبينا هو كذلك ، إذ حك بالسوط على ثنيتيه ، فرأيت والله يابن ربيعة ظل السوط بينهما ، فما ملكت نفسى أن قبضت على السوط فقلت : مه . فقال : وله ؟ قلت : فإنى أخاف أن تكسرهما فإنهما

رقيقتان . قال : هما عذبتان ، ثم رفع عقيرته فجعل يغنى :

إذا قبل الإنسان آخر يشتهى ثناياه لم يأثم ، وكأن له أجرا
فإن زاد زاد الله فى حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها الوزرا

ثم قال لى : ماهذا الذى تعلقت فى سرجك ؟ قلت : شراب أهداه إلى بعض أهلك ، فهل لك فيه ؟ قال : وما أكرهه . فأتيته به فوضعه بينى وبينه فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهاة قد أضلت ولداً أو ذعرها قانص فعلم أين نظرى فرفع عقيرته يغنى :

إن العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ، ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

فقلت له: من أين لك هذا الشعر؟ قال وقع رجل منا باليمامة وأنشدنيه. ثم قمت لأصلح شيئاً من أمر فرسى ، فرجعت وقد جر العمامة عن رأسه وإذا غلام كأنه الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك وأحسن صنعتك ! قال : كيف قلت ذلك ؟ قلت : مما راعنى من نورك وبهرنى من جمالك . قال : وما الذى يروعك من زرق الدواب وحبيس التراب ؟! ثم لا تدرى أينعم بعد ذلك أم ييأس ؟ ثم قام إلى فرسه فلما أقبل برقت لى بارقة الدرع ، فإذا ثدى كأنه حق . قلت : نشدتك الله ، آمرأة ؟ قال : إى والله امرأة تكره العهر وتحب الغزل. قلت : والله أنا كذلك . قال فجلست تحدثنى ، ما أفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكراً ، واستحسنت والله يابن أبى ربيعة الغدر وزين فى عينى ، ثم إن الله عز وجل عصمنى منه ، ثم جلست منها حجرة ، فما لبثت أن انتبهت مذعورة ، فلاثت عمامتها برأسها وأخذت الرمح وجالت فى متن فرسها . فقلت : أما تزودينى منك زاداً ، فأعطتنى شباتها فشممت منها كالنبات الممطور . ثم قلت : أين الموعد ؟ فقالت : إن لى إخوة شرسين وأبا غيوراً ، والله لأن أسرك أحب إلى من أن أضرك ، قال : ثم

مضت ، فكان هذا آخر العهد بها إلى يومى هذا . فهى والله التى بلغت بى
ماتراه من هذا المبلغ ، وأحلتنى هذا المحل . قال : فقلت : وأنت والله
– يا أبا مسهر – ما استحسن الغدر إلا بك . فإذا قد اخضلت لحيته
بدموعه . قال : قلت : والله ماقلت لك هذا إلا مازحاً. ودخلتنى له رقة.
فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى وشد على ناقته وحملت غلاماً لى
على بعير ، وحملت عليه قبة أدم خضراء كانت لأبى ربيعة وأخذت
معى ألف دينار ومطرف خز . ثم خرجت حتى أتينا كلباً ، فإذا الشيخ
فى نادى قومه ، فأتيته فسلمت عليه . فقال : وعليك السلام ، من أنت؟
قلت : عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة المخزومى . قال : المعروف غير المجهول ،
فما الذى جاء بك ؟ فقلت : جئت خاطباً . قال : أنت الكفء لايرغب
عن حسبه والرجل لا يرد عن حاجته . قال : قلت : إنى لم آتك فى نفسى
وإن كنت موضع الرغبة ، ولكن أتيتكم لابن أختكم العذرى . قال :
والله إنه لكفء الحسب كريم المنصب . غير أن بناتى لم يقعن إلا فى هذا
الحى من قريش . قال : فعرف الجزع من ذلك فى وجهى . فقال : أما
إنى أصنع بك شيئاً لم أصنعه بغيرك أخيرها ما اختارت . قال : قلت :
له : والله ما أنصفتنى . قال : وكيف ذلك ؟ قال : كنت تختار لغيرى
ووليت الخيار لى غيرك ، فأومأ لى صاحبى أن دعه يخيرها. قلت : خيرها ..
فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا ، فارتئى رأيك . قال : فأرسلت
إليه : ما كنت لأستبد برأى دون القرشى فخيارى ما اختار . قال : قد
صيرت الأمر إليك . فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه وقلت : قد
زوجها الجعد بن مهجع وأصدقتها الألف دينار ، وجعلت تكرمتها العبد والقبة
وكسوت الشيخ المطرف ، فقبله وسر به . وسألته أن يبتنى بها من ليلته .
فأجابنى إلى ذلك ، وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت إليه ليلا ، وبت
عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة فخرج

إلىّ وقد تبين الجذل فى وجهه. قال : فقلت : له كيف أنت من بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال : أبدت كثيراً مما أخفت يوم رأيتها . فقلت : ماحملك على ذلك ؟ فأنشأ يقول :

كتمت الهوى ، إنى رأيتك جازعاً ... فقلت : فتى بعض الصديق يريد
فإن تطرحنى ، أو تقول فتية ... يضر بها برح الهوى ، فتعود
فوريت عما بى وفى الكبد والحشا ... من الوجد برح فاعلمن شديد

قال : فقلت : أقم على أهلك ، بارك الله فيك. وانطلقت إلى أهلى».

ذكرت لك هذه القصة كاملة [1] ، لأنها ثرية ، فيها الكثير من صفات القصص العربى ، وهى نموذج حى لقصص العشق التى ذاعت وشاعت بين جماهير العرب .

ولست أدرى : هل اخترع هذه القصة حماد الراوية الذى كان يكذب ويتزيد فى رواياته ، أو أنها من وحى خيال ابن أبى ربيعة ؟! لست أدرى ، لأن القصة تشف عن مزاج كلا الرجلين ، فقد كان كل منهما مستهتراً ماديا . والمخترع هنا يأبى إلا أن يلوث قصص العذريين بالخمر والسكر والغناء والتمايل تحت الدوحة . ولم يوفق القاص فى رسم هذا الجو الذى يتنافى مع البيئة البدوية والنساء البدويات فهل فى البادية امرأة لها أب غيور وإخوة شرسون ، ثم تخرج للصيد وتفعل فعل الرجل الفارس، ثم تلتقى بأجنبى فتجلس معه تحت ظل شجرة وتطارحه الغزل وتنشده الشعر الغزلى ، ثم تشرب معه الخمر وتميل سكراً . . . إلخ . لاشك فى أن مخترع هذه القصة رجل عاش فى الحضر وشاهد الترف ، فتصور أهل البادية وكأنه يتصور أهل الحضر .

ومن مقدمة القصة يبدو لنا أن القاص قد اخترعها للتسلية وإزجاء

---

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٥٠ .

الفراغ ، فقد اجتمع الناس فى حلقة وأخذوا يتذاكرون أخبار العذريين وعشقهم فقص عليهم القاص تلك الحكاية ، وقد أنصف ابن عبد ربه حين وضعها تحت عنوان « المضحكات » ، وذلك فى الجزء الثالث من العقد الفريد .

ولكن ابن أبى ربيعة ينتهز هذه الفرصة فيدس فى ثنايا القصة حديثاً عن نفسه وافتخاراً بأبيه وتغنياً بجوده وكرمه ودفاعاً عن مسلكه ومذهبه ، فهو شهم كريم ، يسمع عن مأساة صاحبه فيخرج معه ويشد على ناقته ويحمل معه قبة أبى ربيعة ، ويأخذ معه ألف دينار ومطرف خز . ويخرج الرجل فيستقبله استقبال المعروفين غير المجهولين ، ويرحب به ، ويثنى على حسبه وعلى شخصه وتختاره الفتاة وكيلا لها ، فينهى الموضوع كما يحب ، و يرجع إلى أهله ، مفتخراً بنفسه ويقول — كما ورد فى العقد الفريد — :

كفيت الفتى العذرى ما كان نابه ... ومثلى لأثقال النوائب يحمل
أما استحسنت منى المكارم والعلا ... إذا صرحت أنى أقول وأفعل

فهذا الفخر بابن أبى ربيعة وبحسبه ، وتلك الخاتمة التى تنتهى بهذه الأبيات — يرجحان أن القصة من صنع عمر .

ويبدو أن عمر كان ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنه ، والترويج لشعره مرة برشوة المغنين والمغنيات حتى ينشدوا شعره كما جاء فى الأغانى ومرة ثانية بإشاعة هذا النوع من القصص التى أكثر من اختلاقها وترويجها .

وهذا مثال آخر من قصصه :

(ب) قال عمر بن أبى ربيعة :

بينا أنا خارج محرماً ، إذ أتتنى جارية كأنها دمية فى صفاء اللجين ،

فى ثوب قصب كقضيب على كثيب ، فسلمت على وقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة ، فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا والله ذاك . قالت : هل لك أن أريك أحسن الناس وجها ؟ قلت : ومن لى بذلك ؟ قالت : أنا والله لك بذلك على شريطة . قلت : وما هى؟ قالت : أعصبك وأربط عينيك وأقودك ليلا . قلت : لك ذلك . قال : فاستخرجت معجراً من قصب عجرتنى به وقادتنى حتى أتت بى مضرباً. فلما توسطته فتحت العجارة عن عينى ، فإذا أنا بمضرب ديباج أبيض مزرر بحمرة مفروش بفرش كوفى ، وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الأحمر ، عليها تماثيل ذهب . ومن ورائها وجه لم أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسناً وجمالا. فقامت كالحجلة وقعدت قبالتى وسلمت على . فخيل إلى أن الشمس تطلع من جبينها وتغرب فى شقائق خدها . قالت: أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك يامنتهى الجمال . قالت : أنت القائل :

بينمـــا ينعتننى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى : أما تعرفن ذا قالت الوسطى : بلى هذا عمر
قالت الصغرى — وقد تيمتها — قد عرفناه ، وهل يخفى القمر

قلت : أنا والله قائلها ياسيدتى . قالت : ومن هؤلاء ؟ قلت : والله ياسيدتى ماهو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء . قالت : ياعدو الله ، يافاضح الحرائر ، أنت قد فشا شعرك فى الحجاز وأنشده الخليفة والأمراء ولم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى أخرجنه . فخرجت الوصائف فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى ، وقادتنى إلى مضربى ، فبت ليلة كانت أطول من سنة . فلما أصبحت بقيت هائماً ، لا أعقل ما أصنع ، فما زلت أرقب الوقت . فلما كان وقت المساء ، جاءتنى الجارية فسلمت علىّ وقالت :

ياعمر ، هل رأيت ذلك الوجه ؟ قلت : إى والله . قالت : فتحب أن أريكه ثانية؟ قلت : إذا تكرمت فتكونين أعظم الناس عليّ منة ، فقالت: على الشريطة . فاستخرجت المعجر ، فعجرتنى وقادتنى فلما توسطت المضرب ، فتحت العصابة عن وجهى ، فإذا أنا بمضرب ديباج أحمر مدنر ببياض مفروش بفرش أرمنى ، فقعدت على نمرقة من تلك النمارق ، فإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء ستر تتمايل من غير سكر. فقعدت كالحجلة ، فسلمت على . قالت :أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك . قالت : أنت القائل :

وناهدة الثديين قلت لها اتكى	على الرمل فى ديمومة لم توسد
فقالت : على اسم الله آمرك طاعة	وإن كنت قد كلفت ما لم أعود
فما زلت فى ليل طويل ملثماً	لذيذ رضاب المسك كالمتشهد
فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى	فقم غير مطرود وإن شئت فازدد
فلما ازددت منها واتشحت بمرطها	وقلت لعينى : اسفحا الدمع من غد
فقامت تعفى بالرداء مكانها	وتطلب شذراً من جمان مبدد

قلت : أنا قائلها . قالت فمن الناهدة الثديين ؟ قلت : ياسيدتى ، قد سبق فى الليلة الأولى . والله ما هو عن قصد منى ولا فى جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء . قالت : ياعدو الله ، أنت قد فشا شعرك بالحجاز ورواه الخليفة وتزعم أنه لم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى ادفعنه . فوثبت الجوارى فأخرجننى ودفعننى إلى الجارية ، فعجرتنى وقادتنى إلى مضربى ، فبت فى ليلة كانت أطول من الليلة الأولى فلما أصبحت أمرت بخلوق فضرب لى وبقيت هائماً . فلما كان وقت المساء جاءتنى الجارية فسلمت عليّ وقالت: ياعمر هل رأيت ذلك الوجه؟ قلت: إى والله . قالت : فتحب أن أريكه الثالثة ؟ قلت : إذاً تكونين أعظم الناس عليّ منة . قالت : على الشريطة . قلت : نعم . فاستخرجت

المعجر وعجرتنى به ، وقادتنى حتى أتت بى المضرب . فلما توسطته فتحت العصابة عن عينى . فإذا أنا فى مضرب ديباج أخضر مدنر بحمرة مفروش بخز أحمر . وإذا أنا بالشمس الضاحية قد أقبلت من وراء الستر كحور الجنان فسلمت علىّ . وقالت : أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك . قالت : أنت القائل :

نعب الغراب ببين ذات الدملج ... ليت الغراب ببينها لم يشحج
مازلت أتبعهم وأتبع عيسهم ... حتى دفعت إلى ربيبة هودج
قالت : وعيش أخى وحرمة والدى ... لأنبهن الحى إن لم تخرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها ... شرب النزيف ببرد ماء الحشرج
فتناولت كفى لتعرف مسها ... بمخضب الأطراف غير مشنج

قلت : أنا قائلها . قالت ياعدو الله أنت الذى فضحتها ونفسك وجهى من وجهك حرام إن عدت إلى ، ياجوارى أخرجنه . فوثب إلىّ الوصائف وأخرجننى ، ودفعننى إلى الجارية فعجرتنى وقادتنى . وقد كنت عند خروجى من مضربى ، ضربت يدى بالخلوق وأسدلت عليها ردائى فلما صرت إلى باب مضربها أخرجت يدى ووضعتها على جانب المضرب وضعاً بيناً ، فلما أصبحت صحت بغلمانى وعبيدى ، ولى ألف عبد : من أتانى بخبر المضرب الذى ضرب فيه بكذا وكذا ، فهو حر لوجه الله . فلما كان فى وقت المساء أتتنى وليدة سوداء فقالت : قد عرفت المضرب وهو لرملة أخت عبد الملك بن مروان . فأعتقتها وأمرت لها بمائتى دينار . وأمرت بمضربى فقلع وضرب بحذاء مضربها . وكتب بالخبر إلى عبد الملك ابن مروان . فكتب إليها بالرحيل . فركبت هودجها وركبت فرسى فزاحمتها فى بعض الطريق فأشرفت علىّ من هودجها فقالت : إليك عنى أيها الرجل . قلت : خاتم أو قميص أذكرك به . فقالت لبعض جواريها : ألقى إليه قميصاً من قمصى . فأخذته وأنا أقول :

فلا وأبيك ما صوت الغوانى ولا شرب التى هى كالفصوص
أردت برحلتى وأريد حظا ولا أكل الدجاج ولا الخبيص
قميص ما يفارقنى حياتى أنيس فى المقام وفى الشخوص

وجعلت أنزل بنزولها وأركب بركوبها حتى كنا من الشام على ثلاث مراحل فاستقبلها عبد الملك فى خاصته فدخل إليها ثم قال : يارملة .ألم أنهك أن تطوفى بالبيت إلا ليلا يحفك الجوارى ويحف الجوارى الخدم ويحف الخدم الوكلاء لئلا يراك عمر بن أبى ربيعة. قالت : والله وحياة أمير المؤمنين مارآنى ساعة قط . فخرج من عندها فبصر بمضربى فقال : لمن المضرب؟ قيل: لعمر بن أبى ربيعة . قال: علىّ به . فأتيته بلا رداء ولا حذاء ، فدخلت عليه وسلمت عليه . فقال : ياعمر ، ماحملك على الخروج من الحجاز من غير إذنى ؟ قلت : شوقاً إليك يا أمير المؤمنين وصبابة إلى رؤيتك فأطرق مليا ينكت فى الأرض بيده . ثم رفع رأسه فقال : ياعمر ، هل لك فى واحدة ؟ قلت: وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال : رملة أزوجكها . قلت : يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن ؟ قال : إى ورب السماء . ثم قال : قد زوجتكها فادخل إليها من غير أن تعلم . فدخلت عليها فقالت : من أنت هبلتك أمك ؟ قلت : أنا المعذب فى الثلاث ، فارتحلت وأنا عديلها فأنشأت أقول :

لعمرى ، لقد نلت الذى أرتجى وأصبحت لاأخشى الذى كنت أحذر
فليس كمثلى اليوم كسرى وهرمز ولا الملك النعمان مثلى وقيصر

فلم أزل معها بأحسن عيشة وغبطة » .

فهذه القصة المترفة قد أشاعها عمر لتمجيد شعره والدعاية لفنه . ولا يمكن أن تقبل كحقيقة تاريخية . ولأمر ما تكررت هذه العبارة من رملة : « أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ قلت : أنا ذاك » وما الداعى لأن تتفوه رملة بهذه العبارة وهى فى معرض توبيخ عمر وتقريعه ،

وليست فى معرض مدحه والثناء عليه ؟ ولأمر ما يقول عمر : « فصحت بغلمانى وعبيدى ولى ألف عبد » .

والقصة تتفق مع مذهب عمر فى شعره ، فى شعره يتغزل فيه الفتيات ويطاردنه . وهنا تتعرض له رملة وتستدعيه إلى مضربها وتغرى به جواريها ، حتى الزواج يتم بطريقة نرجسية فجائية ، فيستدعيه عبد الملك ويعرض عليه أن يزوجه من رملة . وهذه النهاية السعيدة تتفق مع مزاج فتى قريش فقد عاش معها بأحسن عيشة وغبطة . ولا ينسى عمر أن يختم القصة — كما ختم القصة السابقة — بأبيات يجعل فيها نفسه مثل كسرى وهرمز والنعمان وقيصر .

(حـ) قال رجل من أهل تيماء :

كنت يوماً جالساً مع جميل وهو يحدثنى وأحدثه ، إذ ثار وتربد وجهه فأنكرته ورأيت منه غير ما كنت أرى . ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون حتى أتى بناقة له قريبة من الأرض مجتمعة موثقة الخلق . فشد عليها رحله ، ثم أتى بمحلب فيه لبن فشربه ، ثم ثنى فشربت حتى رويت . ثم قال لى : اشدد أداة رحلك واشرب واسق جملك ، فإنى ذاهب بك إلى بعض مذاهبى ، ففعلت . فجال فى ظهر ناقته وركبت ناقتى . فسرنا بياض يومنا وسواد ليلتنا . ثم أصبحنا فسرنا يومنا كله . لا والله مانزلنا إلا للصلاة . فلما كان فى اليوم الثالث وقفنا إلى نسوة فمال إليهن . ووجدنا الرجال خلوفاً . وإذا قدر لبن ثم وقد جهدت جوعاً وعطشاً فلما رأيت القدر اقتحمت من بعيرى وتركته جانبى ، ثم أدخلت رأسى فى القدر مايثنينى حرها حتى رويت ،فذهبت أخرج رأسى من القدر فضاقت علىّ . وإذا هى على رأسى قلنسوة فضحكن منى وغسلن ما أصابنى . وأتى جميل بقرى . فوالله ما التفت إليه ، فبينا هو يحدثهن



إذا رواعى الإبل ، وكان السلطان قد أحل لهم دمه إن وجدوه فى بلادهم وجاء الناس فقالوا له : ويحك ! انج وتقدم ، فوالله ما أكبرهم كل الإكبار ، وغشيه الرجال فجعلوا يرمونه ويطردونه ، فإذا قربوا منه قاتلهم ورمى فيهم ، وهام بى جملى فقال لى : يسر لنفسك مركباً خلفى فأردفنى خلفه لا والله ما انكسر ولا انحل عن فرصته حتى رجع إلى أهله » .

وهدف هذه القصة هو رسم شخصية بطولية ، وجرت على عادة القدماء فى إظهار البطل فى صورة مبالغ فيها ، فهو شجاع قوى لا تهمه الجماعة ولا المصاعب ، بينا تكون الشخصيات الأخرى ضئيلة القيمة ذات دور ثانوى . فجميل يثور ويربد وجهه ويقشعر شعره ويتغير لونه ، ثم يسرع إلى جمله ويسحب معه تابعه المهرج (الكوميدى) الذى يطيعه طاعة عمياء ويسير جميل فى طريقه لا يحس جوعاً ولا يشعر بظمأ برغم تلك المسافة الطويلة التى يقطعها سواد ليله وبياض نهاره ، حتى إذا غشيه الرجال لم يكبرهم وجعل يقاتلهم ويرمى فيهم ، ثم يلقى بتابعه الكوميدى وراءه ، ويسرع بناقته حتى يرجع إلى أهله .

(د) **وكان بعضهم يستغل قصص الحب فى الدفاع عن فكرة يؤمن بها ،** ويعتقد أنها لصالحه ، ففى ذات ليلة حاول عبد الملك بن مروان أن يعرض بعبد الله بن جعفر وأن يقلل من قيمة الغناء الذى شاع بين الحجازيين فقال : « قبح الله الغناء ! ما أوضعه للمروءة وأجرحه للعرض وأهدمه للشرف وأذهبه للبهاء ! » . فانبرى ابن جعفر للدفاع عن مذهب الحجازيين واستغل القصص لإقناع عبد الملك ، فقص عليه قصة الفتى الذى كان يهوى جارية مغنية ، وكان يتسمع كل ليلة إلى غنائها حتى الفجر ، فقال : « اشتريت جارية باثنى عشر ألف درهم مطبوعة ، فكان بديح وطويس يأتيانها فيطرحان عليها أغانيهما فعلقت منهما حتى غلبت عليهما . . . فبينا هى عندى على تلك الحال ، إذ ذكرت لى

عجوز من عجائزنا أن فتى من أهل المدينة يسمع غناءها ثم ينصرف فراعيت مجيئه ، فإذا الفتى قد أقبل مقنع الرأس ، فأشرفت عليه وقد قعد مستخفياً فلم أدع بها تلك الليلة وجلست أتأمل موضعه ، فبات مكانه الذى هو فيه ، فلما انشق الفجر اطلعت عليه . فإذا هو فى موضعه فدعوت قيمة الجوارى ، فقلت لها : انطلقى الساعة فزينى هذه الجارية واعجلى بها إلىّ . فلما جاءت بها نزلت وفتحت الباب وحركته ، فانتبه مذعوراً ، فقلت له : لابأس عليك خذ بيد هذه الجارية ، فهى لك وإن هممت ببيعها فردها إلىّ فدهش وأخذه الحبل ولبط به ، فدنوت من أذنه فقلت : ويحك قد أظفرك الله ببغيتك فقم فانطلق بها إلى منزلك ، فإذا الفتى قد فارق الدنيا فلم أر شيئاً قط أعجب منه .

ومن حق عبد الملك ألا يصدق بهذه الحكاية وأن يقسم أنه لا يصدقها لولا أن عبد الله قد عاينها (١) ، ومن حقنا نحن ألا نصدق بها وأن نزعم أنها موضوعة لبيان قيمة الغناء والدفاع عن المذهب الذى شاع بين الحجازيين .

٤ ــ قصص ذات أغراض تعصبية :

ولم تستغل قصص الحب استغلالا شخصيا فحسب ، بل استغلت لأغراض تعصبية أيضاً .

فقد عرف العرب فى تاريخهم صراعاً بين السادة والعبيد ، وثورات بين بعضهم والبعض الآخر ، فاستخدم كل فريق ماتيسر له من الأسلحة فكانوا ينتحلون الشعر ويختلقون الأحاديث ، تدعيماً لنزعاتهم وتأييداً لميولهم .

---

(١) انظر : العقد الفريد ٣/١٩٩ (المطبعة الشرقية) .

ونال القصص حظها من الانتحال والاختلاق .

(ا) كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين ، وكان لها من قلبه موضع ، فقدم عليه من ناحية مصر جوهر له قدر وقيمة ، فدعا خصيا له وقال : اذهب بهذا إلى أم البنين وقل لها : أتيت به الساعة فجئت به إليك فأتاها فوجد عندها وضاح اليمن ، وكان من أجمل العرب وأحسنهم وجهاً . فعشقته أم البنين فأدخلته عليها ، فكان يكون عندها ، فإذا أحست بدخول يزيد أدخلته فى صندوق من صناديقها . فلما رأت الغلام قد أقبل أدخلته إلى الصندوق ، فرآه الغلام ورأى الصندوق الذى فيه فوضع الجوهر بين يديها وأبلغها رسالة يزيد ثم قال : ياسيدتى هبى لى منه لؤلؤة . قالت : لا ، ولا كرامة . فغضب وجاء إلى مولاه فقال : يا أمير المؤمنين إنى دخلت عليها وعندها رجل ، فلما رأتنى أدخلته صندوقاً وهو فى الصندوق الذى صفته كذا وكذا .. فقال يزيد : كذبت ياعدو الله ، جئوا عنقه . . ثم قام ولبس نعله ودخل على أم البنين وهى تمتشط فى خزانتها ، فجاء حتى جلس على الصندوق الذى وصفه الخادم وقال : يا أم البنين ما أحب إليك هذا البيت ! قالت : يا أمير المؤمنين أدخله لحاجتى ، وفيه خزانتى فما أردت من شىء أخذته من قريب . قال : فما فى هذه الصناديق التى أراها ؟ قالت : حليى وأثاثى . قال : فهبى لى منها صندوقاً . قالت : كلها يا أمير المؤمنين لك . قال: لا أريد إلا واحداً . ولك على أن أعطيك زنته ذهباً وزنة ما فيه . قالت : فخذ ماشئت قال : هذا الذى تحتى . قالت لم يا أمير المؤمنين؟ عد عن هذا ، وخذ غيره ، فإن لى فيه شيئاً يقع بمحبتى . قال : ما أريد غيره . قالت : هو لك فأخذه ودعا الفراش وحمل الصندوق ومضى به إلى مجلسه فجلس ولم يفتحه ولم ينظر مافيه . ولما جنه الليل دعا غلاماً له أعجميا وقال له : استأجر أجراء غرباء ليسوا من أهل المصر . فجاءوا بهم فأمرهم فحفروا

له حفيرة فى مجلسه . حتى بلغوا الماء ثم قال: قدموا لى الصندوق . فألقى فى الحفيرة ثم وضع فمه على شفيره فقال : ياهذا قد بلغنا عنك خبر ، فإن يك حقاً فقد قطعنا أثره ، وإن يك باطلا فإنما دفنا خشباً . ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى . فلم ير الوضاح حتى الساعة . فلا والله مابان لها فى وجهه ولا فى خلائقه شيء حتى فرق الموت بينهما .

وأعتقد أن هذه القصة ليس لها صدق واقعى ، فهى تناقض خلق العربيات القائم على العفة أو التستر فى أمثال هذه الموضوعات . وتنافى خلق العربى القائم على الغيرة والأنفة والاندفاع فيما يمس الشرف . وانظر إلى تريث يزيد حين دخل عليها وهو يساومها على أخذ الصندوق ويبذل لها زنته وزنة ما فيه ذهباً . وانظر إلى الحوار الهادئ الذى دار بينهما . وإلى الصبر العجيب الذى جعله يضع الصندوق ولا يفتحه حتى يجنه الليل . ثم إلى هذا الوداع الهادئ الرزين الذى ودع به الصندوق حين ألقاه فى الحفرة .

اللهم إن هذا ليس من خلق العرب ، بل هذا شيء وضع على العرب .

واللهم إن واضع هذا ليس من العرب أيضاً ، وإلا كان قد تنبه لأهم شيء عند العربى وهو اضطرابه الشديد وانفعاله البين فيما يمس العرض ويخدش الشرف ، لكن وضع هذا لم يوفق فى التزوير والتمويه ، فقد وصف العربى هنا وكأنه يصف رجلا أجنبيا .

ولهذا أميل إلى أن هذه القصة قد وضعت بسبب الشعوبية ، فقد أرادوا أن يشهروا بنساء هذا الخليفة الأموى ، فاختلقوا هذه القصة التى تنتقص منه ومن نسائه ، فهم قد عرفوا أن ابن عبد الملك قد قتل وضاحاً هذا لأنه شبب بامرأته وبأخته ، وهم قد عرفوا أن وضاحاً هذا كان رائع الحسن وأنه كان يبرقع وجهه خوف الفتنة بحسنه وخوفاً من العين

وحذراً على نفسه من النساء ، فلا أقل من أن يبنى القصاص على هذه العناصر قصة غرامية تحط من قدر أم البنين ، ولا أقل من أن يختاروا لها شخصية قيل إنها من أولاد الفرس وقيل : بل إنه من حمير مات أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه رجلا من أولاد الفرس ، وشب وضاح فى حجر زوج أمه . ولما كبر جاء أهل بيته من حمير يطلبونه فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه ، فحكم به الحاكم للحميريين ، ومسح على رأسه وأعجبه جماله وقال له : اذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذى يزن ، يعنى الفرس الذين قدم بهم ابن ذى يزن لنصرته .

وجد الشعوبية إذن عناصر قصة ، فبنوا عليها مايخدم فكرتهم وينصر قضيتهم ، ونسجوا قصة حول غرام أم البنين لرجل جميل من الفرس أو تربى فى حجر الفرس .

ولست أدعى أن هذا الرأى لى فقد ذكر أبو الفرج فى الجزء السادس من كتابه الأغانى أن هذه الحكاية قد وضعها بعض الشعوبية لما تلاحى هو وبعض ولد الوليد زوج أم البنين ، وأن الحق هو الرواية الأولى التى ترى أن الوليد قد قتله لأنه شبب بزوجه أم البنين .

من المعقول إذن أن أقبل أن عربيا قد قتل رجلا لأنه شبب بامرأته وبنسائه فأمثال هذا كثير فى التاريخ العربى وهو يوائم مزاج العربى . ولكن ليس من المعقول أن أقبل هدوء العربى وتريثه ورزانته أمام ما يمس عرضه وشرفه .

(ب) ولم تقف القصة عند حد الاستغلال الشعوبى ، بل استغلها العرب فى النزاع الذى دار بينهم .

فقد كان فى العصر الأموى نزاع بين الأنصار أصحاب الأمر والنهى أيام النبى ومن بعده والذين اتخذوا من المدينة المنورة مركزاً للدعوة . وبين الأمويين أصحاب الأمر الجديد والذين اتخذوا من دمشق عاصمة للحكم

واستخدم كل فريق ماتيسر له من أسلحة المعارك ، وقد كان لقصص الحب نصيب فى هذه الزوبعة الطاحنة .

كان عبد الرحمن بن ثابت الأنصارى وعبد الرحمن بن الحكم الأموى صديقين ، ثم حدثت القطيعة والخصومة بينهما حتى تراميا بالأشعار .

ويختلف كل فريق فى سبب هذه المهاجاة ، ثم يروح يؤلف القصص بما يرضى هواه ويشفى حاجته .

أما الأنصار فيزعمون أن عبد الرحمن بن حسان الأنصارى كان يحب امرأة صاحبه الأموى وكان يختلف إليها ، فبلغ ذلك زوجها فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسان ولكن هذه كانت عفيفة قوية الخلق ، فأنبأت زوجها الأنصارى ، ثم اتفق الزوجان على حيلة يتشفيان بها من هذا الأموى وزوجه . فاحتال الأنصارى حتى حمل امرأة صاحبه على أن تزوره فى بيته وأخفاها فى إحدى الحجر ، واحتالت زوجه حتى حملت الأموى على أن يزورها . فلما استقر به المقام عندها أقبل زوجها الأنصارى فأرادت أن تخفيه فأدخلته إحدى الحجر فإذا هو يرى امرأته .

أما الأمويون فيروون هيكل الحكاية ، ولكنهم يقلبون الأدوار فيها ، فقد كانت زوج الأنصارى عاهراً لاترعى حرمة الزوجية وكانت ترسل الرسل إلى هذا الأموى تغريه بنفسها ، ولكنه كان متين الخلق مراعياً لحرمة صديقه فلم يجبها .

٥ ــ قصص ذات أهداف دينية :

ولم تستغل قصص الحب للمنافع الشخصية أو النزعات الشعوبية أو الأهواء التعصبية فحسب ، بل استخدمت أيضا للأهداف الدينية .

« خرج أبو دهبل الجمحى يريد الغزو وكان رجلا جميلا صالحاً، فلما جاء بجيرون جاءته امرأة فأعطته كتاباً وقالت له : اقرأ هذا فقرأه لها ثم ذهبت فدخلت قصراً ثم خرجت إليه فقالت له : لو بلغت معى إلى هذا القصر ، فقرأت الكتاب على امرأة فيه كان لك أجران إن شاء الله فبلغ معها القصر . فلما دخل إذا فيه جوار كثيرة فأغلقن عليه باب القصر فإذا امرأة جميلة قد أتته ، فدعته إلى نفسها فأبى ، فأمرت به فحبس فى بيت من القصر . وأطعم وأسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت ، ثم دعته إلى نفسها فقال : أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبداً ، ولكن أتزوجك قالت : نعم . فتزوجها . وأمرت به فأحسن إليه حتى رجعت نفسه إليه فأقام معها زمناً طويلا لم تدعه يخرج من القصر حتى يئس منه أهله وولده وزوج أولاده بناته واقتسموا الميراث وأقامت زوجه تبكى ولم تقاسمهم ولا أخذت من ميراثه شيئاً. وجاءها الخطاب فأبت وأقامت على الحزن والبكاء عليه . فقال أبو دهبل لامرأته يوماً : إنك قد أثمت فى وفى ولدى ، فأذنى لى أن أخرج إليهم وأرجع إليك ، فأخذت عليه أيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها وأعطته مالا كثيراً ، فخرج من عندها بذلك المال حتى قدم إلى أهله فرأى زوجته وما صارت إليه من الحزن ونظر إلى ولده ممن اقتسم ماله وجاءوه فقال : مابينى وبينكم عمل ، أنتم ورثتمونى وأنا حى فهو حظكم . والله لايشرك زوجتى أحد فيما قدمت به وقال لزوجه : شأنك بهذا المال كله فهو لك ولست أجهل ما كان من وفائك وأقام معها وقال فى الشامية :

صاح حيا الإله حيا ودوداً	عند أصل القناة من جيرون
فبتلك اغتربت بالشام ، حتى	ظن أهلى مرجمـات الظنون
وهى زهراء ، مثل لؤلؤة الغـو	اص ، ميزت من لؤلؤ مكنون

(إلى آخر الأبيات)

فلما جاء الأجل أراد الخروج إليها ففاجأه موتها فأقام »[١] .

وواضح أن هذه القصة تحمل هدفاً تربويا دينيا وهو الحث على العفة والترغيب فيها . فأبو دهبل — كما فى القصة — رجل صالح وشاب جميل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله رب العالمين . وما زالت به وهو يتأبى حتى ضعف وكاد يموت ، ثم تزوجها على كتاب الله وسنة رسوله .

والعناصر الدينية كثيرة فى هذه القصة ، كعنصر الإثابة على الوفاء ، والمكافأة على الصبر ، فهذه الزوجة المخلصة تفى لزوجها الغائب وترفض الخطاب وتقيم على الحزن والبكاء ، فيكافئها الله على هذا العمل الصالح برجوع زوجها يحمل مالا كثيراً يهبه لها وحدها . وعنصر الوفاء بالوعد ، فهذا الرجل الصالح تأخذ عليه الشامية إيماناً ألا يقيم إلا سنة حتى يعود إليها . فلما جاء الأجل تذكر هذا الرجل وعده . ولكن القصة تختلق موقفاً ترضى به الزوجة الوفية وفى الوقت نفسه يحافظ فيه الرجل الصالح على وعده ، فقد تدخل سيف القضاء والقدر، فإذا هذه الشامية تموت فيقيم الرجل مع زوجه فى سرور وسعادة .

العنصر الدينى واضح فى هذه القصة ، ولكن هل نستبيح لأنفسنا أن نفهم هدفاً خفيا يستتر وراء هذا ، وهو أن أهل الحجاز — وقد كانت بينهم وبين أهل الشام خصومات — يعقدون فى هذه القصة مقارنة خفية بين امرأة حجازية تحافظ على عهد زوجها وتحزن لفراقه ولا تنشط لماله ولا تتطلع لميراثه بل تنتظر وتنتظر حتى يكافئها الله، وبين شامية خاطفة أزواج تتعرض للرجال وتدعوهم إلى نفسها وتغريهم بالمال والتهديد .

(١) انظر : مصارع العشاق ص ٧٠ .

قد نستبيح لأنفسنا أن نستشف هذا الهدف ، ولكنه هدف لايكاد يتبين أمام الهدف الديني الواضح الذى يملأ كل القصة .

* * *

وهكذا نجد أن قصص الحب قامت بدور التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية ، وأدت وظيفة التسلية ، واستغلت فى الإعلان والدعاية واستخدمت فى التربية والهداية .



الفصل الثالث

تطور قصص الحب

تتابعت قصص الحب على مختلف العصور العربية واتخذت أشكالا وألوانا مختلفة ، فلو رجعت إلى كتاب « تزيين الأسواق » مثلا لرأيت فيه أخباراً عن ألوان من العشق ، فالباب الأول عقده « فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين » ، والثانى فى « ذكر أحوال عشاق الجوارى والكواعب وذكر ماصدر لهم من العجائب» ، والثالث فى «ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ماجرى عليهم من تصاريف الزمان » . والرابع فى « ذكر ماسوى البشر وما لاقوا من العبر ». وفى هذا الباب أورد أخباراً عن حب بين حمامتين ، وبين غراب وخطافين ، وبين كلب وملك من أقيال اليمن ، وبين نخلتين كانت إحداهما تزهر وتسقط قبل الانعقاد ، فرآها حاذق فعرف أنها عاشقة فدعا برصاص فصنع شريطاً وربط منها إلى النخلة الأخرى فحسن ثمرها وقد قطع صاحب البستان الشريط فأسقط الزهر فأعاده فصلحت .

والمتتبع لتطور قصص الحب يستطيع أن يتحدث عن ذلك من نواح :

١ — ناحية يتتبع فيها الباحث حكاية معينة وينظرها فى مختلف المراجع ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع .

فمثلا حكاية الشاب الذى أدخل قصته على الخليفة وفيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة أن تغنى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فى ماشاء من حكمه ، فعل » — هذه الحكاية قد ذكرت فى الزهرة وفى

الموشى وفى تزيين الأسواق وفى العقد الفريد وفى مصارع العشاق وفى ذم الهوى وفى المستطرف .

ومن الممكن مراقبة الفروق بين صنيع كل كتاب . ولكننا نجدها فروقاً شكلية فهى اختلاف على اسم الخليفة الذى رفعت إليه القصة ، فهو سليمان فى الزهرة وفى المحاسن والأضداد وفى الموشى . أو هو عبد الملك بن مروان فى ذم الهوى وفى تزيين الاسواق وفى مصارع العشاق . أو هو يزيد بن عبد الملك فى العقد الفريد وفى المستطرف . أو اختلاف فى الشعر الذى طلبه الشاب أو فى موطن الشاب : وهل هو من البصرة كما فى تزيين الأسواق أو هو من المدينة كما فى العقد الفريد . أو فروقاً يسيرة : كأن يذكر الجاحظ مقدمة يبين فيها أنه خرج مع محمد بن إبراهيم على حراقته ، فزجت عوادة نفسها إلى الماء ، ثم تبعها غلام وزج بنفسه فى إثرها وأدار الملاح الحراقة فإذا بهما معتنقان وميتان ، فيستفظع ذلك محمد ويقول للجاحظ : «لتحدثنى بحديث يسلينى عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما» فيقص عليه خبر الشاب مع سليمان بن عبد الملك . أو يفصل صاحب التزيين فى أول هذه القصة فيذكر أن هذا الشاب اسمه ظريف بن نعيم ، وكان بأعظم حالة من الجمال وأمكن رتبة من المال ، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة ، ثم رحل الشاب يوماً إلى بغداد ، وحضر يوماً الدكة ، فرأى الجارية فأعجبته وساوم مولاها حتى أخذها وانطلق إلى منزله ، فلما كان الليل جاءه صاحب شرطة الحجاج فأخذ منه الجارية ووجه بها إلى عبد الملك فتبعها الفتى إلى دمشق ثم كانت قصته السابقة. أو أن يذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن مغنية من المدينة وقعت فى قلب يزيد فسألها إن كان لها أقارب بالمدينة ليكرمهم من أجلها ، فأخبرته ألا أقارب لها ، ولكن هناك ثلاثة نفر كانوا أصدقاء مولاتها وأنها تحب أن ينالهم الخير ، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يسيرهم إليه ، فلما وصلوا عنده سألهم حوائجهم

فأما الاثنان فذكرا حوائجهما ، وأما الثالث فبعد أن أخذ الأمان طلب ثلاثة أصوات من الجارية فشرب عليها ثلاثة أرطال . . إلخ .

وقد أتاح لنا ابن الجوزى فى كتابه « ذم الهوى » فرصة جميلة للمقارنة ، إذ ذكر ثلاث روايات لهذه القصة ، رواية فى عهد عبد الملك ، والثانية فى عهد سليمان والثالثة فى عهد الرشيد . والفروق بين هذه الروايات ضئيلة ، فالرواية الأولى تنتهى بأن عبد الملك بعد أن رمى الفتى بنفسه سأل عنه فقالوا : « غريب لايعرف إلا أنه منذ ثلاث ينادى فى الأسواق ويده على رأسه.

غدا يكثر الواشون منا ومنكم   وتزداد دارى عن داركم بعدا

والرواية الثانية تنتهى بأن سليمان قال بعد أن زج الفتى نفسه على دماغه « إنا لله وإنا إليه راجعون ، أتراه توهم الجاهل أنى أخرج إليه جاريتى وأردها إلى ملكى ، ياغلام خذ بيدها فانطلق بها إلى أهله . . . فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة فى دار سليمان قد أعدت للمطر فجذبت يديها من أيديهم وجعلت تقول :

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خير فى عشق بلا موت

فزجت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت » . والرواية الثالثة تنتهى بأن الرشيد قال بعد ألقى الفتى بنفسه « عجل الفتى ، ولو لم يعجل لوهبناها له » .

وارجع أيضاً إلى قصة الشاب الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبدالله القسرى فإننا نجد الفروق يسيرة بين بعض هذه الكتب ، كأن يكون الذى قد كشف الأمر هوأخو العاشق ، أو يكون ابن عم الفتاة . . . إلخ .

وقصة العاشق الذى افترس السبع معشوقته ذكرت فى كثير من الكتب العربية القديمة وكان هناك تقارب بين بعض الكتب ، وتباعد بين البعض الآخر ، فرواية ابن السراج وداود الأنطاكى تتقاربان ، وكذلك راوية

الوشاء وابن الجوزى . وهناك تباعد إلى حد ما بين الروايتين الأوليين وبين الراويتين الأخريين فالأوليان تذكران خبر السبع أولا وتؤخران كشف حقيقة الأعرابى وحقيقة فتاته. أما الأخريان فتبدأان بذكر خبر ذلك الأعرابى مع ابنة عمه وبعد ذلك تذكران خبر السبع ومأساته ، والأبشيهى فى كتابه «المستطرف» مايضيف مأساة أخرى لم تذكر فى تلك الكتب السابقة وينسب الشعر الذى أوصى العاشق ضيفه بأن يكتبه على قبرهما إلى هاتف فيقول بعد أن ذكر دفن العاشقين فى قبر واحد « فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالوالهانة فقالت لى : هل رأيت شابا يرعى غنماً ؟ فقلت لها : نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة ، فقعدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها ، وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك ، فحركتها فإذا هى ميته فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها ، وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وصرفت الغنم وسقتها ، فإذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل ... و العيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف ألفتنا ... فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن

وقصة الأعرابى الظريف الذى أراد معاوية أن يستأثر بمعشوقته الحسناء فأبت — لو قارنت بين هذه القصة كما هى فى «مصارع العشاق» ، وبينها كما هى فى « أخبار النساء » لوجدت الفروق بينهما تتلخص فى أن القصة كما هى فى الأخبار أكثر تشويقاً إلى حد ما منها كما هى فى المصارع إذ قدم لها بوصف للأعرابى وصفاً مشوقاً جعل معاوية يقول لجلسائه « لم يخلق الله من احتاج إلى نفسه فى مثل هذا اليوم . . ياغلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته . . . إلخ » .

٢ ـ وناحية يتتبع فيها الباحث القصص المتشابهة ويراقب الفروق بينها .

فقصة عروة وعفراء، لها قصة مشابهة حدثت فى العصر الجاهلى وهى قصة المرقش وأسماء ، فبينهما تشابه فى كثير من التفصيلات والأحداث وإن كان فى قصة المرقش يرد موقف ليس له ما يشابهه فى قصة عروة ، وذلك أن المرقش حين علم حقيقة الأمر من غلامين يلعبان وأن القبر الذى كان يحج إليه لم يكن يضم إلا عظام كبش ـ حين علم ذلك دعا وليدة له وزوجها الذى كان عسيفاً له، وركبوا جميعاً فى طلب المرادى، وفى الطريق مرض المرقش حتى كان لا يحمل إلا معروضاً ، حتى نزلوا كهفاً بأسفل نجران ، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها « اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضراً وجوعاً » فجعلت الوليدة تبكى من ذلك . فصمم على رأيه حتى أذعنت له ـ فلما سمع المرقش ذلك كتب على مؤخرة الرحل أبياتاً من الشعر إلى أخويه أنس بن سعد وحرملة يخبرهما فيها بحقيقة الأمر . وحين رجعت الوليدة وزوجها أخبرا القوم أن المرقش قد مات . ولكن حرملة قرأ الأبيات فدعاهما وخوفهما وأمرهما أن يصدقاه فلما علم منهما الحقيقة قتلهما وركب فى طلب أخيه ، فلما وصل إلى الكهف عرف أن أخاه قد احتمل إلى منزل محبوبته .

وقصة قيس ولبنى لها قصة تشبهها وتنسب أيضاً إلى العصر الجاهلى ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند ، وإن كانت قصة قيس قد ورد فى خلالها موقف ليس له ما يشبهه فى قصة ابن العجلان ، وهو زواج قيس بعد أن طلق معشوقته خضوعاً لرغبة والديه ، بأخرى تسمى « لبنى » على اسم محبوبته . وهناك قصة حدثت فى عهد ابن عباس تشبه هذه القصة فى كثير من التفصيلات وهى قصة عروة بن قيس التى ذكرت فى تزيين الأسواق. وفى ظنى أن الحادثة واحدة وهى أن رجلا أحب امرأة فتزوجها ثم تدخل أهله بالتفريق بينهما فنجحوا فى ذلك ، وإن كانوا لم

ينجحوا في إطفاء لوعة الحب — الحادثة واحدة كان القوم يتسامرون بها في المجلس ويختارون لها من الأسماء التي يخترعونها أو يختارونها من التاريخ فالعاشق قد يكون اسمه عبد الله ، أو قد يكون اسمه قيساً ، أو قد يكون اسمه عروة ، وقد تكون هناك بذور تاريخية لهذه الحادثة ، ولكن القوم نقلوها إلى مجال التفكه والمسامرة ، فجعلوا يزيدون عليها بعض التفصيلات وبعض الأشياء المشوقة .

ومن الطريف أن نقارن بين القصة التي قصها طريح بن إسماعيل الثقفي في عصر الوليد بن يزيد وبين القصة التي قصها محمد بن صالح بن عبد الله بن الحسن في عصر المتوكل وبينهما أكثر من مائة سنة وقد ذكرت القصتان في كتاب « المحاسن والأضداد ». فإن القصة الثانية تزيد على الأولى في أن صاحب الأشتر بعد أن لبس ثياب جيداء ودخل الزوج وجعل يضربه ظنا منه أنها جيداء — بعد ذلك تذكر القصة الثانية أن أمها دخلت وجعلت تعاتب الرجل ظنا منها أنه ابنتها ثم قالت له : سأرسل إليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك ، فجاءت أختها ونامت بجانبه فلما استمكن منها شد على فمها وأخبرها بالحقيقة وأنها أولى من ستر عليها ثم بات معها يتحدثان ويضحكان حتى برق النور . القصة الأولى تكتفي بتلك الآلام التي لقيها طريح ، والقصة الثانية تكافئ صاحب الأشتر بتلك النهاية السعيدة . وقد ذكرت هذه القصة في مصارع العشاق في سلسلة من الرواة منها « حدثنا محمد بن صالح الحسني حدثني أبي عن نمير بن قحيف الهلالي قال . . . ». والروايتان في المصارع وفي المحاسن تتشابهان إلى حد كبير حتى في استعمال بعض التشبيهات ، وليس بينهما فروق إلا في ألفاظ قليلة. وقد ذكرت هذه القصة في تزيين الأسواق ، إلا أنها ختمت بنهاية حزينة لم تذكر في مصارع العشاق ». . . قال ابن طاهر : فلم يقم بعدها بشير إلا دون شهر وجاءه شخص . . . فقال له

وهو يتناول عنباً : أتتفكه وجيداء قد قضت الساعة؟ فلم يسمع منه إلا شهقة ، وحرك فإذا هو ميت . فبلغ الخبر الجارية فهتكت سترها وجزت شعرها وألقت نفسها فى بئر هناك فماتت » . وبغض النظر عن هذه النهاية فإننا نجد الفرق بين ابن السراج والأنطاكى ينحصر فى أن الأول يتوسع فى الأسلوب وذكر التشبيهات فى حين أن الثانى يميل إلى الاختصار . فمثلا يصف الأول بشراً فيقول : « وكان سيداً حسن الوجه شديد القلب سخى النفس » والثانى لا يصف بشراً بشىء وبينما يقول الأول: « ... وضرب بيده إلى مقدم البيت فاستخرج منه سوطاً مفتولا كمتن الثعبان المطوق » أو: « فاهتزت الجارية كما تهتز القصبة من الروع » أو: « . . . وكشفت عن ظهرى فإذا فيه ما غرس الله من ضربة إلى جانب أخرى كل ضربة تخرج الدم وحدها » . بينما يقول الأول هذا مستعملا التشبيهات والصور إذا بالثانى يقول : « ثم عمد إلى سوط مفتول » أو : « . . . فارتعدت ساعة » أو : « فلما رأى تأثير السوط وخروج الدم قال . . » .

وفى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها تدور حول رجل أحب امرأة وأحبته وقامت بينهما عقبات والتمسا من صديق له أن يلبس ثياب المرأة وأن ينام مكانها حتى يخدع زوجها بذلك ففعل ، ثم إن الزوج دخل على الرجل ظنا منه أنه امرأته ثم حدث ما أغضب الزوج فتناول السوط وجعل يضرب الرجل وهو يحسبه امرأته — فى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها مادة طيبة للسمر ظل الناس يتفكهون بها فى مجلسهم أيام الوليد وأيام المتوكل وغيرهما ، وأخذ الرواة يروونها بتغييرات طفيفة وزيادات هينة .

ولعلنا نلاحظ من هذه الأمثلة أن التطور فى القصة الواحدة وبين القصص المتشابهة ضئيل ، لا يعدو الاختلاف فى الأسماء أو زيادات فى بعض الروايات ، بل إن التقارب وصل فى بعض الروايات إلى حد استعارة التشبيهات والألفاظ .

وربما كان السبب في هذا أن الرواة لم يكونوا ينظرون إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة ، ولم يكن في وعيهم إنشاء قصة تتخذ من التاريخ مادة ولها بعد ذلك الحرية في التأثير والوصف والإضافة ؛ فكانت هذه القصص مختلطة عندهم بمفاهيم التاريخ وكانوا ينقلونها عن الأعراب وغيرهم وكأنهم ينقلون روايات تاريخية ينبغي أن يحرصوا فيها على الألفاظ والترتيب ، بل على ذكر الأسانيد .

ومن الطريف أن سيرة « الأميرة ذات الهمة» التي لا يشك أحد في بعدها عن التاريخ ، إذ أن رواتها قد أباحوا لأنفسهم الحرية في التصرف والمبالغة وخلق الأحداث واختراع الشخصيات والجمع بين شخصيات متباعدة زمناً ومخالفة التاريخ في الوقائع المعروفة – من الطريف أن جامع هذه السيرة – على الرغم مما ذكرت – كانت مفاهيم التاريخ مختلطة عنده بمفاهيم الحكايات الشعبية فوصف هذه السيرة على غلافها بأنها « أكبر تاريخ للعرب وخلفاء بني أمية والخلفاء العباسيين . . جمعت هذه السيرة أخبار العرب وحروبهم وملك مصر والشام وبغداد وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد الإفرنج وفيها من الفتوحات ما يبهر العقول » .

لم ينظر الرواة إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة . وكذلك النقاد لم ينظروا إليها نظرة جدية تقوم منها وتنير لها السبيل ، فتركوها للعامة يحكونها في مجلسهم ويتصرفون فيها تصرفاً فطريا .

* * *

٣ – وناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص مع تطور ظروف العصر وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية .

(ا) فحكايات الحب الحسية التي رويت حول ابن أبي ربيعة وغيره من شخصيات العصر الأموي ، كانت حكايات من النوع الظريف التي

لم تبتعد كثيراً عن الخلق العربى .

ولكن بعد هذا العصر وبعد أن أتى الاتصال بالأمم المجاورة ثمرته وبعد أن عرف العرب فلسفة مانى وإباحية مزدك — بعد هذا كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ . فمثلا بشار بن برد يروى عنه أبو الفرج فى الأغانى قصة ماجنة مع امرأة هويها تسمى « أمامة » فكادت له بالاتفاق مع زوجها . وقد أنشد فى هذه القصة أبياتاً مكشوفة .

وشاعت قصص عشق الغلمان ، وقد عقد داود الأنطاكى باباً لهذه القصص سماه « فى ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ماجرى عليهم من تصاريف الزمان » . وأورد كثيراً من هذه الحكايات ، التى كان يبلغ العاشق فى بعضها درجة الجنون والتوله ، كأخبار مدرك مع صاحبه عمرو إذ توله فى حبه حتى اختلط عقله .

(ب) وقصص العشق العذرية كانت تدور فى العصور العربية الأولى (فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى) حول عشق فتى لفتاة عشقاً لايشرك معها فيه غيرها .

ولكن بعد ذلك نجد قصصاً صوفية يتجاوز فيها العاشق حب البشر إلى حب الذات العليا حبا يملك عليه كل جوارحه ويصيبه بالتوله والجنون ويجعله ينشد الأشعار الغرامية فى محبوبه الذى لايشرك فى حبه غيره .

وإننى أنفى أن يكون للحب الأفلاطونى أثر على الحب العذرى فى العصر الأموى وما قبله . ولكن يمكننا أن نتحدث — بعد ذلك العصر — عن تأثيرات أفلاطونية وأفلوطونية ، فقد عرف العرب الكثير من آراء أفلاطون وأفلوطين ، وأتيح لها الوقت الكافى لأن تفعل فعلها . وعلى هذا لا أبعد لو قلت إن الفكرة الجديدة التى قال بها بعض الصوفية من أن العشق العذرى وسيلة إلى العشق الإلهى أو كما يقول بعض العارفين :

« كما أن النساء حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان ، إذ قد يتوصل العاشق من عشقهن إلى معرفة مبدعهن ، لأن المقدمات الصريحة تنتج الأغراض الصحيحة . وبالحرى من أمعن النظر فى مخلوق زائل ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل» .– لا أبعد لو قلت إن هذه الفكرة متأثرة بما طرأ على المجتمع الإسلامى من آراء فلسفية (١) .

والربط بين العشق العذرى وبين أمور دينية كان موجوداً فى بعض الأذهان منذ العصر الأموى . فقد عشق رجل من ولد سعيد بن العاص جارية مغنية فابتاعها له عمر بن عبد العزيز وأهداها إليه ، فمكثت عنده سنة ثم ماتت ، فبقى مولاها شهراً أو أقل ثم مات كمداً عليها فقال أبو السائب المخزومى: حمزة سيد الشهداء وهذا سيد العشاق فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة كما كبر النبى صلى الله عليه وسلم على قبر حمزة سبعين تكبيرة . وبلغ أبا حازم الحبر فقال : أما من محب فى الله يبلغ هذا ولى (٢) . وقيس كانت تشغله ليلى عن تبين القبلة وكان يضفى عليها شيئاً من التقديس والتبجيل فيقول :

أرانى إذا صليت يممت نحوها بوجهى ، وإن كان المصلى ورائيا

وقد اهتم الصوفية بالعشاق العذريين ، فكان الشبلى يضرب لسامعيه

---

(١) انظر لهذا الموضوع : ١ – مائدة أفلاطون ص ٢٦٠ .

٢ – الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى ص ١٣١ من الطبعة الثانية .

٣ – الحياة العاطفية للدكتور محمد غنيمى هلال ص٢١٤ .

(٢) انظر : مصارع العشاق ص ٥٦ .

المثل بالمجنون فيقول : « ياقوم هذا مجنون بنى عامر كان إذا سئل عن ليلى يقول أنا ليلى ، فكان يغيب بليلى عن ليلى ، فكيف يدعى من يدعى محبته وهو صحيح مميز » . وكان ابن الفارض سلطان العاشقين يشبه حالته بحالة العذريين فيقول فى ديوانه :

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها بصورة حسن لاح فى حسن صورة

وقد عقد صاحب التزيين باباً « فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين » . وقص فيه حكايات صوفية عن ابن المبارك ، وعن أبى الفيض ذى النون المصرى ، وعن أبى الفتح بن سحنون ، وعن عتبة المعروف بالغلام . . إلخ .

(حـ) وكثير من العرب فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى كانوا يقدرون العاشق ويتعاطفون معه ويعتبرونه شخصية أرقى من غيرها . وانظر إلى أخى الفزارية كيف كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال : « دعونى ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام» . واقرأ فى الأغانى كيف كان القوم يتحمسون لأخبار المجنون ويتتبعونها ويتحملون من أجل ذلك المشاق والمتاعب . وكان القوم يعظمون تضحية العاشق فالرجل الذى انتحر لأن السبع أصاب معشوقته كبر فى أعين القوم وقالوا « والله لننحرن عليه تعظيماً له فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلثمائة ناقة » . حتى الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة ، فيذكر جميل أن الزوج لما بلغه خبر انتحار العاشق « تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما » .

ولكنى أقرأ فى نصوص متأخرة مايثبت أن هذه النظرة قد تغيرت عند كثير من الناس فأصبحوا ينظرون إلى العشاق نظرة سخرية ويعتبرونهم أشخاصاً مرضى قد أصابهم الخلل فى عقولهم والاضطراب فى أفكارهم .

فكانوا يصفدونهم بالحديد ويضعونهم فى دار تسمى « دار المجانين » .
وتحت عنوان « فصل فيمن أناخ به الحب ثقله حتى أذهب عقله »
ذكر داود الأنطاكى قصصاً لعشاق أدخلهم قومهم بيمارستان بغداد أو
دير هرقل .

ويحكى المبرد قصته وقد خرج مع المأمون ثم دخل ديراً فيه مجانين
مغلغلين وهم فى نهاية القذارة وبينهم شاب عليه بقية ثياب ناعمة فحياهم
وجعل ينشدهم شعراً فى العشق ثم ختم شعره بهذا البيت :

إنى على العهد لم أنقض مودتهم فليت شعرى لطول العهد مافعلوا

فأراد رجل كان مرافقاً للمبرد أن يسخر منه وأن يتمازح معه فقال له :
ماتوا . قال الشاب : إذن فأموت . فتمطى واستند إلى السارية
التى كان مشدوداً فيها . وجعل يضرب رأسه بها حتى مات .

وأشم فى بعض النصوص روح السخرية والاستهزاء بالمحبين ، وبهذا
الحب الغافل الذى هو أشبه بعشق البهائم «قال المتوكل لأبى العنبس الصيمرى :
اخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها . قال :
نعم يا أمير المؤمنين كان أعقل من القضاة ولم يكن له جريمة ولا زلة فاعتل
علة فمات منها ، فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : ياحمارى ألم أبرد لك الماء
وأنق لك الشعير وأحسن إليك جهدى فلم مت غفلة . . . ؟! قال : لما كان
فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا مرت بى
أتان حسناء فرأيتها فأخذت بمحاسنها قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها فمت
أسفاً . فقلت له : ياحمارى هل قلت فى ذلك شعراً ؟ قال نعم . فأنشدنى :

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثناياها الحسان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنغرانى
فبها مت ولو عشت إذن طال هوانى

فقلت : ياحمارى فما الشنغرانى ؟ قال : هذا من غريب الحمير. فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك فى شعر الحمار وفرح فى ذلك اليوم فرحاً لم ير مثله » .

فقد أصبح العشق فى هذا النص من طباع الحمير ، وأصبحت فعالها مادة تثير الضحك وتبعث السرور ويجد فيها الملهون والمغنون مجالا للهو والغناء . ولأمر ما كان يكرر أبو العنبس قوله : ياحمارى ! .

وعلى أى حال فقصص الحب حين عبرت عن المجون والشذوذ ، أو شفت عن الوجد الصوفى — لم تتطور من الناحية الأدبية عن قصص الظرفاء والعذريين. وكل الفرق الذى حدث أنه بدل الظرف حل المجون وبدل العشق العذرى حل العشق الصوفى وبدل عشق الكرام ظهر عشق الحمير .

أما الناحية الأدبية فما زالت القصة فقيرة فيها بذور فنية جاءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبراً قصيراً سريعاً متناثراً فى بطون الكتب تختلط فيه الحقيقة بالوهم والتاريخ بالخيال ، اختلاطاً لا يبين عن شخصية التاريخ المحققة ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

* * *

٤ — إنما أتيح لهذه القصص أن تنمو وأن تتوسع فى الأحداث وفى إثارة التشويق وفى جذب السامع وفى إضفاء الجو القصصى — حين استطاعت أن تتخلص من تلك النظرة التاريخية وأن تنتقل إلى مجال الأدب انتقالا واضحاً واعياً ، وذلك حين .

(ا) انتقلت هذه القصص إلى السير الشعبية ، إذ يبدو أنه قد أصبح واضحاً لدى رواة هذه السير أنهم يذكرون حكايات يراد منها التأثير والجذب ولا يراد منها التاريخ وحقائقه على الرغم من أن بعضهم قد حاول أن يصدر سيرته بما توهم أنها تاريخ للعرب ووقائعهم .

فمثلا قصة السارق الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبد الله القسرى لينقذ معشوقته من الفضيحة قد كانت الفروق فيها بين الكتب العربية التى تختلط فيها القصة بالتاريخ — فروقاً لا تعدو الاختلاف على أشياء شكلية وكأن الراوى يخشى أن يتوسع وأن يفصل لأنه يخشى أن يخالف التاريخ وأن يثير الخاصة ، ولكن حين انتقلت هذه القصة إلى « ألف ليلة وليلة » أضفى عليها جو قصصى وتوسع الراوى فى شرح أحداثها والتركيز على النقط المؤثرة ومحاولة جذب القارئ ، فتبدأ القصة بوصف العاشق بأوصاف تجعل السامع يتعاطف معه فهو « ذو جمال باهر وأدب ظاهر وعقل وافر . وهو حسن الصورة وعليه سكينة ووقار » وبالفعل تعاطف خالد مع هذا الشاب حين قدم إليه على أنه لص ودار بينهما حوار حاول فيه أن يسبر أمر هذا الفتى ، ثم دنا منه وسأله عن قصته فقال : إن القوم صادقون فيما قالوه والأمر على ماذكروا . فقال له خالد : ماحملك على هذا وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى . فقال له خالد : ثكلتك أمك ، أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر يزجرك عن السرقة ؟! . قال : دع عنك هذا أيها الأمير وامض إلى ما أمر الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه وقال له : إن اعترافك على رءوس الأشهاد قد رابنى وأنا ما أظنك سارقاً ولعل لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها . قال أيها الأمير لايقع فى نفسك شىء سوى ما اعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكننى » . فأمر خالد بحبسه ووكل به قوماً يراقبونه ويتسمعون أخباره وإذا به يفضح نفسه ، إذ أنه حين استقر فى الحبس « تنفس الصعداء وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :

هددنى خالد بقطع يدى إذ لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبوح بما تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به أهون للقلب من فضيحتها

وينقل الموكاون به ذلك إلى خالد فيأمر بإحضار ذلك الفتى الغريب الأطوار ويأكل معه ويتحادث محاولا أن يصل إلى حل اللغز ولكنه لايستطيع . فلا يجد مناصاً من أن يعرض على الفتى بأن ينكر السرقة أمام القاضى وأن يذكر من الشبهات ما يدرأ عنه حد القطع . وفى اليوم المحدد لعقوبة الفتى حضرت الناس . وهنا تصف القصة موقفاً مؤثراً « إذ لم يبق أحد فى البصرة من رجل ولا امرأة ، إلا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى . وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم استدعى بالقضاة وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل فى قيوده ولم يره أحد من الناس إلا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالنحيب فأمر القاضى بتسكيت النساء » ويتعاطف القاضى أيضاً مع هذا الفتى الجميل فيسأله أسئلة يحاول فيها أن يبرئ الفتى « . . قال له : إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم . لعلك سرقت دون النصاب ؟ قال : بل سرقت نصاباً كاملا . قال : لعلك شريك القوم فى شيء منه ؟ قال : بل هو جميعه لهم لا حق لى فيه . وهنا يثور خالد على هذا الفتى العجيب فيقوم إليه ويضرب به على وجهه بالسوط . متمثلا بهذا البيت .

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما يريد

ثم دعا بالجزار ليقطع يده . وهنا تحدث مفاجأة أذهلت القوم إذ بادرت جارية من وسط النساء عليها أطمار وسخة فصرخت ورمت بنفسها عليه ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر وارتفع للناس ضجة عظيمة وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر ، ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير لاتعجل بالقطع حتى تعرف حقيقة

الأمر » . وتكشف لخالد الغموض الذى أحاط بموقف الفتى وتنتهى القصة بزواجهما على يد خالد « قال الراوى : فما رأيت يوماً أعجب من ذلك اليوم أوله بكاء وشرور وآخره فرح وسرور » .

هذه القصة — كما هى فى ألف ليلة وليلة — تتوسع فى نثر الأمور القصصية الجذابة ، فهى تجعل القارئ يتعاطف مع العاشق الجميل الغريب الأطوار ، وهى تحاول أن تثير الشوق. وانظر إلى صنيعها حين تقف بالقارئ عند نقطة مؤثرة لتفاجئه بأن الصباح قد فاجأ القاص ، فمثلا حين يستدعى خالد الفتى من السجن ويعرض عليه أن ينكر السرقة حتى ينقذ نفسه من القطع . وهنا يتشوق القارئ إلى معرفة موقف هذا الشاب الغامض ، ولكن الصباح يأتى فلا يكشف القاص عن موقف الفتى وإنما يفعل ذلك فى الليلة الثامنة والتسعين بعد المائتين .

وأظن أن جامع التحفة البهية قد نقل هذه القصة من « ألف ليلة وليلة » إذ أن قصته تشبه القصة كما وردت فى ألف ليلة وليلة : فى بدايتها وفى تعليق الراوى على نهاية القصة وفى الشعر الذى ورد على لسان الفتى وهو فى حبسه ، بل حتى فى استعمال الأسلوب المسجوع والكلمات وأية مقارنة تثبت هذا . موقف واحد فقط يتوسع فيه جامع التحفة ويذكر فيه أبياتاً لم تذكر فى ألف ليلة وليلة . وهو موقف الفتاة حين كشفت عن الغموض « فلما حضر الجلاد وأخرج السكين ، بدرت جارية من صف النساء وعليها إزار وسخ وصرخت صرخة عظيمة ورمت نفسها عليه ، وأسفرت عن وجه كأنه القمر إذا أبدر ، والصبح إذا أسفر : بطرف كحيل وخد أسيل وثغر أفلج وحاجب أبلج وقد كالقضيب وردف كالكثيب . . . ثم نادت بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير ، لا تعجل عليه حتى تقرأ هذه القصة ثم دفعت إليه رقعة ففضها خالد فإذا فيها مكتوب

أخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظى عن قسى الحمالق

فأضناه سهم اللحظ منى فقلبه حليف هوى من دائه ند فائق
أقر بما لم يقترفه ، لأنه رأى ذاك خيراً من فضيحة عاشق
فهلا عن الصب الكئيب لأنه كريم السجايا فى الهوى غير سارق
فأنت الذى لا يرتجى اليوم غيره لدفع ملمات الخطوب الطوارق

ومثال آخر . . . فإننا نقرأ قصة مجنون ليلى فى كثير من الكتب العربية القديمة ، فإذا بها قصة مهلهلة مكتظة بالأسانيد والحشو ليس فيها ترتيب . وإنما هى مجموعة من الأخبار ضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق. وقد وصف الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من حديث الأربعاء ، هذه القصة بأنها سخيفة متكلفة .

ولكن وقع فى يدى كتاب مكون من خمس وخمسين صفحة يحمل عنوان « قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى » ولم يعلم جامع هذا الكتاب . ولكنى أظن أنه ألف فى فترة متأخرة حين شاع تأليف السير الشعبية فإن أسلوبه يشبه أسلوب تلك السير فى استعمال السجع وفى المبالغة ، وفى ترديد كلمة « قال الراوى » . وفى الإتيان بأشعار سخيفة قريبة إلى الأشعار العامية السهلة مثل :

يا منيتى أنت مقصودى ومطلوبى وأنت رغما من الأعداء محبوبى
إن تحتجب عن عيون الصب يا أملى ما أنت من قلب المضنى بمحجوب

قصة قيس — كما جمعها مجهول — تعتبر أكثر نموا وأقرب إلى الناحية القصصية فهى قد مالت إلى الإفاضة والإطالة وشرح المواقف المؤثرة ومحاولة غرس العطف فى قلب القارئ على قيس المسكين ، وبدت ذات ترتيب من بداية ونهاية ، وتخلصت من النظرة التاريخية ومن العنعنات والأسانيد ، بل كانت تذكر من الأسماء ما لم ترد فى كتب التاريخ والتى كانت موافقة لأسلوب السجع . أو تحرف من الأسماء التاريخية ما يناسب هذا الأسلوب مثل « وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام يقال لها ليلى بنت مهدى

ابن عصام » ويذكر الأغانى نسب ليلى هذه فى الجزء الأول فيقول :
« بنت مهدى بن سعد بن مهدى بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعة » . ومثل « وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له سعد بن النيف» والأغانى لايذكر اسم هذا الزوج وإنما يكتفى بأنه رجل من بنى ثقيف موسر . ومثل « وما زال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان . . فأنشد وقال :

وأجهشت للثوبان حين رأيته ونادى بأعلى صوته ودعانى
فقلت له : أين الذين عهدتهم حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال : مضوا واستودعونى بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

والأغانى يذكر أن هذا الجبل اسمه توباد ويورد شعراً مثل هذا الشعر وإن كان يختلف عنه فى بعض الألفاظ . والقصة الشعبية نفسها تذكر هذا الاسم « توباد »فى موضع آخر حين تجد أنه يسعفها فى أسلوب السجع « فصار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل توباد » .

وقصة قيس هذه جمعت أخبار المجنون وصاحبته المتناثرة فى الكتب العربية ، جمعاً لا كصنيع الجامع لأخبار عروة بن حزام الذى يكاد لا يختلف عن الأغانى فى شىء فى تلك الصفحات الإحدى عشرة التى جمع فيها أخبار عروة . إذ أن الجامع لقصة قيس قد ظهرت شخصيته فى ترتيب هذه الأخبار وفى إضفاء الأسلوب القصصى عليها وفى ملء الفجوات بين هذه الأخبار وفى التوسع فى المواقف المؤثرة ، وفى شرح مشاعر ليلى التى تحدثت عنها الأخبار العربية حديثا مقتضباً ، وفى التحدث عن مشاعر الزوج التى تجاهلتها الأخبار العربية وفى نثر الخطابات المؤثرة المتبادلة بين قيس وليلى وفى الاهتمام بالوصف ، ولا تنسى أن تصف الطبيعة وترسم الجو كأن تقول : « إلى أن انتصف ظلام الليل وعلا نجم سهيل » .
وهى فى وصف الطبيعة لا تبالغ فتخرج عن وصف طبيعة صحراء نجد المقفرة

إلا فى حالات نادرة مثل حديث رجل من بنى أسد التقى بالمجنون فيقول : « إلى أن توصلت إلى روضة كثيرة الأزهار والرياحين والأنوار ، فحدثتنى نفسى أن أقيم فيها ، وأتنزه فى بعض نواحيها . فنزلت فى أرجاء تلك الأزهار المونقة ، والأنوار البديعة المورقة وأنخت ناقتى إلى قنوان شجرة صغيرة ، وجلست برهة يسيرة . فبينما أنا أتأمل فى تلك الروضة المرج الطويلة العريضة ، إذ سقط رجل من الجراد كثيرة الأعداد ، على ذلك الواد ، فافترشت جنباتها وأرصها ، وأخذت طولها وعرضها فتعجبت من تلك المناظر البهية والروائح الزكية . . . إلخ ». فإن هذا الوصف أقرب إلى الطائف أو غوطة دمشق منه إلى صحراء نجد .

تبدأ هذه القصة فتذكر أنه كان فى زمن عبد الملك بن مروان رجل يقال له الملوح بن حزام ، كان له ثلاثة أولاد ذكور كأنهم البدور. منهم قيس « وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وقدراً ، وأجودهم نظماً ونثراً . . . » . وصاحبته ليلى « سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامة » . ولما شاع حبهما استعظم أبوها ذلك الأمر ، وطارت من عينه شرار الجمر ، ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار وحجبها عنه خوف الفضيحة والعار. وزاد الجوى بقلب قيس فجعل أهله ينصحونه ويعذلونه ولما لم يجدوا نفعاً تقدموا إلى أبيها خاطبين ليلى فأبى ، فزاد الأمر بقيس وتوله وانطلق إلى الفلوات». وهنا تصف القصة موقفه من صائد الظباء وصفاً مفصلا تبغى به التأثير على السامع . ويحج به أبوه إلى الكعبة ملتمساً العون من الله ولكن دون جدوى « إذ ترك أباه والحرم وقصد البرارى والأكم » وجعل أبوه يطمئنه ويقول له «فعد معى إلى بنى عامر ، وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر ، وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة » وما زال يحايله حتى رجع معه إلى الأوطان. أما ما كان من أمر ليلى فقد تحولت إلى شىء يتمناه الجميع ويجدون فى

طلبه والفوز به » ، وكأنها المجد الذى يسعى الطامحون إلى التعلق به ، أو مقام التجريد الذى يجد الصوفيون فى طلبه . ولنترك الراوى يشرح تأثير ليلى على قلوب الخلق « وأما ما كان من ليلى ، فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق ، وتحدثت فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ما قال قيس فيها من الأشعار الرقاق التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق . فكان كل واحد يود أن ينظرها ويتمنى أن يراها ويبصرها ، فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب » حتى وافق أبوها على أن يزوجها رجلا من بنى ثقيف . وهنا تصف القصة موقف ليلى إزاء هذا الزوج وصفاً واضحاً مفصلاً فتقول : « فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر ، واكتوى قلبها بلهيب الجمر . لأن هذا الخبر كان لا يوافق غرضها ، ولا يشفى علتها ومرضها ، لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه ، ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة ، والصداقة القويمة ، فأبت ولم تقبل ، وفضلت حلول الأجل ، وقالت : هذا أمر لا يتم أبداً ، ولو مت قهراً وكمداً ، فلما سمع كلامها وعلم ما فى ضميرها ومرامها ، تهددها الكلام فشتمها ، ودار به الغيظ فلطمها . فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلان ، فلما رأت ما حل بها من الهوان ، وأن موج البلايا أحاط بها من كل مكان ، أجابت سؤاله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفاً ، ورؤيتها له تعسفاً . فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار . . . » تتحدث هذه القصة عن مشاعر ليلى ولا تمر بها مروراً عابراً كما تفعل الكتب العربية . وتذكر بعد ذلك صدمة قيس من هذا الزواج وأنه خرج يطوف فى الفلوات وقلل الجبال ، واعتراه الشحوب والهزال . وتذكر أن رجلاً من بنى بارق يقال

له نوفل بن مساحق التقى به وهو على هذا الحال . وتتحدث عن هذا الموقف حديثاً مؤثراً ، ولكنها تخالف الكتب العربية فتجعل اللقاء الأول بين قيس ونوفل قبل زواجها وأنه حاول أن يتشفع له عند أبيها فلم ينجح . ولكن هذه القصة حين جعلت اللقاء الأول بينهما قد تم بعد زواجها كانت منطقية فى أنها لم تجعل نوفلا يتشفع لقيس فى امرأة متزوجة واكتفت بأن نوفلا حين رثى لحاله قال له : « أيها الحبيب والشاعر اللبيب إنه يعز على ويعظم لدى أنى أراك فى هذا الحال ، تقاسى العذاب والنكال ، فهل لك أن تسير معى إلى الديار وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من هى أحلى وأحسن من ابنة عمك ليلى » . فتركه قيس وانصرف. وتتحدث القصة عن الرسائل التى كان يتبادلها قيس وليلى . وهنا تطلعنا على نماذج رقيقة من الخطابات الغرامية المؤثرة التى يختلط فيها الشعر بالنثر . وكنت أود أن يتسع المقام لنقل نموذج لهذه الخطابات الغرامية ولكنى سأكتفى بمطلع خطاب فقط « من قيس بن الملوح الهائم الوامق والحبيب الصادق ، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح در الصدف وياقوت الشرف . من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية ، إننى بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واكتشاف آثارك . . . إذ ورد لى عزيز رسالتك الموسومة بسيماء المحبة الفائقة المسفرة عن ازدياد الصحبة الصادقة» وتظل القصة تتحدث عن عذاب ليلى وهيام قيس ، وتسند إلى ليلى بعض مواقف أسندتها الكتب العربية إلى لبنى . كموقفها من الغربان الخمسة التى اشترتها وجعلت تضربها وتقطعها وهى تنشد الشعر ، ولما لامها زوجها على هذا الأمر انفجرت فيه . وتتحدث القصة عن مشاعر الزوج واستيائه من موقف ليلى وشكواه إلى أبيها يحاول أن يطمئنه ، وتتحدث عن موقف لقيس يقربه من أهل الكشف الذين يتنبئون بالغيب وذلك أن الزوج حين حذر قيساً من عبد الملك قال له قيس: « والله إنه منذ ثلاثة أيام ، بينما كنت

أطوف في بعض الآكام ، زارني طائران وقالا لي : وحق الملك الديان ، لقد قضى الرحمن بالقضاء أيام عبد الملك بن مروان . ثم أطرق مليا وأقام مدة لايتكلم شيئا ، ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر . وقد أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات » . وبالفعل تتحقق نبوءة قيس إذ يموت عبد الملك بعد ثلاثة أيام . ثم تنتهي هذه القصة فتجعل ليلى تموت قبل قيس وهي موفقة في هذا من الناحية الأدبية ، إذ أن موت ليلى قبله قد زاد من فظاعة المأساة وأتاح للقصة خاتمة مؤثرة ، إذ أن قيساً « أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب واتخذته الرعدة والاضطراب ، وكان يأوى إلى قبر ليلى ويدور بالنهار وهو يرثيها بالأشعار » حتى انتهى به الأمر « إلى واد كثير الحجارة وإذا به ميت معلق بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين .. » . «واحتمله القوم وغسلوه وكفنوه وإلى جانب ليلى دفنوه ، وكان ذلك في سنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية » .

وأنتقل إلى قصة شعبية أخرى وهي سيرة الأميرة ذات الهمة فأختار منها بعض قصص العشق التي جعلت مسرحها في العصر الأموي ، فأرى كيف يكون النماء في هذه القصص والثراء والتشابك والانتقال من حكاية إلى حكاية والمفاجآت وحسن الوصف ومحاولة التأثير على القارئ وجذبه .. إلخ.

فحين تقرأ في الكتب العربية القديمة تجد أنها تذكر أخبار العشاق متناثرة متقطعة ، كل موقف — في الأعم الأغلب — ينفصل عن الموقف الآخر ليس هناك رباط واحد يربطها ، وإنما هي أخبار متقطعة تختلط فيها الحقيقة بالخيال فمثلا خبر يتحدث عن تبشير كاهن لهند بأنها سوف تلد مولوداً عظيم الشأن وخبر يتحدث عن امرأة في ثياب رجل ، وخبر يتحدث عن محاولة اغتصاب خلفاء أمويين لحرم غيرهم كما فعل يزيد مع امرأة عامر أو مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر . وخبر يتحدث عن

إطلاق قيس للظباء . وخبر أو أخبار تتحدث عن ابن أبى ربيعة وفاطمة بنت عبد الملك حين حجت . وخبر يتحدث عن غرام قيس بلبنى الكعبية من النظرة الأولى حين التقى بها فى يوم حار فاستسقاها فسقته ومهدت له الوطاء وجاء أبوها فأكرمه . وخبر يتحدث عن عروة وموقف عمه منه ، وخبر يتحدث عن دور الوشاة . . . إلخ .

ولكن سيرة الأميرة ذات الهمة لا تذكر هذه الأخبار متناثرة ، بل تضمها فى سيرة شعبية طويلة وتملأ الفجوات بينها وتجعل الأخبار يخدم بعضها بعضاً .

تزوج الحارث من رباب بعد أن هام بها حبا ، «ثم رأت فى منامها ولذيذ أحلامها كأنها فى صحراء من الصحراوات ، وحولها فسيح البرارى المقفرات . . وخرج من تحتها نار متأججة ولها ألوان متوهجة » ، ثم أحرقت جميع ما على الأرض وبعد ذلك استدارت واستنارت ، فتلجأ إلى كاهن فيبشرها بمولود له شأن وأن والدته سوف تموت حين يخرج إلى الدنيا . ثم يموت الحارث فتلحق رباب بقومها وتستصحب معها فى الطريق غلاما لها فيراودها عن نفسها فتأبى فيدور بينهما صراع كان من شدته أن « دفق عليها الدم ولحقها الطلق بإذن خالق الخلق » . فيثور العبد ويضربها بالحسام ويتركها مجندلة فى البرية وبجوارها ذلك الرضيع ، وتسوق الأقدار أميراً يقال له دارم فيدفن المرأة ويحمل الطفل ليتبناه ويسميه « جندبة » . فيشب الطفل ويشتهر بالشجاعة والبأس ، وفى يوم تقوم معركة بين الأمير دارم وامرأة يقال لها الشمطاء فتأسره وتأسر أولاده فيهب جندبة لنجدتهم وينقذهم من الأسر ويشيع ذلك الخبر ويشتهر أمر جندبة فيأكل الحسد قلب دارم ويعزم على إخراج جندبة من بينهم . فخرج جندبة حتى لاح له خباء مضروب فقصده فخرج له منه « إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول ، فتأمله جندبة على ذلك

الطول فإذا هو شاب أجرد أمرد عليه درع من الزرد وهو مضاعف العدد» .
ويدور بينهما قتال ينتصر فيه جندبة ويكشف الفارس عن نفسه فإذا هو فتاة تسمى «فتالة الشجعان» كانت قد حلفت ألا تتزوج إلا صنديداً يقهرها ، فرضيت بجندبة زوجاً ثم تصادف أن استخلص جندبة رحل الخليفة من أيدى غاصبين ، وحمل ذلك الرحل إلى الخليفة بالشام ومعه زوجه «قتالة الشجعان» التى ما إن يراها هشام بن عبد الملك حتى يقع فى حبها ويرسل إليها دايته فتغضب قتالة ويغضب زوجها ويخرجان من دمشق «إلا أنه (ياسادة) ماسار عن دمشق قدر ميل أو فرسخ طويل ولم يشعروا إلا وقد خرج عليهم كمين وهو قدر خمسمائة فارس وهشام فى مقدمتهم» . فيغتصبون قتالة ويسيرون بها نحو الشام ولا يستطيع جندبة أن يطاول يد الخلافة فيتسلى بزوجة جديدة عن قتالة التى امتنعت عن هشام حتى اغتاظ منها فقتلها . ويعلو شأن جندبة ثم يلحقه الموت ويترك زوجه حاملا التى تلجأ إلى عطاف أخى جندبة ، وكانت زوج عطاف حاملا أيضا فتضع بنتاً سموها ليلى «بوجه مثل القمر الوضاح لو بدت فى الليل المظلم لصار صباح ، كأنها تبتسم عن ثغر منظوم ، قد سرقت قدها من قضيب واستوهبت ردفها من كثيب . . . إلخ» . وفى اليوم نفسه تضع زوجة جندبة ولداً سموه الصحصاح «بوجه صبيح وقد مليح ولسان فصيح ، تبان النجابة من عينيه والشجاعة من كفيه . . . إلخ» . وهنا تبدأ السيرة فتتحدث عن قصة غرامية بطلاها «ليلى والصحصاح» . فتتشابه هذه القصة فى أولها مع قصص العشاق العذريين فقد أحب الصحصاح ابنة عمه وأحبته وأنشد فيها الأشعار ، فلما شاعت وقف عمه عطاف فى وجهه ومنعه من رؤية ليلى فزاد ما به ، وازداد النصح واللوم له . ثم اعتزل وأمه المضارب ، وكانت ليلى تبكى وترسل إلى الصحصاح تبثه الغرام وتنشد فيه الأشعار

ولكن الصحصاح لايكتفى بهذاالموقف السلبى فيخطو خطوة إيجابية فقد « خلا فى بعض الأيام بنفسه وقال : مالى أرى جسدى يذوب ذوب الرصاص ، فلم لا أسرع إلى الخلاص من ضيق الأنفاس ، فإلى متى أكون فى موضع لا أقدر فيه على ليلى ولا أنظر إليها ، وأنا ما فى عيب إلا فقرى ، وما لى ألا أخرج عن أرض بنى كلاب وأتغرب ، فإن مقامى عندهم سواء ، فإن غيابى وحضورى سواء وما لى لا أهج فى البرارى والقفار » . ويعزم الصحصاح على الإغارة على القبائل ويكتب له النجاح ويسوق الغنائم ويشتهر أمره ، فيأكل الحسد قلب عمه . ويخشى من منافسة الصحصاح على رياسة القبيلة ، فيدبر المؤامرات الكثيرة لقتله ، والصحصاح — تعاونه ليلى — يتغلب على كل المؤامرات ولكنه لا يحقد على عمه لأنه يحب ليلى ، بل أنقذ فى إحدى المرات عمه من مخالب الأسد ، فتنزل المحبة بدل العداوة فى قلب العم ، ويوافق على زواج الصحصاح من ليلى ، ولكن الصحصاح يعزم على أن يسوق الكثير من الأموال مهراً لليلى ، فيخرج فى طلب ذلك المهر ومعه عبده نجاح يقطعان الروابى والبطاح ، حتى وصلا إلى واد كثير الغدران وإذا «بصياح عال ، وسيوف مجذبة بأيدى رجال ، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال ، وقد ظهرت جارية مليحة القوام ، وفى يدها سيف أبتر وهى تقول : وحق الركن والحجر ، لئن لم تطلقوا ابن عمى لأحطن هذا السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى » . ويستطلع الصحصاح الخبر وإذا بقصة حب طريفة بطلاها « لبنى وغانم » فقد نشأ غانم مع لبنى ابنة عمه فأحبها وأحبته وكان يعرف أنها له لأن أباه قبل أن يموت أوصى عمه بذلك وترك له المهر . ولكن العم كان شريراً فاستولى على المال وأخذ يعد غانماً الوعود حتى طلب غانم من عمه أن يبر بوعده فقال له : « ياولدى حتى تغنم لنا غنيمة » وهو يريد أن يخرج غانماً إلى الغارات حتى يلقى

حتفه فيزوج ابنته لبعض الملوك وخرج غانم وأخذ يغير على القبائل حتى غنم الكثير وعاد محملا بالمال ، ولكنه فوجئ بأن عمه قد زوج فى غيابه لبنى لملك حضرموت بعد أن أخبر ابنته أن غانماً قدقتل فى إحدى الغارات ويرتاع غانم لهذه الأخبار ولكنه يعزم على أمر فيتنكر فى ثياب راع ويدخل على لبنى خيمتها فتثب إليه فيعتنقان وتعرض عليه فكرة الهرب فيحملها خلفه على فرسه . ولكن القوم ينتبهون فيحيطون بغانم ، ويدور قتال يتكاثرون فيه على غانم ويأسرونه ، ولما عرف الصحصاح سر هذا الصياح هب لنجدة عاشق مثله فتقلد سيفه وقتل الزوج والعم ، ثم زوج غانماً من لبنى ثم سارفى طريقه حتى سمع أيضاً صياح نسوة وإذا بقطاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله الحرام فيسارع الصحصاح لإنقاذهم لأنه كما يقول عن نفسه « ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف » ويتبين له أنه أنقذ مروة بنت عبد الملك التى تخلفت عن الركب مخافة من شاعر يقال له عمر بن أبى ربيعة المخزومى كان يتعرض للنساء ويصف محاسنهن وتعزم عليه أن يسير معها إلى دمشق لينال جائزته ، ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب . ومن الطريف أنه فى غمرة هذه الأحداث لم تغب ليلى عن باله ، فحين يفتح له الخليفة باب التمنى يقول « ما أتمنى إلا مهر ليلى » وحين طلب منه مسلمة بن عبد الملك أن يتمنى على أبيه أن يعطيه ملك العرب يرد على مسلمة : « يامولاى ومهر ليلى أين يكون » . ويجعله الخليفة ملكاً على العرب ويجعل مشيره ابنه مسلمة ، ثم يحمله الاشتياق على العودة إلى ليلى ، وفى طريقه يمر بمضارب الحريث بن الحجاج وإذا به يفاجأ أن ليلى فى هذه المضارب تنتظر أن تزف إلى الحريث ، وأن غانماً صديقه أسير عند الحريث ويتكشف له الأمر ويعرف أن الحريث فى غيابه قد أغار على قومه فلما رأى ليلى هويها فخطبها من أبيها فوافق ، ثم سار بها إلى محلته . وفى

طريقه مر على ابن خالته غانم ولما علم غانم أمر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح الذى اصطنع معه ومع لبنى معروفاً طلب من الحريث أن يرد ليلى إلى قومها فأجابه: « يابن الخالة إن أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع وليلى الكلابية مثل ليلى العامرية وقد أصبحت أنا فى هواها مثل قيس ابن الملوح من بلواها ، والوصال إليها أصلح ومن وصل إليها فقد أفلح ، فأعرض عن هذا النصح ولا تنصح . . . » ثم يسوء الأمر بينهما ويدور قتال ينتصر فيه الحريث ويأسر غانماً ويأخذ ليلى . ولما علم الصحصاح بهذه الأخبار قاتل الحريث وانتصر عليه واستخرج غانماً واستخلص ليلاه. وما زال شأن الصحصاح يعلو فيستدعيه الخليفة لحرب الروم . فيسير إلى بلاد الروم ومعه مسلمة . وفى بلاد الروم أتى إلى جانب النهر ، فرأى عشر جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار . . وكانت بينهن جارية مليحة القوام حلوة الابتسام . . وهى تقول للجوارى: تقدمن حتى أتصارع أنا وإياكن قبل أن يغيب البدر» وكانت تنتصر على كل جارية ثم دخل الصحصاح معها فى صراع انتصرت عليه ، ثم يتبين له أن هذه الجارية الرومية هى الملكة ألوف وتأخذه معها إلى قلعتها وتسمعه من الغناء مايدهشه . ويعود فيخبر مسلمة بذلك ، فيتوله بها مسلمة على السماع وينتهى الأمر بإسلام الملكة ألوف وزواجها من مسلمة. وتمضى السيرة فتتحدث عن قصة حب أخرى للصحصاح ، فقد خرج ذات يوم للصيد فتبع ظبية جميلة ولحقها بقرب حلة من حلل العرب ، ثم خرجت من تلك الحلة فتاة « لم ير الصحصاح مثلها ولا فى بنات الروم شكلها » . فتوله بها ودعته الجارية للنزول فأجاب وبسطت له بساطاً ثم حضر أبوها فبالغ فى إكرام الصحصاح ولما طلبها منه أجاب فتزوجها ومكث عندهم مدة ركبت ليلى فيها الهواجس لغياب زوجها ، ثم عاد إلى ليلى فأخبرها أنه كان فى ضيافة بعض العرب . وظل على علاقته مع أمامة يرسل إليها الهدايا ويذهب إليها دون أن تعلم

ليلى ، حتى وضعت له أمامة ولداً أسمته « مظلوماً » فى اليوم الذى وضعت فيه ليلى ولداً أسمته « ظالماً » . ولكن رجلا يقال له عامر كان يهوى أمامة ويطمع فى أن يتزوجها فخيب الصحصاح آماله فانتهز هذا الرجل فرصة وجود الصحصاح عند أمامة فجاء إلى ليلى فأخبرها بكل شىء ، وفى أثناء عودة الصحصاح من عند أمامة علم بما فعله عامر فخجل أن يرجع إلى ليلى وعزم على أن يقصد إلى الأمير غانم . وهنا تبدأ السيرة فتحدثنا عن قصة التقائه فى طريقه بجنية تمثلت له فى صورة « جارية حسنة القوام ، مليحة الابتسام » فيحبها الصحصاح ويلاقى فى ذلك الصعاب الجمة فقد كانت الجنية تحب بنتاً مثلها من الإنس ، فى الوقت الذى يحب فيه هذه الجنية ابن عمها الذى لا تحبه لأنه ينكح بنات الإنس واستطاع الصحصاح أن يتغلب على كثير من العقبات وأن يتزوج الجنية « ست الغزلان » . . . إلخ.

وهكذا تسلمنا السيرة من قصة إلى قصة ، وكل قصة تتشابك مع الأخرى ، فتتشابك مع حكايات عن المكر ، والشجاعة ، والجن والاحتيال. وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية وأصبح هدفها جذب القارئ والتأثير عليه ، بل لا تجد حرجاً فى مخالفة التاريخ فى أشياء معروفة ومشهورة فمثلا تجعل عمر بن أبى ربيعة شاعراً من أهل الشام ، وتتحدث عن علاقة طيبة بين عبد الله بن الزبير أمير مكة وبين الخليفة عبد الملك بن مروان مع أن التاريخ يفيض فى الحروب التى دارت بينهما والتى انتهت بقتل ابن الزبير. ومن الدلائل على أن السيرة تبغى التأثير على القارئ وتؤثر الأسلوب القصصى — استغلالها لعنصر الطبيعة فى تهيئة الجو وخلق مجال يؤثر على القارئ ، فهى تكثر فى مواقفها من وصف الطبيعة التى تحيط بالعاشقين وصفاً ينمى الموقف ويبرزه ، وان كانت فى بعض هذه الأوصاف تخرج عن المعهود فى البيئة العربية والطبيعة الصحراوية . واقرأ مثلا هذه اللقطة التى تمهد فيها

للحب بين ليلى والصحصاح وانظر كيف تستخدم مظاهر الطبيعة استخداماً مؤثراً ، وفى الوقت نفسه نلاحظ أن هذه الأوصاف بعيدة عن بيئة القبائل العربية . . « وخرجت ليلى فى بعض الأيام مع أترابها للغدير ، تتفرج على الزهر المنير ، وحولها جميع جوارها والبهاء والحسن قد حازها . وكان من الاتفاق أن الصحصاح خرج يتفرج على الربيع والأرض قد اكتست حلتها الخضراء ، وقد فاضت روايح أزهارها ، وهى أزكى من عطر عطارها كما قال فيها :

محاجرها بيض وأحداقها صفر وأجسامها خضر وأنفاسها عطر

(قال الراوى) : هذا والشقائق كالزنوج وقد حاربت فسالت دماها وهى تلمع باحمرارها والأقحوان فى وسطها والسوسبان كأنه أذناب الطواويس فى بسطها والأرض قد فرشت بأنواع الملابس ، فجعل الصحصاح يتفرج على الغدير وينظر إلى ليلى وهى كأنها القمر المنير فهاج جنانه ونطق لسانه . . . »

وتتشابه بعض هذه القصص فى بدايتها ببعض القصص العذرية. فقصة « ليلى والصحصاح » تشبه فى مبدأ أمرها قصة « ليلى وقيس» . ولكن الصحصاح يتطور بشخصيته فيجعل من حبه دافعاً لأن يتغلب على واقعه ويعلو على فقره فيسير فى البلاد طالباً الغنى والثراء ، يدفعه الحب إلى إتيان المعجزات وإلى الوصول إلى المجد بل يصل به الأمر إلى حب الفضائل أو كما يقول « ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف » كما يحدث للصوفى الذى ينتقل من حب المعشوقة إلى حب الذات الإلهية :

وقصة « أمامة الصحصاح » تشبه قصة « لبنى وقيس » فى بدايتها فقد خرج الصحصاح يوماً إلى الصحراء ثم يصل إلى خيام بنى الوحيد ويقع نظره على أمامة فيتوله بها ، وتتوله به وتكرمه ، ويأتى أبوها فيكرمه

أيضاً ، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحد ، فهناك عاشق آخر لأمامة يحقد على الصحصاح فيوشى به إلى ليلى . وهنا تتشابك هذه القصة مع قصة « ليلى والصحصاح » ويستمر هذا التشابك فقد أنجبت أمامة « مظلوماً » وأنجبت ليلى « ظالماً » . وتتحدث السيرة بعد ذلك عن الصراع بين « مظلوم » و « ظالم » الذى يحاول فيه المظلوم تثبيت حقه . . إلخ .

وتذكرنا هذه القصة بقصة « مضاض ومى » التى ذكرها صاحب التيجان على أنها حدثت أيام العرب البائدة ، فقد أحب مضاض ميا ، وباركت الأسرتان هذا الحب ، وانتظرا تحديد يوم ليبنى بها ، ولكن يظهر فى الجو رجل يحب ميا ولا تحبه ، فيغيظه هذا الحب الذى سيتوج بالزواج ، فيشى إلى مى ويخبرها أن مضاضاً يحب أخرى ثم ينشدها من الأشعار التى ينسبها إلى مضاض يبث فيها حبه للحبيبة الأخرى ، فتغتاظ مى وتخبر أباها بذلك الذى تأخذه العزة والأنفة فيفسخ خطبة مضاض ويترك لمضاض وأسرته الديار ويهاجر ، ولما سمع مضاض بالقصة تبعهم ، واستعطف ميا وأنشد فيها الأشعار ، ولكنها لا تأبه له ولا لأشعاره ، فيموت مضاض فى الصحراء عطشاً . وحين يبلغ الخبر ميا تحرم على نفسها الماء وتعزم على اللحاق بحبيبها ، وتوصى أن تدفن بجانبه فى المكان المسمى « موطن الموت » .

وتتشابه قصة « لبنى وغانم » مع قصة « عفراء وعروة » ، فى بدايتها فغانم مثل عروة ينشأ مع ابنة عمه ، فيحبها وتحبه ، ويعده عمه بالزواج ، ثم يخرج — تحقيقاً لرغبة عمه — للغنيمة وكسب الأموال ، وينتهز العم غيابه فيزوج ابنته من رجل ثرى . ولكن القصة هنا تتطور أكثر ، فقد حضر غانم قبل أن تزف « لبنى » ، وتنكر حتى اختطفها وحملها على فرسه ، ولكن القوم ينتبهون له ويقبضون عليه . وهنا يتشابك أمر غانم

مع أمر الصحصاح ، إذ يهب الصحصاح لمعاونة هذا العاشق ، ولا يكون موقف التعاون بين هذين العاشقين موقفاً صغيراً فقيراً ، كهذا الموقف الذى نقرؤه عن التعاون بين القيسين ، أو التعاون بين جميل وكثير ، بل إن الموقف فى هذه السيرة يزيدها ثراء ونمواً ، فقد زرع المحبة بين هذين العاشقين وجعل منهما قوة واحدة متآزرة ، فحين يرى غانم ليلى عند الحريث يحاول خلاصها وتدخل من أجل ذلك فى قتال ينتهى بأسره ولا ينقذه من الأسر إلا صديقه الصحصاح .

ومن الطريف أن تقارن بين الحكايات الحسية التى كان بطلها ابن أبى ربيعة وبين تلك الحكاية مثلا التى ذكرتها السيرة عن الصحصاح والأمير مسلمة بن عبد الملك من جانب ، وبين الملكة ألوف من جانب آخر ، فإن القصة الأخيرة تتوسع فى شرح الجو ، وفى حسن الوصف ، وفى التشابك مع الأحداث الأخرى ، وفى تأثير هذه العلاقة على الحروب التى دارت بين العرب والروم . وفى التعبير عن نظرة العرب إلى بنات الروم إلخ . . .

وإن أردنا مثالا صغيراً نقارن فيه صنيع الكتب العربية القديمة وصنيع السير الشعبية ، فإننى أذكر موقفاً متشابها وهو موقف العاشق من الظباء ، فإن الكتب تكتفى بذكر أن قيساً كان يتعاطف مع الظباء لأنها شبيهة بليلى وأنه كان يطلقها من شراكها . ولكن هذه السيرة تتوسع فى هذا وتصفه وصفاً يثير الشوق والانتباه وتتحدث عن مواقف جذابة للصحصاح مع الغزلان فى قصته مع ليلى ، ومع أمامة ، ومع ست الغزلان.

* * *

(ب) وتتطور هذه القصص أكثر وأكثر حين تنتقل إلى الأدب الفارسى والأدب التركى ، إذ ألف الأدباء بين شتيت الأخبار التى روتها الكتب العربية وأضافوا إليها أشياء من مبتكراتهم ولحموا بين كل

ذلك ، من أجل غاية واحدة تسيطر على جميع أحداث القصة ، وأخرجوا قصصاً ذات طابع فلسفي وفكرى ، وجعلوا الحب العذرى مرحلة مجازية إلى حب آخر أرقى وأبقى وهو الحب الإلهى .

وقد عقد الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه القيم « الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية » — باباً عرض فيه أشهر النصوص الأدبية لكتاب الفرس وشعرائهم الذين ألفوا فى موضوع ليلى والمجنون مثل نظامى ، وسعدى الشيرازى ، وأمير خسرو الدهلوى . وعبد الرحمن الجامى ، وهاتفى .

ومن التجنى أن نطبق قواعد القصة الحديثة التى عرفت فى القرن التاسع عشر على هؤلاء الكتاب الذين عاشوا قبل أن تعرف هذه القواعد ولهذا لن نثور على مانراه مخالفاً لهذه القواعد كتدخل الكاتب فى أثناء القصة لبث أفكاره وفلسفته ، أو التعقيب على فصول القصة بالشرح وبيان المغزى ، أو حشر قصص أخرى فى سياق الكلام . . . إلخ .

ولكن لاشك فى أن هذه القصص أرقى بكثير من أخبار العذريين العرب ، فهى وحدة متسقة مؤلفة لغرض ، تحمل أفكاراً فلسفية ذات تيارات عالمية ، وشخصيات يصدرون عن موقف فلسفى ولهم نظرتهم الخاصة نحو العالم والمجتمعات والملوك والحكام . . إلخ . ولا غرو فقد كان مؤلفوها من خاصة الناس وممن تثقفوا ثقافة فلسفية رفيعة وتقلدوا مناصب راقية وممن وهبوا مشاعر خاصة .

وقصة عبد الرحمن الجامى (١٤١٤ — ١٤٩٢ م) تعتبر خير القصص الفارسية فى هذا الموضوع وأكثرها ابتكاراً ، وأعمقها فلسفة وأروعها تصويراً .

والقارئ لهذه القصة يجد تشابهاً إلى حد كبير بينها وبين ما روى من أخبار العشاق العذريين فى الأدب العربى .

فهيكل هذه القصة يتفق مع ما هو معروف عند العرب من أن شابا

حساساً من قبيلة بنى عامر ببلاد نجد يسمى « قيساً » عشق فتاة تسمى « ليلى » عشقاً عذريا ملك عليه كل حواسه ، وعشقته ، ثم خطبها من أبيها فرفض فاشتد به الوجد . ثم زوجت من شاب من بنى ثقيف فصعب الأمر على قيس وهام على وجهه فى القفار يتعاطف مع الظباء وينشد الأشعار ، وانتهت هذه القصة بوفاتهما بسبب الحرمان والعشق .

وقد تأثر المؤلف بالأخبار التى روتها الكتب العربية تأثراً كبيراً . وكان جميلا من الدكتور محمد غنيمى هلال أن يذكر — فى هوامش هذه القصة التى ترجمها عن الفارسية — الأخبار العربية التى تأثر بها المؤلف .

ولكن الجامى اختار من هذه الأخبار ما يخدم فنه القصصى وسبكها بطريقة مشوقة ووسع فى مواقفها توسيعاً جذاباً . واقرأ موقفه مع صائد الظباء والكلام الذى وجهه لهذا الصائد حتى « ذاب شمع قلبه رقة فرمى بسيفه من يده » .

وكان الجامى موفقاً فى خلق الجو القصصى ، ووصف الطبيعة والبيئة وصفاً رائعاً يخرج به أحياناً عن البيئة والطبيعة العربية ، وكان يورد فى قصته الخطابات المتبادلة بين قيس وليلى . ومن الطريف أن نقارن بين هذه الخطابات وبين الرسائل التى تضمنتها قصة قيس الشعبية كما جمعها مجهول والتى سبق أن أوردنا نموذجا لها ، فإن الخطابات عند الجامى مفصلة عميقة تخدم الغاية ، على حين تكتفى — عند الأديب الشعبى — بالشكوى من العاطفة ، وهذا الفرق بين الرسائل كذلك الفرق الذى لا بد أن يكون بين رجل كالجامى مثقف يهدف إلى غاية من قصته ، وبين رجل من عامة الناس يهدف إلى التأثير على السامعين .

واقرأ بصفة خاصة الفصل الذى يتحدث عن وفاة ليلى فإنه مؤثر ورائع ، وقد ربط المؤلف فيه بين مظاهر الطبيعة وبين نفسية ليلى وهى على رافش الموت « أقبل الخريف بريحه ، فخلعت الأشجار على مهب ريحه

ثيابها ، وتعرت من خلعها الأخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان ، كانت ليلى — تلك الوردة ربيبة المروج — طريحة على الأشواك ، أشواك الموت . . إلخ » .
وجعلت ليلى تلقى بوصيتها إلى أمها بطريقة مؤثرة تثير الدموع « . . . وحين تشد الروح رحلها ، ستمدين من أجلى بساط المأتم ، فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموعى ، ولفى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل على أنى شهيدة الحب . . . ولست فى حاجة إلى عصابة على الرأس فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق . . . وأنزلينى من ضريحه الطاهر ، وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه . . واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون لرأسى تاجاً ، وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر ، ويومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه » .

وفوق هذا ، فإن الجامى لم يقف عند حد الحب العذرى كما هو وارد فى الأخبار العربية ، بل جعل هذا الحب مجازاً لحب أسمى هو الحب الإلهى « حذار أن تظن أن المجنون قد فتن بحسن المجاز . فعلى الرغم من أنه قد صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى ، فقد رمى آخراً بالجام من يده فتحطم ... فتفتحت فى بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة ... » وقد كانت هذه الغاية هى التى تسير أحداث القصة عند الجامى ، وتجعلها تلون بعض شخصيات القصة ، فقيس معد لهذا منذ البداية ، لأنه « من عجنت طينته بالعشق وخطت على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو أمضى عمره فى غسله منها ومحوه » . وزوج ليلى وقع فى حبها وعاش من أجلها ولم يجعله هذا الحب يحقد على قيس أو ليلى « ولم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها . . . وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى ، متخذاً منه زاداً لأخراه » .

(حـ) وفى الأدب العربى الحديث ، دخلت هذه القصص إلى مجال الفن الخالص ، ورواية ليلى والمجنون لاحمد شوقى تعتبر رائدة فى هذا المجال .

وقد اعتمد فى روايته تلك على الأخبار التى روتها الكتب العربية وبخاصة الأغانى ، ولكنه ألف بين تلك الأخبار بطريقة فنية وأضاف إليها أشياء من عنده كمنظر الجن فى الفصل الرابع ، وخالف التاريخ فى بعض الأحيان وذلك كإسناده دور الوساطة الفعلية إلى ابن عوف ، والتاريخ يذكر أن ابن عوف هم بهذه الوساطة ولم يفعل ، إنما الذى فعل ذلك هو نوفل بن مساحق ، ثم خرج لنا بعد ذلك بمسرحية فنية ، فيها أدوار متعددة كدور الصديق الذى يقوم به زياد ، ودور الغريم الذى يقوم به منازل ، ودور المنافق الذى يقوم به نصيب . وفيها تحليل . وفيها قوة وغير ذلك من أمور تتطور بهذه القصة من مرحلة السذاجة والشعبية إلى مرحلة العمق والفن .

وقد وقف بمسرحيته عند حد الحب العذرى كما روت الكتب العربية ، ولم يصنع صنيع شعراء الفرس والترك ، فيتحدث عن حب آخر وهو الحب الصوفى ، وإن كان شوقى يصف ليلى وصفاً فيه مثالية ، ويظهرها بصورة فيها هيبة وجلال ، استمع إلى حديث « ورد » الزوج إلى قيس يشرح له مأساته مع ليلى :

منذ حوت دارى ليـ لى ماخلوت من ندم
كانت إطافتى بها كالوثنى بالصنم
وربما جئت فرا شها فخانتنى القدم
كأنها لى محرم وليس بيننا رحم

أو قوله :

فشعرك ياقيس أصل البلاء لقيت به وبليلى الضلالا

كساها جمالا فعلقتها فلما التقينا كساها جلالا
إذا جئتها لأنال الحقوق نهتنى قداستها أن أنالا

* * *

وخلاصة الفصل أن تطور قصص العشق كان ضئيلا ، لأن الراوى لم يكن على وعى بالعمل الذى لا ينبغى أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما .

وإنما ظهر التطور بوضوح فى السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك، ثم بصورة أكثر وضوحاً فى الأدب العربى الحديث .

الفصل الرابع

من قصص الحب

يعتبر هذا الفصل تطبيقاً للدراسة السابقة ، إذ سأذكر فيه نماذج كاملة لهذه القصص ، اعتمدت فيه على الكتب العربية القديمة مثل التيجان لوهب بن منبه ، ومصارع العشاق لابن السراج . وتزيين الأسواق لداود الأنطاكي .

وسيتبين من هذه النماذج أن أدبنا العربي غنى بهذا النوع من القصص الجذاب وأن الأمر يحتاج إلى حساسية خاصة تتلمس هذه القصص من بين بطون الكتب ، وتتفطن إلى هذا النوع من الأدب السلس السهل الذى لا ينبغى أن تقل العناية به عن العناية بالشعر والرسائل .

وقد ذكرت ثلاثة نماذج فقط ، ينتهى النموذج الأول بنهاية حزينة وينتهى النموذج الثانى بنهاية سعيدة .

والنهاية فى القصة الفنية القصيرة الحديثة تعتبر أهم ركيزة ، فهى الشىء الذى يلوح فى ذهن القاص الفنان فى كل حركة من حركات القصة إذ يستجمع كل خيوط القصة ويعقد ما شاء له التعقيد ويضع بينها علاقات . ثم إذا بتلك الخيوط تصل إلى النهاية وصولا طبيعياً ، فتتفك كل عقدها ، وتمنطق — بطريقة فنية — كل علاقاتها ، ولهذا سماها البعض « لحظة التنوير » "Moment of Illumination". أى اللحظة التى تبرز كل معنى سبقها وتلقى الضوء عليه .

فالنهاية مع أنها آخر شىء فى القصة ، إلا أنها عند الفنان الناجح سيف مصلت على كل أجزاء القصة ، يبتر منها ما لا أهمية له ولا فائدة

منه ، ويبارك ما يخدم النهاية ويحرق البخور فى محرابها .

وهذا يعنى أن النهاية التى هى فى ذهن القاص تتحكم فى بناء القصة ونسجها نسجاً معيناً لا نرضى إلا به . أو بعبارة أخرى : إن النهاية نتيجة حتمية لبناء خاص ، فهى ليست من اختيار القاص ، له أن يضع نهاية أو يحذف أخرى . بل هى أمر مكتوب عليه ، فرضته أحداث القصة ومنطقها الخاص .

ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهاية ، مفهوماً لدى القاص القديم بوجه عام فقد كان يترك قصته تسير بدون رقابة ، حتى تحط رحالها وتختار النهاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها لها السامعون .

ولعلكم قرأتم خبر ذلك الرجل الذى كان يستمع إلى سيرة عنترة ، ثم وقف به القاص عند أسر عنترة . وانفض السامر . ولكن الرجل لم يهدأ له بال ، وذهب إلى منزله مغضباً ، وقدمت له زوجه الطعام فرفضه وقام ولم يهدأ حتى رجع إلى منزل القاص وخبط على بابه بالليل ، فوجده نائماً فأيقظه ، وقال له : تنام وقد سجنت الرجل . وما زال به حتى قرأ له القصة وأخرج له عنترة من السجن ، ووقف به عند نهاية ارتضاها ، مما أسعد الرجل وجعله ينفح القاص بالدراهم ويعود إلى منزله راضياً .

إنما عرفت تلك الأهمية للنهاية فى العصر الحديث عند اكتشاف القالب الفنى للقصة القصيرة . والسيد الأول للقصة القصيرة "Poe" يقول : « يجب ألا تكتب أية عبارة — بطريقة مباشرة أو غير مباشرة — منبثقة عن ميل لم يكن موجوداً فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة كما هى مرتسمة فى الذهن واضحة المعالم غير مهزوزة . . . [1] » .

وعلى ذلك فلا ينبغى أن نتوقع فى قصص الحب إلا أن تكون نهايتها

---

(١) Encyclopeadia Britanica "Short Story".

مرتجلة ، تخضع لمزاج القاص ، ولمزاج المستمع ، ولم تكن تتحكم فى بناء القصة . فالقصة التى تنتهى نهاية سعيدة لا تختلف فى بنائها وأحداثها ونفسيات شخصياتها ، عن القصة التى تنتهى نهاية قاتمة . ولا يحتاج هذا إلى شىء أكثر من أن يقول الراوى « وغدونا فى اليوم الرابع نستعدى أثره حتى وجدناه فى واد كثير الحجارة خشن ، وهو ميت بين تلك الحجارة ، فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه » (١). أو أن يقول : « وضربت القبة وسط الحى وأهديت إليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت غدوت فقمت بباب القبة فخرج إلى وقد تبين الجذل فى وجهه » (٢) .

والقصص التى تنتهى نهاية سعيدة كانوا يضعونها تحت عناوين توحى بذلك ، فابن الجوزى يعنون بقوله : « سياق ذكر جماعة حصل لهم مرادهم من تزوج النساء المحبوبات أو ملاك الجوارى » ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة كقصة عمارة جارية عبد الله بن جعفر . وداود الأنطاكى يعنون « ذكر من حظى بالتلاق ، بعد تجرع كأس الفراق » ، وهذا القسم هو الذى ترجمه صاحب الأصل « بمن ساعده الزمان بمطلوبه ، حتى ظفر بمحبوبه وذلك إما بشفاعة أو جاه أو حيلة أو عناية أزلية » ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كالقصة التى يقصها معبد المغنى عن شاب « خرج وقد سال العقيق مع فتية للتنزه ، فإذا هم بنسوة ، بينهن فتاة ، قد فضحت الشمس ، بعينين لا يرتدان إلا باقتناص

---

(١) نهاية قصة المجنون : انظر الأغانى ٢ / ١٣ « طبعة ساسى » .

(٢) نهاية القصة التى قصها ابن أبى ربيعة فى مجلس تذاكروا فيه أخبار العذريين عن صاحبه أبى مسهر وما جرى له بسبب العشق . وتلك النهاية تتفق مع مزاج عمر وميله إلى الجانب السار فى الحياة . انظر القصة فى مصارع العشاق ص ٥٠ .

النفس » فعلقها ، ثم خطبها إلى أهلها فأبوا . فلما علم ابن جعفر بقصته ركب إلى الخليفة وقص عليه القصة فكتب إلى عامله بالحجاز بأن يسيرهم إليه ثم أمهرها الخليفة وزوجها منه . وغير ذلك من قصص سعيدة .

* * *

وإذا كان لا يرضى نهم القارئ هذه النماذج الثلاثة التي ذكرتها ، فليسمح لي أن أحيله إلى الفصل الأخير من رسالتي للماجستير ، فقد أوردت فيه نماذج كثيرة ثرية ، ولم أذكرها صماء لا تبين ، بل استنطقتها فحللتها ونقدتها وقارنتها بما يشبهها من نماذج أخرى .

١ ــ موطن الموت :

هذه القصة قد وردت فى كتاب «التيجان» لوهب بن منبه، وهى ترجع إلى الفترة القديمة التى يسميها المؤرخون «العرب البائدة». والأخبار التاريخية عن هذه الفترة قليلة ، والقصص التى رويت عن هذه الفترة ــ وإن لم تكن صادقة تاريخيا ــ فإنها تفيدنا فى أنها تعكس الروح العربى وتشف عن نفسيته .

وهذه القصة ذكرها الحارث بن مضاض الجرهمى ، فإن هذا الرجل حين عصاه قومه ، ورموا بالتابوت الذى فيه صحف الزبور إلى مزبلة من مزابل مكة هلكوا. فخرج الحارث هارباً يجول فى الأرض هما وغما ووحشة لما نزل بقومه وطالت غربته نحو ثلثمائة عام ، إلى أن التقى فى غربته بإياد بن نزار ، وكان موعوداً أن يرد الحارث إلى مكة بعد طول غربته . وفى أثناء طريق عودتهما إلى مكة أخذ الحارث يقص على إياد قصصاً عجيبة . وفى يوم مرا بمكان، فقال الحارث لإياد : أنزلنى . فأنزله . فقال : أقصد بى الزيتونتين، فقصد به نحوهما ، وبينهما صخرة عظيمة منخوتة فطاف بها طويلا ، ولمسها بيديه علوا وسفلا ، ثم قال لإياد : يا بنى هذا الموضع يسمى «موطن الموت» ، ثم بكى حتى غسل دمعه وجهه ولحيته وأنشأ يقول شعراً . ثم ابتدأ بذكر السبب الذى من أجله سمى بموطن الموت ، وجعل يقص قصة ابن أخيه مضاض وحبه لمى .

ولنتركه يكمل القصة بأسلوبه السهل المسترسل :

« لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك ، لم يكن بمكة ولا ما والاها أجمل منه، وأنه كان من بنات عمه من بيت الملك جارية تسمى ميا بنت مهليل بن عامر صاحب الشعب ، وكانت معه فى نسق واحد ، وكانت أجمل من رأته العيون ، ففتن بها وفتنت به وشب معها وشبت معه فى حى

واحد ، وصان منزره عنها ، وكان ذلك خيفة الطعن فى الملك ، فلما بلغ بهما الهوى مبلغه ، وحذرا من الفضيحة أو السقم والموت بعثا إلى . فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما إلى بعض ، فأرسلت إلى مهليل بن عامر بن عمرو وأعلمته ما كان منهما فقال لى : أيها الملك ، أنت وليهما ، افعل بهما برأيك وزوجها منه . وقد هجم علينا الشهر الأصم رجب وكنا لا نحدث فيه حديثاً غير الطواف والعمرة حتى ينسلخ . فقلت له : يا مهليل ينصرف رجب وأفعل . وإن مضاضاً اعتمر وطاف ، وبلغ ذلك ميا ، فأقبلت تعتمر وتطوف ، متنكرة غيرة على مضاض أن يتعرض له متعرض. ومضاض لا يعلم بمكانها . وإن قيس بن سراج الجرهمى من رهط حقير فى جرهم رأى ميا فهويها وهى لا تعلم ، ومضاض لا يعلم بذلك . وكان قيس يراعى أحوال مى . فلما بلغه أنها اعتمرت خرج إلى الطواف ليقضى لبانته من النظر إلى مى فكانت مى تطوف وتراعى أحوال مضاض ومضاض لا يعلم بذلك ، ويطوف قيس فى إثر مى ، ومى لا تعلم بذلك . وإن رقية بنت البهلول الجرهمى طافت ، وكان يوماً قائظا ، فطافت رقية بنت البهلول فعطشت عطشاً خافت على نفسها منه الموت واحتشمت أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم ، فلما أبصرت مضاضاً نادت به لشبيبته وحملها عليه حالة الشباب ، فقالت له : يا مضاض ، اسقنى جرعة من ماء فإنى خشيت أن أموت ظمأ ، فأمر فناولها ، فرأته مى حين ناول رقية الماء ، فاشتعل قلبها غيرة . فسقطت مغشيا عليها وجعلت ترعد ولا تدرى ما هى فيه . ونظر إليها الحجيج فقيل لهم : عرضت. وإن ميا أدركت نفسها فقامت ، فلم تستطع الطواف وولت إلى منزلها . وكان منزل أبيها مهليل فى سفح جبل بمكة فأتت أباها فقال لها : ما الحجيج يا بنية افترق . فقالت له : لم يفترق الحجيج يا أبة ، ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواى واستعانتى ، لأنك عمادى ورجائى . فقال : فمالك يا بنية. قالت

له : انصدع قلبي صدعاً لن يلتئم بعدها صدعه . قالت : يا أبت ؛ إن مضاضاً ابن عمي دعا قلبي فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى ، قالت له : رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق روحي جسمي أسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمري ، ورأيت أنه بدل حسباً بحسب وخطراً بخطر . ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر . ولا رقية بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر . قال لها أبوها : صدقت ، لا ورب الكعبة ، ما يكون ذلك . قالت له : يا أبت لن والله أقيم بموضع يكون فيه مضاض بن عمرو أبداً ، وإنى راحلة إلى أخوالى ، وأنشأت تقول :

مضاض ، غدرت الحب والحب صادق
وللحب سلطان يعز اقتداره
غدرت ، ولم أغدر وللعهد موثق
وليس فتى من لا يقر قراره
إذا جاءنى ليل تململت بالذى
دعا كبدى حتى تمكن ضاره
أبيت أقاسى النجم ، والليل دامس
وللنجم قطب لا يدور مداره
إذا غاب لم أشهد وكان مجلسه
مجلسى ، وداري حيثما كان داره
إذا هاج ما عندى لأول عهده
علاه اشتعال ما يطاق استعاره

وإن قيس بن سراج أتاها وأنشأ يبث لها أخباراً ليفرق بينها وبين مضاض لما رأى من غيرتها حين سقطت بالطواف ، فعمل شعراً على لسان مضاض وشعراً على لسان رقية وقال لها : يا مى ، رأيت عجباً . قالت : هو ؟ قال : رأيت مضاضاً واضعاً كفيه على قرون رقية بنت البهلول فى

الطواف ، وهو يدافع عنها أهل الطواف سانحاً وبارحاً ، ثم استسقته ماء ، فناولها سقاء بيده فشربت وناولته وأنشأ مضاض يقول : قالت : ما الذى قال يا قبيس ؟ قال لها : قال :

رقية قلبى قد تباين صدعه
وللحب منى شاهد ودليل

رأيت الهوى يهوى والوصل واصل
فهل لك أن يلقى الخليل خليل

قال : فأجابته رقية ، فقالت :

أصون الهوى والطرف منى كاتم
ولا يعلمون الناس إذ ذاك ما دائى

سوى أننى قد فزت منك بنظرة
تجرعت عذب الحب منها مع الماء

قال : فالتمستها حمية قول قبيس ، وجعلت تقبل بين خيام الحى مرة وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه . ثم قالت لأبيها : نذرت لله نذراً يا أبت ، لنرحلن غداً إلى أمج ذات الضال وأنزل مع جسر بن قين . قال لها أبوها : نعم . وحملته الحمية والأنفة على ذلك . لما استبدل بخطره وقدره ، وإن رجلا من أهل الحى بلغ مضاضاً فأعلمه بما قال قبيس وبما قالت مى ، فركب فرسه وأخذ سيفه ، وخرج يريد قتله ، وأنذر قبيس بمكان مضاض فخرج هارباً فى البيداء ، فما أدرى أى الأرض انطوت عليه إلى يومنا هذا . فلما لم يجد مضاض من قبيس أثراً وأعجزه هرباً رجع إلى مى ، وأصاب أهل الحى يحتملون ، وأصاب ميا راكبة على نجيب فى هودجها ، فقصدها . وقال : يا مى ، أعيذك بالله أن تغدرى من لم يغدرك ، وهذا موقفى بين يديك ، فجودى لمن لم يجترم جرماً ، وقال :

يعشى عن الناس لحظ طرفى
وعنك يا مى غير عاش
أتهجريني بغير ذنب
وتقتليني بقول واشي

قال : فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعاً وتبعها وهى تقول :

كذبت هوى وخنت إذاً يميني إذا طالبت أثراً بعد عين
سأرحل والفؤاد له وجيب وأقطع للنوى بينا ببين
إذا شط المزار عن ابن عمرو نزلت بقرب جسر بن قين
كأنى حين أطلبه وصالا ويصرمه أطالبه بدين
تعست إذاً وخان أبى وأمى وبعت بعارها زينى بشين

وتجهمته . . . وتمادى الحى للرحلة ومضوا وافترق الحى من سفح الجبل . . . وإن مضاضاً لما ظعن الحى رجع ، فركب ناقة وبدل زيه وخرج فى طلب الحى ، وكان له خليلان من بنى عمه عمرو وعامر ، فركبا فى إثره حتى لحقاه فقالا له : يا مضاض ، خالفت تاج الملك بطلاب الهوى . قال لهما : غلب الهلع التجلد والجزع الصبر والهوى حاكم والقلب محكوم عليه . . . »

ثم جعل يدور حول أمج من حى إلى حى وهو ينشد الشعر ، ثم بلغه أن أباها يريد الرحيل إلى مكة فاستبشر بذلك وأنشد شعراً ، وفى طريقهم إلى مكة جعل يتعرض لها مرة عند موضع يقال له ابجار وهو ينشدها شعراً يبثها عاطفته ومرة عند موضع يقال له الدار أنشدها فيه أبياتاً يسترضيها وينبهها بأنه إذا لم يكن منها وصل فسيكون موطن الموت داره » .

قال الحارث :

« فولت عنه وتجهمته وقالت له : والله لا ألقاك بها أبداً » ، فولى إلى صاحبيه وقال : « والله لا أشرب بعدها ماء » وأنف أن يدخل مكة ،

ومضى معه صاحباه يستعطفانه على شرب الماء ، فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه العطش وانصدع قلبه فى صدره لما خامره اليأس حتى بلغ هذا الموضع ، فغشيه الموت فأناخ ناقته ، وأخذ رأسه عمرو ، وجعله فى حجره وقال له : قصفك الدهر يا مضاض . فمتح عينيه وقال له : قصفنى قبيس . . . »

ثم جعل ينشد أبياتاً من الشعر إلى أن مات ، وأوصى أن يدفنه عمه الحارث بين الدوحتين .

أما ما كان من أمر مى ، فقد لقيتها رقية وأخبرتها بالحقيقة ، وأنه لم يكن بينها وبين مضاض شىء ، وأن الشعر منحول نحله قبيس ، فندمت مى ، وبعثت إلى مضاض فنعى إليها .

قال الحارث :

« فتوارت عن الحى إلى تلعة أمام الحى ، وتبعتها جارية من بنات الحى يقال لها سلمى بنت عمها كانت مؤانسة لها مطلعة على أسرارها ، فوجدتها ساكتة تنظر يميناً وشمالا كأنها جنت . قالت : يا مى ، أراك هبلاء وقد مات مضاض . قالت لها : قسوة قد أدركتنى منعتنى الدمع ، وفى الدمع راحة لو أصبت إليه سبيلا ، فلما سمعت نساء الحى ينتحبن وعلت أصواتهن أجابها الدمع وبكت ، وأنشأت تقول شعراً :

أيا موطن الموت الذى فيه قبره سقتك الغوادى الساريات الهوامع
ويا ساكنا بالدوحتين مغيبا لئن طرت عن إلف ، فإلفك تابع

ثم آلت على نفسها أيضاً ألا تشرب الماء ، وفى اليوم الثالث غشيها الموت ، فولت إلى الربوة ، فلما بلغت أعلاها سقطت .

قالت سلمى الجارية :

« فوضعت يدى على فمها فوجدته كالحجر الصلد ، فرفعت رأسها إلى بلسان غليظ وبصوت خفى ، فقالت بكلام ضعيف لا أكاد أبينه :

« قولى لأبى يدفننى بالدوحتين بجوار مضاض » .

حرصت أن أنقل لك نماذج طيبة من هذه المأساة التى أخذت الأجيال تتناقلها وتسمى المكان الذى حدثت فيه بموطن الموت .

وقد رأيت من هذه القصة كيف أن العرب من قديم يعرفون الحب العذرى ، خلافاً لكثير من الباحثين مثل الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء والدكتور محمد غنيمى هلال فى الحياة العاطفية الذين يرون أن الحب العذرى قد وجد بعد الإسلام الذى نقى القلوب وصفى العاطفة .

وقد رأيت كيف أن العرب يتعاطفون مع العاشق الصادق ويعيشون مأساته ، ويحقدون على الواشى والعذول فقد ابتلعت الصحراء قبيساً فلم يظهر له أثر .

وانظر إلى وظيفة الشعر الذى يحلى هذه القصة ، وكيف يقوم بوظيفته حين يبلغ الصراع أوجه والعاطفة ذروتها ، فيخلق جوا مناسباً لهذا الجو ، ويحلق فى آفاق لا يستطيع النثر العادى أن يحلق إليها .

وأحياناً نقع على قطع نثرية أنيقة تختلف عن الأسلوب العادى للقصة ، وتشبه قطعة من الماس تتألق فى ثوب بسيط جميل ، وتطالعنا هذه القطع حين يكون الموقف غير عادى كأن تكون البطلة أو البطل متأزماً . وذلك مثل قول مى تشكو إلى أبيها موقف مضاض حين رآها أسرعت بالعودة قبل الحجيج : «لم يفترق الحجيج يا أبت ، ولكن الموت لا يكتم وإليك شكواى واستعانتى ، لأنك عمادى ورجائى . . . انصدع قلبى صدعاً لن يلتئم بعدها صدعه . . . إن مضاضاً بن عمى دعا قلبى فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى . . . رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ، ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين ، ثم تداركت أمرى ورأيت أنه بدل حسباً بحسب وخطراً بخطر ، ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل ابن عامر ، ولا رقية بنت البهلول ميا بنت مهليل بن عامر» . أو كقول

مضاض لصاحبيه وهما يلومانه على جزعه وأنه أضاع تاج الملك بطلاب الهوى فقال لهما : « غلب الهلع التجلد والجزع الصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه . . . »

وانظر إلى الختام المؤثر الذى انتهت به هذه المأساة وكيف صور القاص هذه النهاية تصويراً مؤثراً فقد رفعت مى رأسها وقالت للجارية بلسان غليظ وصوت خفى : قولى لأبى يدفنى بالدوحتين بجوار مضاض . ثم قضت وهى تنشد الشعر .

٢ – كتمت الهوى :

هذه القصة قد وردت فى كتاب « مصارع العشاق » وبطلها شاب حسن ، وحيد والديه ، وقد رزق به والده بعد صبر طويل أيس فيه أن يكون له خلف ، وقد أحب هذا الشاب ابنة عمه ، وكنا نتوقع وقد نشأ مدللا مترفا أن يضعف أمام حبه فيبوح به ، ولكنه على عهد الأخلاق العربية كتمه حتى وقع مريضاً وتحايل عليه الأهل فعرفوا سر مأساته ، ولكن الفتاة العربية – مع أنها تحبه – لا ترضى أن تبادله الحب من خلف أهلها .

قال الهيثم بن عدى :

إن مرة بن مصعب القيسى كان له أخ يقال له فهر ، وكانا ينزلان الحيرة ، وإن فهراً ارتحل بأهله وولده فنزل بأرض السراة وأقام مرة بالحيرة . وكانت عند مرة امرأة من بكر بن وائل، ولبثت معه زماناً لم يرزق منها ولداً حتى يئس من ذلك ، ثم أتى فى منامه ليلة فقيل له : إنك إن باشرت زوجتك من ليلتك هذه رأيت سروراً وغبطة ، فانتبه فباشرها فحملت فلم يزل مسروراً إلى أن أتمت أيامها ، فولدت له غلاماً فسماه إياساً لأنه كان آيساً منه ، فنشأ الغلام حسناً ، فلما ترعرع ضمه أبوه إليه وأشركه فى أمره ، وكان إذا سافر أخرجه معه لقلة صبره عنه ، فقال له أبوه يوماً : يا بنى قد كبرت سنى ، وكنت أرجوك لمثل هذا اليوم ، ولى إلى عمك حاجة فأحب أن تشخص فيها . فقال له إياس : نعم يا أبت، لك ألف عين وكرامة ، فإذا شئت فأنا لحاجتك . فأعلمه الحاجة ، فخرج متوجهاً حتى أتى عمه ، فعظم سروره به وسأله عن سبب قدومه ، وما الحاجة ؟ فأخبره بها ووعده بقضائها . فأقام عند عمه أياماً ، ينتظر فيها قضاء الحاجة ، وكان لعمه بنت يقال لها صفوة، ذات جمال وعقل ؛ فبينا هو ذات يوم جالساً بفناء

دارهم ، إذ بدت له صفوة زائرة بعض أخواتها ، وهى تهادى بين جوارلها . فنظر إليها إياس نظرة أورثت قلبه حسرة ، وظل نهاره ساهراً ، وبات وقد اعتكرت عليه الأحزان ، ينتظر الصباح ، يرجو أن يكون فيه النجاح . فلما بدا له الصباح خرج فى طلبها ينتظر رجوعها ، فلم يلبث أن بدت له ، فلما نظرت إليه تنكرت ، ثم مضت فأسرعت ، فمر يسعى خلفها يأمل منها نظرة فلم يصل إليها وفاتته فانصرف إلى منزله وقد تضاعف عليه الحزن واشتد الوجد ، فلبث أياماً وهو على حاله ، إلى أن أعقبه مرض أضناه وأنحل جسمه وظل صريعاً على الفراش ، فلما طال به سقمه وتخوف على نفسه وبعث إلى عمه لينظر إليه ويوصيه بما يريد ، فلما رآه عمه ونظر إلى ما به سبقته العبرة إشفاقاً عليه فقال له إياس : كف جعلت فداك يا عم ، فقد أقرعت قلبى . فكف عن بعض بكائه ، فشكا إليه إياس ما يجد من العلة . فقال له : عز والله يابن أخى ، ولن أدع حيلة أطلب الشفاء لك . فانصرف إلى منزله وأرسل إلى مولاة له كانت ذات عقل فأوصاها به وبالتعاهد له والقيام عليه . فلما دخلت المولاة عليه فتأملته علمت أن الذى به عشق . فقعدت عند رأسه ، فأجرت ذكر صفوة لتستيقن ما عنده . فلما سمع ذكرها زفر زفرة . فقالت المرأة : والله ما زفر إلا من هوى داخل ولا أظنه إلا عاشقاً ، فأقبلت عليه كالممازحة له ، فقالت له : حتى متى تبلى جسمك ، فوالله ما أظن الذى بك إلا هوى . فقال لها إياس : يا أمة ، لقد ظننت بى ظن سوء فكفى عن مزاحك . فقالت : إنك والله لن تبديه إلى أحد هو أكتم له من قلبى فلم تزل تعطيه المواثيق وتقسم عليه إلى أن قالت له : بحق صفوة . فقال لها : أقسمت على بحق عظيم . ولو سألتنى به روحى لدفعتها إليك ، ثم قال : والله يا أمة ما عظم دائى إلا بالاسم الذى أقسمت على بحقه الله الله فى كتمانه . وطلب وجه الحيلة فيه . فقالت : أما إذا أطلعتنى عليه فسأبلغ فيه رضاك إن شاء الله . فسر بذلك وأرسل

معها بالسلام إلى صفوة . فلما دخلت عليها ابتدأتها صفوة بالمسألة عن الذى بلغها من مرضه وشدة حالته ، فاستبشرت المولاة بذلك ، ثم قالت : يا صفوة ما حالة من يبيت الليل ساهراً محزوناً يرعى النجوم ويتمنى الموت ؟ فقالت صفوة : ما أظن هذا على ما ذكرت بباق . وما أسرع منه الفراق . ثم أقبلت على المولاة فقالت : إنى أريد أن أسألك عن شىء ، فبحقى عليك إلا أوضحته . فقالت : وحقك ، إن عرفته لا كتمتك منه شيئاً . قالت : فهل أرسلك إياس إلى أحد من أهل وده فى حاجة ؟ فقالت المولاة : والله لأصدقنك . والله ما جل داؤه وعظم بلاؤه إلا بك . وماأرسلنى بالسلام إلا إليك ، فأجيبيه إن شئت أو دعى . فقالت : لا شفاك الله ، والله لولا ما أوجب من حقك لأسأت إليك . وزجرتها ، فخرجت من عندها كئيبة ، فأتته فأعلمته فازداد على ما كان عنده من مرضه وأنشأ يقول :

كتمت الهوى حتى إذا شب واستوت
قواه ، أشاع الدمع ما كنت أكتم

فلما رأيت الدمع قد أعلن الهوى
خلعت عذارى فيه ، والخلع أسلم

فيا ويح نفسى ! كيف صبرى على الهوى !
وقلبى وروحى عند من ليس يرحم

قال : ثم إن عمه دخل عليه ليعرف خبره ، فقال : يا عم ، إنى مخبرك بشىء لم أخبرك به حتى برح الخفاء ولم أطق له محملا فأخبره الخبر فزوجه وبرأ من علته » .

٣ ــ عظيم ومنكود :

لقمان بن عاد رجل عملاق ، و يتحدث كتاب التيجان وغيره من الكتب الأدبية عن عظمته ، وأنه أعطى عمر سبعة أنسر ، والنسر أطول الطيور عمراً ، فكان لقمان يراعى النسور ويعتنى بها . وكلما مات نسر اهتم بالنسر الثانى . وفى كتاب التيجان أشعار مؤثرة ورقيقة تنشد حول كل نسر من الأنسر السبعة .

ولكن هذا الرجل العظيم العملاق الذى ملأ الدنيا أشعاراً وحكمة ، كان مبتلى بالنساء كلما تزوج امرأة خانته على حد تعبير ابن السراج .

وقد مر بتجارب مريرة مع المرأة صبغت نظرته نحو النساء بلون خاص فما أكثر حديثه عن مكر المرأة وكيدها ودهائها ، وكان يخرج من كل تجربة بحكمة ينشدها الناس وترددها الأجيال .

خرج لقمان بن عاد يجول فى قبائل العرب ، فنزل بحى من العماليق فبينا هو كذلك إذ ظعن القوم ، فظعن فيهم ، فسمع بامرأة تقول لزوجها : فلان ، لو حملت سفطى هذا فإن فيه من متاع النساء ما لا بد لهن منه ، ولعل البعير يقع فينكسر ، وذلك من لقمان بمنظر ومسمع . فقال : أفعل . فاحتمله على عاتقه . فلما انحدر وجد بللاً فى صدره . فشمه فإذا هو بريح بول قد جاء من السفط الذى على رأسه ، ففتح السفط فإذا هو بغلام قد خرج منه يعدو . فلما نظر لقمان قال : يا إحدى بنات طبق ــ و بنات الطبق أن تأتى الحية السلحفاة فتلتوى عليها فتبيض بيضة واحدة فتخرج منها حية شبرا أو نحوه لا تضرب شيئاً إلا أهلكته ــ فتبعه لقمان حتى لحقه فجاء به واجتمع الناس إليه وقالوا : يا لقمان احكم فيما ترى . فقال : ردوا الغلام فى السفط يكون له مثوى حتى يرى ويعلم أن العقاب فيما أتى ، وتحمله المرأة بفعلها ، حملوها ما حملت زوجها ثم

شدوه عليها . فإن ذلك جزاء مثلها » . فعمدوا إلى الغلام فشدوه فى السفط ثم شدوه فى عنق المرأة وتركوهما حتى ماتا .

فأتى لقمان قبيلة أخرى فنزل بهم ، فبينا هو كذلك إذ بصر بامرأة قد قامت عن بنات لها . فسألت إحداهن : أين تذهبين ؟ فقالت : إلى الخلاء ، ثم خرجت إلى بيوت الحى . فعارضها رجل ، فمضيا جميعاً ، ولقمان ينظر فوقع الرجل عليها وقضى حاجته منها . فقالت المرأة : هل لك أن أتماوت على أهلى فإنما هو ثلاثة أيام أكون فى رجمى ثم تجىء فتستخرجنى فتتمتع ؟ فقال الرجل : افعلى — وكان اسمه الخلى وزوج المرأة اسمه الشجى — فقال لقمان « ويل للشجى من الخلى » فذهبت مثلا . فلم تلبث المرأة إلا أياماً حتى تماوتت على أهلها . وكان الميت منهم إذا مات تجعل فوقه الحجارة ولم تكن إذ ذاك قبور . فلما كان اليوم الثالث جاءها خليلها . فأخرجها وانطلق بها إلى منزله وتحول الحى من ذلك المكان ، وخافت المرأة أن تعرف ، فجزت شعرها وتركت لنفسها جمة . فبينا هم كذلك إذ خرجت بنات المرأة فإذا هن بامرأة جالسة ذات جمة . فقالت الصغرى : أمى والله . قالت الوسطى : صدقت والله . قالت المرأة : كذبتما ما أنا لكما بأم . قالت الكبرى : صدقت والله ، لقد دفنا أمنا غير ذات جمة ما كان لأمنا إلا لمة . قالت الصغرى : هبك أنكرت أعلاها أما تعرفين أخراها ، فتعلقت بها . فقالت الأم : « صغراهن مراهن » فذهبت مثلا . واجتمع الناس وجاء زوج المرأة . فارتفعوا إلى لقمان فقالوا : احكم بيننا . فقال لقمان :

* عند جهينة الخبر اليقين *

فذهبت مثلا وكان يلقب بجهينة ، فقال لقمان للمرأة : أخبرك أم تخبرينى ؟ قالت : بل قل . قال : إنك قلت لهذا إنك متماوتة على أهلى ، فإذا دفنونى فى رجمى جئت فاستخرجتنى وأتنكر لهم فلا يعرفونى فتنعم

ما بقينا . فاعترفت المرأة فقيل للقمان : احكم بيننا. قال : ارجموها كما رجمت نفسها . فحفروا لها حفرة وألقوها فيها ورجموها .

وفى كتاب ذم الهوى يقول الشعبى :

كان لقمان بن عاد بن عاديا الذى عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء ، وكان يتزوج المرأة فتخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتاً فى سفح جبل ، وجعل لها درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد فإذا خرج رفعت السلاسل .

حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه . فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حرباً لا تقومون بها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : امرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس إلى .

قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلونى بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم ائتوا لقمان فقولوا له : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوماً .

ففعلوا وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج لقمان ، وتحرك الرجل ، فحلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف . حتى انقضت الأيام .

ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فإذا نخامة تنوس فى السقف . فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى . ففعلت فلم تصنع شيئاً . فقال : يا ويلتاه السيوف دهتنى ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً .

ثم انحدر مغضباً ، فإذا ابنة له يقال لها صحر . فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك ؟ . قال : وأنت أيضاً من النساء . فضرب رأسها بصخرة فقتلها ، فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر . فصارت مثلا .

ومثل هذه حكايات كثيرة وردت فى معظم الكتب العربية القديمة مثل أخبار عبيد بن شرية ، والتيجان ، والمحاسن والمساوئ ، وذم الهوى ، ومصارع العشاق . . . إلخ . وكل هذه الحكايات يغلب عليها ذلك الطابع الذى يميل إلى تحقير النساء والتحذير من مكرهن وكيدهن .

وهذه القصص لا تتفق مع الطبيعة العربية ، فالمرأة العربية لم تكن بهذه الصفة ، إذ لم تكن خائنة مخادعة تستغفل زوجها وتبيع بناتها وتضحى بسمعتها ، والرجل العربى لم يكن ينظر إلى المرأة مثل هذه النظرة المتوجسة ، ولو رجعت إلى رسالة الدكتور أحمد الحوفى « المرأة فى الشعر الجاهلى » أو إلى كتابه « الحياة العربية من الشعر الجاهلى » لوجدت أن العرب كانوا ينظرون إلى المرأة نظرة فيها تقدير واحترام سواء كانت زوجة أم أما أم أختاً .

وفى بعض هذه القصص ما يدعو إلى نفى صدقها التاريخى . فما الداعى لأن تطلب المرأة من زوجها أن يحمل لها السفط كما جاء فى المحاسن أو التابوت كما جاء فى التيجان ؟ هل هى ترغب فى إذلال زوجها وكفى ؟ ولم تعرض نفسها للفضيحة ؟ وما الداعى الذى يجعل الرجل يحمل السفط أو التابوت على كتفه ؟ لم لا يركب بعيره ويحمله معه ؟ وما الداعى الذى جعل هذا الغلام يبول فى ذلك الوقت بالذات ؟ . . . إلخ .

إننى أشك فى هذه القصص من الناحية التاريخية ، وأظن أنها حكايات قد وضعت وتدوولت ، وكان المقصود منها بيان مكر المرأة ، وقدرتها على الخداع والحيلة ، ولهذا أحسن صاحب المحاسن والأضداد حين ذكرها تحت عنوان « مساوئ مكر النساء » .

وأظن أيضاً أن هذه القصص قد اجتلبت إلى العرب من الخارج : فلو كان واضعها رجلا عربياً لكان على وضعه مسحة عربية . ولكن العرب لا ينظرون إلى المرأة هذه النظرة بل يحترمونها وتحترم هى نفسها عن أمثال

هذه المخاتلات[١]. وصورة المرأة هنا أقرب إلى صورة المرأة اليهودية التى تستخدم المكر والخديعة والخيانة [٢].

وخاصة إذا عرفنا أن العرب لم يكونوا قفلا أمام الحضارات الأخرى فقد كانت لهم صلات بالروم والفرس وغيرهما. وقد كان من العادات الاجتماعية الشائعة عند العرب أن يجلسوا داخل خيمة أو بجانب نار ويستمعون إلى شخص يسرد عليهم القصص. وبعض هذه القصص كانت فارسية أو بيزنطية أو بابلية الأصل كما يقول الدكتور عبد العزيز عبد المجيد فى كتابه : (The Modern Arabic Short Story).

* * *

(١) انظر مقالا لى عن « المرأة فى قصص القرآن » وقد تعرضت فيه لنظرة الأساطير الإغريقية نحو المرأة، ثم لنظرة التوراة، ثم لنظرة القرآن.

(٢) انظر سفر أستير، ومقالا لى بمجلة الرسالة (١١ من ذى الحجة سنة ١٣٨٣ هـ).

المراجع

هذه قائمة المراجع التى اعتمدت عليها فى هذا الكتاب ، والتى يمكن للقارئ أن يرجع إليها . لتعميق نظرته نحو هذا الموضوع ؛ وهى مرتبة بحسب الحروف الهجائية .

أولا : المراجع العربية

(ا)

١ ــ أخبار الظراف والمتماجنين لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، ونشر القدسى (دمشق سنة ١٩٤٧ م) .

٢ ــ أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (حيدر آباد ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ) .

٣ ــ أخبار عروة بن حزام . لم يعلم جامعه (مطبعة جول بروك بمحروسة الجزائر) .

٤ ــ أخبار النساء للعلامة شمس الدين أبى عبد الله الدمشقى الحنبلى المعروف بابن قيم الجوزية (القاهرة ــ مطبعة محمد أفندى مصطفى سنة ١٣٠٧ هـ) .

٥ ــ الأدب القصصى عند العرب للأستاذ موسى خليل سليمان (بيروت دار الكتاب اللبنانى ــ مطابع دار الغد سنة ١٩٥٦ م) .

٦ ــ أضواء على السير الشعبية للأستاذ فاروق خورشيد (القاهرة ــ المكتبة الثقافية) .

٧ ــ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (طبعات مختلفة) .

٨ ـ ألف ليلة وليلة (القاهرة ـ مطبعة عبد الرحمن رشدى ببولاق ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩ هـ . وأيضاً : بيروت ـ مطبعة الآباء اليسوعيين) .

٩ ـ الأمالى لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى (القاهرة ـ مطبعة دار الكتب ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ) .

(ب)

١٠ ـ البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ) .

(ت)

١١ ـ تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار (القاهرة ـ مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١ م) .

١٢ ـ التحفة البهية والطرفة الشهية ، لم يذكر اسم جامعها (مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ) .

١٣ ـ تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق للشيخ داود الأنطاكى (القاهرة ـ مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

١٤ ـ تفسير الزمخشرى المسمى « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » للإمام محمود بن عمر الزمخشرى (القاهرة ـ مطبعة مصطفى محمد ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤) .

١٥ ـ التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » للإمام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى (القاهرة ـ المطبعة الخيرية بجمالية مصر ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ هـ) .

١٦ ـ تفسير النيسابورى المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان» لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى ، على هامش تفسير الطبرى (القاهرة ـ مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ) .
١٧ ـ التيجان فى ملوك حمير عن وهب بن منبه ، رواية ابن هشام (حيدر آباد ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ) .

(ح)

١٨ ـ حب ابن أبى ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك (القاهرة ـ المطبعة الرحمانية ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٦ هـ) .
١٩ ـ الحب العذرى : نشأته وتطوره للأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى (القاهرة مطبعة دار الكتاب العربى سنة ١٩٤٧ م) .
٢٠ ـ الحب العذرى للأستاذ موسى خليل سليمان . (بيروت ـ دار العلم للملايين سنة ١٩٤٧ م) .
٢١ ـ حديث الأربعاء للدكتور طه حسين (القاهرة ـ مطبعة الحلبى سنة ١٣٥٦ هـ ـ سنة ١٩٣٧ م) .
٢٢ ـ الحياة العاطفية للدكتور محمد غنيمى هلال (القاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ ـ مكتبة الأنجلو) .
٢٣ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى (القاهرة سنة ١٣٦٩ هـ) .

(د)

٢٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .
٢٥ ـ ديوان الصبابة لشهاب الدين أحمد بن حجلة المقرى على هامش

تزيين الأسواق (القاهرة ــ مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

٢٦ ــ ديوان عنترة بن شداد (بيروت ــ الطبعة الثالثة) .

(ذ)

٢٧ ــ ذم الهوى للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ، تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد (القاهرة ــ مطبعة السعادة ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ ــ سنة ١٩٦٢ م) .

(ر)

٢٨ ــ رواية مجنون ليلى لأحمد شوقى (القاهرة سنة ١٩٤٥ م) .

٢٩ ــ روضة المحبين ونزهه المشتاقين للشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، تصحيح أحمد عبيد (القاهرة مطبعة السعادة سنة ١٣٧٥ هـ)

(ز)

٣٠ ــ الزهرة لأبي بكر محمد بن أبي سليمان الأصفهانى ، نشر الدكتور لويس نيكل البوهيمى . (بيروت سنة ١٩٣٢) .

٣١ ــ زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى ، على هامش العقد الفريد (القاهرة ــ المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥) .

(س)

٣٢ ــ سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الأمير عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال وشومدرس المحتال (القاهرة ــ المكتبة

الحسينية المصرية بالأزهر الشريف ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ وسنة ١٩٠٩م) .

٣٣ ــ سيرة فارس اليمن وسيد أهل الكفر والمحن ، سيف بن ذى يزن (القاهرة ــ مطبعة الشيخ شرف موسى سنة ١٣٠٣ هـ) .

(ش)

٣٤ ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة ــ دار إحياء الكتب العربية ــ مطبعة الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ) .

(ط)

٣٥ ــ طوق الحمامة فى الألفة والألاف للإمام أبى محمد على بن سعيد بن حزم ، تحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى (القاهرة ــ مطبعة حجازى ١٣٦٩ هـ ــ سنة ١٩٥٠ م) .

(ع)

٣٦ ــ العقد الفريد للإمام شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسى (القاهرة ــ المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ) .

(غ)

٣٧ ــ الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى (القاهرة ــ مطبعة لجنة البيان العربى ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠ هـ ــ سنة ١٩٥٠ م) .

(ف)

٣٨ ــ فن القصة القصيرة للدكتور رشاد رشدى (القاهرة سنة ١٩٥٩) .

(ق)

٣٩ ــ القرآن الكريم .
٤٠ ــ القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى (القاهرة ــ المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٣٠ هـ) .
٤١ ــ القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشى (القاهرة ــ ــ المكتبة الثقافية ــ العدد ١٠٦) .
٤٢ ــ قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى ، لم يعلم جامعها (القاهرة ــ مطبعة الجمل المصرية ــ الطبعة الأولى سنة ١٣٤١ هـ وسنة ١٩٢٣ م) .
٤٣ ــ قصص الأنبياء أو خلق الدنيا وما فيها لأبى الحسن محمد بن عبد الله الكسائى .
٤٤ ــ قصص العشاق النثرية فى العصر الأموى .
(رسالة نال عليها مؤلف الكتاب درجة الماجستير من جامعة القاهرة بتقدير ممتاز ــ تحت الطبع بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب) .

(ك)

٤٥ ــ الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد .
٤٦ ــ كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندى ، ترجمة عبد الله بن المقفع . (القاهرة ــ المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٧ م) .

(ل)

٤٧ ـ لسان العرب للإمام أبى الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور .

٤٨ ـ ليلى والمجنون أو الحب الصوفى للشاعر الفارسى عبد الرحمن الجامى ، ترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال (القاهرة ـ المطبعة العالمية سنة ١٩٦٢ ـ مكتبة الأنجلو المصرية) .

(م)

٤٩ ـ مأساة الشاعر وضاح للأستاذين محمد بهجة الأثرى وأحمد حسن الزيات : (بغداد ـ مطبعة العهد سنة ١٣٥٤ هـ .

٥٠ ـ مائدة أفلاطون ، نقل الأستاذ محمد لطفى جمعة مصر سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩١٢ (القاهرة ـ مكتبة ومطبعة التأليف بشارع عبد العزيز ، .

٥١ ـ المحاسن والأضداد المنسوب لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى تصحيح الخانجى . (القاهرة ـ مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ) .

٥٢ ـ المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى (القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٥٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين بن على المسعودى . (القاهرة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ) .

٥٤ ـ المستطرف فى كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى (القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ) .

٥٥ ـ مصارع العشاق للشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد الحسين السراج (القاهرة ـ مطبعة التقدم سنة ١٩٠٧ م) .

٥٦ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . (القاهرة ـ كتاب الشعب العدد ٣٦) .

٥٧ ـ الموشى أو الظرف والظرفاء لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء ، تحقيق الأستاذ كمال مصطفى (القاهرة ـ طبع الخانجي الطبعة الثانية) .

(ى)

٥٨ ـ يحكى عن العرب للأستاذ موسى خليل سليمان . (بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ م .)

ثانياً : المراجع الإفرنجية

٥٩ ـ Encyclopeadia Britanica (Volume 20 1768).

٦٠ ـ The Modern Arabic Short Story. By : Abdel-Aziz Abdel-Meguid (Al-Maaref Press. Cairo).

ثالثاً : الدوريات

٦١ ـ مجلة الثقافة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان « السلبية والإيجابية في قصص العشق العربية » (٣٠ مارس سنة ١٩٦٥) .

٦٢ ــ مجلة الرسالة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان «أوبرات عربية» (العدد ١٠٢٩ ــ ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٨٤ هـ) .

٦٣ ــ مجلة المجلة مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان «القصة العربية القديمة » (العدد ٩٥ ــ نوفمبر سنة ١٣٦٤ م) .

٦٤ ــ مجلة منبر الإسلام مقال لعبد الحميد إبراهيم محمد بعنوان « المرأة فى قصص القرآن » (ربيع الآخر سنة ١٣٨٤ هـ) .

الفهرست

الموضوع | الصفحة

دار المعارف بمصر

تقدم تحفة القصص الخيالية العالمية

المكتبة الخضراء للأطفال

- مجموعة من القصص تجمع بين المتعة والفائدة، وتخاطب عقل الطفل وخياله، وتغمر دنياه بالبهجة والسرور.

- غلاف جميل، وصور رائعة بالألوان، وطباعة فاخرة.

صدر فيها :

١ — أطفال الغابة	٢ — سندرلا	٣ — السلطان المسحور
٤ — القداحة العجيبة	٥ — البجعات المتوحشات	٦ — الأميرة الحسناء
٧ — الرفيق المجهول	٨ — الأميرة والثعبان	٩ — الملك أبو لحية
١٠ — الأنف العجيب	١١ — البلبل	١٢ — الجميلة النائمة
١٣ — عقلة الأصبع	١٤ — عروس البحر	١٥ — الأخوات الثلاث

ثمن الكتاب الواحد ١٥ قرشاً

خذ المعارف من دار المعارف

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

٥ قروش ج.ع.م. — ١٠٠ مليم فى ليبيا — ١,٥٠ دينار فى الجزائر
٦٠ ق. ل — ٧٥ فلساً فى العراق والأردن — ١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س — ١٢٠ فلساً فى الكويت — ١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان — ١٢٥ مليماً فى تونس

اقرأ

البارونة أمّ أحمد



محمود تيمور

دار المعارف بمصر

عدد ممتاز ٦

البارونة أمّ أحمد

محمود تيمور

البارونة أم أحمد

وقصص أخرى

اقرأ ٢٨٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٨٩ – يناير سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر: دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

فهرس

البارونة « أم أحمد »

هى لا تدرى على وجه التحديد : متى بدأ الناس يدعونها « أم أحمد » ؟

لقد وجدت نفسها — وما برحت صبية — تحمل هذا اللقب الذى لا يطلق إلا على من كان لها ولد .

أما تلقيبها بـ « البارونة » فذلك هو الحادث البطل فى تاريخ حياتها المديد .

نشأت يتيمة ، لا أب ولا أم ، فكفلها خال أعلت به السن ، يعمل ملقناً فى « المسرح الكبير » الذى عاصر التمثيل العربى فى بواكيره .

ولم يكن للخال مأوى غير هذا المسرح ، ينتبذ منه حجرة خشبية صغيرة ، أو بالأحرى حطام حجرة . وكانت الصبية مقيمة معه ، يتعاونان على النهوض بأعباء العيش .

ونظرة إلى هذه الحجرة التى يتخذها الرجل مبيتاً له ، تريك أنها ليست إلا خنا آخر شبيهاً بذلك الخن البارز على منصة المسرح ، حيث يقضى الرجل الساعات الطوال لأداء مهمة التلقين .

وقضت الصبية « أم أحمد » مرحلة الحداثة فى جو المسرح ، جو العجائب والخوارق والتهاويل ، تشهد التمثيليات ، من فرجة هنا وفرجة هناك ، وراء المناظر والأستار ، فكأنما يتجلى لها عالم سحرى من عوالم

الرؤى والأساطير .

ولطالما ملكها النوم ، وهى قابعة فى إحدى الزوايا والأركان ، لا توقظها إلا أقدام الرائحين والغادين من زملة التمثيل ، ترتطم بها على على غير عمد .

وتعاقبت شهور وأعوام .

ويوماً ألفت الصبية نفسها وحيدة ، لا « خال » لها على مسرح حياتها .. لقد اختفى عنها كما تختفى الشخوص فى تمثيلية تم عرضها ، ولا أمل فى أن تعود .

وفوجئت « أم أحمد» بأن خن الملقن فى صدر المسرح يستقبل رجلا غير خالها المفقود ، فجعلت ترنو إليه ملياً فى صمت حزين .

أما الخن الآخر ، حطام الحجرة ، فلم يأبه له أحد ، فعاشت فيه الصبية على هامش الضجة التى تحيط بها ، لا ناصر لها ولا كفيل .

وكانت تتصيد رزقها من خدمات تؤديها لزمرة المسرح ، فإذا بدأ التمثيل استكنت فى الدخائل والزوايا ترقب المشاهد ، وقد استهواها ما فيها من طرافة وبريق .

وحين يخلو المسرح من أهليه ورواده ، وتسوده وحدة وظلمة ، تنشط الصبية « أم أحمد » وتخطو على المنصة ، لا ينير طريقها إلا تلك الومضات التى تتسرب إلى الداخل من مصابيح الطريق .

ويحلو للصبية أن تعيد على المنصة تمثيل مشاهد مما رأت ، وملء جوانحها إعجاب وتيه .

وازداد بها الشغف ، فحرصت على أن تلتقط ما تسمع من الحوار المسرحى ، حتى لقد استطاعت أن تستظهر الكثير من مواقف البطلات .

وعلى مر الأيام استأثر التمثيل باهتمامها كله ، ولكن ذلك ظل بينها وبين نفسها سراً حبيساً .

وباغتها ذات ليلة فنان من شيوخ التمثيل ، وهى على المنصة تعيد تأدية موقف بطالة لإحدى الممثلات النابهات ، فراعه ما تبديه الصبية من حيوية ، وما لبثت أن أولاها عطفه ، وشملها برعايته .

وبدأت « أم أحمد » مرحلة جديدة من حياتها فى كنف ذلك الفنان الشيخ ، وكانت يومئذ تستقبل نضارة الصبا ، ومخايل الشباب .

وأمام أستاذها وراعيها ، وقفت مرة تمارس التجارب الفنية لدور « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » ، فرنت عليه مستهدية بما لشيخها من توجيه وتبصير .

وفى إحدى الأماسى قذف بها الممثل الشيخ على منصة المسرح ، وسط الأضواء الوهاجة ، فسطع لها نور مفاجىء ، تضاءلت بجانبه أنوار أخرى ، والتمع لها بريق خاطف بهر العيون . وما أسرع أن هبت فى أرجاء القاعة عاصفة من تهلل وتصايح وتصفيق .

فى تلك الليلة أحست طفلة الأمس ، وفتاة اليوم ، بميلاد لها جديد . ميلاد البارونة « أم أحمد » !

ولم يلبث هذا اللقب أن شاع : الألسن تتناقله ، والصحف تتحدث به ، مقروناً دائماً بهالة من الحفاوة والتمجيد .

وتصاعدت بها الخطا فى طريق الشهرة الجبار ، ودارت بها دوامة الحياة دوراتها العاتية .

وتغير كل شىء فيها ، وفيما حولها ، حتى إنها بدأت تنكر نفسها ، أو بالأحرى تنكر تلك الصبية الصغيرة التى كانت تقبع كوة منسية عالقة بالحائل المسرح وزواياه ، لترقب التمثيل ، فى دهشة المسحور .

وامتدت بها الأيام ، وهى كالصاروخ يشق أجواز الفضاء .

وأحست ذات يوم أن الصاروخ قد اختل توازنه .

وإذا هو يحيد عن طريقه . وإذا هو يهوى .

. . . وفى معزل أشبه بالمنفى ، يعشش فيه الخمول ، تراءت البارونة « أم أحمد » وحدها لا أنيس لها إلا ذكريات غالية تسنح أطيافها كأنما هى رؤيا منام .

ويالها من ذكريات .

ذكريات ماض حافل بالمغامرات العارمة ، فى دنيا الهوى والشباب ، فى أفق المجد والجاه ، فى أتون المنافسات والأحقاد .

ذكريات مختلطة متداخلة ، لا تكاد معالمها تبين فى وضوح .

ومن بين هذه الذكريات ، تتجلى لناظرها ذكرى خالدة .

إنها ذكرى حبها المضطرم لفتاها البطل ، فى مسرحية « فرسان الليل » كان هو « فارسها » فى المسرحية ، وكذلك أصبح هو « فارسها » فى واقع الحياة .

إنه حبها الأول .

وإنه هو حبها الأخير .

كم ضحت فى سبيله بعشاق من وجوه القوم ، بذلوا تحت قدميها القلوب والثروات .

لقد لبثت وفية لحبيبها المختار ، على الرغم مما كابدت من صد وهجران.

وتوارى هذا الفارس عن عينيها ، لا تعرف أية موجة طوته ، فلم يعد إلى لقائه من سبيل .

. . . .

. . . كانت « أم أحمد » تعرض ذلك الشريط الخاطف من صور حياتها ، وهى جالسة على متكئها المريح ، عن كثب من النافذة ، ترمى ببصرها فى الفضاء ، وقد تخايلت على وجهها ذى الغضون إشراقة اهتياج .

وبغتة نهضت تتأهب للأمر العظيم .

لقد زارها ، منذ قليل ، رئيس « نقابة الفنانين » ينهى إليها أن « النقابة » اعتزمت إحياء حفل تكريم لها فى « المسرح الكبير » ، تقديراً لما أسدته إلى الفن فى أيامها المواضى من جميل .

وكان من برنامج هذا التكريم أن تعرض « النقابة » مسرحية « فرسان الليل » ، على أن تضطلع « أم أحمد » فيها بدور « البارونة » ، دورها الأصيل الذى شيدت عليه مجدها العريض .

أما موعد هذا الحفل ، فقد اختارت له النقابة اليوم الموافق لليوم الذى اعتلت فيه « أم أحمد » منصة المسرح ، لأداء ذلك الدور أول مرة .

نهضت « أم أحمد » بغتة تحاول أن تجمع شتات أفكارها . . . من أين تبدأ ؟ لا تدرى ! بيد أن أمراً واحداً استولى على ذهنها : أنها سترتقى منصة المسرح ، وأن الأضواء ستسلط عليها من جديد . . . وما تبالى وراء ذلك شيئاً .

حسبها من الأمر أنها ستلتقى بجمهور المعجبين بها ، وستحظى منهم لا ريب بالإعجاب والاحتفاء .

وخطت فى حجرات الدار ، وكأنها « بارونة فرسان الليل » تتهادى على منصة المسرح ، رشيقة الحركة ، متفتحة القلب ، كريشة تميل بها نسمات رقاق .

ووجدت نفسها ماثلة أمام صوان الثياب .

عليها أن تستخرج ثوب « البارونة » ، وتميط عنه غبار الزمان ، لتعيد إليه شبابه ، حتى يكون ملائماً لها فى شبابها الجديد .

ولم تكد تمد يدها داخل الصوان ، حتى انصرفت عنه فى غير وعى إلى صندوق القبعات ، باحثة عن تلك الجمة الذهبية اللون من الشعر المستعار ، شعر « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » . وبينما هى

تتفحص محتويات الصندوق أحست حافزاً يدفعها نحو خزانة النصوص ، لتفتش عن الدفتر الذى احتوى دورها فى تلك المسرحية ، فما أشوقها إلى أن تقرأ منه الساعة بعض فقرات .

وما هى إلا أن تراجعت خطوات ، وقد انسرح بها الخاطر .

وما هى إلا أن توسطت الحجرة ، وقد علت بقامتها ، ورفت على محياها شاعرية ألاقة . وإذا هى تتلو مناجاة غرامية لفارسها المحبوب :

« رميت قلبى بسهام لحظك ، فأصبت منه مقتلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم أعثر لك على أثر .

ترى أين أنت يا « فارسى » الجميل ؟

أليس من أمل فى أن تكتحل عيناى بمرآك ، فتبرد نار شوقى بلقياك ؟

تعال إلىّ تعال . . .

فما من حبيب لى سواك ! »

ومدت ذراعيها ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

وإذا يدان تلامسان يديها !

وإذا صوت هيمان حنون يقول :

« هأنذا أعود إليك يا حبيبتى . . .

هأنذا أرجع بعد طول مغيب ! » .

ورفعت « أم أحمد » جفنيها ، فرأت أمامها « فارسها » القديم . . . فتى أحلامها فى مسرحية « فرسان الليل » .

ورنت إليه مبهورة الأنفاس ، وقد جاشت فى صدرها أشتات المشاعر .

أفى منزلها تحلم هى ، أم على منصة المسرح تمثل ؟

ولم تطل دهشتها ، فقد صكت سمعها ضجة بالباب ، وسرعان

ما تراءى جمع من الفنانين ، رجال ونساء ، يقتحمون الحجرة ، فى زيطة عارمة و يرددون :

« فلتحى البارونة .

وليحى فارس الليل ! » .

ووقفت « البارونة » وسط ذلك الجمع ، وعن يمينها فتاها الأول ، تحيى فوج الزوار ، وكان بعضهم من رفاقها الذين اشتركوا فى حفلتها الأولى ، باكورة ظهورها على المسرح فى عهدها السالف .

ها هم أولاء قد تسامعوا بنبإ تكريمها ، فأقبلوا يحتفون بها ، ويعدون العدة للاشتراك معها فى تمثيل المسرحية المجيدة .

وياله من لقاء حار طريف ، توهجت فيه العواطف والأحاسيس ، وثارت لطائف الذكريات والأفاكيه .

إنه لقاء وصل بين الماضى والحاضر ، وامتزج فيه الخيال والواقع ، وتشابكت فيه أمانى شتى : أمانى شباب مضى واندثر ، وأمانى شيخوخة ما برح فيها رمق الحياة .

وبرز الملقن ، والرواية بين يديه ، وانتظم الجمع حياله صفا ، كأنهم جنود أمام قائدهم يتلقون منه الأوامر .

و بدأت على الفور تجربة « فرسان الليل » استعداداً للحفل العظيم .

. . . .

وحل اليوم الموعود .

وأقبلت طلائع العشية .

وبرزت « أم أحمد » بباب الدار ، فرأت مركبة خيل تنتظرها ، كما كان شأنها فى العهد القديم !

وطرحت على كتفيها شملتها الحريرية ، ذات اللون السماوى ، على نحو ما كانت تفعل من قبل .

وانطلقت بها المركبة ، تسلك سبيلها إلى « المسرح الكبير » .

وكان يخيل إلى « أم أحمد » وهى تخترق الطريق ، أن الأنظار كلها تتعلق بها ، وصافحت سمعها هواتف تردد فى إكبار وإعجاب :

« البارونة أم أحمد » . . . البارونة أم أحمد ذاهبة إلى التمثيل !

وعن كثب من الباب الخلفى المسرح ، تراءى البواب يحييها فى هيجة ترحيب .

وعجل إليها يساندها فى النزول عن المركبة .

ثم تقدمها يفسح لها الطريق ، كدأبه فى الأيام الخوالى .

ودخلت « البارونة » المسرح ، وتلفتت حواليها تتوسم ، منتشية بذلك العبق الذى يسطع من الأستار والمناظر وكل ما حوت القاعة .

إنه مسرحها عينه ، مسرحها المعمور ، ذلك الذى تجاوبت أرجاؤه بصوتها مبتهجة تجلجل ، أو باكية تنوح .

وانساقت بها خطاها إلى حجرتها . . .

ها هى ذى المرآة تعلو خوان الزينة ، وها هى ذى أدوات التجميل مبسوطة أمامها تتطلع إليها فى اشتياق .

ووقعت عينها على المشجب يحمل حلة « البارونة » فى مسرحية « فرسان الليل » فأقبلت عليها تعتنقها فى هيام . . .

وجاء الماشط إليها يحييها فى ثرثرة مرحة ، ونشط فى أداء مهمته ، يحيل « أم أحمد » ذات الأعوام الستين إلى « البارونة » ذات الأعوام العشرين .

ووقفت « البارونة » وسط الحجرة ، مزهوة بحلتها الفاخرة ، وبشعرها الذهبى المتوهج ، ووجهها تتألق فيه عاطفة جياشة .

وارتفعت الستارة .

وهلت « البارونة » على المنصة فى عاصفة من التصفيق ، وطاقات

الأزهار تستقبلها من كل جانب .

وشرعت تمثل ، وقد سرت فيها حيوية عجيبة ، وكلما مضت فى التمثيل ازدادت إحساساً بأنها تفنى فى دورها ، حتى إنها لم تعد تشعر إلا بشخصية « البارونة » قد تقمصتها ، واستحوذت على أعماق روحها .

إنها بحق تلك « البارونة » الفاتنة . . . تحيا حياتها الصاخبة ، حياة الحب والمغامرة ، حياة الأمل واليأس ، حياة التواصل الحلو والهجران المرير .

وحل المشهد الأخير .

فراحت « البارونة » تناجى حبيبها الغائب ، وصوتها ينم عن شجو وتدله :

« رميت قلبى بسهم لحظلك ، فأصبت منه مقتلا ، ثم اختفيت عن ناظرى ، فلم أعثر لك على أثر .

ترى أين أنت يا « فارسى » الجميل ؟

أليس من أمل فى أن تكتحل عيناى بمرآك ، فتبرد نار شوق بلقياك ؟ .

تعال إلى تعال . . .

فما من حبيب لى سواك . . . »

ومدت ذراعيها ، مطبقة الجفنين ، تغشاها غيبوبة حالمة .

وإذا يدان تلامسان يديها .

وإذا صوت هيمان حنون ، يقول :

« هأنذا أعود إليك يا حبيبتى .

هأنذا أرجع بعد طول مغيب . »

وما لبث أن احتواها فى حضنه ، فتشبثت به ، وأراحت رأسها على صدره .

١٦

وانطلقت أنغام القيثارة ، تشدو بألحان الحب العذاب .

ومضى العاشقان ينقلان خطاهما على إيقاع النغم ، وهما فى نشوة الأحلام .

لقد عاد إلى « البارونة » فارسها بعد طول شتات .

لن يكون بينهما بعد اليوم فراق . . .

سيظلان هكذا متعانقين لا يفصل بينهما شىء .

سيظلان ينقلان الخطا متمايلين على إيقاع النغم ، دون انقطاع . . .

لقد تحققت لهما أمنية العمر . . . !

وأحست « البارونة » أن أوصالها يسرى فيها خدر لذيذ .

وتراخت ذراعاها . . .

وملكها سبات عميق ، سبات شامل موصول . . .

وانسدلت الستارة وئيداً ، وئيداً . . .

وهبت أصوات المهللين تشيع المشهد الأخير ، المثير !

اللهم اخزك يا شيطان !

١

اتجه الأستاذ « إسماعيل » المدرس صوب الباب ، محتدًّا ، يقول لها :
لن تطأ قدمى عتبة بيتك . . . اقطعى رجلى لو فعلت !
فتصايحت هى خلفه ، تقول :
فى ستين داهية . . .
وانصرف الرجل ، وهو يرقع الباب وراءه ، مزلزلا البيت .
وانفرج باب فى آخر القاعة ، وأطل رأس معروق ، بطاقية بيضاء ، ونظارة غليظة ، وقال فى صوت هامس :
ماذا جرى يا « جمالات » ؟
ــ لقد طردته ، ولن أسمح له أن يعود .
فسنحت على وجه الزوج بسمة هزيلة ، وسرعان ما استخفى داخل حجرته ، وهو يرد الباب فى سكون .
لم يكن هذا هو المشهد الوحيد فى نوعه ، فلقد طالما تكرر مثله فى قاعة البيت بين الست « جمالات » ربة الأسرة والأستاذ « إسماعيل » معلم ابنها « محروس » .
وعلى مألوف العادة لم يمض يومان ، حتى رن جرس الباب ، والوقت ضحا ، واليوم يوم عطلة مدرسية ، فتهادت الست « جمالات » متخطرة

بجسمها العبل ، وقوامها المديد ، تستجيب لرنين الجرس ، فلما فتحت الباب بدا الأستاذ « إسماعيل » بوجهه الباش ، وعينيه اللامعتين يردد قوله :

نهارك سعيد يا ست هانم . . .

فأجابته فى لهجة مأنوسة ، وهى تفرقع باللادن بين شدقيها :

نهارك مبارك يا أستاذ . . .

ودخل القاعة مرفوع الهامة ، يدق الأرض يخطو رزين ، وقال :

الظاهر أن أزمة الخدم لا تزال مستمرة . . . لقد أتيت بنفسك لتفتحى الباب .

— كما ترى يا أستاذ . . .

وتنهدت ، وهى تواصل حديثها :

شغل البيت كله على دماغى ، وسعادة « البك » ربنا يحفظه لا يهمه إلا نفسه . . . لا يخطر بباله مرة واحدة أن يساعدنى فى شىء .

— اتركى « عفيفى بك » لشغله . . . ربنا يعينه . . . أنا موجود تحت أمرك ! .

وكان الباب الذى فى آخر القاعة قد انفرج قليلا ، وظهر فى محاذرة رأس « عفيفى بك » المعروق بطاقيته البيضاء ونظارته الغليظة ، وما هى إلا أن اتسل متراجعاً فى سكون ، وعلى وجهه ترتسم ابتسامته الهزيلة .

. . . وانتهى وقت الدرس ، قضاه الأستاذ « إسماعيل » مع الصبى « محروس » يشرح له مواد التعليم ، ويحفظه إياها فى جهد جهيد ، وترك الحجرة وهو يروح وجهه المحتقن ، متوخياً من فوره المطهى ، حيث تعد الست « جمالات » طعام الغداء ، وشمر كميه ، واتخذ مقعده بجانب الحلة الكبيرة ، وانهمك يقشر البطاطس ، ويفصص الثوم ، ويخرط البصل ، ولسانه منطلق مع ربة البيت فى حديث ذى شجون .

وضمت مائدة الغداء أعضاء الأسرة جميعاً ، « عفيفى بك » الزوج ، و « جمالات » هانم « الزوجة ، و « محروس » الابن ، والأستاذ « إسماعيل » المدرس . . . وليس من عجب أن يعد الأستاذ نفسه عضواً عاملا فى كيان الأسرة ، فأعضاؤها يرحبون بذلك منه ، ويفسحون له بينهم مجلس الصدارة ، لما آنسوه فيه من طيبة وإخلاص ووفاء .

وفى أثناء الطعام ، مضى الأستاذ « إسماعيل » يبادل الزوج أحاديث مستفيضة فى الفن الفرعونى واللغة الهيروغليفية ، فقد كان الزوج ممن ضربوا فى هذه الدراسة بسهم وافر ، حتى اعترف له فى ميدانها بأستاذية أصيلة ، وهو يعمل جاهداً فى إعداد معجم جامع لحضارة المصريين القدامى .

وتشعب الحديث بين الزوج والأستاذ ، حتى ضجر به الغلام ، فشرع يرفع عقيرته بالغناء ، وصاحت الست « جمالات » قائلة :

قلبتم دماغنا بفرعون وهامان . . . مالنا وهذا الكلام الفارغ . . .

وقال « عفيفى بك » للأستاذ :

ذلك شأنها دائماً . . . تضيق بالمناقشات العلمية ، ولا تقدرها قدرها الحق .

فصرخت الست « جمالات » تقول :

حسبها منك اهتمامك وتقديرك . . . إنك تمنحها أعز شىء عندك . . . صحتك ووقتك ومالك . . . أما أنا فماذا تمنحنى يا حسرة ؟ !

فقال الأستاذ « إسماعيل » متشدقاً :

يمنحك الحب يا ست هانم !

فتلاعبت الست « جمالات » بحاجبيها ، وقالت وهى تنغم الكلمات تنغيماً تمثيليا :

الحب ؟ . . . أين هذا الحب يا ضناى ؟ إنه يحبس نفسه فى الحجرة

وينسانى وينسى الدنيا وما فيها . . . فضّها سيرة !

فغمغم الزوج :

ياله من نكران للجميل . . .

ونهض حاملا فوطته على كتفه ، متجهاً نحو حجرته ، وما أسرع أن ردّ خلفه الباب .

وقال الأستاذ « إسماعيل » وهو يلتقم آخر فص فى برتقالته :

إنه رجل عظيم . . . جدير بكل تقدير .

وضربت الست « جمالات » المائدة بقبضتها ، وهى تقول بصوت راعب :

حضرتك تلم لسانك . . . أحسن !

— إنى أتكلم فى سبيل نفعكم ، ولا أقول قولا إلا من أجل مصلحتكم . . .

— لو كان غرضك منفعتنا ومصلحتنا لكنت أحضرت لى خادمة أخرى بدل التى تركت منزلى منذ أسبوع ، وأنت الذى انتقيتها بنفسك ، وأحضرتها معك ، وامتدحت سلوكها ومهارتها .

— كانت خادمة ماهرة حسنة السير والسلوك . . . لا شك .

— بل كانت كسلانة ، وأخلاقها لا تطاق .

— يا ست هانم . . . أنت لا يعجبك العجب ، لقد أحضرت لك بدل الخادمة عشر خادمات ، لم تحتمل واحدة منهن الإقامة عندك غير أيام معدودات ، ولم تسلم إحداهن فى نظرك من عيب واتهام . . . كلهن رديئات الخدمة ، سيئات الخلق ! .

— تقصد حضرتك أنى أنا السيئة الخلق ! ؟

— يا ستى عفواً . . . لم أقل ذلك . . . يجب أن تعاملى الخدم معاملة حسنة لتضمنى استمرار الخدمة .

ــ أتهمنى بالغلظة والفظاظة ؟ . . حقا إنك رجل لا تستحى . . .

ــ وأنت سيدة حامية . . . لا يحتماها إنسان .

ــ اخرس . . .

ــ وإن لم أفعل ؟ .

ــ قذفتك بفردة حذائى . . .

ــ إذا فعلت ذلك رددت إليك الحذاء أقوى وأعنف !

ــ اخرج برا . . .

ــ سأخرج . . . ولكن اعلمى أن قدمى لن تطأ عتبة بيتك بعد اليوم . . . اقطعى رجلى او فعلت . . .

ونهض كالزوبعة خارجاً ، ورقع الباب وراءه ، مزلزلا البيت ، على حين تصايحت الست « جمالات » تشيعه بقولها :

فى ستين داهية !

وهاج الغلام وماج ، متواثباً فى عبث .

وانصرمت أيام . . .

وصلصل جرس الباب . . .

وفتحت الست « جمالات » . . .

ودخل الأستاذ « إسماعيل » باش الوجه ، يقظ العينين ، يردد قوله :

نهارك سعيد يا ست هانم . . .

ــ نهارك مبارك يا أستاذ . . .

وأقبلت عليه تواصل قولها :

والله فيك الخير يا أستاذ . . . إنك لا تنسانى مهما يبدر منى فى حقك . . .

ــ يا سلام . . . وهل عندى غيرك فى منزلتك ؟

فراحت الست « جمالات » تمسح عينيها الندیتین ، وهى تقول :

أنا كنت قليلة الأدب معك . . . لازم أنى أستسمحك . . . لازم أنى أبوس رأسك .

ــ العفو . . . العفو يا ست هانم .

واستطاعت أن تقبل رأسه ، وهو يحاول منعها ، وتابعت قولها :

لا تؤاخذنى . . . الهم كله على دماغى . . . شغل البيت ثقيل . . . وأنا وحدى أقوم به .

ــ أنا مقدر ظروفك . . . حسبي منك طيبة قلبك وحسن نيتك .

ــ أشكرك يا أستاذ . . .

ــ عندى هدية لك . . .

ــ ما هى ؟ .

ــ خادمة مثل الجوهرة . . . لن تفرطى فيها أبداً . . .

فأشرق وجه الست « جمالات » ، وقالت :

أين هى ؟ .

بالباب منتظرة أمرك .

فما سمعت قوله ، حتى صاحت :

ادخلى يا بنت ادخلى . . .

ودخلت البنت .

وبعد لحظات كانت تؤدى عملها المنزلى فى نشاط . . .

٢

تم التعارف بين أسرة « عفيفى بك » والأستاذ « إسماعيل » كما يتم التعارف بينها وبين من تحتاج إليه من المدرسين للصبي « محروس » ، جاء به صديق للأسرة ، وقدمه بقوله :

حضرته الأستاذ « إسماعيل »، المربى الكبير ، وصاحب التاريخ الحافل فى التعليم . . .

– تشرفنا يا أستاذ .

والحق أن الأستاذ « إسماعيل » كان قبل إحالته إلى المعاش من عمد التعليم فى المدارس الحكومية ، رجل واجب مثالى ، له قلب من ذهب ، ولكنه لم يحظ بما هو خليق به من مكانة ، أبطأت عنه الترقيات ، فخرج من الخدمة بمعاش ضئيل .

وإذا أردت أن تعلم السبب ، فدونك ملف خدمته ، فيه ثغرات قد تعدها أنت من أعمال المروءة ، ولكن القانون يصفها بالتدليس والتزوير : ضبط مرة فى امتحان يملى الإجابة على طالب ، ولما سئل فى ذلك كان عذره أن هذا الطالب لا بد أن ينجح وينال الشهادة ليستطيع الإنفاق على أمه وأخواته، بعد أن مات أبوه ، وفقدت أسرته بموته عائلها الأوحد . . . ويوماً ، عند مراجعة كشوف الدرجات فى المدرسة ، لوحظ أن الرجل يغدق الأرقام جزافاً على طالب عرف بالبلادة والكسل، وكان دفاعه عن نفسه أنه قال :

ما ذنب هذا المسكين ، وقد خلقه الله بعقل يابس متحجر ؟ إنه معذور ، ويجب أن يعان . . .

زاول الأستاذ « إسماعيل» مهمته مع الصبى « محروس » فى حجرته ، يلقنه الدروس فى مجاهدة وصبر ، إذ بدا له من أول لقاء أن الولد لا طاقة له بدرس ولا رغبة منه فى استذكار ، ومن ثم تخلف عن أقرانه عاماً بعد عام ، فعاهد الأستاذ نفسه أن يستدرك أمر هذا الصبى ، ويصلح من حاله ، وينشئه تنشئة جديدة ، وقد اتخذ له وسائل تربوية اكتسبها بفضل تجاربه ، ولم تمض أسابيع حتى غطت جدران الحجرة جداول مزوقة ، وملخصات دروس زاهية الألوان . كذلك ازدانت الأركان

بشهادات التقدير المذهبة والمفضضة فى إطارات براقة ، تحوى حكماً ومواعظ فى الحث على العمل ، وتنشيط الهمة ، وتبشير المجتهد بما ينتظره من نجاح وفلاح . . .

وذات مساء ، سمعت الست « جمالات » ضجة تنبعث من حجرة ولدها « محروس » وهو وقتئذ بين يدى معلمه الأستاذ « إسماعيل » ، فسارت فى محاذرة وتلصص ، وتطلعت من فرجة الباب إلى ما يحدث ، المعلم والولد يغطى كل منهما وجهه بقناع يمثل وجوه الهنود الحمر ، ويتلفع بوشاح من الورق الملفوف ، وهما يدوران فى الحجرة ، متواثبين متصايحين ، وفى أيديهما خناجر من الورق المقوى ، فاقتحمت المرأة الحجرة غضبى .

— ما هذه الزيطة يا أستاذ ؟ أهذا هو الدرس الذى تلقنه لتلميذك ؟

فتقدم المعلم منها ، محتفظاً بمظهره الهندى ، وقال وهو يمسح عرقه :

هذه طريقة بيداجوجية تربوية أنا بها خبير . . . علينا يا ست هانم أن نعطى حبة الدواء للمريض مغلفة بالشكولات . . .

فرفعت الست « جمالات » حاجبها الأيمن وخفضته ، وانصرفت تتمصمص شفتيها .

كان الأستاذ « إسماعيل » يحضر للدرس ويمضى ، فلا تعدو علاقته بربة البيت وزوجها العالم الأثرى تحية متبادلة وسؤالا عن الصحة وحديثاً عابراً فى الجو وتقلباته ، وإن جاوز الحديث نطاقه المألوف ففى شأن « محروس » وما أحرزه من تقدم وتوفيق .

وبينما كان الأستاذ « إسماعيل » مرة يلقن غلامه الدرس ، شبت مشاحنات بين الست « جمالات » وخادمتها ، لم تلبث أن انتهت بطرد الخادمة من البيت . وخرج الأستاذ إلى القاعة ، فإذا الست « جمالات » ترغى وتزبد ، فأقحم نفسه يطيب خاطرها ، وأنحى باللائمة على خدم اليوم ، وما تلقاه من عنتهم ووقاحتهم ربات البيوت . . . وامتد بينهما

الحديث الودى ، وكان ختامه قول الأستاذ :

لا تلقى بالا لهذا الأمر . . . سأبحث لك بنفسى عن خادمة ماهرة مهذبة . . . ولن يهدأ لى خاطر حتى أحضرها لك هنا ، وأسلمها إليك !

فتطلقت أساريرها ، وقالت :

الله يسترك يا أستاذ . . .

وخرج الأستاذ فى خطوه المتزن الثقيل ، على حين قصدت الست « جمالات » حجرة زوجها ، أقبلت عليه تقول له :

الأستاذ « إسماعيل » وعدنى بإحضار خادمة ماهرة مهذبة . . . حقا إنه رجل كريم .

وكان « عفيفى بك » منكبا على مكتبه ، غارقاً بين معاجمه الأثرية وأضابيره العلمية ، فرفع رأسه الأشيب المعروق بطاقيته البيضاء ونظارته الغليظة ، ونظر إلى الزوجة يقول :

الأستاذ « إسماعيل » . . . من تقصدين ؟

فتصايحت :

معلم ابنك « محروس » . . .

ــ آه . . . آه . . . حسناً . . . حسناً . . .

وأنجز الأستاذ « إسماعيل » وعده ، فأتى بخادمة لقيت قبولا ورضا بادئ الأمر ، ولكن ما هى إلا أيام حتى وضحت سيئاتها لربة البيت ، فطردتها شر طرد !

وعنى الأستاذ « إسماعيل » بإحضار خادمة أخرى . . . وكان حظها من الطرد حظ سابقتها . . .

وهكذا دواليك . . . الأستاذ « إسماعيل » يحضر الخادمة تلو الخادمة والست « جمالات » توالى الطرد والإقصاء ، وعلى مر الأيام أصبح للأستاذ عمل راتب غير تعليم الصبى « محروس » ، ذلك هو توريد الخادمات

للبيت فى حمية وحماس !

وأخذت جلساته مع ربة البيت تطول ، ومدارها دائماً الشكوى من سوء أخلاق الخادمات ، وحرص الأستاذ على ضرب الأمثلة التى تؤيد هذه الحقيقة الصارخة !

ولم يكن الأستاذ « إسماعيل » على فرط اجتهاده فى إرضاء ربة البيت ، يسلم من مؤاخذة وشجار ، ولكنه كان يحتمل ذلك عن طيب خاطر ، إذ كان يحس فى قرارة نفسه أنساً وراحة ، وهو فى مجلس الست « جمالات » يطارحها أشتات الحديث ، تروقه ضحكتها النسوية ذات الذيول المزركشة ، ويطيب له أن يشبع ناظريه من قوامها المكتنز ، وهى تتخطر غادية رائحة .

وكان أن دعته إلى الطعام ، احتفاء بورود الكشف الشهرى من المدرسة ، وفيه أن الغلام قد أحرز درجات عالية لم يسبق له إحرازها ، وتطرق الحديث على المائدة إلى شئون الطهو ، فأنشأ « عفيفى بك » يتكلم فى الأطعمة الفرعونية التى كانت توضع عن كثب من نواويس الموتى ، ولكنه لم يستطع أن يسترسل فى القول ، إذ ظهر على وجه الست « جمالات » سيماء الامتعاض ، وأمسكت بزمام الحديث ، مسهبة فيما تجيد من الأطعمة على اختلاف الأصناف .

واستبان للزوجين أن الأستاذ « إسماعيل » ذواقة للطعوم ، خبير بطرائق الطهو ، فقد أفاض القول فى ذلك إفاضة بعثت الست « جمالات » على أن تتفهمها منه ، وواعدته أن تتولى تجربتها بتوجيه منه وإشراف .

وفى غد حضر الأستاذ « إسماعيل » متأبطاً كتاباً ضخماً ، فلما رأى ربة البيت دفع إليها الكتاب قائلا :

هذه هدية متواضعة ، أرجو قبولها .

وقرأت هى العنوان : « أطباق شهية » تأليف شيخ الطهاة فى العصر الحديث .

فتصايحت فرحة تشكر للمهدى جميله ، وتثنى على فطنته . . .

ومنذ ذلك الوقت شهد مطبخ العالم الأثرى زائراً جديداً ، بل ضيفاً مزمناً هو الأستاذ « إسماعيل » . . . يهيئ مع الست « جمالات » مختلف الأكلات الطريفة ، وكثيراً ما خانهما التوفيق فى عملهما ، فلا تملك ربة البيت إلا أن تضيق بخيبة الأستاذ ، وتستشيط غضباً ، وهى تقول له :

والله نفسى أدلق الحلة على دماغك !

— أشكرك . . . ولكن لا تنسى أن محتويات الحلة أغلى مما يحويه دماغى !

ويطلق ضحكة صاخبة ، تقابلها الست « جمالات » بابتسامة اشمئزاز ، وهى تردد :

أنت لا تصلح إلا لتقشير البصل !

وعلى توالى الأيام ، ألفى الأستاذ « إسماعيل » نفسه قد أضاف عملا ثالثاً جديداً إلى عمليه السابقين فى تعليم « محروس » وتوريد الخادمات . . . ذلك هو قيامه بمهمة صبى مطبخ ، أو كما يقولون : « مرمطون » !

وقدم مرة ، فراعه مرأى ربة البيت : وجه شاحب ، ودمع يترقرق ، وصوت حبيس .

— الحقنى يا أستاذ .

— مالك ؟ الشر بعيد . . .

— سيموت الولد .

— كيف ؟

— منذ ليلة أمس ، والحمى مشتدة عليه ، وقد أصابه هذيان . . .

واندفع الأستاذ « إسماعيل » إلى حجرة الصبي فى الحال ، ولما أيقن أن الأمر خطير ، هرول يستدعى الطبيب .

ومنذ تلك الساعة ، لزم الأستاذ حجرة الصبي ، لا يبرحها إلا لضرورة ، وهو يتعهد الصبي كما يتعهده ممرض متمرس نشيط : يضع له الكمادات بدقة ، ويواليه بالدواء فى أوقاته ، بل كان يشاركه فى تعاطيه ، متحيلا له بالأضاحيك والفكاهات فى خفة مهرج أصيل . . . ولم يكن يبالى أن يتعاطى فيما يتعاطى ما أعد للمريض من أدوية مسهلة ، غير مستنكف أن يعين الصبي على الجلوس على وعاء الراحة ، لقضاء الحاجة ، ولا يلبث أن يهرع هو بعد ذلك يلتمس الراحة فى « بيتها » المعهود !

وشفى الصبى . . .

وازدادت صلة الأستاذ رسوخاً وتوثقاً بالأسرة ، أو بالحرى بالست « جمالات » خاصة ، فارتفعت بينهما الكلفة ، كما احتدت بينهما المشاحنات واتسع مداها ، وكانت تلك المشاحنات كالملاط للبناء ، يدعمه ويجعله مترابطاً متلاحماً .

وبينما الأستاذ جالس يوماً مع تلميذه يشرح له الدرس ، سمع صوت الست « جمالات » مولولة شاكية ، ففزع إليها ، مهتدياً بصوتها ، فألفى خطاه تحمله إلى حجرة الغسيل ، وربة البيت جالسة إلى طست كبير تعلوه كومة من الملاءات ، وهى تقول فى مرارة :

يا سواد بختى . . . يا سوء حالى . . . يا للمصيبة التى دهمتنى !

فقال لها متسائلا : ماذا جرى ؟

— جرى كل شر . . .

— ولم الشر يا ست ؟

— ألا ترى ما أنا فيه من ورطة . . . ورطة أنت سببها الأول !

— أنا ؟

ـ نعم ، أنت . . . أنت الذى لا تحسن انتقاء الخادمات ، فأصبحت لا أجد حولى من يعيننى على أعمال المنزل .

وكانت الست « جمالات » ترتدى مباذلها ، ليس عليها إلا جلباب رقيق النسج يكشف عن ذراعين عبلتين ، وصدر ممتلئ رجراج ، وساقان مكتنزتان ، وقدمان عليهما نقش الحناء . . . فمثل الأستاذ « إسماعيل » لحظات ، أمام هذا المشهد المثير ، يعب منه عبا ، وإذا هو يصحو من سكرته ، مناجياً نفسه : اللهم اخزك يا شيطان !

وانبرى يقول لها فى جد :

صحيح . . . أنا المحقوق . . . ولكنى مستعد أن أمسح غلطتى . . . ما الذى يضايقك الآن ؟

ـ عصر الملاءات المغسولة يا أستاذ . . .

ـ شغلة هينة يا ستى . . .

وطفق يخلع سترته وصداره ، وسرعان ما شمر بنطلونه حتى الركبة ، وجلس القرفصاء ، ثم مد يده يتناول ملاءة مشبعة بالماء ، جعل يعتصرها فى قوة وعزم ، ولما انتهى منها تناول غيرها : حتى أتم عصر ما فى الغسيل من ملاءات ونحوها : وترك مكانه وهو يحس أن عشراً من الأيدى قد عصرته عصراً ، وأشبعته طيا ونشرا . بيد أنه رأى أن يكمل واجبه ، فعاد إلى سفط الغسيل يحمله إلى السطح ، وينشر ما فيه على الحبال ، فى رقابة دقيقة فرضتها عليه ربة الدار فرضاً . . .

ونزل الأستاذ « إسماعيل » إلى ردهة الشقة ، وتهالك على المتكإ ، وهو يمسح عرقه فى تضاحك ، وبعد حين رأى الست « جمالات » ، مقبلة عليه ، وبين يديها صينية يتوسطها إبريق القهوة ، وقد تضوع منه شذا المصطكا والحبهان . . . وجلسا معا يرشفان القهوة الساخنة ، وعلى وجهيهما يتجلى بشر وارتياح .

٣

بعد أن انتهت الحصة يوماً مع الفتى « محروس » ، زايل الأستاذ « إسماعيل » الحجرة ، متوخياً باب الخروج ، والفتى بجانبه ، فلما اقتربا منه ، تناهى إلى سمع الأستاذ خفق قدمين تتخطران . . . وهب عليه صوت يقول :

مساء الخير يا أستاذ . . . مالك تتعجل الخروج ؟

ووقعت عين صاحبة الصوت على كرة في يد الفتى ، فواصلت حديثها تقول :

أتريد أن تشترك مع « محروس » في اللعب بالكرة يا أستاذ ؟

فأجابها باسم المحيا :

ولم لا ؟ .

وفتح « محروس » الباب ، ومرق منه ، على حين تراجع الأستاذ « إسماعيل » خطوات محييا الست « جمالات » تحيته المألوفة ، وختم التحية بقوله :

والصحة ؟ . . . أحسبها على ما يرام .

فأجابت وهي تفرقع باللبان بين شدقيها :

زفت وقطران ! .

— كفى الله الشر . . .

وجاس كلاهما على المتكإ .

— « الروماتزم » ماسك رقبتي ! .

— سلامتك . . .

— وجع فظيع . . .

وتابعت فرقعة اللبان فى تفنن ، ولحظ الأستاذ « إسماعيل » أنها لفت رقبتها بمنديل زردى من الحرير ، هو إلى الزينة والتجمل أقرب منه إلى أن يكون لوقاية وعلاج .

— وكيف تعالجين « الروماتزم » ؟

— بدلك الجزء المصاب بالدهان . . . ولكن يا حسرة . . . لا أجد حولى من يقوم لى بهذه المهمة ، فأضطر إلى أن أتولى الدلك بنفسى . . . وما أصعبه من عمل !

— صحيح . . . عمل مجهد . . .

— وسعادة « البك » ربنا يحفظه لا يسأل عن صحتى . . . لو كانت هناك مومياء محنطة ، شكت له « الروماتزم » ، لسارع إليها يدلكها ! . .

فتعالت ضحكة الأستاذ « إسماعيل » ثم اعتدل فى مجلسه ، يقول :

أنا والله كانت لى خبرة بالتدليك . . . تعلمته على يد ممرض ماهر . . هذا كان فى زمن الفتوة والشباب !

— هل أفهم من كلامك أنك تستطيع تدليك رقبتى ؟

— طبعاً أستطيع . . .

فكسرت من جفنها ، وقالت فى تخابث :

وهل تسمح لنفسك بتدليك رقبة سيدة يا أستاذ ؟

— وما المانع ؟

فتوقفت عن مضغ اللبان هنيهة ، وهى تحدق إليه ، ثم استأنفت تقول :

ألا تستحى من قولك هذا يا شيخ ؟

— وفيم الحياء ؟ . . . أنا رجل جد .

— تعنى أن عينك لا تزيغ أمام مفاتن السيدات ؟

— مطلقاً . . .

فرمته بنظرة نسوية صائدة ، وقالت له فى نبرات متغمة :
حتى معى . . . معى أنا ؟ !
وتلاقت أعينهما . . .
وهب الأستاذ « إسماعيل » واقفاً يردد فى وليجة نفسه :
اللهم اخزك يا شيطان !
ثم قال لها جهرة ، وهو يحاول أن يجعل الموقف موقف مهازلة ومزاح :
والله يا ست « جمالات » ، لو انفردت بك ، ولم يكن بيننا ثالث على ظهر الأرض ، لما رفعت إليك بصرى بنظرة غير بريئة !
— . . . يا سلام !
— أنا حين أكون معك ، لا أعد نفسى الأستاذ « إسماعيل » ، بل خالتك « أم إسماعيل » !
وأطلق ضحكة شوهاء ، لاقتها السيدة بصمت مغلق .
وقامت وهى تسوى ثوبها عليها ، وقالت :
أتعنى أننى لا أستطيع أن أهز عاطفتك ؟
— عفواً . . . ولكن . . .
— لست أنا قد المقام طبعاً !
— يا ستى . . . العفو . . .
— لا أستأهل نظرة منك . . .
— لم أقصد ذلك . . .
— تقصد أنك لا شعور عندك ولا إحساس . . .
— أنا لا شعور عندى ولا إحساس ؟ كيف ذلك يا ستى ؟
— حكمت على نفسك بأنك لست رجلا كالرجال !
— أنا رجل بحق . . ولا أرضى أن أكون من صنف النساء . .
فألقت عليه الست « جمالات » نظرة نكراء ، وقالت :

أنت قليل الأدب . . . وقح !

— الله ! . . .

— . . . ودون أيضاً !

— مهما قلت ، فأنا عند موقفى لا أتزحزح . . .

— اخرس ، قطع لسانك .

— وإن لم أخرس ؟

— قذفتك بفردة حذائى . . .

— سأرد إليك الحذاء أقوى وأعنف . . .

— اخرج برا . . .

— لن تطأ قدمى عتبة بيتك بعد اليوم . . .

— فى ستين داهية

ورقع الباب خلفه ، مزلزلا البيت . . .

وانفرج باب آخر فى نهاية القاعة ، وأطل منه الرأس الأشيب المعروق بطاقيته البيضاء ونظارته الثقيلة ، وهمهم :

ماذا جرى يا « جمالات » ؟

— جرى أن حضرة المدرس الذى اخترته سعادتك للولد ، رجل وضيع يحتقر السيدات ، ولا يعرف لهن أقل اعتبار . . . لا أحب أن أرى له وجهاً فى البيت !

وظهرت نتائج الامتحانات ، ونجح « محروس » ، وعد من حملة الشهادات ، فضج البيت ضجيج الطرب والابتهاج ، وفتح الباب على مصراعيه لقدوم الأستاذ « إسماعيل » . . . وما كاد يخطو فى الردهة خطواته الوئيدة الهينة حتى استقبلته الست « جمالات » بأغرودة رنانة لها أصداء مثيرة ، وصاحت فى تحمس ، وقد طوقت كتفيه بذراعيها العبلتين :

مكافأتى لك هذه القبلة !

وقبل أن يحير جواباً ، ألفاها تطبع على خده قبلة عارمة ، وهى تقول :

والله غيرك يدفع فيها ألوف الجنيهات ، ولا ينالها . . . !

وقضت الأسرة وقتاً هانئاً فى صحبة الأستاذ « إسماعيل »، تتبادل الملح والمطايبات . ولما رجع إلى شقته المتواضعة ، واحتوته حجرته ، ترامى على الفراش منسرحاً فى أخيلة شتى . . .

ما أعذبه وقتاً ذلك الذى قضاه مع أسرة العالم الأثرى ، وهو الذى أمضى حياته لم يسكن إلى زوج ، ولم يؤنسه ولد ، ولم يألفه قريب . . . هنالك زوجه وولده وذوو قرباه . . . هنالك نشطة الحياة وأنسها وبهجتها من حوله . . . أما هنا فى مخدعه فليس إلا العزلة والوحشة والاكتئاب ! . . .

ورفع يده إلى خده يتحسس موضع القبلة العارمة ، قبلة الست « جمالات » ، وقد شاعت على محياه بسمة رقيقة حالمة .

٤

وعلمت الأسرة أن الأستاذ « إسماعيل » أصبح نزيل أحد المستشفيات لمرض أصابه ، فانتقلت إليه بكامل هيئتها ، محملة بالهدايا والألطاف ، ولبثت معه اليوم تتعهده بالرعاية والحنان ، ووضح لها أن مرضه ليس بالهين ، وأن حياته على خطر . . .

وتوالت زيارات الست « جمالات » له فى مستشفاه ، تقيم من نفسها ممرضة له ، وتفرض عليه سلطانها التام ، وهو مذعن لذلك : سعيد به ، يستشعر ضعف الطفل وتطلعه إلى من يحنو عليه ويرعاه .

ومرة ، وهى تجرعه الدواء ، نظر إليها نظرة عميقة ، وقال :

وإن مت يا ست « جمالات » . . . فماذا تفعلين ؟

فأجابت وهى تعيد زجاجة الدواء إلى المنضدة ، تائهة النظر :

لا تخش من شئ . . . سأحيى لك ليلة مأتم عامرة بالمشهورين من القراء . . . ولن ينقطع لى صوات حتى الصباح !

وما هى إلا أن ثابت إلى وعيها ، فضربت صدرها بيدها ، وتدانت منه وتقول :

إياك أن تعملها يا مخبل !

— وإن عملتها ؟

— خبر اسود . . . ربما طلع فى مخى أن أرمى بنفسى من الشباك !

فأمسك بيدها ، وقد تألق وجهه ، وقال يخافت بصوته :

يا سلام . . . ترمين بنفسك من الشباك ؟ !

ومسحت الست « جمالات » ظلال دمعة ترقرقت فى مآقيها ، وقالت متلطفة :

إذا مت فسأخاصمك . . . أفهمت ؟

وابتسما ، ثم تضاحكا طويلا .

لقد أيقن الأستاذ « إسماعيل » أن هناك شخصاً معيناً يريد له الحياة ، شخصاً اتصلت أسبابه به ، شخصاً تتعرض حياته للخطر إذا تعرض هو له . . . لزام أن يحيا . . . لزام أن يهزم الموت . . . لزام أن يستخلص نفسه من براثن العدم !

لن يموت . . . لن يموت . . . ما دام هناك من يريد له البقاء .

وزايل الأستاذ « إسماعيل » مستشفاه ، وهو مكتمل العافية ، ورجع إلى قواعده سالماً فى بيت الست « جمالات » : يورد الخادمات ، ويجلس عن كثب من الحلة الكبيرة فى المطبخ يقشر البصل ويفصص الثوم ، ويتراءى كل أسبوع مرة فى حجرة الغسيل يعصر الملاءات وينشرها فى

السطح على الحبال ، ثم هو بعد ذلك الجليس الأنيس ، يناقل رب البيت الحديث فى معالم الحياة على عهد الفراعنة ، وفوق هذا كله يشرف على تعليم الفتى « محروس » ، يلقنه الدروس ، ويوجه سلوكه التوجيه القويم .

كل ذلك كان الأستاذ « إسماعيل » يمارسه فى نجاح منقطع النظير ، إلا أن أمراً واحداً لم يقو على الاضطلاع به ، مع سهولته وضآلته . . . ذلك هو القيام بتدليك رقبة الست « جمالات » عند ما يصيبها « الروماتزم » اللعين ، فقد كان يمثل أمامها ، وهو يحدق إلى المنديل الحريرى المورد حول رقبتها ، ويتيه لحظات ، مصغياً إلى صوت نفسه يردد :

اللهم اخزك يا شيطان !

الطاقية

عند ما استفقت من غفوة القيلولة ، لم أجد من نفسي رغبة في مبارحة الدار ، فقد كان عملي صباح اليوم في الوزارة شاقاً أجهدني ، فآثرت الاعتكاف في أمسيتي ، أنشد الراحة والجمام .

وكنت أحتفظ بصندوق أطلقت عليه اسم « صندوق الذكريات » ، جمعت فيه أشتاتاً من الصور والتذكارات من مخلفات الماضي ، أحتفي بها وأعتز .

وطاب لي أن أقصد إلى الصندوق ، وأن أقلب محتوياته ، وتعلقت نظرتي اتفاقاً بلفيفة لطيفة ناعمة الملمس ، معقودة بشريط من حرير ، فتناولتها بين يدي أميط عنها الغبار ، ثم ألفيتني أحل الشريط من حولها ، وأبسط ما فيها ، فإذا هو « طاقية » . . . طاقية غلام ، يشهد مظهرها الساذج وما فيها من وشي زاهي الألوان بأنها بضاعة ريفية الطابع ، لعصر سلف .

وأبهجني مرأى « الطاقية » ، فانتحيت بها ركناً في الحجرة ، أتفحصها ملياً ، وأنشر ذكرياتي معها من طوايا الزمن البعيد .

وتواردت المشاهد على مخيلتي . . .

ورأيتني أمام « ستوتة » . . . « ستوتة » الصغيرة ، وهي تمد يدها على استحياء بتلك « الطاقية » ، هدية تتودد بها إلي في يوم الرحيل . وما لبثت أن مالت على أذني تقول : إنها ابتاعتها من « سوق الأربعاء » وأدت ثمنها

مما اقتصدته من نقودها الخاصة .

وفى حيرة وارتباك ، تلقيت منها « الطاقية » ، وما أذكر أشكرت لها صنيعها بى ، أم ظلت أناملى تعبث « بالطاقية » دون أن أنبس بقول .

كنت صبيا أدنو من العاشرة ، على حين كانت « ستوتة » تصغرنى بنحو عامين ، وقد مكثت فى صحبتها فى قرية « السلامية » شهراً ما كان أطيبه وأحلاه ، حيث جمعتنا دار أبيها « الحاج أبو صالح » ، وهو رجل من أواسط القوم ، ميسور الحال ، يحيا حياة الريفى الأصيل ، وبينه وبين أبى أواصر ود . وكان الربيع يومئذ قد أوشك أن ينصرم ، وأنا أعانى هزالا ينذر بسوء المصير ، فاستجاب أبى لمشورة الطبيب أن يبعث بى إلى الريف ، لأنعم فيه بجو طلق ، ومنظر بهيج ، وغذاء طيب مرىء .

ولم يتخل عنى أبى فى هذه السفرة ، فركبنا القطار إلى محطة « السلامية » ، وبلغناها ساعة الأصيل ، فألفينا « الحاج أبو صالح » ينتظر قدومنا ، وقد أعد لنا ركائب من الحمير يحرسها نفر من الغلمان ، وسرعان ما امتطيت ركوبتى ، وأنا مرح نشوان ، وسرنا فى طريق ترب ، تحف به حقول شاسعة على مد البحر ، والهواء رخى عبق برائحة الزروع .

ولم يطل بنا المسير أكثر من نصف ساعة ، فاستقبلتنا قرية « السلامية » ذات الدور المتخاضعة ، والجميزات العتيقة ، وذلك الجدول الضيق تتهادى على صفحته وعلى حافاته أسراب من الأوز والبط .

ثم جاز موكبنا بدرب ملتو حافل بكومات التراب وبرك الماء ، والأطفال أنصاف عراة يتواثبون هنا وهنالك متضاحكين .

وأخيراً أوفينا على الدار ، فكان احتفاء الأهل بنا بالغاً الغاية ، وتجلت الأريحية الريفية فيما أعدوه لنا من مأوى ، وفيما حيونا به من طعام وشراب .

وفى ضحوة غد زايل أبى القرية ، بعد أن تركنى وديعة عند « الحاج أبو صالح » وأهل بيته ، فأحسست تهيباً ووحشة ، وجلست وحيداً على



دكة بجوار باب الدار أرقب السابلة .

وما هى إلا أن شعرت بيد تربت كتفى ، يد « ستوتة » ابنة « الحاج أبو صالح » ، وكنت قد رأيتها البارحة ، وقضيت معها قليلا من الوقت نتعارف . وهى صبية سمراء، بشرتها فى لون النحاس المصقول، وعينها خضراء صافية تماثل لون البرسيم فى إبانه .

قالت لى « ستوتة » و يدها على كتفى ، والابتسامة تسطع على محياها :

تعال نلعب .

وأمسكت بذراعى ، فنهضت معها ، وخطونا فى الدروب الترِبة الملتوية ، فسألتها :

إلى أين نذهب ؟

— إلى الجرن .

— الجرن ؟

— نعم . . . الجرن . . . ألا تعرفه ؟

وأمضينا ساعة فى الجرن ، راكبين النوارج مع الفلاحين ، ندرس القمح ، ويعلو صياحنا على خوار الثيران ، نحثها على استكمال دوراتها المألوفة . ولم نكتف بهذا كله ، فتركنا الجرن إلى أرجاء القرية ، نتسلق الجميز المرم المجعد السيقان ، وطعمنا من ثماره المعسولة . وخاضت أقدامنا فى ماء الترعة الضحل ، ثم جلنا على حافة الترعة نصطاد صغار السمك ، ونلقى به إلى الكلاب الجائعة ، ثم اجتمعنا مع الرفاق نلعب « السيجة » ، وانطلقنا فى الحقول تجمع أعواد « السريس » ، وأخيراً قصدنا إلى « الزاوية » وتطلعنا إلى « الكتّاب » المهدم بجوارها ، وقد التفت فيه حلقة الغلمان يقرءون ويكتبون . وهكذا قضيت النهار مع « ستوتة » فرحاً نشيطاً ، تقر عينى بمشاهد طريفة .

كانت تجتاحنى هيجة عارمة أطاحت بتهيبى ووحشتى ، فلم يكد

الليل يقبل حتى صرت و « ستوتة » إلفين متلازمين . . . ولما أزف موعد النوم اعتلينا معا سطح الفرن ، فقد كان هو الموقع المفضل فى الدار ، بل فى كل دار ريفية ، وتمددت « الحاجة أم صالح » تفصل بيننا كما كان الحسام الماضى يفصل فى النوم بين « الشاطر حسن » و « ست الحسن والجمال » فى أساطير الأولين .

ما أعذب تلك الليالى التى نمت فيها فوق سطح الفرن ، قريباً من « ستوتة » . . . كان الدفء الذى ينبعث منه يشيع فى أوصالى ، فيبعث فيها خدراً لذيذاً يثير فى نفسى غرائب أحاسيس .

وطابت لى فى تلك الفترة حياة الطلاقة والمراح ، حياة الفطرة بين قوم لا يعرفون تكاليف المدينة وأوضاعها الخانقة . و « ستوتة » الصغيرة رائدتى فى مغامراتنا اليومية ، لها فى كل يوم كشف جديد ، أو لعبة لم يسبق لى بها عهد .

وشاء رب الدار أن يزيد فى الحفاوة بى ، فأقام فى أمسية رائقة حفل سمر ، تميز بطابعه الريفى الأصيل .

واحتوانا فناء الدار ، فتحلقنا . . . والمشاهد تتوالى أمام عيوننا ، مشاهد مفرطة السذاجة ، نستقبلها بفرحة غامرة ، لا تكل أيدينا من التصفيق ، ولا تفتر حناجرنا عن الصياح .

وما زلت أذكر شخصية المهرج ، وقد طلا وجهه بالدقيق ، وامتطى جريدة طويلة كان يدعوها الفرس المطهم ، وشخصية الزمار الذى يطلق أنغامه ، وخصره يتلوى ، ورأسه يتطوح ، فيدور زر طرطوره الطويل دورات سراعاً على إيقاع المزمار . وهناك الطبال بكرشه المنبعجة ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، منشداً مع المرددين من الصبية ، نشيده الموحد ، يعيده بين الفينة والفينة :

« إن لا قاكم حبيبى   سلموا لى عليه »

وفى ختام العرض اجتمع الممثلون فى الحلقة ، واشتركوا فى رقصة مائجة ، وقرع الطبل يدوى كأنه عزيف الجن ، فسرت فى أوصالى حماسة ، وأخذت بيد « ستوتة » ودفعت بها إلى البهرة ، وجعلنا نسهم مع اللاعبين فى الرقص والتهريج .

ولما انفض العرض ، دعانى رب الدار الى سماط ريفى طريف ، مده فى الفناء . . . كان الحصير مبسوطاً على الأرض ، وعليه رصت صحاف الثريد وقعاب القشدة ، وصوانى الفطير الرحراح ، وما إلى ذلك من مآكل فلاحية صميمة . فجلسنا متربعين ، وبيننا فرقة اللاعبين ، وجعلنا نصيب طعامنا الشهى فى شغف ، وحلا لنا السمر من بعد إلى هزيع من الليل .

* * *

وعدت إلى « الطاقية » أقلبها بين يدى ، وظل ابتسامة يتخايل على وجهى . لقد بقيت قابعة فى « صندوق الذكريات » نيفاً وثلاثين عاماً ، منذ كانت زيارتى لقرية « السلامية » ، تلك الزيارة التى كانت الأولى والأخيرة .

ركرت الأيام . . .

كرت تبدل من مظاهر الحياة ما تبدل ، ولفنا الزمن ، ومرت بنا أحداث تباعد بيننا وبين مواطن الذكريات ، وتنسج عليها خيوط النسيان . ولكن هل إلى ابتعاث الماضى من سبيل ؟ أو بالأحرى ألا من وسيلة نخادع بها أنفسنا ، فنحاول أن نحيا بين صور ذلك الماضى الحبيب على أى وجه يكون ؟

ومن أعماق نفسى ثار بى حنين متضرم إلى رؤية قرية « السلامية » وما ضمت من أماكن ومشاهد وأناس .

وما هى إلا أن رف أمام عينى طيف « ستوتة » مئتزرة فى جلبابها الأحمر الفضفاض ، زاهية بعصابتها ذات الهداب الهفهاف ، وهى تلوح

لى بذراعها تدعونى أن أقبل عليها .

وعلى الفور تجلت لى صفحات من أيامى الحاضرة كئيبة راكدة ، وخيل إلى أنى لست أكثر من دابة مكدودة تنوء بحملها الثقيل ، وضربات العصا تلهب ظهرها فى غير إشفاق .

واتقدت بين جوانحى ثورة سخط على حياتى التى أكابدها ، بل على الحياة نفسها من حولى . . . أليس من حقى أن ألتمس التحرر من أغلال صعاب يكبلنى بها العيش فى المدينة ؟ أما آن لى أن أستمتع بعض وقت بعيشة البداوة فى بساطة وسذاجة ، نائياً عن مشكلات العقل والتدبير والحساب ، متفيئاً ظلال الغفلة والسكينة والاستخفاف ؟

لم لا أهرب إلى الريف ، أقضى فيه بضعة أيام ؟

لم لا أفر إلى « السلامية » ، القرية الحبيبة ، أتذوق فيها حلاوة الماضى الرخى ؟

لا أذهب غداً إلى مقر عملى ، فسأتخذ طريقى إلى دار « الحاج أبو صالح » إلى . . . « السلامية » .

ذلك ما بنيت عليه عزمى .

وفى أصيل غدى ، كنت أزايل القطار ، ومعى حقيبتى الصغيرة تحوى قليلا من المتاع ، وشكولا من الهدايا ، وتحسست جيبى ، فألفيت « الطاقية » فى مكانها الذى ائتمنته عليها ، وشخصت عينى إلى مبنى المحطة ، أتأمله وأنا أراجع نفسى : أترانى أخطأت القصد ؟ أهذى محطة « السلامية » حقا ؟ إن صورتها فى ذاكرتى تمثل بناء أغبر متداعياً لا تنسيق فيه ؛ أما ما أشهده الساعة فهو مبنى ناصع البياض ، عصرى الهندسة... وكدت ألحق بالقطار ، لولا أن أخذت عينى لافتة أقيمت على الرصيف ، تهتف بالزوار :

مرحباً بكم فى « السلامية » !

ولاحت فى خاطرى لافتات على هذا النحو ، تواجه زوار المطارات ومداخل العواصم والمدن الكبرى.

وقفت أمام لافتة « السلامية » أتأملها مليا ؛ وقد سنحت على فى ابتسامة غامضة .

ودفعت بخطاى أجتاز المحطة .

وألقيت ببصرى حوالى ، أتفقد مربط الحمير . . . فلم أر إلا سيارة عامة يهرول إليها الناس متقافزين متزاحمين بالمناكب .

ومر على مقربة منى شاب ريفى ، مبسوط القامة ، متألق النظر ، فاستوقفته أقول :

أين مربط الحمير ، ولا تؤاخذنى يا حضرة ؟

فأجابنى مبتسما :

ليس هنا مربط للحمير أو للبغال . . . ولا تؤاخذنى يا أستاذ !

— أريد أن أذهب إلى قرية « السلامية » . . .

— تستطيع أن تذهب إليها راكباً السيارة العامة ، وهناك سيارات خاصة تحملك إليها إن رغبت ، فانتظر إحداها هنا حيث أنت . . .

— لم أحضر لأركب سيارات عامة أو خاصة . . . أنا شبعان منها . . . أريد أن أمتطى حماراً . . . أريد أن أستمتع بركوب الحمير . . .

فاتسعت ابتسامة الفتى ، وقال :

ليس للحمير المأجورة هنا وجود . . .

— أمر عجيب . . . هل أقفر الريف من الحمير يا حضرة ؟

— لم تعد تتخذ وسيلة للانتقال ، فقد حلت محلها السيارات .

وتركنى وهو يتضاحك ، ووقفت حيران هنيهة . . .

وأخيراً مر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، ومن حسن حظى أن الدابة كانت من جنس الحمير . . . فأشرت إليه أستوقفه ، وما إن دنوت

منه حتى قلت :

أريد الوصول إلى قرية « السلامية » . . . كم تطلب من أجر على المشوار ؟

فرمقني بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

أنا لا أؤجر حماري للركوب . . . يا أفندم !

وهم أن يتابع سيره ، فأمسكت به أقول :

سأعطيك أجرة سخية ترضى بها . . .

ولم أتوان في إخراج قطعة فضية كبيرة ، وأنا أواصل الحديث :

هاكها . . .

فرمق الرجل القطعة في يدي لحظات ، ثم مد يده قائلا :

هاتها . . .

ونزل عن الدابة ، فما أسرع أن امتطيتها .

وسار بي الحمار الهويني ، وصاحبه يتبعه في تخطر ، كأنما هو في نزهة ، وكان ضنيناً بالكلام ، على محياه خيلاء . فأخليته لشأنه ، وجعلت أسرح الطرف حوالي في الحقول المترامية ، وأستنشي هواء الأصيل المشبع برائحة الزروع . بيد أن السيارات عامة وخاصة ، كانت تجوز بنا كالزوابع الهوج ، تملأ الجو غبرة ، وتصم الآذان بما لها من صفير أرعن ، وضجة شعواء .

وواصلنا سيرنا الحين ، وقد أخذت الشمس تنحدر للمغيب ، وتبدى لي قرصها المتوهج من بين النخيل يبعث إلينا تحية المساء .

وتراءت لي مجموعة من الدور الريفية على طراز عصري مستحدث ، استرعت انتباهي بجمال تنسيقها ، وطرافة هندستها ، فملت ببصري إلى رفيقي الصامت المتخطر أسأله :

ما اسم هذه القرية ؟

فأجابنى وهو يرمى ببصره أمامه فى غير مبالاة :

إنها « السلامية » . . . القرية التى تبغيها .

فعجلت قائلا :

أواثق أنت ؟

فحدقنى بنظرة جافية ، وقال :

أنا من سكان البقعة يا أفندم . . .

— ولكن . . . يا حضرة . . .

وألفيته يأخذ بزمام الحمار يقفه ، وقال فى نبرة حاسمة :

تفضل . . . انزل . . . لقد وصلنا . . .

ونزلت عن الدابة ، وفى يدى حقيبتى ، وقلت مهمهماً :

لم تكن القرية على هذا المظهر فيما مضى . . .

فقال وقد ركب دابته :

الدنيا تغيرت يا أفندم . . .

ولكز خاصرة الدابة ، فانطلقت به تعدو . . .

وبقيت وحيداً على حافة الطريق ، أتوسم القرية فى إعجاب لا يخلو من وحشة . لقد أحسست على الرغم منى بشعور ضيال ، وكأننى قد ضللت السبيل .

ومر بى شخص عارى الرأس ، يبدو من ملابسه الحضرية أنه من أهل المدن ، ولاحظ على الفور أنى غريب شبه تائه ، فدنا منى يقول :

أتبحث عن شىء يا سيد ؟

— أبحث عن قرية « السلامية » . . .

فقال متلطفاً :

إنها أمامك .

— أتكون قد تغيرت ملامحها إلى هذا الحد ؟ أكاد أنكرها . !

— أنت على حق ، لقد زالت معالم القرية القديمة ، وأنشئت عن كثب منها قرية جديدة عمرها عام واحد . . . إنها قرية نموذجية . . . تجربة فريدة من تجارب العصر الحاضر .

فلذت بالصمت أفكر ، ثم انثنيت أسأله :

وأهلها . . . سكانها الأصليون ؟

— إنهم فيها دون شك .

فأجزلت له الشكر ، محيياً إياه ، فودعني ومضى لطيته .

وظللت أنا في مكاني لا أبرحه ، وكانت طلائع العشية قد احتلت أرجاء الأفق ، تزيدني شعوراً بالوحشة والاغتراب .

وهاجت بي الخواطر والذكريات .

مالي وللقرية النموذجية بحسن تخطيطها وتنسيقها وما تحويه من مظاهر حضرية ألاقة ؟

لقد جئت أجتلي معالم القرية القديمة ، كما هي ببساطتها وسذاجتها وجمالها الطبيعي ، لا برقشة ولا زخرف .

كلا . . . لن يكون لي في هذا البلد مقام . . . سأعود على الفور إلى « القاهرة » .

واعتزمت أن أركب أول سيارة قادمة تنقلني إلى المحطة .

وبينا أنا في وقفتي أترقب ، إذ سطعت الأنوار بغتة ، تبدد غاشية الظلمة ، وأذهلني أنها أنوار كهربية ، واستقرت عيني على القرية ، فإذا هي تسبح في أضواء . . . واستبانت لي زمر من الناس يتوافدون عليها ، وهم يتصايحون ويتضاحكون . ولم يمض طويل وقت حتى اشتدت زحمة الوافدين ، وتعالت منهم ضجة .

وما هي إلا أن تجاوبت أنحاء الفضاء بصوت جهوري منبعث

من « مجهار » يلقى بأقوال متتابعة ، ليست واضحة النبرات ، فهمت منها أنها برنامج لحفل يعدونه . وملت على شاب فى حلة مهندمة ، يسير صوب القرية ، فقلت له :

أتحتفلون بليلة عرس فى « السلامية » ؟

فتضاحك يجيب :

نعم وإنها لليلة عرسها . . . عرس القرية نفسها !

— عرس القرية ؟

— فى مثل هذا اليوم من عام مضى ، دشن المحافظ القرية الجديدة وفتح أبوابها لمن يعمرونها . إننا نحتفل الليلة بعيد ميلادها الأول .

— أأنت من سكانها ؟

— إنى طالب فى معهدها الزراعى .

فهممت أردد :

معهدها الزراعى ؟

وتراءت فى مخيلتى على الفور صورة لم أنسها لطرافتها ، صورة « كتاب القرية » فى العهد السالف ، وكان هو المعهد الوحيد الذى يتلقى فيه الصبية كل ما يتلقونه من تعليم . . . مبادىء القراءة والكتابة وطالما دارتنه مع « ستوتة » فى جولاتنا اليومية ، فإذا هو حيطان من اللبن متصدعة يصل بينها سقف من فروع الأشجار العتيقة ، وفى صدره فقيه حطمته السنون ، يتبوأ دكة خشبية ، ومن حواليه تنبعث أصوات الأطفال متربعين على الأرض ، وهو يتعهدهم بالدرس والتلقين ، وبين الحين والحين يلوح لهم فى يده اليسرى بعصا من جريد ، أما يده اليمنى فهى فى ذهاب وأوبة بين فيه وصحفة الطعام ، وعيون تلامذته محملقة فيه بنظرات جائعة منهومة ، وآذانهم غافلة عن سماع ما يقول :

وأنبهنى صوت الطالب الزراعى يقول :

لاتؤاخذنى ، إنى ذاهب إلى الحفلة . . .

فهز زت يده هزة الشكر .

وتوالى الناس فرادى وجماعات إلى « السلامية » ، واسترسل « المجهار » يواصل إذاعته فى حماس شديد ، وازدادت الأضواء من سطوع ، وارتفعت أنغام الموسيقى تملأ النفس من بهجة و إيناس .

وجعلت ألقى لما حولى سمعى و بالى . . .

و وجدت قدمى تنساق بى نحو مدخل القرية ، وجرفنى التيار يطوينى فى جوفه ، و إذا أنا فى ساحة تد أعدت على غرار ساحات الملاعب الشعبية « السيرك » : حلقة فسيحة نصبت فيها آلات ومعدات ، ورصت حولها المقاعد ، وقد أخذ الجمهور يشغلها .

سرت كالتائه ، يدفع بى الناس يمنة ويسرة ، وقد اختلط على الأمر ؛ فلم أعد أدرى ما أنا فاعل ؟ أأبحث عن مقعد أستريح بالجلوس عليه وأشهد منه احتفال الليل ؟ أم أعود أدراجى إلى « القاهرة » ؟ وانتهى بى المطاف إلى أحد الأبواب ، ورأيتنى أمام شخص يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشافة ، يلف على ذراعه شريطاً أبيض عريضاً محلى بشارات ملونة ، فما شككت أنه من أصحاب النفوذ فى الحفل ، فتقدمت إليه أحييه ، فرد تحيتى فى أدب ، فقلت له :

أنا غريب عن القرية ، قدمت عليها أزور بعض المعارف ، فهل لى أن أعلم أين تسكن أسرة « الحاج أبو صالح » ؟

— لن تجد الليلة أحداً فى داره . أهل القرية إما بين النظارة يتفرجون و إما بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل .

— ألا تستطيع أن تعيننى على أن ألقى واحداً من تلك الأسرة ؟

— من العسير عليك أن تجد ضالتك بين المتفرجين ، وهم حشد كما ترى كبير . وقد يسعفك الحظ إذا بحثت هنا بين جماعة الفنانين . . .

تفضل . . . ادخل . . . ادخل . . .

وفسح لى ، فدخلت . . . وواجهنى على الفور هرج ومرج ، زمر من الفتيان والفتيات فى غدو ورواح ، يتصايحون ويتضاحكون ، وهم رافلون فى ثياب زاهية بهيجة ، مختلفة الشكول والألوان .

فانتحيت ركناً أشهد منه ما يدور حولى ، وبيدى حقيبتى الصغيرة ، تدل على أنى زائر غريب . وكلما جاز بى شخص حاولت أن أستوقفه ، ولكن ضاعت محاولاتى سدى ، فلم يعرنى أحد بعض التفات ، وأحسب أنهم ظنوا أنى من عمال المسرح ، أو من مساعدى التصوير والإخراج . . .

ونالنى ضيق ، وهممت أن أبارح المكان ، فإذا عينى تتصيد على حين بغتة وجهاً أسمر فى لون النحاس المصقول ، بعينين خضراوين تماثلان فى صفائهما لون البرسيم فى إبانه .

وانطلقت من حلقى صيحة :

« ستوتة » !

والتفتت نحوى صاحبة الوجه النحاسى والعينين الخضراوين ، فهرعت إليها مهتاجاً ، وسمعتها تقول مشدوهة :

من تريد ؟

فأجبت راعش الصوت :

أريد « ستوتة » . . . « ستوتة » . .

فقالت فى صوت هادئ :

لست « ستوتة » . . .

— من تكونين إذن ؟

— اسمى « فيفى » .

— و « ستوتة » بنت « الحاج أبو صالح » ؟

فحملقت إلىّ بعينيها تحاول استبطان أفكارى ، ثم قالت فى بساطة :

لعلك تعنى أمى !

ــ هل أنت ابنة « ستوتة » . . . ؟ هل جدك هو « الحاج أبو صالح »

ــ نعم . . .

فقلت ، وأنا أعالج أن أملك مشاعرى ، وأستعيد هدوئى :

حتما لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك . . . معذرة !

ــ ألا تفصح عما تريد ؟

ــ جئت إلى « السلامية » لأزور الأسرة ، فقد نعمت بضيافتها شهراً كاملا منذ . . . منذ . . .

واعتصرت جبهتى أعد السنين ، ثم ابتسمت أكمل قولى :

منذ ثلاثين عاماً أو أكثر . . .

فتضاحكت « فيفى » تردد :

أكثر من ثلاثين عاماً . . .

ــ هذا هو الواقع . . . والآن وقد عثرت عليك ، ألا ترشدينى إلى دار الأسرة أزورها وأجدد العهد معها ؟

ــ أذهب معك بكل سرور . . . انتظر حتى ينتهى الحفل . . . سأشترك فى مشاهد العرض .

ــ وهل ألتى فى الدار « ستوتة » و « الحاج أبو صالح » ؟

فنكست رأسها تقول :

كلا ، لقد ذهبا إلى رحمة الله !

ومرت برهة ، وكلانا صامت خاشع البصر .

ثم سموت برأسى إليها أقول :

والفرن . . . ألا أستطيع أن أقضى ليلتى عليه ؟ . . . لا أنسى الليالى الماضية التى قضيتها نائماً فوقه . . .

فتخايل على وجهها طيف ابتسام ، وقالت :

لافرن الآن فى الدار . . . بل ليس فى دورالقرية الجديدة فرن واحد !
فتساءلت دهشاً :
وكيف تحصلون على خبزكم إذن ؟
فاتسعت ابتسامتها ، وقالت :
من خبز الجمعية التعاونية .
— أمر عجيب !
— بل أمر طبيعى . . .
وانسرحت بى الأفكار لحظات أهيم فى آفاق الماضى ، مستعيداً صوره وأطيافه ، ثم انبعثت أقص على « فيفى » ما أعرفه عن « السلامية » فى عهدها الغابر ، وماكان فيها من أوضاع العيش ومرافق الحياة .
وأفضت فى الحديث مشبوب العاطفة ، راوياً لها كيف كانت أمها « ستوتة » رائدتى فى جولاتنا اللاهية العابثة ، وكيف كنت سعيداً بريادتها .
وما أتممت حديثى حتى انبرت تقول :
أخشى أن تكون زيارتك اليوم « للسلامية » لا تحقق ما هفوت إليه .
فنظرت إليها ، فطالعتنى عيناها الخضراوان ، وقد تألقت فيهما حيوية دافقة . فقلت على استحياء :
كيف يكون ذلك وقد سعدت بمرآك ؟
فأخذت تسترسل فى حديث حماسى ، تصف القرية فى عهدها الجديد، وما شاع فيها من أسباب الرخاء والرفاهية ، وما شمل أهلها من تطور اجتماعى . وكنت أنصت لها كل الإنصات ، وأنا مأخوذ بنغمة صوتها الساحر .
وأخيراً قلت :
لقد كانت أمى رائدتك فيما سلف ، فهلا رضيت بى اليوم رائدة لك ، أجول معك فى القرية الجديدة ، أريك مفاتنها ؟

فأجبت فى إقبال :

ليس أحب إلىّ من ذالك .

وزعق « المجهار » فى تلك اللحظة ، يعلن أن بدء الحفل وشيك . وأن على كل امرئ أن يأخذ مجلسه ، فقلت :

حان الوقت لأبحث عن مكان لى وسط هذا الزحام . . .

فأسرعت تقول :

إن مكانك بجوارى . . . ستلازمنى طول الوقت . . لقد بدأت ريادتى لك منذ اللحظة . . .

ــ كيف يكون ذلك ، وأنت من فرقة الفنانين الذين يشتركون فى العرض ؟

ــ اطمئن . . . هذا لا يغير من الأمر شيئاً . . . اعلم أن لكل فتاة حق اختيار زميلها فى مشاهد العرض . . . وقد اخترتك . . . انتظرنى هنا ، فسأعود بعد قليل . . .

واجتذبت منى الحقيبة وهى تقول :

سأحفظها لك فى مستودع الملابس ، حتى ينتهى الحفل .

فتركتها تفعل ، وقد انعقد لسانى ، وملكتنى حيرة .

ولم تطل غيبة « فيفى » فعادت وفى يدها لفيفة ، سرعان ما بسطتها أمامى ، فإذا هى « زعبوط » من المبتكرات الحديثة ، مخطط بألوان زاهية . وما عتمت أن طرحته على منكبى ، وطفقت تسويه على جسدى . ثم مضت تكركر فى الضحك ، وهى تردد :

فلاح عصرى ، طراز ١٩٦٤ !

ثم ناولتنى ورقة فيها بعض أناشيد منسوخة بالآلة الكاتبة ، وقالت لى :

ستحفظ أمامى هذه الأناشيد ، وسأدربك على إلقائها ، كما أدربك

على رقصات البرنامج .

وشرعت تدربنى ، وكانت استجابتى سريعة ، ولم ألبث أن أحسست نشطة طارئة تسرى بين جوانحى ، وكأننى عدت صبيا فى العاشرة ، أستقبل لهو الطفولة وعبثها ، دون رقيب .

والحق أنى لم أعد أفكر إلا فى اللحظة التى أحياها مع « فيفى » غافلا عن كل شىء عداها . لا ماضى يثقل علىّ بتقاليده ، ولا مستقبل يزعجنى بأشباحه الغامضة . ليس ثمة إلا بهجة تنبعث من طلعة رائدتى ، وصفاء يترقرق من لمح عينيها الخضراوين .

وزعق « المجهار » مرة أخرى يعلن بدء العرض ، فعلت أصوات تترنم بالأناشيد وقد صاحبتها ألحان جياشة . وأحسست بيد « فيفى » تمسك بساعدى ، وتسير بى ، فأرخيت لها قيادى فى استسلام . .

واحتوتنا الحفلة فيمن حوت من فرقة الفنانين ، وكانت الأنوار وهاجة تخطف البصر ، واستبانت أجهزة الإذاعة المرئية ضخمة متنوعة تلتقم الصور والأصوات فى شراهة .

ودرت مع « فيفى » نتراقص ونشترك فى الإنشاد ، وكانت الأناشيد تتغنى بقرية « السلامية » وتمجد تطورها فى العهد الجديد ، وقد حفت بها أنغام تتسرب فى أعماق النفوس ، فتثير فيها الحمية والنشوة .

قضيت الوقت ، وأنا شبه ثمل ، أكاد أفقد الوعى لما حولى ، لولا أن هذا الوجه النحاسى المصقول بعينيه الخضراوين الصافيتين ، كان يردنى إلى اليقظة آنا بعد آن .

وانتهى العرض ، والتهبت الأكف بالتصفيق ، وعلت الحناجر بالهتاف .

وتخافتت الأضواء ، وزعق « المجهار » يعلن الاستراحة ، ويدعو النظارة إلى المقصف ، فمضينا إليه ، فإذا موائد مستطيلة ، جميلة التنسيق

رصت عليها أفانين من الشطائر والفطائر ، وشكول من الفاكهة والحلوى . فالتففنا حولها ، وأصبنا من طعامها ، فى جو يسوده بشر وإيناس .

وبرز امرؤ حاسر الرأس ، أنيق البزة ، على منصة فى صدر القاعة . فدوى التصفيق ، ومالت علىّ « فيفى » تقول :

إنه العمدة . . .

وألقى العمدة خطبة عامرة ، أجمل فيها ما أحرزته القرية خلال عام من تقدم ونماء ، فلقيت خطبته ترحيباً وحفاوة .

وانفض الجمع .

وهمست « فيفى » تقول :

والآن ألا ترغب فى الخروج ، تنشد النزهة فى جو طلق ؟

— أنا معك ، حيثما أردت .

وأدبرنا عن الملعب ، نتوخى وجه الطريق . وما لبثنا أن ملنا عنه إلى سكة جانبية تسايرها ترعة ، وعن يمينها وشمالها تترامى الحقول . وتناقلنا الحديث فى شأن الحفل وما دار فيه . وكنا كلما أوغلنا فى السير بعدت عنا الضجة ، ورقت الأضواء ، وقل الكلام . . .

وازدادت الحلكة . . .

وملكنا صمت . . .

وامتدت يدى إلى جيبى ، أتفقد منديلى ، فإذا نسيج مطرز يعلق بأصابعى . . . وبدت لى « الطاقية » فى مظهرها الساذج ، هدية « ستوتة » إلىّ ، يوم الرحيل ، فى الزمن البعيد .

ولمحتها « فيفى » ، فسألتنى :

ما بالها ؟

فرويت لها قصتها ، فتناولتها منى تتفحصها ، وهى تقول :

ما أنبل مشاعرك ! أتحتفظ بها طوال هذه السنين ؟

— إنها تذكرنى بأيام طفولتى النائية . . .

— أثر تاريخى لطيف .

وردت « الطاقية » إلىّ ، وواصلت حديثها :

— مثل هذه « الطاقية » لم يعد له اليوم عندنا كبير شأن !

وتلاحقت الذكريات فى خاطرى ، وقلت لفتاتى :

— لم تذكرى لى كيف قضت أمك ؟ ومتى ؟

— يوم مولدى .

فهمهمت :

— ما أمرها ذكرى !

وطوانا الصمت ، ثم استأنفت الحديث فى نبرة محزونة ، أقول :

لى عندك مطلب .

— ماذا تبغى ؟

— — أن أزور قبرها . . .

— فى مستطاعى أن أمضى بك الساعة إليه إن شئت . . .

— الآن ؟

— إن مقبرة القرية غير بعيدة ، بيننا وبينها بعض خطوات . . .

وأشارت بيدها إلى خربة تغزوها الأعشاب اليابسة ، ويغشاها الظلام الموحش ، والسكون الكئيب . وقالت خافضة الصوت :

— إنه المكان الوحيد الذى لم تنله بعد يد التجديد . . .

وضربنا بأقدامنا صوب الخربة . . . وقد تمشى فى جوانحى قلق غامض .

وما كدنا نسير ، حتى تأدى إلى أسماعنا صوت « المجهار » ينبئ بانتهاء الاستراحة واستئناف البرنامج ، فتوقفنا ، وقلت :

— لم يبق من وقت للزيارة . . . نعود أدراجنا . . .

— إنهم لا يستأنفون العرض على الفور ... هناك فسحة من الوقت... تتيح لنا أن نزور . . .

وتراءت خلفنا أضواء الحفل تسطع وتتوهج ، وقويت الضجة فى صخب ، وامتلأ الجو بأنغام الموسيقى .

وابثت لحظات أرجع البصر بين الخربة من أمام والحفل من وراء ، بين الظلمة الموحشة والأضواء الألاقة ، بين السكون المطبق والحركة الجياشة .

ثم ألفيتنى أمسك بيد صاحبتى وأرتد بها نحو القرية ، وأنبهنى صوت « فيفى » يقول :

— انتظر . . . انتظر قليلا . . .

— لم ؟

— شيء سقط منك .

— ماذا ؟

— لعله « الطاقية » . . . انظر . . .

وأشارت إلى شيء أبيض ، يترنح على حافة الترعة ، تداعبه نسمات المساء .

وهبت ريح تحمل « الطاقية » وتلقى بها فى الماء .

ورأيتها تطفو بعض وقت . . . ثم اختفت رويداً بين تموجات هينة رقاق .

وعجبت لأمرى كيف أحجم عن انتشال « الطاقية » ؟ . . .

لقد عرانى تبلد عجيب ، فلم أبد حراكاً . . .

وملت بناظرى عن الترعة ، أواصل السير ، ويدى فى يد صاحبتى ، متجهين إلى « السلامية » الجديدة التى يغمرها فيض من حيوية ونور !

طيف « زهيرة »

عدت إلى دارى بعد منتصف الليل بقليل ، وتوخيت على الفور مكتبى ، وقد استقر منى العزم على أن أتم الفصل الختامى من قصتى المطولة « زهيرة » ، بعد أن ظل دون إتمام وقتا ليس بالقصير .

لزام أن أفرغ من القصة مهما يكن من أمر ، فلم يعد للتسويف مسوغ .

و « زهيرة » هذه فى القصة التى تحمل اسمها : غانية لعوب ، تأسر قلوب الرجال ، وتتحكم فيما لهم من مصاير وأقدار ، وإنها لتتميز بجاذبية أنثوية فتاكة ، وإن حياتها لسلسلة من المغامرات موصولة الحلقات فى دنيا اللهو والمجانة والهوى .

كانت شخصيتها مثار إعجاب من حولها من الناس فى أحداث القصة وطواياها ، ووجدتنى مشغوفاً بشخصيتها تلك التى سويتها لها على ما بها من غرابة وتعقد ، إذ كانت تجمع بين المتناقضات ، فهى مزاج طريف من التضحية السامية والأنانية الوضيعة ، من الرحمة البالغة والقسوة العنيفة ، من الحب الفياض والكراهية المستعرة ، من الأريحية السخية المبذرة والابتزاز للمال فى شراهة ممقوتة .

والآن ، وقد قضت « زهيرة » حياتها نهباً للأعاصير الهوج ، حان لها أن تستخفى عن العيون ، وتترك مكانها على مسرح الوجود . فقد أدت دورها

كاملا غير منقوص ، وحق عليها أن تنتهي أيامها ، ذلك ما تحتمه ملابسات حياتها ، وهو ختام طبيعي يساير منطق الأحداث في غير تكلف ولا افتعال ، على ما يثيره في نفسي من شعور الأسى الدفين .

وبسطت الأوراق بين يدي ، واستغرقت في تفكير ، أقلب الأمر على شتى الوجوه ، وأخيراً أشرعت القلم لأكتب ، وإذا أنا بغتة أحس شيئاً يمس كتفي ، فالتفت أستبينه . . . لا شيء . . . الصمت والهدوء يضربان دوني نطاقا .

ولم تمض لحظات ، حتى تصيدت أذني صوتاً أشبه برفيف أجنحة الفراشير ، بل ما أشبهه بوسوسة النسيم .

إن الصوت يحوم حولي .

ثم تراءى لي دخان أبيض ، لم يلبث أن تشكل في صورة آدمية ، وكادت تنطلق مني شهقة ، وفغرت فمي وأنا أحدق في الطيف . . . أتراني أمام روح تزورني من العالم الآخر ؟

وتدانى الطيف مني على مهل ، وسمعته يتكلم هامساً :

« ألا تعرفني ؟ »

هذه ملامح ليست غريبة عني ، ونبرة الصوت مألوفة لي .

— يخيل إلي أني عرفتك ، ولكن . . . أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

وانبعثت من الطيف ضحكة نسوية ناعمة ، طالما تجاوبت أصداؤها في أذني من قبل .

وسمعتها تقول :

— نحن نلتقي في هذه الحجرة كل ليلة . . .

فسرت في أوصالي رعشة ، وهمهمت :

— أممكن هذا ؟

— كل الإمكان يا صاح . . .

— عجيب . . . ولكن أليس لى أن أعرف مبعث هذه الزورة ؟

فثلت هى بعض وقت فى صمت ، لا تختلج لها جارحة ، ثم قالت :

لماذا حكمت علىّ بالموت ؟

— أنا ؟ وكيف ؟

— الأوراق المبسوطة أمامك تشهد بصدق دعواى .

وألفيتنى أحملق فى الأوراق ذاهلا ، ويدى تمتد إليها تعبث بها . وشعرت بيد تمس منكبى ، فكأنما لامسنى تيار كهربى ، وإذا هى تقول :

أريد وقف الحكم الذى أصدرته علىّ . . . لا أريد أن أموت فى هذه السن المبكرة . . .

فأجبت وعيناى مشدودتان إلى الأوراق :

ليس ثمة مفر من موتك . . . التطور الطبيعى لحياتك يسلمك لا بد إلى هذه النهاية . . . إلى الانتحار !

فصاحت فى حدة :

لا ، لن أنتحر ، لن أموت ، وستلغى أنت بنفسك هذا الحكم الظلوم ! .

— ليس فى الأمر حيلة .

— قلت لك لا بد أن تلغى حكم الموت .

— وهل الأمر بيدى ؟

فتضاحكت تقول :

فى يد من إذن ؟

— فى يد الأقدار !

— أنت الذى تسوى قدرى ، وتخط مصيرى .

فرفعت إليها بصرى ، أقول مغمغماً :

أنا لا أسوى قدراً ولا أخط مصيراً . . . هيهات . . . هيهات !

ــ أنت خالقى ، وما أنا إلا وليدة إلهامك . . .

ــ لقد أطلقتك حرة ترسمين منهج حياتك بنفسك ، ولا أحد غيرك مسئول عن تصرفاتك .

ورأيتها تطيف بى صامتة ، ثم همست :

إذن فلا أقل من أن تمد إلىّ يد العون . . .

ــ حبذا . . . لو استطعت !

ــ فى مستطاعك أن تفعل . . .

ــ كيف ؟

فأحسست بخيالها يتمسح بوجهى ، ولكأنما هناك نسمة عبقة يتضوع منها أريج الزهر ، أريج نفاذ يبعث النشوة فى القلب .

ومضت تبدى لى مفاتنها فى إغراء وإغواء . . . فوجدتنى أقول :

احتشمى يا « زهيرة »

ــ ماذا تنكر مما أصنع ؟ ألست فى دارى ؟ ألست فى الموطن الذى شهد مولدى؟

ومثلت أمامى فى وضعة مثيرة .

ــ جهد ضائع تبذلينه . . . أؤكد لك . . . لا تحسبى أنك قادرة على إخضاعى بمثل هذه الوسائل التى تجيدها الغوانى . . . لست واحداً من عشاقك المتولهين بك !

فرفت على محياها الرقيق ابتسامة ، وقالت فى طراوة أنوثة :

أتزعم أنك غير متوله بى ؟

ــ أنا ؟ . . . أنا أتوله بك ؟

فشعرت بكفها المواج يداعب خدى مهدهداً .

— أنت فى طليعة الواقعين فى أسرى . . . لن تفلت من سحر فتنتى . . . لن يجسر أحد على أن يعصينى !

— يا للمغرورة المتآمرة !

— هكذا سويتنى . . .

وما لبثت هى أن تمددت على المتكإ فى استرخاء .

ونهضت أنا أذرع الحجرة مضطرب الخطا ، ويداى معقودتان على صدرى . . . أغدو وأروح . . . وأروح وأغدو . . . ثم أخذت مكانى من المكتب متهاوياً على المقعد .

— هل وفقت إلى وسيلة أنجو بها من الموت ؟

— لا . . . وا أسفا !

وتقضت فترة صمت جياشة .

وبغتة سمعت نشيجا مؤثراً .

وإذا أنا عن كثب من المتكإ ، أعالج أن أسرى عنها . . .

ونهضت تاسلم من شعثها ، وتصلح من مظهرها .

— إلى أين ؟

— إلى المكان الذى هيأته لى هناك . . . المنضدة . . . وزجاجة الشراب . . . والمسدس .

وندت منى صيحة ذعر .

— لا . . . لا . . . بحق السماء لا تفعلى .

— إذن ؟

— أمهلينى أتدبر الأمر ، لعلى واجد مخرجاً . . .

وعادت إلى المتكإ تستوى عليه ، أما أنا فاقتعدت حشية صغيرة على الأرض بمقربة منها .

— ألديك شراب يا حبيبى ؟

وسرعان ما كان الشراب .

وشرعنا نتساقاه على مهل .

ــ لا بد أن أجد حلاً يا « زهيرة » .

ــ وهل يستعصي عليك أن تجده ؟

ــ نستطيع أن نتعاون معا . . . نفكر . . . نتبادل الرأى . . .

وأمضينا الأمسية فى منادمة بهيجة وسمر أنيس .

ولذت بمخدعى سكران أترنح وأترنم .

وفى غد عدت إلى دارى ، بعد منتصف الليل بقليل ، وجلست إلى مكتبى ، تشيع بين جوانحى غبطة وانشراح ، وتناولت الأوراق التى تم فيها تدبيج الفصل الختامى من قصة « زهيرة » ، وطفقت أزوده باللمسات الأخيرة . وكنت كلما مضيت فى القراءة داهمى شعور غامض فيه ألم وحسرة .

راجعت ، وعاوت المراجعة ، والمرارة تزداد بى .

واستشطت غضباً ، فضربت المكتب بيدى ، وأنا أجمجم لا أبين .

ثم جمعت الأوراق ، أوراق الفصل الختامى ، وانهلت عليها أشبعها تمزيقاً .

وسمعت صوتها الشاجى :

يبدو أن نجاتى من الموت محال .

ــ لقد جعل الريب فى كفايتى يتسرب إلى نفسى !

ــ إذن لا أمل ؟

ــ كل شيء يتيسر بالمهارة . . . فلماذا تخوننى مهارتى ؟

ــ فلتحاول كرة أخرى . . . .

وامتدت أمامنا مائدة الشراب ، وأقبلنا على منادمة وسمر ، وتألقت

شخصية « زهيرة » طاغية آسرة .

. . . وتوالى تدبيج الفصل الختامى من جديد .

وتوالت جلسات الأماسى ثائرة معربدة حول مائدة الشراب ، ويالها من أماسى واصلنا فيها السهر حتى مطلع الفجر ، وما أشبهها بليالى « ألف ليلة وليلة » ، كنت فيها « شهريار »، وكانت « زهيرة » « شهر زادى » تحاول بحديثها المأنوس أن تستخلص رقبتها من سيف الجلاد !

أما نهارى فكان كله هما وحنقاً ، وشعوراً بالخيبة والإخفاق . . .

القصة بلا ختام .

الفصل الأخير مكانه شاغر .

أيظل كذلك إلى الأبد ؟

أأكون قد وقعت فى براثن غانية تحسن الكيد وتجيد العبث بالرجال ؟

أغدوت فريسة لها ؟

أأدع فنى صريعاً بين يديها ؟

وارتقبت أن ألقاها لأحسم معها الموقف الحائر المتميع . . .

وما كاد المساء يزفها إلى ، حتى تدانيت منها فى رفق ، وجلست معها على المتكإ ، وبعد صمت قالت :

ما بالك كأنك تنطوى على سر ؟

فأجبتها ، وأنا منسرح النظر :

سأفضى إليك بذات نفسى يا « زهيرة » . . . أجيبينى . . . ماذا يخيفك من الموت ؟

فانتفضت تقول :

عجباً لك ، الموت هو الموت . . . إنه الضياع الأكبر .

— ليس موتك ضياعاً . . . فالقصة الخالدة يخلد أبطالها معها .

— وهل فى ظنك أن شخصيتى أهل لهذا الخلود الذى تفرضه لها ؟

ـــ كل شخصية تؤدى مهمتها فى الحياة إلى نهايتها ، دون تكلف أو افتعال ، لها من الخلود نصيب . . . فإذا لم تتخل عن مكانها ، وقد انتهت مهمتها ، كان وجودها لغواً ، وليس اللغو من سمات الخالدين !

ـــ ولكن ما انتفاعى بهذا الخلود ، وقد حرمنى الحياة ؟

ـــ إن الخلود هو الحياة الحقة . . .

ـــ ولكنى لن أستشعر هذه الحياة الحقة التى تشيد بها ، فالموت هو الجمود المطبق ، والسكون المطلق . . .

ـــ لا جمود ولا سكون يا « زهيرة » . . . الموت مجرد انتقال من حال إلى حال .

فصاحت :

فلسفة عويصة يصعب على مثلى إدراكها ! . . . قصارى ما أفهمه أن الموت ظلام ووحدة وبرود ! . . . وما أقسى !

ـــ هذا ما يصوره لك خيالك المحدود ، خيالك المرتبط بك باعتبارك كائناً بشرياً على ظهر الأرض . . . أما إذا أرهفت الحس . . وأذكيت البصيرة ، وسموت بالروح ، فسيتجلى لك أن الموت تطور فى الذات الإنسانية . . . فلا فناء ولا عدم . . .

فصاحت :

كيف ؟ أكاد أفقد رشدى !

ـــ الرشد هو أن تؤمنى بأن العدم لا مفهوم له . . . لا فى العقل والعلم ، ولا فى الفلسفة والدين !

ـــ تحاول جهدك إقناعى بقبول الموت بصدر رحب ، لتستنقذ فنك ، تريد أن تودى بى ، طوعاً لما يتطلبه مجرى قصتك . . .

فنكست رأسى ، ولم أحر جواباً . . .

وانقطعت لا تزورنى ليالى ، متوالية فنالنى قلق ، وشاعت فى نفسى كآبة .

وعند ما عاودت زيارتى أقبلت عليها ملهوفاً .

— افتقدتك يا « زهيرة » . . .

— أحقاً ؟ . . .

قالتها فى نبرة شجن ولوعة .

— هل لك فى الشراب ؟

— لن أشرب . . .

وازداد بها التجهم .

— ماذا يشغلك ؟

— لا شيء . . . .

وخيم علينا صمت .

ثم سمعتها تخافت بصوتها :

ليكن لك ما تريد . . . ليكن فنك منزهاً عن الافتعال . . . لا فرض فيه ولا إلزام .

— فلننس الفن والافتعال فى مجلسنا الحاضر . . . علينا أن ننتهب المتعة انتهابا .

— والفصل الختامى ؟

— ليظل مكانه شاغراً . . . لن تموتى يا « زهيرة » على أية حال !

— بل يجب أن تتم الرواية فصولا ، وإن ذهبت حياتى فدية لتمامها . . .

— إنى واثق بكفايتى ، ولن أعيا بحل ينقذك من الهلاك . . .

وامتدت بيننا مائدة الشراب ، تحيى ليلنا الساهر . . .

لم تعد « زهيرة » تتعهدنى بالزيارة بانتظام ، وأخذت زوراتها تقل حيناً بعد حين ، واختفت فى سهراتنا مائدة الشراب ، فكان الوقت يمر

بيننا جامداً ليس فيه إلا الحسرات .

وتواصل اختفاؤها ، وأنا أرقبها فى نشوف .

وكلما طال غيابها ، ازددت من حيرة وشتات فكر .

وفجأة أحسست ثورة تهب من أغوار نفسى ، وتجاءت لعينى تفاهتى وأنا أشهد مكان الفصل الختامى من القصة شاغراً أبيض الصفحات .

كان إنقاذ « زهيرة » من الموت عقبة ليس إلى تخطيها من سبيل .

ومرة بعد أن بلغ بى التفكير والتحيير مبلغ العنت والإرهاق ، انتقلت إلى المتكإ أطلب فيه غفوة استرخاء واسترواح ، وأغمضت جفنى .

وأنبهنى طلقة تدوى فى الحجرة .

وإذا أنا أمام مشهد ملأنى رعباً .

تراءى لى فى سماء الحجرة نثار من سحاب أبيض ، وما أسرع أن تبينت صورة « زهيرة » وقد تمزقت أوصالها ، وتطايرت قطعة قطعة .

وتجلى لى وجهها ، وهو يعاو ويرق : جفنان مسبلان ، ومحيا ممتقع ؛ وملامح بالغة الأسى .

ووقفت وقتاً مصعوقاً أمام ذلك الحطام المبعثر ، وهو يتزايل شيئاً فشيئاً ، حتى لم يبق له أثر .

ورجعت إلى مقعد مكتبى أتهالك عليه ، وتعاقبت عينى بالورقة الأخيرة للقصة ، وكنت قد تركتها بيضاء ، فإذا يد قد خطت فيها هذه السطور :

« تناولت « زهيرة » المسدس ، وتأملته ملياً ، ثم ابتسمت ، وقد اكتست عيناها بالدموع . . . لم يعد لها من مطمع فى الوجود . . . لقد عاشت حياة صاخبة مثيرة ، ولقد آن لها أن تستريح . . . إنها تموت منتحرة ! » .

ولاح لى المسدس على مقربة ، وجعلت أقلبه بين يدى ، وأنا لا أتمالك

من فرط ما عراني من اضطراب وخبال . . .

ماذا ؟

أأكون حقًّا أمام حادثة انتحار ؟

أم . . . أنا أمام حادثة قتل عن عمد ؟

وتركت المكتب ، قاصداً المقعد الوثير ، وألقيت بجسمي عليه ، وأملت رأسي إلى ظهره .

وطفرت من عيني دمعة حارة .

ثم وجدتني وقد انطلقت من أعماق صدري تنهدة ارتياح !

عبيط . . . عبيط ؟

ا

استمعى إلىّ يا أمى ، ولا تقاطعينى .
أصغى إلى ابنك ، وهو يروى لك طرفاً من حياته .
لعلك تبتسمين فى عجب ، وتقولين :
وهل أجهل أنا من تاريخ حياتك شيئاً قل أو كثر ؟

نعم ، أنت تجهلين بعض جوانب من حياتى ، ما فى ذلك ريب ... وربما كانت هذه الجوانب التى لا تعلمينها من أمرى على صغرها هى أعظم جوانب حياتى خطراً ، وأبعدها أثراً . وربما كنت أنت على علم بظواهرها ولكنك لا تعرفين من تفاصيلها ما يصور حقيقتها الكاملة .

أنت تحيين معى ، وما أذكر أنك فارقتنى أو فارقتك يوماً أو ليلة . . .

كانت حياتنا معاً موصولة الحلقات ، بيد أنى أؤكد لك على الرغم من ذلك أنك لم تسبرى غور هذه النفس البشرية . . . نفسى أنا ابنك الذى هو جزء منك .

دعينى إذن أكشف لك مكنون صدرى ، وأطالعك بسر من حياتى دفين .

استمعى إلىّ يا أمى ولا تقاطعينى .
لا تعترضى على شىء مما أنا قائله . . .
الزمى الصمت . . . صمت الوعى والانتباه .

ما أفشيه الساعة لك هائل فاجع . . .

أنت فقيرة ، وأنا مثلك فقير .

لم يكن لى من التعليم نصيب ، ولكنى استطعت أن أكتسب غير قليل من الثقافة ، وألم بضروب شتى من المعرفة ، وأتفطن إلى ظواهر الحياة حوالى .

لقد استهوتنى أحاديث المتعلمين ، فأنصت لها كل الإنصات ، والتقطت الكثير مما يجادلون فيه ، وحفظته عن فهم ودراية .

كان أطيب وقت إلىّ هو الوقت الذى أقضيه عن كثب من زمرة المتعلمين فى المشارب والأندية ، وأنا قابع فى ركنى المنزوى ، غارق فى صمتى المديد .

فهمت مما يخوضون فيه من الحديث أمور الدنيا ، وتصاريف الحياة وشواغل الناس ، دون أن يحس أولئك المتعلمون أنى لقنت منهم شيئاً .

كنت أقضى أطول وقتى لا أنبس إلا فى الندرة ، فالكلمة لا تبرح فى إلا عن اضطرار ، وشعارى الدائم هو الصمت والهدوء واجتناب الاختلاط بخلق الله ، فكان فى ذلك ما دعاهم أن يلقبونى : العبيط !

عبيط . . . أو ماكر خبيث . . . وحقك يا أمى لا أدرى أى الرجلين أنا ، ولكن جميع الناس ، وأنت أولهم ، يطلقون علىّ لقب العبيط !

أما أنا فى نظرها « هى » فكنت العبيط الأكبر ، ولذلك وقع اختيارها علىّ .

صه يا أمى . . .

قلت لك أصغى إلىّ ، لا تقاطعينى . . .

أرهفى سمعك ، لكى تتلقى من ابنك العبيط النبأ الهائل الفاجع الذى يزلزل كيانك .



. . . بل سأصمت أنا ، مرهفاً سمعى . . . أقادمون هم علىّ الساعة ؟

كأنى بهمس تترامى أصداؤه إلى أذنى . . .

كأنى يخفق أقدام تتدانى . . .

لا . لا شىء من ذلك ، أحسب أن الوقت لم يحن ، نور الشمس الوضاح لم يكشف السر بعد .

لقد احتفلوا بليلة الزفاف حتى الفجر ، وهم الآن مستسلمون للكرى . . .

علىّ أن أتم حديثى معك ، أو بالأحرى اعترافى لك ، قبل أن يقدموا ليصطادونى ، وإنهم لا شك فاعلون .

أميل إلى اعتقاد أنى عبيط . . . نعم ، أنا عبيط ، وإلا لما استطاعت « هى » أن توقعنى فى حبائلها على هذا النحو المهين .

أنت تعلمين يا أمى أنى وسيم الطلعة ، فمنك انتقلت إلىّ هذه الوسامة . وإن شبابى ليتفجر نشاطاً وحيوية ، وإنى مهذب الطبع خدوم ، وفوق ذلك أتحلى بفضيلة الصمت . . . وهذا ما قربنى إليها وقربها إلىّ . . . هذا ما أغراها بأن تختارنى دون سواى .

إنها ربة نعمتى ، وربة نعمتك أنت أيضاً يا أمى . . . لقد منحتنا هذا « الحاصل » الذى نبيت فيه ، ونأوى إليه ، وسكنت هى فى شقتها الفاخرة فوقه ، وكذلك منحتنا الكساء والغذاء ، وأسبغت علينا عطايا وهبات ، وإن كنا نحن أيضاً لم نبخل عليها وعلى زوجها بكل ما نستطيع من خدمات .

كنت أتهيبها وأتهيب زوجها معها ، وأعدهما من صنف آخر أرقى شأناً من الصنف الذى تنتسب إليه ، وكان الزوج ذا حزم وإرادة ، إذا مثلت أمامه أحسست الضياع . . .

لم يكن أصلب منى عوداً ولا أشد بنية ، فلو قدر له أن ينازلنى فى

مصاولة حرة لما ثبت إزائى دقائق معدودات ، ولكن ذلك لم يكن يعصمنى من أن أرهبه غاية الرهبة ، وأن أرتجف لمرآه . . .

فيم كل هذا الذى أستشعره نحوه ؟ ألأنى عبيط ؟

سمعت يوماً فى المشرب رجلا يصفنى بقوله : «صدقونى أن هذا الشاب ليس بالعبيط ، بل هو هادئ خجول طيب إلى أبعد حدود الطيبة ! »

لست فى الحق طيب القلب إلى هذا المدى ، فإن بى نزعة إلى الشر ، نزعة ممتدة إلى الأعماق السحيقة من نفسى ، وبين جنبى ضغينة مطوية ، ضغينة على ذلك الزوج ، برغم ما أبقاه من عطفه وإشفاقه ، فأنا أكرهه . . . أمقته . . . ولما وافته منيته لم تذرف عينى عليه دمعة ، بل شعرت بفرحة ، واستبان لى أنى كنت أتمنى موته . . . لماذا ؟ . . . لا أدرى!

وكانت «هى» مدة حدادها على زوجها تزداد فى لبوسها الأسود حسناً ووسامة ، وكلما حاولت أن أرفع إليها بصرى أتملى مفاتنها ارتدت نظراتى حسيرة متعثرة .

ومضت الأيام سهلة رخية . . .

وانقضت مدة الحداد ، وعاد الإشراق إلى محياها ، ورنت ضحكاتها عذبة ناعمة ، وأحسست بها . . . بها « هى » . . . تطيل وقفاتها معى ، وتفيض فى حديثها إلىّ ، وهى تتوسمنى . . .

واشتد اهتمامها بى ، فكانت تستبقينى فى الشقة وقتاً ليس بالقصير ، لأؤدى لها بعض الخدمات الخاصة ، وكانت تقول لى إنها ضاقت ذرعاً بخادمتها التى تكرر منها الإهمال والعناد .

واجتهدت فى خدمتها ، باذلا كل وسعى ، وأنا أتلقى رضاها عنى بغبطة وارتياح .

وعلى مر الأيام وجدتنى أقوم لها بأكثر ما كانت خادمتها تقوم به ،

أطهو وأغسل وأكوى ، وأؤدى غير ذلك من أعمال منزلية شتى .

كنت نشيطاً أحس الحياة بكل ما تحويه من بهجة وإسعاد .

ومثلت هى أمامى مرة تتوسمنى ، ثم قالت متلطفة : أنت شاب مجد فى عملك . . . ووسيم أيضاً !

وابتسمت لى ابتسامة متألقة ، وتابعت حديثها تقول : صحيح عبيط . . . وماله ؟ . . . أحسن ، عبيط !

وفى لحظة داعبتنى بقرصة فى خدى ، فكانت أسعد لحظة من عمرى . . .

وفى غد ألفيتها تهدى إلىّ كسوة من ملابس زوجها الراحل ، وحقًّا كانت حلة فاخرة ، فلما ارتديتها وبدوت بها أمامها ، صاحت متهللة : يا لها من أناقة . . . لقد زدت فى نظرى وسامة وخفة !

وبدأت تستدعينى إلى حجرتها الخاصة ، لأساعدها وهى تبدل ملابسها ، وطفقت ترينى ما خفى من مفاتنها ، وهى تشير بإصبعها نحوى ، وترنو إلىّ ، وتردد على سمعى فى صوت منغم : لا ترفع عينك . . . الزم الأدب يا ولد !

فكنت أهمهم ، وأنا أختلس إليها النظر على الرغم منى ، وكل جارحة من جوارحى تتلهب . !!

ويوماً ، وهى فى مثل هذه الحال معى ، وأنا واقف منها كالصنم ، ولسانى منعقد ، وجدتنى أنقض عليها ، دون وعى . . .

لكأنما كنت فى حلم ، أعتصر بين يدى ليمونة حلوة ، وأرتشف رحيقها ارتشاف الظامئ للماء العذب ، بل إنى على الأصح أكلتها أكلا ، وأحسست بأنى لم أبق منها شيئاً لراغب فيها من بعد !

وتواصلت الأيام ، وأنا أستمرئ ذلك المتاع العظيم . . .

وكثيراً ما كانت تقول لى فى حنان زائد : أنت طيب القلب . . .

طيب القلب جداً .

ولكن هذا الطيب القلب يا أمي جرؤ على أن يذبح دجاجة سمينة رائعة ، وجرؤ كذلك على أن يذبح معها ديكاً له خطره فى عالم الديكة !

صه يا أمى . . .

يخيل إلى أن لغطاً يعلو فى الخارج .

أنصتى معى فى سكون تام .

عجباً . . . إنها أصوات الجنادب التى تساكننا فى هذا « الحاصل » العتيق .

اطمئنى يا أمى ولا تخافى .

أتراك خفت فعلا عند ما عدت إليك فى مطلع الفجر ، بعد أن قمت بأداء مهمتى ؟

هل رأيت السكين الكبيرة ؟ إنها هنالك تحت اللحاف راقدة ، سكين المطبخ العظيمة ، لقد عنيت أنا بشحذها أياماً حتى غدت أرهف من حد السيف . فعلت ذلك حتى لا يكون معها ألم ، ولا تشويه للجسد . . .

وتم الأمر فى لحظات قصار . . . فى سهولة ويسر . . . وكثيراً ما يغالى المرء فى حساب عظائم الأمور !

شد ما أبغضت هذا الزوج الجديد ... أبغضته بغضاً لا تستطيعين أن تتصوريه ، ولم أكن قد رأيته إلا خطفاً فى تلك الليلة البارحة . . . ليلة الزفاف !

إذا استطعت يا أمى أن تحشدى حقد الحاقدين فى هذا الكون ، فاعلمى أنه إذا وزن بالحقد الذى حملته له ، فإنه ليتضاءل ولا يغدو شيئاً !

لم يكن أمامى غير هذه السبيل ، فسلكتها وأرحت نفسى .
لماذا اخترته يا حبيبتى زوجاً ثانياً لك ؟ ألم أكن أنا أكثر من زوج ؟ ..
كنت طوع يمينك مثل كلب وفى ، ولكن كان عليك أن تعرفى أن هذا الكلب عقور له أنياب كأنياب الذئاب !

لماذا نبذتنى ، واتخذته عوضاً عنى ؟ ألأنى عبيط وهو الذكى الألمعى ؟ ألأنى من سكان « الحواصل » وهو من سكان الدور ؟

لقد عشت معك وقتاً نتساقى الحب متعة موصولة ، وكنت راضية بى كل الرضا ، فما الذى غير قلبك علىّ ، وأنا الحريص على إسعادك ، بل إنى لراض أن أبذل حياتى فداء لحياتك ؟

ألفيتك تقصيننى عنك بغتة ، لأفسح المكان لغريمى ، وأنت تغمريننى بالمنح والهدايا ، حتى تهونى على نفسى قبول الأمر الواقع المرير ، وأخيراً أصدرت أمرك إلىّ أن ألزم مكانى فى « الحاصل » مع أمى ، كعهدى من قبل . . .

صه يا أمى ، ودعينى أنصت .
إنهم قادمون . . .
ذلك خفق أقدامهم على الأرض الصلبة ، تتجه نحو « الحاصل » . . .
هاهم أولاء يسارعون إلىّ . . .
أثمة سلاسل معهم تصلصل ؟
أحس عن يقين أنهم اللحظة مقبلون .
لا يكذب حدسى هذه المرة .

فليأتوا ، كل شىء معد ، كل شىء فى متناول أيديهم ، السكين المخضبة بالدم راقدة تحت اللحاف ، وأنت يا أمى على وسادتك غائصة فى ذهول وخبال . . .

الضوضاء تعلو . . . أكبر الظن أنَ الحى كله قد اجتمع ليشهد العبيط ، وهو يستقبل ضيوفه العظام . . .

سأنهض يا أمى للقائهم ... لا يصدر عنك صوت ... ابقى غائصة فى ذهولك وخبالك . . . وداعاً . . . وداعاً ليس بعده لقاء !

العدو . . .

إنه يحيا وحيداً منذ فارقها . . . لا يطيق أن يشركه فى مسكنه أحد . لم يعد يثق بقريب أو عشير أو صديق ، وليس هو بحاجة إلى من يتفقد شأنه ، أو يتعهده بالخدمة .

الحجرات فى مسكنه مغلقة ، إلا واحدة لنومه ، وهو يهيئ فيها فراشه بنفسه ، أما غذاؤه صباح مساء ، فإنه يصيبه فى مطعم أو مشرب أو ناد .

ولكنه مع ذلك يتساءل : أكاف هذا لكى يجعله آمناً على حياته : لا يخشى ضراً ولا أذى ؟

ثمة عدو شديد العداوة ، دائم التربص به ، والترصد له ، يريد أن يقضى عليه ، حتى يخلو له وجه الطريق إليها ، إليها هى ، زوجته التى فارقته ولم يعد إلى عودتها من سبيل .

لقد حرص على أن يقتنى مسدساً ، وأن يحشوه بالرصاص على الدوام ، وأن يحمله معه ليل نهار . . .

إنها لحرب قائمة بينه وبين عدوه ، بيد أنها حرب فى الخفاء ، كلها توجس ومحاذرة ، وكيد ودس ، وسيكون مصيرها حتماً أن يغتال أحدهما غريمه .

لا ، لن يكون هو الفريسة ، بل سيكونها عدوه .

محال أن يدع زوجته طعمة سائغة له .

وليصبرن على هذه الزوجة حتى يفرغ من أمر ذلك العدو ، ثم يناقشها هى الحساب فيما أقدمت عليه من خيانة شنعاء !

لا ينسى أنه سألها يوماً :

لماذا تخونيني يا « سلوان » ؟

— أقسم لك يا زوجى أن الخيانة لم تخطر لى ببال .

— خائنة أنت !

— هدئ من روعك يا حبيبي ، ودعنا نتفهم الأمر فى تعقل .

— تناديني يا حبيبي . . . وهو ، بأى الألقاب تنادينه ؟

— يا للغيرة الطائشة ! . . . ليس لى أن أنادى امرءاً لا أحس له من وجود .

— ما زلت تصرين على المكابرة والإنكار . . . سأكشف عنه النقاب ، وبطلقة واحدة من مسدسى أرديه قتيلا أمام عينيك ، عندئذ لا مفر لك من المجاهرة والاعتراف .

فتضاحكت قائلة :

حبذا أن تفعل ، إذن لاستطعت أن أرى ذلك المخلوق مرة فى حياتى !

فيهمهم محدثاً نفسه :

يا لها من منافقة كذوب !

على أن صورتها لا تبرح صوانة سريره ، عن كثب من رأسه ، يتنسم منها عبير أنفاسها ، فينعم فى نومه بأحلام شهية . فإذا استيقظ فى الصباح انتزع الصورة من مستقرها ، وأشبعها تمزيقاً ، حتى إذا غشى الليل ، واجهته الصورة متبوئة صوانة السرير ، فيشبع عينيه من سنا عينيها ،

المصور يزوده دائماً بنسخ من تلك الصورة ، أوكلما نفدت طائفة حلت محلها طائفة أخرى !

لقد سمع الكثير من قصص الإدمان فى عالم الخمر وما إليها من المخدرات ، فهل أصبحت صورتها عقاراً يدمن تعاطيه ؟ أصارت هى إكسير حياته الأكبر ، لا حياة له بدونه ؟

لن يرضى لنفسه ذلك العبث به ، ولن يستكين لتلك المذلة التى تفرض عليه !

وجمع ما بقى لديه من صورها ، وألقى بها فى الموقد أمامه . . .

ورآها تحترق . . . رأى « سلوان » زوجته لحماً ودماً تأكلها النار أكلا . . . وكان يشم الدخان المنبعث من جثمانها المحترق ، فينتشى بعبيره انتشاء العابد المتصوف بشذا بخوره .

وقضاها ليلة ليلاء ، بين دمع وتحسر وانتحاب .

ولم تكد تمضى أيام ، حتى عادت الصورة إلى مكانها المختار ، وكأنما انجلت بعودتها ظلمات تلك الليلة الليلاء .

لا . . . لا . . . لزام أن يضع لهذه المأساة حداً . . . لن يذعن للأمر الواقع . . . سيكشف عن خيانتها ، وسيودى بغريمه بطلقة واحدة من مسدسه العتيد !

وأضحى المسدس شغله الشاغل ، يفرغ له ساعات بأكملها من يومه الأطول ، ولا يأاوه تعهداً وصقلا ، يستوثق حيناً من حشوه ، ويجرب تارة إطلاق قذيفة منه فى الهواء . . .

ومرة صوب المسدس إلى صورتها ، وهو يقول معابثاً :

خذى حذرك يا « سلوان » . . . إنى قاتلك لا محالة .

فيتلقى جوابها مهموساً يقول :

اضرب يا حبيبى . . . ما أشهى الموت من يدك !

— تستعذبين الموت من يدى تكفيراً عن إمعانك فى خيانتى . . . ولكن ثقى أنى لن أقتلك إلا إن قضيت عليه أولا . . . هو عدوى الصميم !

— لا أعرف لك عدوًّا يا حبيبى ، وإذن فلن تمتد يدك إلىّ بسوء أبداً .

— تحاولين أن تخدعينى بمعسول القول ، إخفاء لجرمك .

— مهما يكن من أمرك ، فلن يصيبنى شر منك . . . لقد برّح بك الحب ، وإنك لتكاد تفقد عقلك شغفاً بى وهياماً .

— صمتاً . . . إنى أكرهك . . . أمقتك !

وانطلق إلى المشجب الذى يحمل ثيابها ، وأخذ بعض قمصانها المشبعة برائحة جسدها ، وانكب عليها يشبعها تمزيقاً . . . كان يعمل فيها أظفاره وأسنانه كأنما يهرأ لحمها وينهشه نهشاً .

وأخيراً تهاوى على المزق ، يمرغ فيها وجهه ، ويتشممها فى وجد وحنين .

إنه لمعترف فى وليجة نفسه بأن «سلوان» ليست شرًّا محضاً .

كم قضى بين أحضانها سويعات سعادة غالية لا تمحى ، يحس أناملها الناعمة تداعب خصلات شعره ، وأنفاسها الجياشة تترسل على وجهه ، وشفتيها الدافئتين تدغدغان خده !

وكثيراً ما هدهدته كما تهدهد الأم الرءوم وليدها الحبيب ، وراحت تغنى له بصوتها الشجى الحنون أغانيها العذاب ، فيتمثل نفسه بعد طول مغيب وتغريب يتمتع بطفولة هانئة ، لم ينعم بها فى سالف أيامه . إلا كما ينعم الحالم بالطيف العابر .

كانت له أم ، وما كان أشد حبه لها ، وتعلقه بها ، فلما طاف بها طائف المنون ، عظم حزنه عليها ، حتى تساقطت نفسه حسرات ، وظلت

حياته من بعدها مأساة موحشة جدباء . لا يجد بديلا مما فقد من أنس وحنان . . . ثم تاح له أن يأتى « سلوان » ، فما إن رآها حتى هتف فى أعماق وجدانه : أماه !

يا للمشابهة العجيبة بينها و بين أعز من فقد . . . لكأنهما توأمان !

وأفزعها نداؤه إياها بلفظ الأمومة ، بيد أنها ما لبثت أن ابتسمت فى رفق .

منذ تلك اللحظة أحس الارتباط الوثيق بينه و بين « سلوان » ، وآمن بأن التفريط فيها محال .

واقترن بها . . . وعاش معها عيشة عاشق تيمه الحب وأضناه الهيام ، لا عيشة زوج تصله بزوجته عشرة وتعاون على حمل أعباء الحياة .

ومضى به و بها ركب الأيام . ثم كان من أمرها معه ما كان . . .

لا . . . لم تكن « سلوان » شراً محضاً !

وكذلك لم يكن هو خيراً محضاً !

كم أحس فى أوقات يقظته الحالمة بشىء يتحرك فى كيانه ، شىء كريه يبعث على الغثيان ، شىء يسكن الأعماق السحيقة من نفسه . . . إنه ليحس هذا الشىء بغضاً ليس وراءه بغض ، وإنه ليود أن يقتلعه من جذوره اقتلاعاً ، ثم يطوح به بعيداً .

وأيا ما كانت الحال ، فإنه إزاء واقع يدينها ، وعليه أن يحسم الأمر ، ليخلص من الكابوس الجاثم على صدره .

لقد اختارت لسكناها . بعد فراقها إياه ، مغنى رشيقاً فى إحدى الضواحى . . . إنها تحسن اختيار المكان الملائم لملاقاة عشيقها ، غريمه الأصيل !

يا له من عش ناء فى بقعة غير مطروقة ، وما أصلحه مكاناً يعينها على أن تمعن فى التضليل والتمويه .

ولكن حيلتها لم تجز عليه ، فسرعان ما اكتشف مخبأها ، وكلف غير واحد من العيون والرقباء أن يرصدوا حركاتها ، ويرفعوا إليه التقارير الضافية فى شأنها ، ما ظهر وما استتر . . . وكان يجزل العطاء لمن يحصون عليها الشبهات ، ويكيلون لها التهم ، أما من يبرئون سلوكها من كل شائبة ، فكان ينبذ تقاريرهم وراء ظهره . ولا يكافئهم عليها إلا بالقليل .

وعرف العيون والرقباء ذلك منه ، فكانت تقاريرهم بعد ذلك مفعمة بما يؤكد فضوح السمعة وسوء السلوك . وطالما أطنبت التقارير فى الكشف عن الوسائل العجيبة التى كان يتخذها الغريم للتسلل إلى وكر الغرام !

وانتهت مهمة الوسطاء من العيون والرقباء ، وحان له أن يضطلع هو بالأمر ، ليهتك الستر . . . كان يعس حول المغنى جانباً من الليل ، يقص الأثر كأنه كلب صيد لا يغفل ولا يكل .

شد ما وقف تحت نافذة حجرتها المضاءة يتطلع ، وعيناه تسايران طيفها خلف الأستار المفهافة ذهاباً وجيئة .

إنه ليبث إليها فى صمت بمناجيات اللوعة والصبابة .

ويستقر فى ركنه مستخفياً لا يبالى مر الوقت . . .

وأيقن بعد رقابة صارمة ليالى متوالية أن الغريم يطرقها ، وأنها تحتفى به فى حجرتها . . .

وانتهى به الأمر أن شهد بعينه « سواد » الغريم فى بهمة الليل ، وهو يدب إلى مغناها من باب خلفى مستور .

واستطاع أن يعرف الموعد المضروب للزيارة ، والمسار الذى يتخذه العاشق لبلوغ مأربه الذميم !

تمت له الأدلة ، ووضح الحكم ، ولم يبق عليه إلا التنفيذ .

وفى اليوم المختار ، لبث نهاره فى صحبة مسدسه ، يمرن يده على إصابة الهدف . . .

وزايل داره فى الساعة التى حددها للخروج ، ووصل إلى مكمنه فى الوقت الذى أراده ، وظل يرتقب ظهور الغريم فى موعده .

كان متمالك الجوارح ، ممسكاً بالمسدس فى قبضته ، إلا أنه كان يحس قلبه يدق دق الطبل ، أما نظراته فكانت تائهة ، وكأنما هى تحت تأثير مغنطيس خفى . . .

وأخيراً بدا « سواد » الغريم يتخايل أمام عينيه ، وهو يأخذ سمته إلى الباب الخلفى ، فى حيطة واحتراس .

وتبعه الزوج ، كأنما هو آلة تتحرك بلولب ، حتى إذا داناه صاح به :

قف ، واكشف عن شخصك . . . إنى قاتلك لا محالة

واستدار الغريم .

وبان للزوج وجهه .

أى الوجوه ذاك ؟

يا للعجب !

لم يكن يتصور أن يرى ذلك الوجه . . .

لكأنه يرى نفسه فى مرآة

وفى غير وعى منه انطلقت الرصاصة مدوية .

وخر « الزوج » متهاوياً على الأرض ، والدم يشخب من رأسه . . .

واستضافه المستشفى بضعة أيام ، وهو يتناوح بين موت وحياة . . .

وأخيراً شرع يصحو من غيبوبته ، وطفق جفناه يختلجان ، وغمغم :

الضوء يضايقنى . . . احجبوه عنى !

وأرخيت الأستار . . .

وتقضت لحظات ، وإذا هو يواصل همهمته ، وعيناه تحاولان

استجلاء المكان :

أين أنا ؟

وأحس بيد رفيقة تلامس يده ، وسمع صوتاً ليناً يقول :

لا تعنِّ نفسك بشيء . . . أنت فى أمان ، والشفاء منك وشيك !

— وهل كنت مريضاً يا « سلوان » ؟

— أنت بخير . . . استكمل راحتك يا حبيبى . . .

فأمسك بيدها يضغطها متشبثاً بها وهو يقول :

لن تتركينى . . .

— أنا معك دائماً ، ولن أفارقك !

ورفع يدها إلى فمه ، وطفق يلثمها كما يلثم المؤمن يد قديس .

وأطبق جفنيه ، والدموع تتحدر على خديه ، وما هى إلا أن شمله سبات .

وفى غد قال لها :

ماذا جاء بى هنا !

— إنك تعالج جرحاً أصابك فى رأسك ، والجرح قريب الالتئام . . .

فهمهم :

جرح فى رأسى . . . من طلقة مسدس ؟ !

— أطلقها عليك غريمك فى شجار بينك وبينه !

— غريمى ؟

— لقد قضيت عليه من ساعتك ، ولم يبق لك من مزاحم فى حبك لى . . .

وراح يعتصر فكره ، لتتوضح له معالم الأحداث ، فلم تسعفه

الذاكرة ، وأعياه الأمر ، ولكن شيئاً واحداً استطاع أن يبتعثه من كل ما مر به . . . ذلك أن مجهولا كان يترصد له ، يريد أن ينتزعها من يده . . . ينتزعها هى . . . أعز مخلوق لديه !

وسمعها تواصل حديثها قائلة له :

لقد أرديته قتيلا ، ذلك الوغد الذى كان يلاحقنى أشد ملاحقة . . . قتلته دفاعاً عنى . . . لقد أنجيتنى منه ، واستخلصتنى لك دونه . . .

وكان الطبيب عن كثب منهما ، يصغى إلى هذا الحديث ، فرفت على فمه ابتسامة الرضا ، وبادلته الزوجة نظرات لها مغزى . . .

وغاب الزوجان فى قبلة ظامئة مديدة !

لوح ثلج . . .

فى خيال كل امرئ بطولة مثالية يطمع أن يحرزها ، وبطولة السيد « دكروري » التي يحرص على ألا يباريه فيها أحد ، هى أن يكون حامل الثلج المثالى .

لقد تخير هذه المهنة له ، وأولاها كل جهده ، مهنة حمل ألواح الثلج من المصنع فى ضاحية المدينة إلى « قهوة النزهة » المشرفة على شاطئ البحر ، وليس الطريق بين المصنع والقهوة بالقصير ، ولا هو بالسهل الميسور ، بيد أن « دكروري » يقطعه مشبوب النشاط ، لا يعروه ضيق أو ملال .

لا يكاد يهل الصيف ، وتستقبل « قهوة النزهة » روادها من المصيفين حتى يتجلى الرجل بجسد ضامر ، وقامة مبسوطة ، ووجه بارز العظام ، ولكأن رأسه المستطيل شمامة قرعاء .

وإنك لتراه يتدفع بخطى فساح ، متعالى الهامة ، من زهو واعتزاز ، وفمه منشق عن ابتسامة عريضة فيها مخايل سذاجة واستخفاف ، وإن هذه الابتسامة لهى الطابع المميز له ، فيها تتبلور شخصيته ، وهى تتراءى على الفور سابحة على وجهه ، تبتلع قسماته ، على حين يتمدد على كتفه لوح الثلج الغارق فى برودته فى ركون واستسلام !

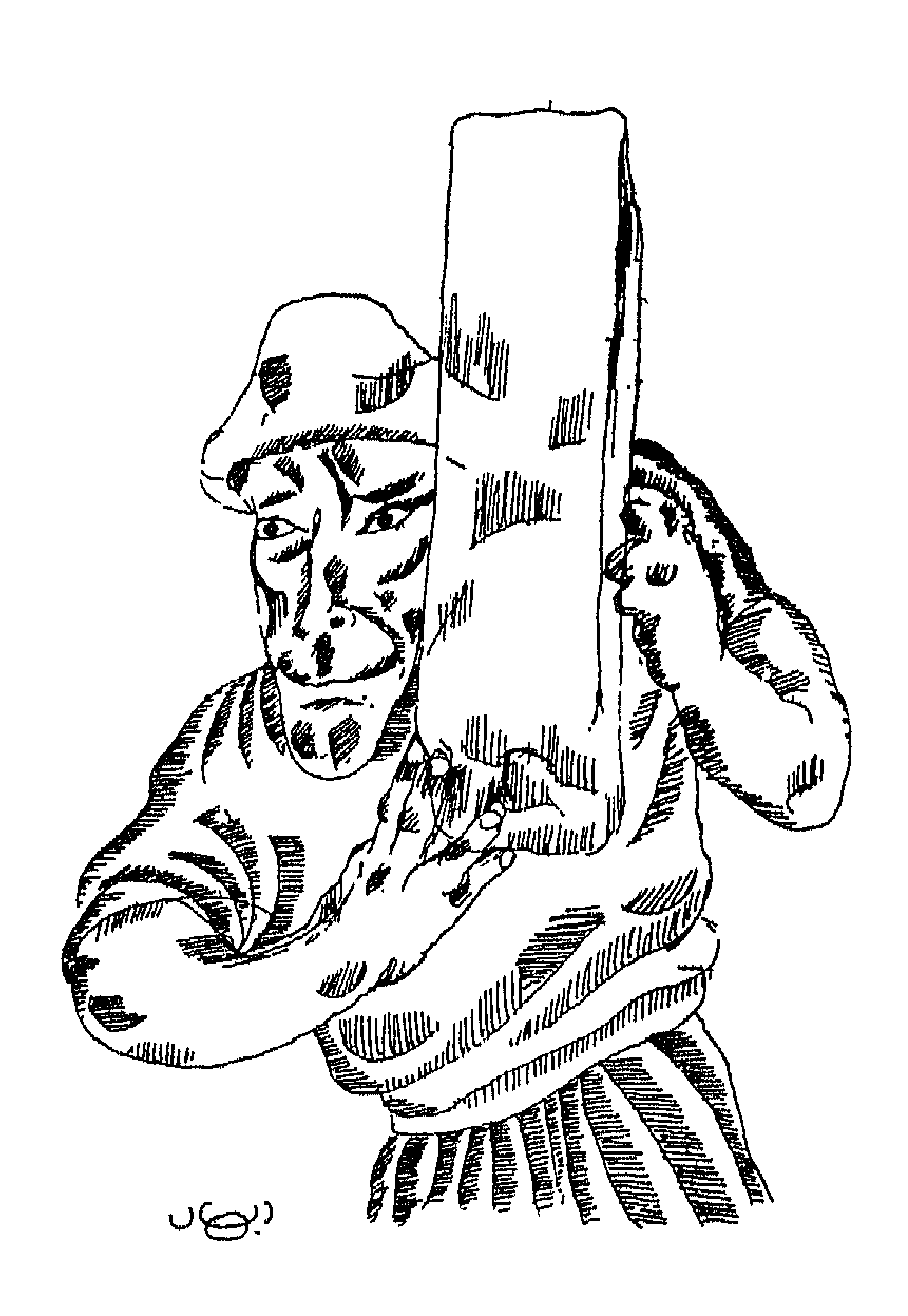
والناس جميعاً ، سواء المصيفون منهم وغير المصيفين ، لا يذكرون

متى بدأ السيد دكروری یزاول مهنته تلك ، ولكنهم يذكرون أنهم يرونه فى كل صيف ، وقد يخيل إليهم أن مزاولته لتلك المهنة كانت منذ حقب لا يعرف مداها . وليس الرجل نفسه أكثر معرفة بشأنه من الناس حوله ، فقد أسقط من حسابه نظرية الزمن وقياس الأعمار ، لا يبالى مر الشهور والأعوام ، قدر ما يبالى استمتاعه بالحياة وفق هواه ، فى نطاق يومه المشهود ، بل فى حدود لحظاته السانحة !

حسبك من السيد دكرورى أنه رجل واجب ، وأنه عفيف أنوف ، وهو فى ترفعه عنيد إلى الغاية القصوى ، أما كسبه فيأتيه من موردين ، الأول أجره على حمل ألواح الثلج ، والآخر ما يمنحه إياه رواد القهوة لقاء ما يقوم به لهم من أعمال وخدمات .

والسيد دكرورى لا يؤدى كل عمل يطلب إليه أن يؤديه ، فله مزاج خاص فيما يقبل أن يعمل ، ومحال أن تقسره على عمل يأباه ، حتى لو استعنت على ذلك بأن تسوقه إلى دار الشرطة سوقاً . فهو يظل ماثلا أمامك كالصنم الصلد ، يطالعك بوجهه المستطيل الأصم ، لا تطرف له عين ، ولا تختلج فيه جارحة ، فلا تملك أنت إلا أن تطلق ضحكة ساخرة جوفاء ، ولا يملك هو إلا أن يحييك بأحسن من تحيتك أو يردها عليك ، فيعلو صوته بضحكة طائشة شوهاء ، وهو يتحسس بأصابعه العابثة قمة الشهامة القرعاء !

والرجل يعلن فى كل مناسبة ، بل فى غير مناسبة ، أنه يرفض الهبات والعطايا ، فليس هو بالمستجدى ، ولكنه رجل يكسب رزقه بعرق الجبين. وما يمد يده إلى درهم إلا إذا كان جزاء حلالا على عمل نهض به ، وإنه لرجل قنوع بما يناله من كسب وإن قل ، فإذا توافر له فى يومه الرزق بادر إلى إنفاقه مجهزاً عليه وإن كثر ، فنظرية الاقتصاد أو الادخار لا تعرف إلى عقله طريقاً ، وأما الحكمة القائلة بأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم



الأسود ، فلا مكان لها فى حياته ، وهو يعتبر أيامه كلها بيضاً لن يغشاها سواد . . .

وإذا لم يكن بد من حكمة يطمئن إليها ويتخذها شعاراً له فى سلوكه الاجتماعى ، فهى الحكمة القائلة : اصرف ما فى الجيب ، يأتك ما فى الغيب !

وإن حرصه على أداء واجبه على الوجه الأكمل ، ليجعله يستمسك بالدقة فى إيصال ألواح الثلج إلى القهوة فى المواعيد المرسومة ليل نهار ، وليست عنده ساعة يستعين بها على معرفة المواقيت ، ولا هو يرضى أن ينزل عن كبريائه ليسأل أحداً ممن يحملون الساعات ، وما أغناه عن التعرف والاستخبار ، فهو قادر على تعيين الزمن بحاسة طبيعية تخلقت فيه ، ونمت نموها ، حتى صارت عنده حاسة سادسة !

يغادر المصنع فى الوقت المحدد ، وعمود الثلج على كتفه ، ويصل إلى القهوة فى الساعة المنتظرة ، لا يستقدم لحظة ، ولا يستأخر ، وإذا رأيته وهو يتسلم من المصنع لوح الثلج ، ألفيته يعنى به كأنما هو طفل تترفق به أم رءوم ، يتناوله متلطفاً ، ثم يدرجه فى الخيش المعد له كأنه قماط يحميه من عاديات الجو ، وينطلق به فى الطريق انطلاق الصاروخ لا يعوقه شىء . فالمعابر مفتحة الأبواب أمامه ، والسابلة من حوله تتباعد وتتفرق مخلية له وجه السبيل . ويظل على حاله حتى يبلغ محطة الوصول ، شامخ الأنف ، يملكه شعور الانتصار ، وما إن يمر بحماله ، وجسمه مندى بقطرات الماء البارد ، حتى تحس نسمة رطبة تهب نحوك فى يومك القائظ ، فتكسبك الراحة والانتعاش .

وأسعد الأيام عند « دكرورى » هى الأيام التى يتلهب فيها الجو : تلك أيامه المباركة ، فيها يبلغ ذروة نشوته ، فهو يجوز بين الناس متخطر يحمل لوح الثلج ، وهم يصاولون سياط الشمس الحامية ، ووهجها اللاسع

فيرميهم بنظرات تنفخ واستعلاء ، ولسان حاله يقول : أين أنتم منى أيها المساكين التعساء ، إنكم فى النار تصلونها ، وأنا منها فى بردوسلام !

ويوماً صحا السيد دكروري من نومه ، على مألوف عادته ، وزايل مأواه يتثاءب ويتمطى ، فإذا ضوء الشمس الساطعة يجبهه ، وإذا الهواء الساخن الثقيل يلفح وجهه ، واستبان له أنه فى يوم من أيام الصيف العاتية ، ولاحت على فمه بسمة فيها السخرية وفيها التحدى ، وحث إلى المصنع خطاه ، وكلما أمعن فى السير أحس وطأة الجو الحار تحيط به ، فلقد انبرت الشمس تصب على الأرض جام الغضب . . . وما كان ذلك بالجديد على السيد دكروري ، فلم يعقه عن أداء واجبه ، وبلغ مصنع الثلج ، وسمع رئيس العملة يقول : « شد حيلك يا دكروري ، أسرع حتى لا يذوب اللوح ! »

فحدق الرجل إليه ما وسعه أن يحدق ، وهو يجيب : « لوح الثلج معى يزيد ولا ينقص ، مهما يتغير الجو يا معلم . . . »

فقال رئيس العملة : « حقا إن جسمك مصنع ثلج آخر ، يعوض اللوح عما ينقص منه ! »

وأتبع قوله ضحكة مجلجلة ، ولكن « دكروري » قابلها بصمت وجمود ، وغادر المصنع صلب الملامح ، فى نظراته جد وتصميم ، واللوح مستقر على كتفه ، ملفف فى خيشه ، وأحس برد الثلج يرطب جسده ، فنشط فى السير ، وهو يمد خطوه ويضرب الهواء بيمناه ، كما يضرب الملاح الدرب موج البحر بمجدافه الشديد .

وطاف برأسه خاطر : لماذا لا يغير خط السير ، فيختزل الطريق ؟ إنه على علم بأن ثمة سبيلا آخر غير مطروق إلى الشاطئ ، لو سلكه لبلغ القهوة فى زمن أقصر . . . لم يسبق له أن اتخذ هذا السبيل ، ولكن ماذا عليه إن فعل ، وهو ابن المنطقة ، لا يخشى على نفسه فيها من شىء ؟

سيبلغ القهوة قبل الموعد المألوف على الرغم من وقدة الحر ، ولن ينقص لوح الثلج إلا بعض قطرات . . . ستقع المعجزة ، وإنه لصانعها . . . سيفوز بالبطولة ، وسيظفر من القوم بالتمجيد والإكبار .

وما عتم أن أنفذ الفكرة ، وسار على الدرب الجديد ، وقطع شوطا فيه ، وكان كلما دفع بخطاه اشتدت مغالبة الهواء الساخن له ، فالطريق مفض إلى الخلاء ، وفوق ذلك فهو غير معبد ، تسيخ الأقدام فى رماله ، إلا أن السيد دكرورى لم ييأس ، وواصل سيره ، محدًّا من عزمه ، مستمدًّا من ذلك العمود البلورى المستريح على كتفه ما يبعث فيه النشاط والانتعاش .

ولاطف العمود بيده وهو يبتسم . . .

وهبت عليه بغتة عاصفة رملية طمست عينيه ، فتريث قليلا يمسح وجهه ، ثم استأنف السير ، وقد هدأت العاصفة .

وغاصت قدماه فى رمال حارة كاوية ، فكأنما هو يمشى على جمر يتضرم . . .

وتقاطر الماء على كتفه غزيراً ، فامتزج بقطرات العرق المنبثق منه ، وما هو إلا أن ألفى ثيابه لاصقة بجسده ، كأنما هى قطعة من جلده . . .

وتحسس عمود الثلج ، فرجف قلبه ، وسرعان ما ضاعف من جهده ، واضطر أن يقف هنيهة يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، ورمى ببصره يمنة ويسرة : بقعة جرداء لا يتبين فيها إلا عتمة بسطتها ذرات الرمال الدكناء . أية وجهة يولى ؟ إنه لا يخطئ أبداً ، فطرته دائماً تهديه ، أليس فى قدمه إبرة مغنطيسية خفية تتجه به إلى بر الأمان ؟

وعاد يتحسس عمود الثلج ، فهاله الأمر . . . يا لله . . . إن العمود ليتضاءل ، بل ينهار . . . فابتعث من ضعفه قوة ، وزج بقدميه المكدودتين يقتعلهما من الرمل كما يقتلع جذر شجرة من باطن الأرض .

ليبلغن القهوة لا محالة . . .

ولكن . . . واأسفاه . . . لن يتسنى له تسليم عمود الثلج صحيحاً كاملا !

و واصل السير ، وقد ار بدت سحنته الخرساء .

ومضى يستهدى فطرته فى عرض الطريق. . .

ولكن ماذا تستطيع الفطرة أن تصنع فى تلك المتاهة العتيدة ؟

وعن له أن يعود إلى الطريق المعبد . . .

وأراد أن يحدد مكانه؟ : أين هو ؟ فأعياه الأمر ... أتكون الإبرة المغنطيسية فى قدميه قد أصابها عطب !

إنه ليحس الضياع ، بل يحس بأنه حبيس سجن عظيم ، له أن يدور فيه ما شاء ، دون أن يتخطى أسواره . . .

أليس فى مستطاعه حقا أن يخلص من ذلك السجن الرهيب ؟

أليس ثمة من حيلة تعينه على أن يبلغ الشاطئ المفقود ؟

الخلق هنالك متجمعون يرتقبون مقدمه، وإن عددهم ليتضاعف كلما مر الوقت ، فقد أصبحوا حشداً عظيماً ، وسيلقونه بالهتاف ممجدين جهاده الكبير . . . أتراه يخيب ظن الناس به؟

وانطلق فى الطريق ، وقد شد من عوده ، وعلا بهامته ، والإرهاق آخذ منه كل مأخذ .

وتكاثفت العتمة من حوله، عتمة الرمال التى تذروها الرياح ، فكأنما الليل مقبل يجر وراءه أكداس الظلام . . .

وعزت عليه الرؤية الواضحة ، وجعل يدور فى تلك الدوامة الغبراء ، محاولا جهده أن يتنكب عن مواجهة العاصفة، فهو يحيد عن مهبها ريثما تسكن ، وهو يجنح إلى وجهة تحميه ما أمكن . . .

وتشابهت تجاه عينيه كثبان الرمال ، وأدرك أخيراً أنه قد ضل حقا

معالم الطريق .

وشعر بأن شفتيه يعروهما جفاف ، وأن لسانه يجمد ، وحلقه يتشقق ، بل شعر بأن أضراسه تلوك حبات الرمال ، ولا يستطيع أن يلفظها ، وأن جسمه الذى وصفه رئيس العملة بأنه مصنع ثلج قد استحال فرناً يعمل على إذابة الثلج .

وانتظمته رجفة عارمة . . .

وعاد يتحسس العمود على كتفيه ، فراعه ما ناله من ضمور . . .

وكأنما أصابه مس ، ولم يعد له من شاغل إلا ذلك العمود الذى يكاد يفنى ، فجعل يتفقده فى اللحظة بعد اللحظة ، ويتلقى ماءه المتسايل ، كأنه جريح يفقد حياته نزفاً .

وأخيراً ألقى جسده يتهاوى وسط كثبان الرمال ، وأنزل العمود عن كتفه ، وطفق يعيده أدراجه فى خرقته ، وإن لم يبق منه إلا حطام ، واحتضنه بحنان وهو يهمهم :

« لن تخوننى . . . يجب أن تقف هذا النزف المستمر . . . تعقل قليلا ! » .

وأدنى العمود من وجهه ، وما كادت بقاياه الباردة تلامس جذوة شفتيه ، حتى أنشب فى الثلج أسنانه ينحت منه فى شراهة مسعورة ، ويمتص عصيره كأنه سفاح راح يعب من دم فريسته عباً . . .

وفاء « دكرورى » لنفسه ، فتعاظمه الجرم الذى اقترف ، فنحى العمود عنه ، وهو يختلج اختلاج صريع ، وانكب على وجهه ، يملكه شهاق . . .

ثم تحامل على ساقيه متثاقلا ، ومشى فى بطء وإعياء . . .

عليه أن يعود إلى القهوة ، مهما يكن من أمر . . .

عليه أن يسلم لوح الثلج ، وإن لم تبق منه إلا أنقاض . . .

عليه أن يؤدى واجبه ، و إن كانت الخرقة التى حملها على كتفيه ليس فيها إلا عصارة ماء . . .

واستبد به عناد ومكابرة ، وقلبه يدق دقا عنيفاً . . .

واشتدت العاصفة الهوجاء ، تحمل معها الرمال ، وتدور بها كأنها دوامات . . .

وتخبط « دكرورى » فى سيره تخبط مخمور ، ثم انهوى . . .

وانبطح على وجهه ، والخرقة المبللة فى حضنه ، يحوطها بذراعيه . . .

وتراكمت الرمال رويداً على تلك الكومة الآدمية ، كأنما تصونها من عبث الطبيعة العشواء !

وما لبثت الكومة الآدمية تحت الرمال المنهالة عليها أن خفت حركتها ، ثم سكنت سكون الأبد . . .

ولأول مرة فى تاريخ المصيف ، سجل أهل الشاطئ نبأ له خطر :

أن « دكرورى» حامل الثلج المثالى لم يصل إلى القهوة فى موعده المحدود !

القبلة الأخيرة

يا سيدى ،
و يا أبى ،
و يا حبيبى الكبير .
وهل يسوغ لى أن أناديك إلا بهذه الألقاب مجتمعة ؟
أنت سيدى ، لأنك آويتنى فى دارك ، وأنا يتيمة ، معدمة ، ليس لى عائل.
وأنت أبى ، لأنك شملتنى بحنان أبوى مصفى ، ونشأتنى تنشئة كريمة ، وأتحت لى أن أستكمل من التعليم والتهذيب قدراً غير قليل .
وأنت حبيبى الكبير ، لأنك وحدك الذى استطاع أن يلمس شغاف قلبى ، وأن يبعث فيه نشوة الحب الجياشة ، تلك النشوة التى فسحت لعينى آفاقاً رائعة فى دنياى .
وإن ندائى لك « يا حبيبى الكبير » هو فى الحق النداء الذى لا يضارعه عندى نداء .
هو النداء الذى أخصه بأسمى درجات الإعزاز والتقديس .
دعنى إذن أكرر صائحة من أعماق قلبى :
يا حبيبى الكبير .
هذه كلمات أخطها لك الساعة على عجل ، فالفجر أوشك أن

بلوح ، ثم تطلع الشمس ، ويبدأ النهار التعيس الزاخر بالهموم الثقال .

كلمات أخطها لك قبل أن يحملوك إلى مقرك الأخير ، قبل أن يحاولوا الفصل بيني وبينك ، قبل أن يحجبوك عني إلى الأبد :

ولكن هذا محال .

ليس ثمة من قوة تستطيع أن تفصل بيننا ، فسنبقى متصلين على الدوام .

وإني لأطمح أن تفسح صدرك لكلماتي تلك ، وأن تعيرها جانب اهتمام .

إنها من ربيبتك الصغيرة ، تلك الفتاة التافهة الضئيلة التي لم تحظ بنصيب من رشاقة أو جمال ، ولم توهب من المزايا ما يجعلها جديرة منك بالتفات .

بيد أن هذه الفتاة التافهة الضئيلة وهبتها السماء قدرة على أن تحبك ، وحملتها أمانة ذلك الحب نحوك ، فلم تقصر في أداء الأمانة على الوجه الأكمل .

أنا الآن راجعة من مخدعك .

تركتك حيث أنت ، ممدداً على فراشك ، مستغرقاً في نومك الذي لا صحوة بعده .

تركتك لأختلس مما بقي من الوقت لحظات أنفض فيها عن نفسي سراً ظل مكتوماً في طوايا قلبي ، لم أبح به لإنسان .

آن لي — وقد عاجلتك المنون — أن أتكلم .

وليكن حديثي إليك ، إليك وحدك ، وسأحرص على أن يظل بيني وبينك ، لا يشركنا فيه أحد .

تمر حياة المرء منا راتبة ، تعيد أيامها ، وتكرر لياليها ، فلا نوليها انتباهاً ، ولكن نتابعها في بلاهة ، ثم يحدث زلزال مفاجىء ، يقضي على

هذا الرتوب الممل ، فيكون التحول العميق المفاجئ ، دفعة واحدة ، وتشق الحياة لها مجرى غير مجراها المألوف .

حدث هذا الزلزال حين جاءوا بك إلى الدار ، جثة هامدة ، وقد دهمك الموت بغتة .

شاهدتك محمولا ، فلم أع أول الأمر ما جرى ، وقصارى ما فهمته أنك صريع غيبوبة ، وأنك فى حاجة إلى قسط من الراحة ، فقد كنت رجل أعمال لا تهدأ ، قسوت على نفسك ، ولم تعرف لبدنك عليك حقا .

هرعت أسوى لك الفراش ، ثم رأيت الجمع يمددونك فوقه ، وعندما بسطوا عليك الملاءة البيضاء نزعتها عن وجهك بشدة .

كيف يمنعون هذا الوجه الصبيح أن يصافحه الهواء والنور ؟

ولكنهم أصروا على أن يحجبوا محياك .

ووضح لى فى الحال : لماذا يفعلون ؟

فتهاويت على الأرض ، فاقدة الوعى .

. . . الوقت يمضى سريعاً ، ولزام أن أتم كلماتى قبل أن تفارق الدار .

علىّ أن أشرح موقفى منك ، وأن أجلو خلجات نفسى لك .

أفعل ذلك لأريح ضميرى .

أما أنت فلا أدرى أيقع هذا الأمر منك ببال ، أم لا يعنيك منه قليل ولا كثير ؟

هل دار فى خلدك أن تلك الفتاة التافهة الضئيلة التى عاشت معك شبه منسية ، ترعاها من بعيد ، وتنظر إليها من عل ، كانت تضم جوانحها على عاطفة قوية نحوك ، على حب عارم لك ؟

هل عنّ لك يوماً أن ترسل نظرة فاحصة ، تسبر بها أغوار نفسى ،

لينكشف لك سرها الخفى ؟

من أنا حتى توليني تلك النظرة الفاحصة ؟

أين أكون منك ؟ من ذلك العملاق العظيم الذى ملأ الدنيا وشغل الناس !

أنت يا من منحك الله كمال تكوين ، ورجاحة عقل ، واقتداراً على النهوض بجسام الأعباء .

أنت الذى كنت لا يعنيك شيء إلا نفسك . وما كان لى ولا لغيرى أن يملك عليك شيئاً من أمرك .

كنت أنانيا صاحب زهو وخيلاء .

بيد أنك كنت رائعاً فى أنانيتك ، عظيماً فى زهوك وخيلائك .

إنى أمجد فيك خلالك جميعاً على السواء ، تلك التى يحمدها الناس لك ، وتلك التى ينكرها الناس منك .

إنك فى عينى رجل مبرأ من النقائص والعيوب .

وأعترف لك بأنه ما من مرة لقيتك فيها ، إلا استولى على كيانى كله شعور ساحق من تهيب وخشوع ، حتى لا أطيق أن أرفع ناظرى إليك ، فكيف كنت أستطيع أن أجاهرك بمكنون قلبى ؟

هل خطر ببالك ما عانيت فى حبك ؟

فى كل ليلة كنت أرتقب موعد عودتك ، وكم سهرت الليالى قرب الباب أنتظرك . . . أنتظر تلك اللحظات القصار التى أراك فيها ماضياً إلى حجرتك ، تحييني بابتسامتك العابرة تحية المساء .

كانت تلك اللحظات تمر بى ، والليل ساج ، والأضواء خافتة ، والدار يشيع فيها صمت وهدوء ، فأحس نفسى تنتفض ، وتتراءى لى أخيلة وأحلام ساحرة ، وأجدنى لا أعدل بتلك اللحظات أثمن ما فى الأرض من كنوز .

أكنت على علم بما يدور بينى و بين نفسى ، وأنا أرتقب إيابك إلى الدار فى جوف الليل الساجى ؟

طالما تساءلت :

أين تقضى هذه الساعات الطوال ؟

أفى النادى حقا ، كما يتناقل أهل الدار ، أم هناك — وراء سهراتك المديدة — سر دفين ؟

أليس من المحقق أن رجلا رائعاً مثلك ، لا تخلو حياته من امرأة ؟

أفتاة هى فى مثل سنى ، فتاة تبادلها القبلات ، وتطارحها حديث الحب والهيام ؟

و يشب بين جوانحى حريق .

وأحس البغضاء نحوك .

وأقسم لألقينك بالباب عند عودتك بوابل من اللعنات .

وأمثل خلف الباب أترقب ، ومشاهد غرامياتك تتوالى أمام عينى ، ينسجها خيالى الملهوف فى غلو و إسراف .

وتخفق خطاك .

وأعد العدة لاستقبالك . . . عدة الهجوم والاقتحام .

ولكن ما إن ينفتح الباب ، وتهل بقامتك المبسوطة ، و وجهك النضر ، حتى أحس التخاذل والاستخذاء ، بل أحس الثورة على نفسى ، كيف سولت لى تلك النفس الغريرة الغشوم أن أظن بك الظنون ، وأن أناقشك الحساب ؟

أنت فوق كل سؤال .

وأنت فوق كل حساب .

و يملكنى شعور ندم وتكفير .

وأهم بأن أهبط عند قدميك ، أقبلهما ، وأمرغ وجهى فيهما . بيد

أن شبحك العظيم يتابع الخطى إلى حجرتك ، وما أسرع أن تطويك الحجرة عن ناظرى .

فى غير مستطاعى أن أخط لك أحداث حياتى كلها معك .

ويا لها من أحداث جليلة ، لابستها عن كثب منك ، وأنت عنها غافل لا تحس لها من وجود .

إن الوقت يمر سريعاً ، ولا بد أن أتم رسالتى ، كى أتأهب لتلك اللحظة الرهيبة . . . لحظة الوداع والتشييع .

لا يتسع ما بقى من وقت للإفضاء بكل ما يكنه صدرى .

ولكن هناك سرًّا لا مندوحة من أن أبوح به لك .

واجب الوفاء يقتضينى أن أطالعك بهذا السر ، رضيت أم كرهت .

ذلك أنى لم أحمد شيئاً فى حياتى ، قدر حمدى لما حل بك !

نعم . . . إنى لأجهر بهذا القول ، دون تهيب .

يسرى فى نفسى شعور ارتياح ليس بعده ارتياح ، لعلمى أنك فارقت الدنيا ، ولم يبق لك فيها من حول ولا طول .

موتك يا حبيبى الكبير ، ويا أعز من عرفت فى أيامى ، قد أخضعك لسلطانى ، أخضع العملاق العظيم لتلك الفتاة التى لم تكن تعدها إلا ظلا ناصلا من ظلالك .

لقد تغلبت عليك الآن الفتاة التافهة الضئيلة المنسية ، واستطاعت أن تحقق أمنية لها ، كانت تظنها وهما من قبيل المحال ، أو حلماً عصىّ المنال .

إنها أمنية العمر .

الكارثة التى أصابتنى بموتك ، قد استحالت فى لحظات خاطفة ، فإذا هى ذروة السعادة والمتعة والانتصار .

لم يكن لى من سبيل إلى الظفر بتلك الأمنية ، وأنت فى قيد الحياة .

أما اليوم ، فقد دانت لى ، ولم يحل بينى وبينها عائق :
يطيب لى أن أتحدث إليك فى إفاضة .
فأصغ إلىّ .

كنت الساعة أجلس على مقربة من جثمانك ، أقضى سهرتى الأخيرة معك ، وليس فى الحجرة سواى ، وهذه الشمعة التى تترنح ذبالتها عند رأسك .

أهل الدار فى شغل بتدبير ما يكون فى صباح غد .
السكون فى حجرتك مخيم .

وأنت بجسمانك الرائع ممدد على الفراش ، تحجبك الملاءة عن الأنظار .

ليس بينى وبينك غير خطوتين اثنتين .

وبينما أنا على تلك الحال ، اتقد فى نفسى إحساس غريب مخيف مفاجئ . فنهضت تاركة مقعدى ، وتقدمت نحوك ، كأنما مسنى سحر .

ونضوت عن وجهك الغطاء ، وطالعنى محياك ، كما هو ، لم يغير الموت من سيمائه شيئاً ، بل لقد زاده من وسامة ونضرة .

وتراءت عليك بسمة خلابة .
ولبثت أشبع ناظرى من قسماتك .
ووجدتنى أنحنى عليك، وأضع فمى على شفتيك .

وغبت معك فى قبلة عارمة . . . قبلة تجمعت فيها مشاعرى . . .
عصارة ما اعتلج فى قلبى لك من عاطفة طائشة هوجاء .
وظللت وقتاً لا أدرى مداه ، والقبلة فى عنفوانها .

وإنه لمن عجب أن أحس من شفتيك دفء الحياة ، وأن أشعر بهما تختلجان وتستجيبان لى ، فتشيع النشوة فى كيانى كله .

ها قد نلت الليلة منك ما كنت أشتهى ، أيها المتعالى الجبار .

ضننت عليّ بهذه القبلة فيما مضى ، واليوم انتزعتها منك انتزاعاً ، وأرغمتك على أن تشركنى فيها كما أهوى !

ها قد أخضعتك لإمرتى ، أيها الحبيب العاتى ، مرة واحدة ، وهى حسبى وكفى .

إنها قبلتى الأولى ، والأخيرة ، إليك .

وإنى لأختم لك بها قبلات الغانيات اللواتى شغفتهن حبا !

والآن ، وقد حظيت بأمنيتى الكبرى ، ونلت القبلة منك ، لم يعد لى فى الحياة من مطمح أعيش له .

ضوء النهار يكتمل فى الأفق .

خطى القوم فى طريقها إليك ، لتجهيزك .

عليّ أن أجهز أنا نفسى أيضاً . . . لأصحبك صحبة أبدية ليس بعدها انفصام .

سأتبعك حتى مرقدك الأخير .

سأمددك فيه على مهاد وثير .

ثم أضع الرسالة على صدرك .

بهذا أكون قد أديت واجبى لك .

سألحق بك وشيكاً ، حيث أصل روحى بروحك فى ذلك الفناء النيّر . . . عالم البقاء والخلود !

الرسالة . . .

حين مات عنها زوجها ، وزفت ابنتها الوحيدة إلى عروسها من بعد ، تخلت هى عن مسكنها فى العاصمة ، واختارت لها شقة صغيرة فى ضاحية « الزيتون » ، فكانت تحيا هنالك فى شبه عزلة ، لا مؤنس لها إلا ذكريات أيامها الخوالى .

ولعل ذكرى واحدة بين ركام ذكرياتها المختلفة ، ذكرى فريدة غالية ، هى التى احتلت من نفسها أعز مكان .

إنها ذكرى حادث كان أخطر ما جرى عليها من أحداث ، وكان أعمقها أثراً فى توجيه حياتها وحياة ابنتها الوحيدة وجهة أخرى .

وكلما استعادت مشاهد هذا الحادث ، أحست ابتسامة ترف على شفتيها الهادئتين . . . ابتسامة العجب من تصاريف القدر !

رب خطإ تافه غير مقصود يجر المرء إلى هاوية الخراب والدمار ، أو يهبه نجاة تنفتح بها صفحة جديدة فى سجل الأيام .

أثمة يد خفية لربان من السحرة يدير دفة السفينة ، وهى تشق الموج فى عباب الحياة ؟!

كم لتلك اليد من ظواهر معابثات تنطوى على تدبير حكيم !

والآن وقد انقضت سنون طوال على ذلك الحادث الفذ ، يطيب للسيدة « سعدية » حرم الأستاذ « يسرى » أن تبتعثه بين الفينة

والفينة من غيابة الماضى ، وتجلو عنه غبار النسيان لعينيها خلال حلم من أحلام اليقظة ، فى دعة وسكون .

منذ ثلاثين عاماً ونيف ، وقد جاوزت السيدة « سعدية يسرى » الأربعين من عمرها ، فى يوم قائظ ، والساعة تقارب الثالثة بعد الظهر ، بارحت دارها ، قاصدة « مكتب البريد » ، وإنها لتحرص دائماً على الخروج فى تلك الساعة ، كلما أزمعت أن تزور ذلك المكتب ، وما أكثر زياراتها له ، مؤثرة جهد إمكانها جانب التخفى والكتمان .

ولم يكن اختيارها لتلك الساعة عبثاً ، فهو وقت القيلولة : فيه يغفو زوجها الأستاذ « يسرى » غفوة الظهر ، وفيه تخلو ابنتها الوحيدة « يسرية » لاستذكار دروسها ، وهو الوقت الذى لا ينشط فيه الناس لتتبع الخلق ، وتقصى ما وراءهم من أسرار .

وياله من سر ، ذلك الذى تحاول السيدة « سعدية يسرى » أن تستأثر به لنفسها . . . إنه سر حياتها الكبير !

ولما بلغت « مكتب البريد » توخت « شباك الرسائل المحفوظة » ، وقلبها سريع الخفوق ، وسألت :

أثمة رسالة باسمها ؟

فلم تمض لحظات حتى مد إليها عامل البريد يده برسالة ، فتناولتها فى عجلة ، وسرعان ما دستها فى أعماق حقيبتها ، وحثت الخطا إلى البيت ، تنتهبها أشتات الخواطر والأفكار . . .

هذه رسالة ممن أولته قلبها كله ، من حبيبها الأوحد . . .

أما لقاؤها له ، فلم يكن إلا بين فترة وفترة ، فهو من أهل الثغر ، لا يأتى إلى العاصمة إلا لماما . وإذا التقيا كان كل حظهما أن يتطارحا أحاديث الشوق ومناجيات الهوى ، بمنأى عن أسماع الفضوليين وأنظار الرقباء .

إنها جد حريصة على أن تظل علاقتها به فى طى الخفاء .
حسبها اليوم أن تحيا فى أخيلة جميلة تهيئها لها تلك اللقيات الخاطفة، فتشيد منها قصور السعادة والهناء ، مرتقبة يوم الخلاص ، يوم تتحقق لها المتعة الكبرى فى لقاء ليس بعده انفصام .
لقد واثقت حبيبها أن تهجر عش الزوجية ، وتلحق به ، لتقضى معه ما تبقى لهما من أيام فى بلد خارجى بعيد ، حيث يمارس عملا تجاريا يدر عليه الكسب الموفور .
ها هى ذى تنتظر منه أن يحدد الموعد . . . أن يعين اليوم الذى تبدأ فيه المغامرة البهيجة الحاسمة .
كفى ما مضى من أعوام كثيرة قضتها فى كنف زوجها الذى تقدمت به السن ، وطحنته الأعباء . . .
تزوجها يافعة ، لم تكد تحبو إلى السابعة عشرة ، وهو يومئذ رجل مكتمل النضج يربى على الأربعين .
أليس من حقها الآن ، وقد اعتصر زوجها الأنانى رحيق شبابها ، وكاد يلقى بها نفاية لا مأرب فيها لأحد ، أن تحول بين نفسها وبين التردى فى تلك الوهدة السحيقة ، وهدة الإهمال والضياع ، وأن تستخلص من أيامها الباقية فرصة للاستمتاع بالحياة ؟ . . .
هى اليوم فى أوج ازدهارها الأنثوى ، وقد غدت ابنتها فتاة فى السادسة عشرة توشك أن تكون لها حياتها الخاصة بعد سنوات قلال . أما زوجها هى فقد رانت عليه شيخوخة ثقيلة لاشفاء له منها إلا بالإذعان لما تقضى به الأقدار .
ماذا تجنى من عيشتها الحاضرة ، إلا أن تقبع فى ذلك الركن المعتم الموحش ، ركن الزوجية الجدباء ؟
ما أشبه هذا الزوج بطائر من طيور الأساطير ، علا فى الأفق حيناً



من الدهر ، يسبح في الضوء الساطع ، ويملأ صدره بالهواء المنعش ، ثم وهنت قواه ، فانهوى جاثماً على الأرض ، مرخياً جناحيه ليخفى تحتهما تلك الزوجة المنكودة ، فيحول بينها وبين الاستمتاع بمباهج العيش ، واسترواح نسيم الحياة .

لقد مكثت فى كنفه حتى اليوم مخلصة له وفية ، واستنفدت فى صحبته فورة الصبا وزهرة الشباب . . . وكفاها ذلك من بذل وفداء .

إن لنفسها عليها حقا ، وقد آن لها أن تلبى نداء رغباتها الطبيعية المفروضة ، وهى تحس الحيوية فى أوصالها تضطرم ، مهيبة بها أن تنطلق مع هاتف الحب ، يطرب سمعها بأغاريده العذاب .

هذه فرصة تسنح لها ، ولن تدعها تفلت منها .

يممت صوب دارها محتضنة حقيبتها ، كأنما هى بين يديها وليد تحميه من مخاطر الطريق .

ستحتويها حجرتها بعد قليل ، وستخلو إلى رسالتها تبسطها أمامها لتقرأ النبأ العظيم .

وتابعت خطاها ، وقلبها يكاد يثب من بين جوانحها وثباً .

وعادت الخواطر فى رأسها تتداعى .

ربما أنكر عليها منكر أن ترضى ذلك السلوك ، فتهجر زوجها بعد عشرة امتدت سنين بعد سنين ، زوجها الذى تعلق بها ، وتدله فى حبها ، وأسبغ عليها حنانه ، ووفر لها عيشة هناء ورفاهية ، زوجها الذى احتمل من نزقها ومن بوادرها ما يضيق به صدر الحليم ، فكان يبالغ فى تدليلها والتلطف بها ، محققاً ما كانت تهفو إليه من مطامح وأطماع .

هذا حق ، وما فى مستطاعها أن تجحد منه شيئاً .

ولكن هذا الزوج لم يكن يملك أن يفعل غير ما فعل ، ليسوس

زوجة أضفت عليه من فتنة الأنوثة وروعة الجاذبية ما أذاقه طيب العيش ، وأناله بهجة الحياة .

لقد ردت له جميله أضعافاً مضاعفة ، ولم يبق عليها أن تضيف جديداً .

. . . وكانت قد بلغت الدار

وتسللت إلى حجرتها فى تلصص .

وما هى إلا أن أقفلت وراءها الباب بالمفتاح .

واستخرجت الرسالة من أعماق الحقيبة ، وما لبثت أن فضت الغلاف بأنامل راجفة ، وما أسرع أن تصيدت عينها هذه الكلمات :

« موعدنا يوم الخميس فى الثالثة بعد الظهر . . . لقد أعددت كل شىء . . . سنسافر من فورنا إلى المكان المتفق عليه ، حيث نبدأ معا رحلة العمر ، نستمرئ رحيق الحب الهنىء . . . »

ووضعت الرسالة على صدرها ، ودقات قلبها تتسارع ، وفى خاطرها تتوارد أخيلة ومشاهد .

ولم يطل بها الوقت على هذه الحال .

عادت إلى الرسالة تقرؤها .

وفى هذه المرة اختلج جسدها اختلاجة دهشة .

أهذا خطه الذى ألف أن يكتب به رسائله إليها ؟

وأقبلت على الرسالة تتفحص كتابتها تفحص فنى خبير .

وكلما أنعمت النظر ودققت فى الملاحظة ، ازدادت من شك .

وتفاقم اضطرابها .

أتراها مكيدة ينصبها لها عاذل حسود ؟

ولاحت فى رأسها فكرة .

واختطفت الظرف الذى كانت تنطوى فيه الرسالة ، وقرأت على

ظهره ما يلى :

« الآنسة يسرية يسرى » . يحفظ بشباك البريد » .

وعادت تقرأ ، وتقرأ ، وهى لا تصدق ما ترى .

وغامت أمام عينيها الدنيا ، وتفصد من جبينها عرق .

وتزاحمت عليها الخواطر من كل صوب ، تناوشها بلا رحمة .

لقد كشفت عن سر ابنتها الخطير .

لولا أن موظف البريد اشتبه عليه الأمر ، بين اسمها « السيدة سعدية يسرى » واسم ابنتها « الآنسة يسرية يسرى » لبقى ذلك السر مصوناً لا تعلم به .

ها هى ذى تعلم الساعة — دون قصد — أن « يسرية » الصغيرة لها عاشق عتيد ، وهى التى لم تعد السادسة عشرة بعد، وإنه حقا لعاشق جرىء ، أعد لها عدة الهرب فى تدبير وإحكام . . .

يا له من اتفاق رهيب !

أم وابنتها تسيران فى طريق . . . طريق خطيئة ودنس !

كلتاهما تزمع ما تزمع الأخرى من أمر، وتتخذ ما تتخذ من حيلة ووسيلة!

وأخذت تروّح وجهها بمنديل .

وخطت إلى النافذة تنظر .

الهدوء يشمل الدار .

زوجها فى حجرته ، يواصل غفوته .

وابنتها على مكتبها تستذكر درسها . . . درس العبث والمغامرة .

حين كانت الأم فى مثل سن ابنتها تلك، كانت مثلاً للسذاجة والبراءة والصفاء ، ولم تكن تعرف من المغامرات الغرامية شيئاً قل أو كثر .

إنها لتعجب كيف استطاعت ابنتها أن تعقد تلك الصلة بصاحبها، وأن تبلغ معه مرحلة حاسمة ، دون أن يدرى ممن حولها أحد ؟ !

ألم تكن الأم تعايش ابنتها صباح مساء ؟

كيف مر ذلك كله ، تحت أنفها ، وهي جاهلة به ، أو ساهية عنه ؟

أكان من الممكن حقا أن يصل إلى علمها نبأ ، وهي التي قذفت بابنتها ، منذ أعوام خلت ، بين يدى حاضنة متهالكة عجوز ؟

أكان من الممكن أن تلحظ ما يجرى فى الخفاء ، وهى التى ظلت من أمرها فى شغل شاغل ؟

كل ما كان يملك عليها تفكيرها أن توفر لمظهرها التأنق والبهاء ، لتحتفظ ما استطاعت بما بقى من شبابها الذاهب مع الريح .

لقد اجتذبتها الحياة الصاخبة فى مجتمعات اللهو والسمر ، فانقادت لتيارها الجارف ، لا ترى فى مشاغل الأسرة والدار إلا الخواء والهباء .

وجعلت السيدة « سعدية يسرى » تعرض شريط حياتها ؛ كيف كانت بادىء بدء أما مثالية ، ترعى طفلتها أحسن رعاية ، وزوجة عفة وفية ، تتعهد زوجها أتم تعهد ؟ وكيف تغيرت بها الحال ، فألفت نفسها تتناءى رويداً عن ذلك الجو الأثوف ، جو الأسرة بما يشيع فيه من دعة ووئام ؟

شد ما سحرتها تلك النزعة الجديدة التى ألقت بها فى دوامة المغامرات ، تستمتع بنشوة الحب ومتعة الأحلام .

وتراءت لها فى تلك اللحظة هاوية سحيقة كانت تتسع فوهتها أمام عينيها ، وعن يمينها زوجها الشيخ ، وعن يسارها ابنتها اليافعة ، وهى تدفع بهما وبنفسها أيضا إلى حافة الهاوية ، ليسقطوا فيها جميعاً إلى الحضيض .

وترامت على المقعد ، تستبد بها نوبة نشيج . . .

واسترسلت فى بكاء . . .

وكلما انهملت من مآقيها العبرات ، اشتدت رغبتها فى البكاء الحار ، ولكأن روحها تغتسل فى فيض دموعها ، تلتمس الطهر والنقاء .

وأحست السيدة « سعدية يسرى » صوتاً ينبعث من حجرة ابنتها . . .
إنه صرير باب ينفتح .
وهبت دفعة واحدة .

وفى لحظة كانت أمام الحجرة ، فألفت « يسرية » على أهبة أن تبرح الدار .

ومثلت الأم تجاه ابنتها ، وقد انعقد لسانها لا ينبس .
وقالت الفتاة ، وهى تتفحص وجه أمها فى اضطراب :
ما بلك يا أمى ؟ إنك تبكين !

فسارعت الأم تمسح عينيها ، وقالت متهدجة الصوت :
إلى أين أنت ذاهبة يا ابنتى ؟

— إلى المتجر القريب ، أشترى بعض حاجات .
— بل إلى دار البريد ، لتتسلمى رسالة . . . لقد تسلمتها عوضاً عنك ! .

فشحب وجه « يسرية » ، وسرت فى أوصالها رعشة . . .

وأمسكت الأم ابنتها ، وقالت لها ، وهى تسوقها إلى الحجرة :
تعالى نتحدث قليلا . . .

. . . وبعد وقت خرجت من الحجرة السيدة « سعدية » وهى تحيط ابنتها « يسرية » بذراعها ، على حين كانت الفتاة خافضة الرأس ، كسيرة الخاطر ، تجفف بقايا دمع على خديها يترقرق . . .

ومالت الأم على « يسرية » تقول فى ملاطفة :

لقد حان أن يستيقظ أبوك . . . ألا تأتين معى إلى المطهى ، كى نعد له معا قدح الشاى ؟ !

تذكرة داود . . .

بجوار السور الذى يحيط بضريح « سيدى العتريس » فى فناء مسجد « السيدة زينب » يتراءى على الأرض رجل متهالك ، مسند ظهره إلى الحائط ، وقد استبدت به نوبة فواق عارمة . . . إنه شيخ عالى السن ، واهى القوى ، يرتدى حلة إفرنجية فضفاضة ، عاثت فيها يد البلى . تحتها قميص مفكك الأزرار ، تستبين منه رقبة عجفاء ضاوية ، ذات عروق نافرة ، وأنفاس الرجل تتلاحق وتنبهر ، وصدره يعلو ويهبط ، كأنه منفاخ حداد فى يد صبى عايث .

وإن السابلة لتمر بالرجل ، فتتأمله لحظات ، ثم تتساءل متعجبة من أمره ، وتمضى فى سيرها تتمصص الشفاه .

ومال امرؤ على آخر يقول :

لماذا لا يستدعون له الإسعاف ؟

فأطلق الآخر ضحكة مجلجلة ، وأجاب :

ما للإسعاف وله ؟ الإسعاف للخطير من الأحداث . . .

— أليست هذه حالة خطيرة ؟

— يبدو أنك لست من أهل الحى . . . تلك حال الرجل كما عهدناها منه . . . إنه يعانى داء « الزغطة » منذ مدة . . .

— عجيب . . . أليس له من علاج ؟

— يقال إنه جرب من الأدوية ما لا يحصى ولا يعد ، فلم يجد نفعاً . . . وأخيراً جاء يلتمس عون « سيدى العتريس » ، عله يلقى من

بركته الشفاء .

— وهل تظن أن « سيدى العتريس » سيشفيه من دائه ؟

— هذا فى علم الله .

ثم خافت بصوته ، يواصل قوله ، وهو يدنى فمه من أذن محدثه :

« سيدى العتريس » ولى صالح . . . ليس فى بركته من شك ، ولكنه لا يخلو من نزوات . . . إنه يمنح و يمنع وفق هواه .

فهمس الآخر بقوله :

ربما يكون لصندوق النذور أثر فيما يكون من المنح والمنع . . .

— إذا كان الأمر كذلك فلن ينال المسكين المصاب بالفواق نصيباً من الشفاء . . . ماذا معه من مال يواجه به « صندوق النذور » ؟

وتبادل الرجلان الابتسام ، ثم افترقا . . .

واشتدت بالمريض نوبة الفواق ، وأخذ جسمه يختلج اختلاجة محتضر ، فتجمع الناس من حوله ، وقد اشتد فضولهم ، وتعالى لغطهم ، وكأنهم جمع من الزوار فى متحف العجائب يتفرجون .

وصاح رجل أخذته الغيرة ، وظهرت عليه الحمية :

ألا تحضرون للمسكين شربة ماء ؟

وجرى غلام ، وما لبث أن عاد يحمل كوزاً ، ووجهه يتألق زهواً و بطولة .

وأخذ المريض جرعة من الماء ، ولكنه ظل على حاله صريع تشنجاته .

وازداد به الأمر سوءاً ، فجحظت عيناه ، وانتفخت أوداجه . وصاح الرجل الغيور :

ألا من طبيب يدرك المريض ؟

فقفزت الجملة هنا وهنا لك تتناقلها الأفواه ، فى تحمس ، من صف إلى صف ، حتى إذا بلغت آخر الصفوف تهاوت متخاذلة متزايلة ،

كموجة بلغت الشاطئ منهوكة القوى من طول تطواف .

واجتذبت الحلقة رواداً جدداً من عابرى السبيل ، وتعذرت الرؤية على كثير ، فأخذوا يشقون بمناكبهم الصفوف ، أو يشرئبون بأعناقهم ، نافذين بأنظارهم فوق الأكتاف ، حتى يتاح لهم أن يشهدوا هذه اللعبة البشرية التى لا تخلو من غرابة .

وارتفع التذمر من كل جانب ، وجعل الشغب يتفشى فى الحاضرين ، وكادت الفتنة يندلع لها لهيب ، لولا أن بدا طيف رجل يقتحم الحلقة ، وهو يبسمل ويحوقل ، جهير الصوت ، ثم قال :

دعوا الأمر لى . . .

فتطلع الجمع إليه ، ينظرون ماذا فى الأمر . وتابع الرجل خطاه ، وهو يجأر بقوله :

افسحوا لى طريقاً .

فانشق الجمع أمام الرجل ، كما انفلق البحر لموسى حين ضرب بعصاه .

وتداخل الهمس ، وتطاولت الرءوس ، واتسعت الأحداق ، وهو يعبر طريقه بين الأمواج .

إنه لضآلة شخصه ، وضمور عوده ، تكاد تخطئه العيون ، لولا تلك الجعجعة المنبعثة من حلقه كالرعد القاصف ، وإنه لتكسوه حلة رثة ، وعلى رأسه طربوش أفطس ، حائل اللون ، غارق إلى الأذنين . وفى يده سبحة ذات حبات غلاظ ، تتدلى بجانبه إلى كعبه .

وأخيراً وصل إلى مكان المريض ، فلبث ملياً يقلب فيه بصره ، وأزاح طربوشه إلى الخلف ، وراح يحك فروة رأسه .

وعلى حين بغتة ، شهق شهقة عنيفة ، رجفت لها قلوب الحاضرين ، وضرب جبهته بيده وهو يصيح :

وجدتها . . . وجدتها . . . إنها فى « التذكرة » .

ثم وجه إلى المريض قوله :

لا تخش من بأس . . . وصفة العلاج مسطرة فى « تذكرة داود » ! .
إنه دواء حاسم ، وعلاج ناجع ، وليس وراءه إلا الشفاء فى لحظات .

فلاحت بسمة هزيلة على محيا العليل ، وأوصاله لا تفتأ ترتعش .

واعتدل الولى الصالح فى وقفته ، وقد اتخذ سمت المفكر الغارق فى تأملاته ، ثم رفع صوته قائلا :

لا يملك علاجك إلا فتاة عذراء .

فانتظمت الجمع مسة كهربية ، وتساءلوا متلهفين :

كيف ؟ كيف ؟

فتطاول الولى بصدره ، وتنفخ كما ينتفخ الديك الرومى حين يتأهب لإطلاق هريره المعروف . ثم صاح :

دواؤك فى قبلة شيقة ترشفها من شفة عذراء . . .

فتراحبت بسمة المريض ، حتى فاضت على جوانب محياه ، بيد أن اختلاجاته لم تهادن كيانه .

وضج الجمع ضجيج الاستحسان ، لقد تطلع إلى أن يستمتع بمشاهدة ذلك المريض ، وهو يقبل عذراء قبلة مشبوبة تشبه قبلات أبطال الأفلام ، فى مواقف الصبابة والهيام . . .

ودار الولى الصالح بعينيه النفاذتين يتفقد بغيته فيمن حواليه ، وأحس شبحاً يحاول أن يتسلل من بين الصفوف ، نجاء بنفسه من المأزق ، فأطلق صيحة عارمة ، كأنها شبكة صياد ماهر يبسطها على فريسته ، وأخذ يردد :

قفى يا آنسة . . . لا تهربى من عمل الخير . . . لا تهربى من واجب إنسانى مفروض عليك أداؤه .

ورق صوته يقول :

أناشدك الله والمروءة أن تمدى لنا يد العون لإنقاذ هذا المحتضر من هلاك وشيك .

وازدادت نبرات صوته رقة وعذوبة ، وهو يمد إليها ذراعيه ضارعاً :

قبلة واحدة . . . قبلة واحدة لا تضيرك ، فيها الشفاء من داء عضال .

ورماها الحاضرون من عيونهم بشواظ ، فكأنما سحرتها أشعة مغنطيسية . وحوصرت فى الحلقة كل حصار ، فلم تجد لها منفذاً إلى خروج ، على حين كانت الأصوات تردد قولة الولى الصالح :

لا تهربى من عمل الخير . . . لا تهربى من واجب إنسانى مفروض عليك أداؤه .

وتقدم إليها الولى ، آخذاً بيدها ، وهى ممتقعة الوجه ، ترتعد ، وعلى قسماتها ذهول ، وجاز الرجل بها ، بين الصفوف ، حتى بلغ مكان المحتضر . ولم تلبث أن دفع بها على صدره ، فتلقفتها يدان مرعشتان باد عليهما التقلص ، وما أسرع أن حوتها ذراعان واهنتان . فلما أحس المريض بشفة نضرة ريانة تلامس شفته المصوحة العجفاء ، اتقدت مشاعره ، وانبرى يعب من المنهل العذب ما وسعه أن يعب .

وبغتة ثاب إلى الفتاة رشدها ، فنهضت تنتزع جسدها من حضن المريض ، وهى تنتفض من ذعر ، وطفقت تمسح فمها ، فى شدة وعنف وتكرار ، كأنما تميط عنه أوضاراً لحقت به ، والحاضرون يمنة ويسرة يتغامزون . . .

وكان الولى الصالح ماثلا يشهد الموقف ، وعيناه جاحظتان ، وأنفاسه متلاحقة ، ولعابه يتسايل على فمه . . . ثم راح يهمهم :

ستكتب لك فى صفحتك ألف حسنة وحسنة !

ثم ترنح وهو يتلمس جدار المسجد .

أما المريض فقد تدلت على جنبيه ذراعاه ، وشاعت زرقة على محياه ، وإن بقيت البسمة على فمه لا يتغير لها وضع . وما عتم أن تهاوى رأسه ، وتداعى جسده بلا حراك . . .

حقا لقد نجعت الوصفة ، قضت على الداء كل قضاء . . . كان فيها الشفاء التام . . . الشفاء أبد الدهر !

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



خذ المعارف من دار المعارف

دار المعارف بمصر

تقدم للقراء هذا الكتاب للكاتب الكبير

الأستاذ محمود تيمور

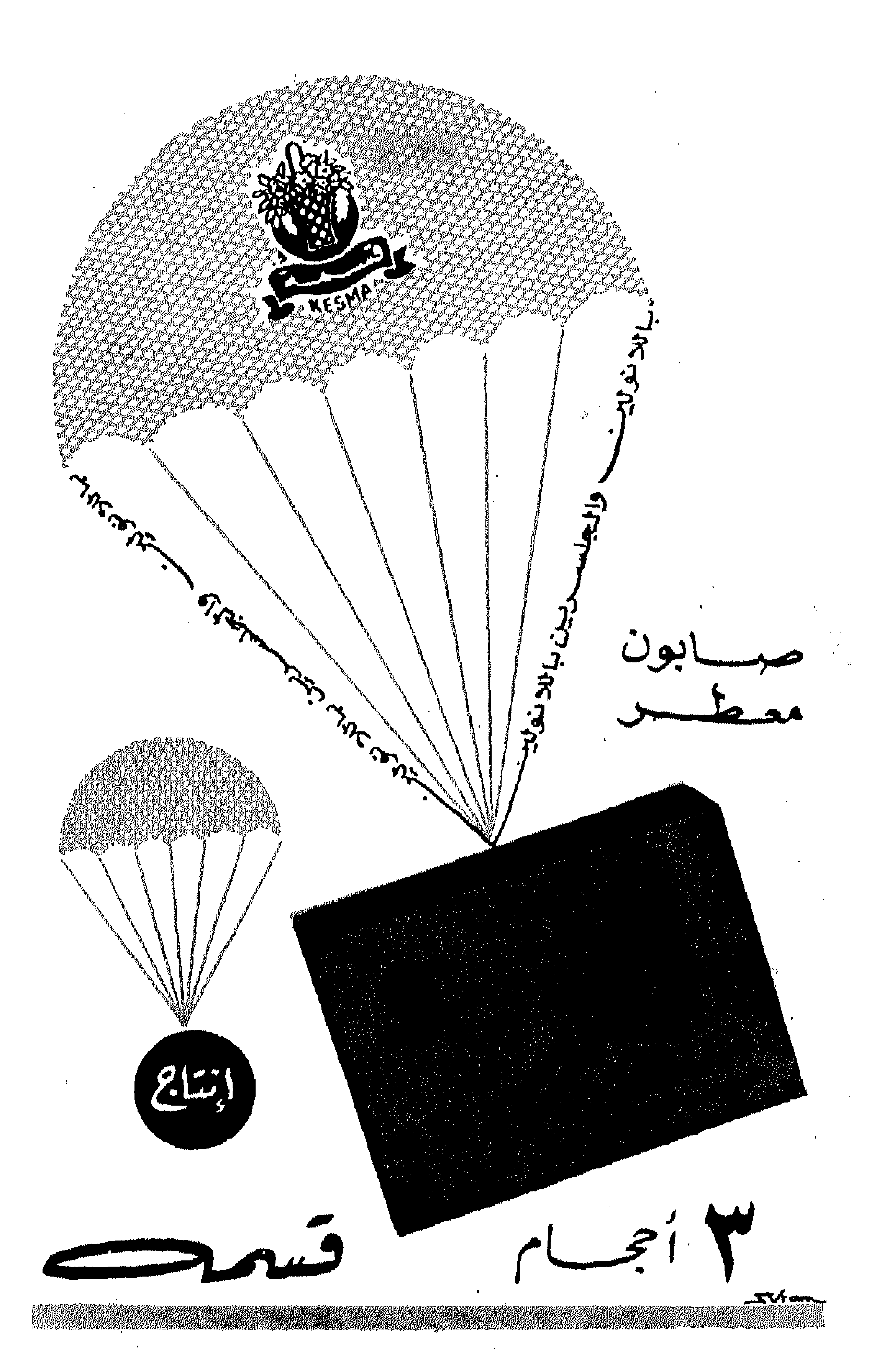
فى سلسلة **اقرأ**

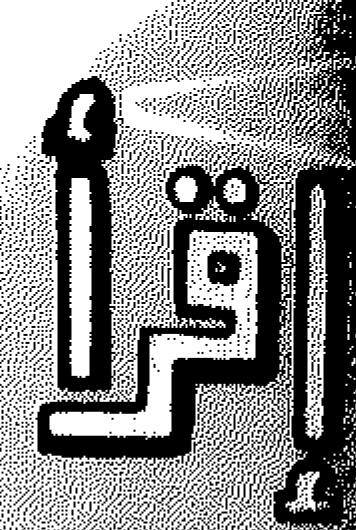
أبو على الفنان (الكتاب رقم ١٣٦)

● من هو الفنان الذى شغل نفسه بالتمثيل ، فكان إذا جلس للتأليف والإملاء يستنزل الوحى وقد بدا الذهول على ملامحه ، وظهر التخليط فى حركاته ، حتى إذا بدأ أول تمثيلية له استقبلته النظارة بموجة من التضاحك ، ثم وقف وسط المنصة شاهراً سيفه كما كان يصنع دون كيشوت ؟ إن شخصية « أبو على » الفنان هى شخصية لا نملك أنفسنا من الضحك عليها حين يعرضها لنا الأستاذ تيمور ، ويعرض معها قصصاً أخرى طريفة مضحكة .

الثمن ٥ قروش




KESMA
بالانولين
والجلسرين بالانولين
صابون
معطر
إنتاج
٣ أحجام
قسمة



شخصيّتك فى الميزان

الدكتور عبد الكريم دهينه

دار المعارف بمصر

هـ
٦

شخصيتك في الميزان

الدكتور عبد الكريم دهينه

شخصيتك في الميزان

اقرأ ٢٩٠

دار المعارف بمصر

إقرأ ٢٩٠ – فبراير سنة ١٩٦٧

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

إهداء . . .

إلى روح الدكتور أمير بقطر عميد التربية بالجامعة الأمريكية . .
« التي غادرت جسدها بدون أن أحظى منه بكلمة توديع » .

إليك أيتها الروح الهائمة في عالم الملكوت أهدى ثمرة من ثمار أبحاثي .

دكتور عبد الكريم دهينة

يناير سنة ١٩٦٧

مقدمة

إن فى نفوسنا قوة كامنة ، وطاقة كبيرة ، يعوزنا أن نفهمها جيداً ، ونستخدم ما فيها من جهد، وبذلك نكون قد سلكنا المسلك الناجح . . إن الحياة وما فيها من جمال وسعادة لا توهب للناس وهباً . . إنها ترنو دائماً إلى ذوى الشخصيات الفذة . . .

فهل أنت منهم . . ؟ !

دكتور عبد الكريم دهينة

الفصل الأول

العقلية المنظمة فى الإنسان — الانقباض والإحساس بالحزن — كلمة موجزة عن الشعور واللاشعور — متاعبنا وهمية لا أساس لها — « مارك توين » وتحليله للمشكلات — قصة لويس باستور — الأمراض أساسها أفكار .

العقلية المنظمة فى الإنسان

يشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعل لكل منا « طاقة » بها نحيا ، ونقيم أعمالنا وشئوننا فى هذه الدنيا هذه الطاقة .. هى العقلية القوية المنظمة .

فقد نرى شخصاً يتمتع بهذه الطاقة كما يتمتع راكب السيارة المنظمة بها ، فيمضى يومه فى سرور وانشراح ، ويشعر بالسعادة والارتياح ، ويقبل على الزمن راضياً لا يعرف السخط إلى نفسه سبيلا ، ويرى فى شروق الشمس وغروبها جمالا ، وفى أفراح الدهر وأتراحه فلسفة ، فنقول لهذا . . إنك تتمتع بهذه الطاقة التى أودعها الله سبحانه وتعالى بين جنبيك ، وإنك سعيد ومطمئن .

وقد نرى عكس ذلك ، نرى شخصاً لا يتمتع بهذه الطاقة بل أضاعها فى صراع بينه وبين (عقليته القوية المنظمة) كراكب السيارة الذى لا يتمتع بركوبها بل يريد فك بعض آلاتها أو تغييرها ، أو تجميلها بأشياء لا ضرورة منها ، فبدلا من أن تجده يمرح بها فى السهول ويفرح ، وينهب بها الأرض نهباً ، ويتمتع بسيرها الوئيد تحت ظلال الأشجار ، وعلى ضفاف النيل ، تراه يحاول التغيير والتبديل فى صوت النفير وفى

الدواسات . والآلات المحركة . . فمثل هذا نقول له . . إن بينك وبين سيارتك صراعاً .

ونقول أيضاً لمن لم يتمتع بطاقته ، وذهب مذاهب شتى فى تعديلها أو تحويرها إنه فى صراع بينه وبين طاقته . . قلما ينتهى . إنه يريد تعديلها كما يشاء — وهى ميسرة مجهزة ، لتقيم الأعمال الحيوية ، وتعالج الشئون التى يتعرض لها صاحبها . . لكن تصرفه حيالها يقيم هذا الصراع إنه صراع لا شعورى .

على ذلك يجب على كل منا أن يراعى هذه « الطاقة » و إن أقل شىء فيها يؤثر فينا تأثيراً مضراً . . فمثلا :

قد تشعر وأنت ماض فى حياتك اليومية بأن ينتابك فجأة وعلى غير ميعاد انقباض وشعور بالحزن ، وتشعر بأن شيئاً يثقل كاهلك ، وأن الحياة ثقيلة مملة لا فائدة منها ، وأن الموت راحة من هذا العناء !

يعتريك هذا الشعور . وقد اعترى كلا منا . . وتشعر بعض الأحيان أيضاً عند ما تستيقظ من نومك بكثير من الألم والضيق والهم ، واسوداد الحياة فى عينيك ، ويخيل إليك أنك قضيت الليل كله فى كد متواصل ، وأنك غير مرتاح من ليلتك التى قضيتها فى سريرك ، ينتابك هذا كله فتسرع إلى « سيجارتك » تنفث دخانها فى الهواء معتقداً أنها هى التى ستحل هذه المشكلة التى اعترتك صباحاً ، ثم تصب جام غضبك على زوجتك المسكينة أو خادمك لأتفه الأسباب ، أو لعدم وجود سبب يستدعى ذلك . والسبب الحقيقى هو فى نفسك أنت !! ثم تستشير طبيباً « مخلصاً » فيوقع اللوم على الكبد والكبد عضو رقيق يعمل كثيراً وعليه واجبات لا حصر لها .

إن السبب الحقيقى « لهذه المشكلة » هو فى هذه الطاقة ، التى حدثتك عنها ووصفتها بأنها العقلية القوية المنظمة .

لا بد أنها انفعلت لسبب من الأسباب البسيطة فى نظرك ، ولكنها جسيمة فى نظرها كقطرة الماء ، التى نرميها على مستودع البنزين فى السيارة ، أو كقطعة الملح التى نضعها فى زجاجة (شراب التفاح) مثلا . .

ما الذى جعل هذا الجهاز العظيم ينفعل داخل جسمك ؟ « ابحث » فى يومك ، أو قبل يومك .

هل أثرت ذكريات دفينة ؟ !

هل أوجعك أحد أصدقائك أو أقاربك أو أعدائك أو حسادك بكلمة كان لها ما يسمى بالجرح الأدبى أثرا ؟ ! !

ربما أجبتنى لسؤالى الأول والثانى ، وقلت أجل لقد أثرت فى نفسى ذكرى قديمة ، وتجيب عن الثانى وتقول أجل لقد داعبنى صديقى أو تجهمنى عدو ووصفنى بقوله ، كذا وكذا ، فبلعت هذه الإهانة ؟ ! !

إن الذكرى القديمة التى كانت مخفية خلف أسداف ثقيلة فى نفسك لتحميك من تياراتها وعواصفها وقواصفها المهلكة ، إن الشيء البسيط الذى أثارها فتحركت وماجت خلف الأسداف فهزتها هذا عنيفاً . . ربما مرقت منها ، وفاضت وأغرقت النفس ، كنهر النيل إذا فاض وطغى على السدود ، فانهارت . . . وهذه الإهانة ، الصغيرة أو الكبيرة التى أحدثت جرحاً أدبياً — إنها صادفت مرتفعاً خصباً فى « طاقتك » وقبولا وضيافة فى نفسك .

تسألنى لماذ ا يحدث ذلك عقب صحوى من النوم عادة ؟ ! — لماذا تثقل الرأس بهذه الهموم والأفكار ، ويغرق الخيال فى أوهام ويتخيل أشباحاً حول الماضى والحاضر والمستقبل ويشعر بالضيق والسخط ؟ ! !

أقول لك . . إن السجف النفسية أو بعبارة اصطلاح علم النفس (قوى الشعور) أو الرقيب هى التى تقوم بعملية الكبت — كبت هذه العوامل الهدامة من الغرائز والانفعالات فى الجانب الغريزى من النفس ،

والويل لنا إن انطلقت هذه الغرائز والانفعالات من خلف «قوى الشعور» .

ما الذى تتصوره لو انطلقت وحوش حديقة الحيوان من خلف أسوارها ؟ !

هل يا ترى هذه السباع والوحوش ستسلم علينا عند ما تدك أسوارها ؟ ! إنها بلا شك ستقضى على حياتنا . .

فكذلك (وحشية الغرائز والانفعالات) لا تدع ولا تذر إن غلبت (قوى الشعور) التى تحبس هذه الوحوش الضارية فى محابسها الطبيعية التى يجب أن تظل فيها .

وعند إثارة الذكريات ، وفى الليل أيضاً ، تضعف هذه القوى بعض الضعف ، فتثير فى النفس « رموزاً » يسميها بعض علماء النفس « لغة اللاشعور » تتجلى فى الأحلام ، وتتجلى أيضاً فى الإغراق الفكرى فى أوهام وخيالات هى التى تحدث عند ما يصحو من نومه متعباً ضيق النفس مكدود الخاطر فياض الشعور بأفكار سوداء ، وهموم كثيرة متخيلة لا حقيقة لها .

إن معظم متاعبنا وهمية خيالية :

إن هذه الأزمات التى تنتاب بعض الناس بصراع وتفكك وتجعلهم يعتقدون أنهم سيئو الحظ ، وأنهم لم يخلقوا إلا للهم والغم والنكد ، وأن الظروف كلها تعمل ضدهم .

إن الشخص الذى يسير فى حياته على ضوء فلسفة الهم والغم — إنه شخص يسير بطريقة عمياء ، وسيلقى الصخور والجنادل فى كل طريق يسير فيه ، وفى كل منعرج أو انحناءة يتجه إليها فيعيش فى قلق ، لا يجد للحياة طعماً ؛ إنه يرى أخطاراً حيث لا توجد أخطار . ويتجهم

للحياة ، والحياة مبتسمة تمرح فيها الطيور ، وتغنى البلابل ، وتتراقص الأشجار ، ويبتسم الزهر فى الحدائق !

إن هؤلاء الذين يتوقعون الشر دائماً — هم فيه حقيقة — ولو نظر كل إنسان منا إلى الأشياء نظرات تحليلية وعملية ، وتصالح معها بدلا من تركها تهد قواه العقلية وتنخر « طاقته » النفسية فإنها ستسير فى طريق مستقيم معه .

يحكى أن سفينة كبيرة احتاجت إلى قطعة خشب صغيرة فلم يجد النجار إلا قطعة مسوسة لم يهتم بما فيها من سوس بسيط معتقداً أنه لا يضر وربما هلك من الطلاء أو من دق القطعة ، وسارت السفينة بسلام ، ولكن السوس بدأ ينخر وينخر ليس فى قطعة الخشب فحسب بل فى السفينة جميعها . . وأخيراً تهاوت السفينة بعد أن خرقها السوس .

فلا تترك مشكلة تنخر فى نفسك بل يجب أن تقضى على أسبابها فوراً .

يحكى عن فيلسوف يدعى (مارك توين) كان ينظر إلى الأشياء نظرات تحليلية ويحلها ويصالحها بينه وبين نفسه ، فأراد أحدهم إغضابه فأعلن وفاته فى إحدى الصحف ، فقام من نومه كالمعتاد ليقرأ خبر وفاته فى الجريدة فلم يفعل سوى أن أرسل برقية إلى رئيس تحرير الجريدة يذكر له أنه ما زال حياً ويشكره . ولم يفعل أكثر من ذلك . لم يأبه للخبر ، ولم يضرب الأخماس والأسداس حول فاعله ، لم يقض أى وقت للتفكير فى الحادث وأثره ، ونية فاعله . . إنه ترك كل هذا .

وذلك يذكرنى بقصة أحد المتصوفين ، كان يدعو الله سبحانه وتعالى أن يقيه شر جهنم فبينما هو فى إحدى طرق المدينة سائراً إذا بامرأة ترمى فى الشارع « رماداً من فرن لها » فوقع على رأسه سهواً منها فابتسم وقال لنفسه إن رماد الفرن خير من رماد جهنم — لقد صولحت برماد الفرن !!

هؤلاء الذين يصطلحون مع أنفسهم ، فلا يدعونها نهباً للغرائز الفتاكة

تلعب بها وتهلكها قوم فهموا جيداً وظيفة « القوى العقاية المنظمة » التى رزقوا بها ، وصرفوها لما فيها خيرهم .

وإن تعجب لحلم هؤلاء ، فإن القصة التى سأقصها عليك ستجعلك فى عجب شديد . . فهذا مثال لمن يتجاهل نفسه مطلقاً . ولا يراها جديرة بالمدح وليس فى ذلك ذم لها واحتقار ، ولكنه يريد منها أن تظل فى مستوى عادى ولا تغرق فى خيال العظمة ، والعزة .

يحكى عن « لويس باستور » العالم الفرنسى — وهو من أعظم العلماء نفعاً للبشرية — فهو من الذين خدموا العلم ورقوه وعالج مرض الكلب وآفات الكروم والخنازير — أنه دخل مرة فى مؤتمر طبى دولى عقد فى سنة ١٨٨١ فقام الأطباء وحيوه بهتاف عال . وتصفيق متواصل ، فنظر إلى زوجته وقال : « أظن هذا الهتاف لأن ولى العهد قد حضر كان يجب علينا أن نبكر فى الحضور » تذكرنى هذه القصة بخطبة لسيدنا عمر ابن الخطاب فقد جمع الناس وخطب فيهم وقال : أيها الناس لقد رأيت نفسى وأنا « أرعى على غنيمات لخالات لى » . . إلخ . فقال أحد الصحابة إلى هذا جمعتنا يا عمر ؟ فأجاب ، لقد رأيت نفسى تعاظمت فأحببت أن أردها إلى مكانها .

سيدى القارئ

هل لك أن تواجه الأشياء ببساطة ، لا أطلب منك أن تكون فيلسوفاً ، أو متصوفاً ، ولكن أطلب منك قليلا من التصوف ، وقليلا من الفلسفة إننا فى حاجة إليها كما يحتاج الطعام إلى قليل من الملح . .

لا تكن « عصابياً » فى علاج مشكلاتك — تعرض المشكلة وتقيم حولها الأهداب والرتوش وتتصور أشياء لا وجود لها ، وتترك ذهنك يعرض عليك أفلاماً تشاؤمية ، وصوراً سوداوية . إن هذا كله يحطم حياتك . . .

. . وبعد فيأيها القارئ :

يقول فرانك لويس : إن كثيراً من أنواع الأمراض الجسمانية والنفسية والعقلية ، ما هي إلا أفكار تحولت بفضل مضاعفاتنا لها إلى أمراض .
والذى أطلبه منك قبل أن أخط فى كتابى الخطوط التالية : أطلب منك أن تتحلى « بالإرادة » ،الإرادة القوية التى لا تزعزعها الحوادث . . إننى لا أطلب منك أن تذهب إلى القطب الشمالى فقد وصل إليه منفرداً الرحالة « بيرى » .

ولا أطلب منك أن تجوب أدغال أفريقية فقد جابها قبلك « الرحالة ستانلى » .

ولا أطلب منك أن تستعد للسفر إلى القمر ، ولكنى أطلب منك شيئاً هيناً . أطلب منك أن تعرف نفسك وأن تحافظ على طاقتك العقلية ..

أطلب منك أن ترحب « بالمشكلات » إذا فاجأتك بالزيارة ولا تبحث عنها إن لم تزرك ، فإن حلت بك ، فاصطلح معها ، لا تقم عداء بينك وبينها ، حتى تذهب من حياتك .

وأطلب منك بجانب هذا . . إرادة قوية . . وحكمة وسداد رأى ، وتفاؤلا دائماً . . وقوة شخصية وثقة بنفسك ، وأخيراً تسليم الأمر لله .

* * *

يقول فلاسفة اليوجا ، إن الإنسان جزء من هذا الكون ، وإن إرادته من إرادة خالق الكون ، وكل ما يريده ، ويعمل على تحقيقه فإنه سيصل إليه حتما .

ولهذه الحكمة نصيب من الواقع لدينا فإن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ويستجيب لضراعة عبده الصالح واقرأ قوله تعالى : (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) .

الفصل الثانى

معنى السلوك ــ الأفعال العشواء . الأفعال المنعكسة ــ السلوك غير الملائم مصدر المشكلات ــ منهاج الصحة نفسياً وجسمياً ــ التوفيق بين الوظائف النفسية ــ ليس المجتمع دائماً صالحاً ــ الشذوذ النفسى .

معنى السلوك :

يطلق السلوك العادى على ما يأتيه الفرد من الأفعال ذات الاتصال الوثيق بالحياة النفسية الصحيحة .. ويطلق بعض العلماء على هذا التصرف « السلوك العقلى » .

ويخرج من هذا التعريف .

١ ــ **الأفعال العشواء :** التى لا تخضع لنظام أو قانون معين كقولنا فلان يضرب ضربة عشواء ، ويلاحظ ذلك فى نشاط الأطفال فى المهد .

٢ ــ **الأفعال المنعكسة :** فما هى إلا ردود أفعال تصدر عن الإنسان بطريقة آلية ومن أمثلتها انقباض حدقة العين ، وكالسعال والعطش .

وهذان الصنفان يحدثان عادة دون تدخل الشعور أو التفكير .

السلوك غير الملائم مصدر المشكلات . .

معروف لدينا أن الكائنات الحية تتفاعل مع البيئة وتتكيف مع ظروفها « فالهرة مثلا » إذا ربت صاحبها عليها تستكين وترتل ترتيلها المعروف غير ما إذا ضربها طفل .

والإنسان العادى يسلك فى أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص نوعاً من السلوك نسميه « التكيف النفسى » يوحى به الموقف وما يتطلبه من إجراء معين . . فالإنسان فى حال الفرح غيره فى حالة الحزن ، وفى حالة الخوف . . فلو سلك فى أفراحه ما يسلكه فى أحزانه لا يعد هذا نوعا من « التكيف النفسى » الذى يطلبه العرف العام ، ويقتضيه الحال فيقال لهذا الشخص إنه شاذ « إنسان غير عادى » .

إن البيئة الاجتماعية بما فيها من تقاليد وعادات متأصلة تطلب من الإنسان أن يراعى مقتضياتها ليستحق أن يعيش فيها ، وليقبل الناس عليه راضين مطمئنين إليه .

والتكيف النفسى الذى يقوم به الفرد حيال عادات المجتمع وتقاليده يمنع الأخطار التى قد تحيط به إذا خالف ما جرى عليه العرف .

وللعرف الصالح اعتبار عظيم فى التشريع حتى قال بعض الفقهاء : « إن المشروط شرطاً كالمعقود عقداً » .

ويروى أن الإمام الشافعى لما ترك العراق وحضر إلى مصر ، وأخذ يدرس فى جامع عمرو بن العاص ورأى عادات الناس هنا غيرهم فى العراق رجع عن كثير من أقواله فى الفقه رآها أنها لا تناسب هذه البيئة الجديدة ، ولا تتكيف معها . . وستكون فتنة بين الناس لا داعى للسير فيها .

وهذا ما نراه نحن إذا تركنا المدينة وذهبنا إلى قرانا فى الريف ، فإننا نضطر إلى تغيير عاداتنا بما يناسب هذه البيئة الريفية ، وإلا فإننا

سنكون محل نقد ومؤاخذة ولوم وذم وغيبة .

ما أغنانا عن هذا كله ! !

فلا تخلق المشكلات التى تتبعك وترهقك بأن تباين الناس فيما درجوا عليه من عادات وتقاليد ما دامت هذه التقاليد لا تضر الخلق والدين فليس معنى ذلك ، أن تشارك الناس عبثهم ولهوهم ، وشربهم الخمر ، وتعاطيهم الحشيش ، ولعبهم الميسر إذا وجدت المجموعة التى تريد أن تحيا بينهم هذا سلوكهم .

لست أوصيك بأن « تكيف نفسك » بما يرضى هؤلاء ويسخط شعورك ويؤذى ضميرك ولكنى أقول لك فى هذا الموقف ما قاله الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز : (واهجرهم هجراً جميلا) وبجمال هجرك ، وحسن مقصدك ، وقوة عزيمتك قد يهديهم الله على يديك .

يروى عن أبى حنيفة أنه كان إذا آوى إلى دفاتره ومحابره ليلا يسمع جاراً له مسرفاً على نفسه بشرب الخمر يغنى ويقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولم يلمه الإمام العظيم على إسرافه وقلقه وضجته له ، وتفقد صوته ذات ليلة فلم يسمعه فسأل عنه فقيل له إن العسس وجدوه مخموراً فى الطريق فحملوه إلى الوالى فسجنه ، فذهب من فوره إلى الوالى وتشفع له — لأنه جاره — فعفا عنه فأخذه أبو حنيفة من يده وقال له هل أضعناك يا فتى كما كنت تقول فى أغنيتك ؟ ! فخجل الفتى وتاب توبة نصوحاً على يديه .

وتحضرنى قصة أخرى يرويها ذو النون المصرى — الفقيه الصوفى — قال :

أردت عبر النيل من القاهرة إلى الجيزة ، فأخذتنى سنة من النوم فقمت من نومى فإذا بى أرى المعبر قد امتلأ بالخلاعة والمجون والرقص وشرب

الخمر ، فبكيت فى نفسى : وقلت أبعد عبادة أربعين سنة أبتلى بهذه البلية ؟ ! فرأتنى « الراقصة » فأخذت بيدها كأساً وقالت ألا تشرب معنا يا شيخ وتشاركنا ما نحن فيه من المسرات ؟ ! فسكت الكأس فى يدى . وقلت لا أشرب بدون أن أسمع فأسمعينى من غنائك . . فأطربت الموجودين بصوتها الرنان . . فقلت لا أجد فى غنائك طرباً ، يمكننى أن أغنى لك أحسن من ذلك .

فقالت أسمعنا .

فغنيت وقلت :

أحسن من قينة ومزمار   فى دجى الليل نغمة القارى

يا حسنه والجليل يسمعه   بحسن صوت ودمعة جارى

يقول يا ربى ويا أملى   شغلنى عنك ثقل أوزارى

فتنهدت « الراقصة » وبكت بكاء شديداً ، ولطمت خدودها وشقت جيوبها . وقالت واحسرتاه . . أتراه يقبلنى بعد ذنوبى الكثيرة ؟ !

فقلت أجل — وقرأت قوله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) .

ومن القصتين اللتين قدمتهما يتبين ما يأتى :

١ — لقد تكيف ظاهرياً أبو حنيفة مع جاره ولم يغضبه حتى ظن الجار أن أبا حنيفة يحب غناءه ولهوه . حتى واتت الفرصة المناسبة لإرشاده .

٢ — ولقد تكيف ظاهرياً « ذو النون المصرى » مع الذين احتلوا المعبر وسكت وأخذ ينظر إليهم ، ويسمع غناءهم ، ويشاهد رقصهم حتى أتت الفرصة ليأخذهم إلى طريق قويم ، غير هذا الطريق المعوج الذى هم فيه .. ما أحوجنا إلى هذا « التكيف » الظاهرى ! ولو إلى وقت معين حتى تواتينا الفرص المناسبة لنلقى مبادئنا ونفرض آراءنا ومناهجنا السليمة القويمة فتلقى قبولا . قبولا لم نكن نتوقعه لو قمنا بشدة وفرضناها فرضاً

على مجتمع يخالف آراءنا وأفكارنا .

وصدق الله سبحانه وتعالى فى قوله : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

مناهج الصحة النفسية والصحة الجسمية :

لأجل أن نفهم مناهج الصحة النفسية يجب أن نفهم مناهج الصحة الجسمية وعلى ضوء الثانية نعرف الأولى .

مناهج الصحة الجسمية ثلاثة :

أولها : المنهج العلاجى (Remedial) وهو ما يتبعه الفرد العادى للتخلص من مرض أو انحراف .

وثانيها : المنهج الوقائى (Preventive) وهو ما يتبعه الفرد عادة لكى يتجنب الإصابة بمرض ما .

وثالثها : المنهج الإنشائى أو الإيجابى (Posotive or constructive) وهو ما يتبعه الفرد حتى تقوى صحته ويزيد نشاطه . . وهذه المناهج الثلاثة متداخلة وليست منفصلة .

كذلك الصحة النفسية لها ثلاثة مناهج :

١ — المنهج العلاجى : وهو ما يتبعه الفرد لعلاج نفسه من انحراف ألم به فى صحته العقلية حتى يعود إلى حالة الاعتدال .

٢ — المنهج الوقائى . . وهو الطريق الذى يسلكه الفرد ليتجنب الوقوع فى حالة اضطراب نفسى أو عقلى .

٣ — المنهج الإنشائى : وهو ما يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة وليزيد كفاءته إلى أقصى حد مستطاع .

وأخيراً نعرف الصحة الجسمية بأنها التوافق التام بين الوظائف الجسمية



المختلفة مع القدرة على مواجهة الصعوبات العادية المحيطة بالإنسان .

* * *

يجب أن تتعاون أجهزة الجسم المختلفة لصالح الجسم ، فلا يجوز أن يقوم جهاز بنشاط أكثر مما يطلب منه أو أن يكسل ، فإن المرض سيقوم فى هذا البناء « الإنسانى » .

فمثلا :

نشاط الغدة الدرقية عما يستدعيه الاتزان الكلى لنشاط الغدد يترتب عليه عادة الحالة المعروفة باسم جويتر Exophthalmic Goittre

كذلك قد تستقل مجموعة من خلايا الجسم عن النمو لأى سبب عن بقية الخلايا المحيطة بها، فتتحول إلى خلايا خبيثة ، لا تقوم بوظيفة ما فى الجسم سوى الدمار للخلايا الطبيعية وتسحب عندئذ كثيراً من نشاط الجسم وغذائه لحسابها الخاص ، وهذه هى الحالة المعروفة بالسرطان .

* * *

ونفهم من ذلك أن الصحة الجسمية تقتضى التوافق بين نشاط أجهزته المختلفة بأن تعمل متعاونة لصالح الجسم .

فمن ضمن هذا التوافق لصالح الجسم ما نراه فى بعض الأحيان من نشاط هذه الأجهزة لمواجهة الصعوبات العادية التى تحيط بالإنسان .

فإننا نجد تكيف الجسم بحيث يقاوم التغيرات فمثلا نجد فى بعض الأحيان إسراع ضربات القلب لتغير خاص . . أو ارتفاع درجة الحرارة لسبب طارئ ، وهجوم الكرات البيضاء أحياناً على نقطة مصابة . . .

فهذا التكيف للحالات العادية الطارئة تقوم به الأجهزة المختلفة لصالحنا .

وقد نرى فى بعض الأحيان أن يكون هذا التغير أقوى من مقاومة أجهزة الجسم مهما تضافرت وتعاونت فى سبيل درئه . . وهنا يصل الجسم إلى درجة الاعتلال . . . نخلص من ذلك كله إلى النقطة التالية :

التوافق بين الوظائف النفسية :

ويمكننا أن نعرفها بما يأتى (إنها التوافق التام أو التكامل بين الوظائف النفسية مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التى تطرأ على الإنسان عادة مع الإحساس بالسعادة) .

* * *

فمعنى التوافق التام بين وظائف النفس خلو الإنسان من النزاع الداخلى عند ما يقع بين عوامل جذب متضادة كانت تتنازع إرادته بين التضحية بنفسه وأولاده لإنقاذ الوطن أو تضحيته بوطنه وبشرفه لإنقاذ نفسه وأولاده .

إنه خلو المرء من النزاع وما يترتب عليه من توتر نفسى وتردد ، وقدرته على حسم النزاع حال وقوعه ويمكن الوصول إليه عن طريق فلسفة دينية أو اجتماعية أو خلقية أو غير ذلك من الاتجاهات المحدودة .

فحسم هذا النزاع والصراع الداخلى يرجع دائماً إلى آراء المرء ومعتقداته ومذاهبه الحيوية .

فالرجل الذى يؤمن إيماناً كاملا بأن الجهاد فى سبيل الله فريضة وأن كل ما يملكه من حطام هذه الحياة لا يساوى شيئاً فى سبيل هذه الفريضة فإنه يقبل عليها مختاراً مشوقاً . . وقد تصالحت أجهزة نفسه المختلفة، فتبدو متكاملة راضية .

بينما الذى لا يرى هذا الرأى ، يعتقد أن الفرار أسلم له وأسعد ، ووافقت أجهزة النفس المختلفة على ذلك .

ومن الصعب أن نضع الأول موضع الثانى أو العكس فكل وضع لا ترضيه « نوازع النفس » الكامنة بين كل إنسان يحدث « صراعاً نفسياً ». لذا كان للتربية أثرها الكبير فى الاصطلاح النفسى حول المبادئ السليمة ، والطرق القويمة ، والمناهج الصحيحة .

* * *

لما طلب رسول الله موسى عليه السلام من بنى اسرائيل —بعد أن نجاهم الله من فرعون وقومه — أن يحاربوا عمالقة الشام،أجابوا بقولهم : (إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون) .

والسبب فى هذه الإجابة أن بنى إسرائيل كانوا قد تعودوا حياة الدعة والرخاء والمآكل الشهية فى مصر . .فرأوا فى قتال عمالقة الشام منهجاً غير سليم ؛ لا تقبله نفوسهم ؛ فردوا بهذا الرد على موسى عليه السلام . . فلم يملك موسى إلا أن دعا الله وقال : (رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا و بين القوم الفاسقين) ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يربيهم تربية تليق بحياتهم الجديدة . . وهى المعروفة فى علم النفس « إعادة التربية » فقال سبحانه وتعالى : (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) قضى الله سبحانه عليهم بأن يعيشوا فى الصحراء أربعين سنة ليتعودوا حياة التقشف والشجاعة والشهامة والنجدة لا حياة الخنوع والكسل التى تعودوها سابقاً .

وباختلاف المنهجين التربويين ، تختلف الأنفس عند نظارها للأشياء ، وبذلك تصطلح أجزاؤها « وتتكيف حياتها » حسب المنهج الذى تربت عليه وانتهجته .

* * *

وظيفة الحياة النفسية بمختلف عناصرها وأجزائها هى تكييف المرء

لظروف الحياة التى يعيشها وعلى حسب مبادئه ومنهجه حيال مقتضياتها .
وغاية « التكيف النفسى » سعادة المرء فى حياته . . وأعود إلى نقطة أثارت حولها بعض الغبار . . هذه النقطة هى النقطة التالية :

ليس المجتمع دائماً مجتمعاً صالحاً :

فكيف يتكيف المرء معه ، إذا كان منهج تربيته يخالف حقيقة المجتمع ! وذلك ما نراه دائماً فى حياتنا ، فإشعاع المساجد ، والمدارس تخالف مخالفة صريحة ما نجده فى واقع الحياة من سفور فاضح ، ومجون جامح ، وإعراض عن الله سبحانه وتعالى ، وجرى وراء غواية الشيطان ! !
ولا داعى أن أطيل فى شرح هذا الموضوع فهو معلوم ومعروف ، حتى نادى بعض المصلحين — كما يسمون أنفسهم — بأن يسير المسجد فى ركب الحياة لا العكس .
كيف نعيش فى هذا المجتمع ؟ ! وكيف تتكيف معه نفوسنا ؟ ! إنها ستمرض ولا شك .
وليس لى رد على ذلك من ناحية علم النفس — الذى لم يكن يوماً ضد المبادئ السليمة — إلا بقول أستاذنا القوصى فى كتابه الصحة النفسية ص ٢٤ — يقول سيادته ما نصه : « والتكيف بين المرء والمجتمع — بأن المجتمع نفسه ليس دائماً مجتمعاً صالحاً ، فالتكيف الصحيح للمجتمع كثيراً ما يتطلب فى الوقت نفسه إعلاء للمجتمع ذاته ، أى أنه يتطلب ألا يقوم الأفراد بمجرد التلبية للمجتمع كما هو ، وإنما يحاولون أن يقوموا بأنصبتهم فى إحداث تغيير فى المجتمع إلى حالة أحسن مما هو فيه » .
أى أن سيادته يطلب ألا يكون موقفنا من مثل هذا المجتمع موقفاً تقليدياً أو سلبياً جامداً . . بل يكون موقفاً إيجابياً . . ليت رجال التربية

يفهمون ذلك فهماً جيداً . . فقد كنت مدرساً فى « مدارس الريف » .
فكنت أسمع أنا وزملائى من نظار المدارس ومن مفتشيها فى ندوات التوجيه التربوى أن نعيش فى خير المجتمع الريفى وشره ، وأن ذلك يعنى أننا «اجتماعيون » وكنا نسمع الأمثلة تترى على ألسنتهم قائلين« دارهم ما دمت فى دارهم » ويقولون إن ذلك يعد اندماجاً فى البيئة .

معنى الشذوذ النفسى :

وهنا ستتعرض عند ما تباين المجتمع وتخالفه لهذه الوصمة ، ستسمع بالرغم عنك ، أنك شخص شاذ وأكثر من ذلك مجنون ، مخبول، معتوه ، ستسمع أكثر من ذلك ليس من الجهلاء فحسب بل من العقلاء ، والعلماء ــ الذين يرون من مقتضيات الحياة ــ الاندماج فى البيئة والعمل بقول الشاعر :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشياً
تجاهلت حتى ظن أنى جاهل

أو كما يقول هذا المثل الشائع ــ إذا كنت فى روما فافعل كما يفعلون .

إنك إن قمت بفكرة إصلاح لا يستسيغها هذا المجتمع فإنك قد خرجت عن المألوف . . وعلى ذلك يجب أن تستعد لحرب عوان بينك وبين أعوان الفكرة الخاطئة . . فكيف تعيش سالماً فى مجتمع وأنت فى حرب على تقاليده وعاداته ، والشاعر يقول :

من سالم الناس يسلم من غوائلهم
وعاش وهو قرير العين جذلان

وكتاب كليلة ودمنة يقص علينا هذه القصة الفلسفية : اجتمع

أسد وذئب وثعلب للصيد فاصطادوا ثوراً وغزالا وأرنباً . فقال الأسد للذئب أقسم بيننا صيدنا يا أبا جعدة ، فقال مولاى الثور لك ، والغزال لى والأرنب للثعلب ، فاحمرت عينا الأسد وزمجر ، وأنشب مخالبه فى عين الذئب ففقأها — ثم قال للثعلب — أقسم بيننا يا أبا الحصين فقال مولاى الثور لغذائك ، والغزال لعشائك ، والأرنب لفطورك ، فقال : ويحك من أين تعلمت هذه القسمة فقال من عين الذئب .

وكان فى بلاط نيرون « فلاسفة روما » لم ينهوه عند ما عزم على حرق « روما » وإلاّ فإنه سيحرقهم قبلها .

إن علاج الفيلسوف للمشاكل غير علاج المصلح ، فالأول ينتهز الفرص حتى تحين ، والثانى يقدم حياته ثمناً لرأيه الحر .

فالأول يقفز فوق القبور وروحه فى يده لا تسقط منها . . والثانى يقدم روحه « شهيداً » فى سبيل دعوته .

هذا الخروج هو معنى الشذوذ النفسى فى رأى المجتمع .

ولكن « ما الشذوذ فى رأى الصحة النفسية » ؟ إن الشذوذ مرادف لاختلال أجهزة النفس المختلفة فى الإنسان .

فالشخص الذى يغضب لأتفه الأسباب ، أو الذى لا يغضب مطلقاً مهما كانت الظروف ، مثل هذا الشخص يعتبر منحرفاً فى صحته النفسية .

وكذلك « الشك » فالشخص المعتاد تثور شكوكه فى مناسبات معينة ، ولكن إذا ذهب به الشك مذهباً عميقاً ، وأصبح لديه نوع من الوسوسة تؤرق حياته ومضجعه فذلك أيضاً يعد منحرفا فى صحته النفسية .

وكذلك إذا غالى الإنسان فى حبه أو فى كرهه أو انعدم لديه هذان الانفعالان فإنه يعد أيضاً منحرفا .

ويمكن أن نقيس على ذلك مظاهر الحياة كلها من خوف ، وتدين ،

وضحك ، ونوم ، وأكل وشرب وميل للظهور .

إن كل هذه المظاهر تتطلب منا أن نكون وسطاً فى اتصافنا بها ، أما أن نعدمها مطلقاً ، أو نتغالى فيها غلاء ممقوتاً فذلك ما يدعونا إلى أن نتقبل صفة الاختلال النفسى فى صحتنا النفسية .

وصدق الله تعالى حيث يقول لعباده ممتنا : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) . . ويقول الرسول الكريم واصفاً التوسط فى الانفعالات : (أحبب حبيبك هونا ما وابغض بغيضك هونا ما) .

ثم يحذر عليه السلام من التغالى فيقول : (تعس عبد المرأة . تعس عبد الدرهم والدينار) .

أيها القارئ الكريم أريد منك لتكون سعيداً :

١ ــ أن تتكيف مع البيئة إن كانت صالحة .

٢ ــ فإن كانت البيئة غير صالحة فعش فيلسوفاً وأن تقوم بقدر الإمكان بعملية إعلاء هذا المجتمع ، كن قائداً له وزعيما ، وسترى فى ذلك سعادة و راحة وطمأنينة نفس .

٣ ــ لا تغال فى انفعالاتك ، ولا تقتلها فيتلبد إحساسك وعش وسطا بين ذلك .

٤ ــ إن صحتك الجسمية ، وصحتك النفسية . هما عنوان إنسانيتك وكمال رجولتك . فاعمل دائماً على المحافظة عليهما .

الفصل الثالث

السلوك — مصدره

أقوال علماء الوراثة — أقوال علماء الاجتماع

هل « سلوك الفرد منا » فى الحياة خاضع لعوامل المجتمع التربوية التى أثرت فينا ، أو راجع إلى ما ورثناه عن آبائنا ؟ !

نقول « فلان غضوب » فما السبب فى اتصافه بهذه الصفة ؟ ! قد يكون هناك سبب جسمانى «كالجوع مثلا » أو اختلال فى إفراز بعض الغدد ، أو لسبب نفسانى .

ولكن لماذا لا نصف رجلا آخر بهذه الصفة . مع وجود نفس الأسباب التى صادفت الأول ؟ ! !

هذه مشكلة « السلوك » كيف نفسرها ؟ ! !

وهذا أيضاً ما دعا إلى انقسام العلماء قسمين فى تفسيرها ، فبعضهم يقول إن السبب الأول فى هذه المشكلة الوراثة ، والبعض الآخر ، يقول إن السبب الأول « البيئة » .

فعلماء الوراثة أمثال ، جولتون وبيرسون ، يؤكدون أهمية الوراثة فى تنظيم سلوك الفرد،أما علماء الاجتماع فإنهم يؤكدون أهمية البيئة وأنها المسئولة عن سلوك أى فرد ، ومن أمثال القائلين بهذا القول (هنرى جورج)

وقد أثبت علماء الوراثة والأخلاق أن هناك ملكة فى الشخص تساعده على التمييز الفطرى بين الخير والشر ، وسموا هذه الملكة باسم الحاسة الخلقية (Moral Sense) .

وقد تأثر برأى علماء الوراثة والأخلاق أطباء العقول فى إنجلترا وأكدوا أن هناك نزعات إجرامية موروثة فى بعض الأفراد وبرهنوا على ذلك بالنقص الخلقى (Moral Defective) الذى لوحظ توارثه بين الآباء والأبناء .

والمقصود بالوراثة : أن يرث الشخص من والديه جميع العوامل الموجودة فيهما . أو فى أحد أجداده .

وقد أثبت علماء الوراثة والحياة أن الخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل « كروموسومات جينات » بعضها من ناحية الأم ، وبعضها من ناحية الأب ثم تبدأ « الخلية » تتكاثر مكونة الجنين ، ثم يعيش الجنين فى بيئة خاصة به « داخل رحم الأم » تؤثر فى مزاجه وتكوينه مما يكون له الأثر فى سلوكه بعد خروجه يستنشق نسيم الحياة .

وقد قام (جولتون) بدراسة أقارب العظماء فى إنجلترا وخلص من بحثه الطويل إلى أن العظماء فى العادة يشبهون أقارب لهم كانوا فى نفس المستوى الذى استحقوا به لقب العظمة .

وكذلك عند دراسة المجرمين وضعاف العقول ، وكذلك عند دراسة التوائم فقد أدت هذه الدراسة إلى شدة اتفاق التوائم فى الصفات الخلقية والعقلية .

وقد دلت الأبحاث عن عوامل الذكاء أنها ترجع إلى الوراثة ، وأن أثر البيئة فيها قليل .

أما علماء الاجتماع فيقولون إن للبيئة أثرها فى موضوع السلوك ، ويقولون فى علة تشابه الأحفاد بالأجداد فى الصفات إن ذلك راجع إلى أن البيئة التى عاشوا فيها واحدة من حيث المؤثرات التربية الثقافية والعادات ويقولون إن الإنسان يرث عن آبائه الغرائز بقوة معينة ، أما توجيه هذه الغرائز نحو الخير أو الشر فإنه يرجع إلى حكم البيئة وقوانينها .

وخير ما أقوله فى هذا الباب إنه من الصعب البحث فى « مشكلة السلوك » . . وهل هى تخضع لعوامل الوراثة أو لأسباب البيئة ، فإذا أخذنا مثلا سرعة الغضب أو الخوف فربما كان سبب ذلك راجعاً إلى صفة موروثة أو إلى عامل مزاجى ، أو ربما انتقلت بطريق المحاكاة غير المقصودة من الذين يحيطون بالشخص .

لهذا كان من الصعب الفصل بين هذين العاملين ، الوراثة والبيئة ، عند ما نفسر أى « مسلك » يقوم به الفرد .

وقد جاء فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية ما يدل على أثر الوراثة فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) فهذه الآية الكريمة تثبت أثر الوراثة . . وفى آية أخرى يقول الله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) .

أما الأحاديث النبوية الكريمة فيحضرنى منها قول الرسول فى اختيار الزوجة : (إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله — قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء . . .) .

وهناك آيات كريمة تنفى عامل الوراثة وترجع السلوك إلى « البيئة » ، فى قوله تعالى وذلك فى قصة قابيل وهابيل : (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) . وهكذا قتل قابيل أخاه هابيل فمن أين ورث هذه البدعة الذميمة ؟ ! !

وقال فى حق نوح وابنه : (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يانوح إنه ليس من أهلك

إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظلك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذبك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

هذا (نوح) عليه السلام يستعيذ بالله من سؤاله عن ابنه الذى هو بضعة منه — وأنه ورث منه مبادئه وتعاليمه ، فيجيبه الله تعالى بأنه ليس منك « صفة واتجاهاً وسلوكاً » وأن الله سبحانه وتعالى وجه نظر نبيه ألا يسأله فيما ليس له به علم ، فاستعاذ نبيه به ، وطلب منه المغفرة .

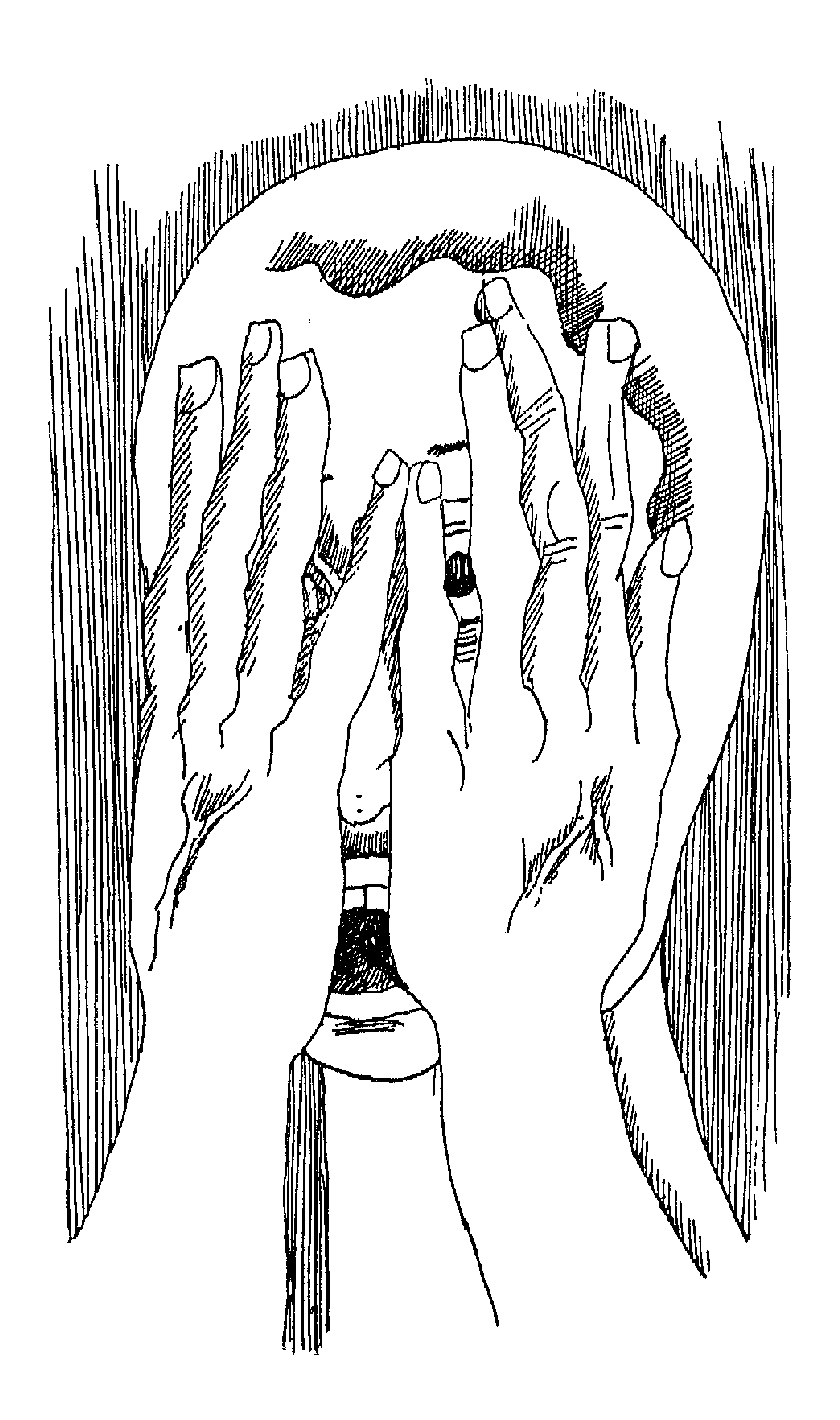
فهل لنا أن نسلم كما سلم نوح وأن ندع هذا الأمر لله ؟ ! !

وإن كل التعليلات التى نراها تقرب لنا مشكلة السلوك والمؤثر فيها هل هو عامل الوراثة ، أو عامل البيئة كل ذلك لم يصل بنا إلى حل مريح . . . ؟ !

لقد كان موسى عليه السلام طفلا رضيعاً تربى فى بيت الظلم والكفر تحت رعاية فرعون فكان بعد ذلك نبياً ورسولا وكليما للرحمن جل شأنه وكان موسى السامرى طفلا رضيعاً عطف عليه جبريل عليه السلام فقام بتربيته تحت رعايته فأصبح مشركاً بالله ، اتخذ العجل وعبده ، وحمل بنى اسرائيل على عبادته .

وهؤلاء أبناء يعقوب وأحفاد إسحق وإبراهيم يجتمعون على قتل «يوسف» ويلقونه فى الجب بدون هوادة ولا رحمة .

وقد رأينا فى دراسة (المذئبات) أى الأماكن التى وجد الصيادون فيها « أطفالا ذئاباً » تركهم أمهاتهم وهم رضعاء عند هجوم الذئاب عليهم فى القرى القريبة من الغابات والتى تقوم الذئاب بالهجوم على قراهم عند ما يعوزها البحث عن الطعام ، فتحمل الذئاب الأطفال الرضع وتقوم بتربيتها بين جرارها ، فينشأ الطفل وهو « مذئب » — وما قصة طرزان علينا ببعيد . . وعند ما يقع هولاء فى شباك الصيد ، يأخذونهم حيث



العمران والمدنية فيعيدون تربيتهم فيلاقون المصاعب والمتاعب حتى يرجعوهم إلى آدميتهم التى قضت عليها البيئة التى حولتهم إلى ذئاب .

وأخيراً ، وبعد استعراضنا آراء الفريقين علماء الوراثة ، وعلماء الاجتماع ، ثم نهجنا نهجاً دينياً لنعرف وقوف الشريعة نحو هذا الموضوع ، نرى أن نقف من الله سبحانه وتعالى موقف « الأدب الجم » الذى جاء فى قول نوح عليه السلام مخاطباً ربه : (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) . أقول هذا بعد أن قرأت مراجع أجنبية [1] حول قانون الوراثة ، والبيئة ، ووقوف علماء كل منهما ضد الآخر — كل يذهب مذهبه ويأتى بعلل مقبولة علمياً ، ومنطقياً . . .

ولكنها مشكلة الإنسان — اللغز — الذى لم نصل إلى حله — وستظل دراسته مشوقة بالرغم من حيرة الدارسين والباحثين عن الوصول إلى كنه حقيقته .

وهذا لا يمنعنا من أخذ الأسباب ، ونقول إن للوراثة أثرها ، وللبيئة فائدتها . . فإذا تزوجنا أو صادقنا بحثنا عن الخيار من الخيار من الناس . وكذلك من الذين نشأوا فى حصون كريمة وقت نفوسهم من الانحراف .

---

1) Handbook of Social Psychology : Marshison.

2) Educational Psychology : Startch.

3) The Difficult Child : Valentite.

الفصل الرابع

الشخصية والسلوك — بعض مقاييس الشخصية
ذاتية — موضوعية — إسقاطية

الإنسان السوى ، يتصف بمجموعة صفات ، تصور شخصيته بصورة واضحة مفصلة ، وبقدر هذا الوضوح يحتل مكانته التى تليق به كإنسان . ويقول كما قال ابن سناء الملك يفخر بشخصيته يخاطب الزمن :

وإنك عبدى يا زمان وإننى
بالرغم منى أن أرى لك سيدا

لم يخلق الإنسان عبثاً ، يأكل ويشرب ويتمتع كما تتمتع الأنعام ، ولكن قد خلق لمهمة عليا ، ولن يصل إلى قمة المجد فى هذه المهمة إلا بأن يعرف نفسه ، ولن يعرف نفسه حق معرفتها إلا بتكوين « شخصيته » وهنا ينطبق عليه قول الشاعر :

قد رشحوك لأمر لو فطنت له
فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

* * *

والشخصية تشير دائماً إلى نشاط الإنسان كله ، أو إلى وجهات من التكامل تميز الفرد عن قرينه . . ويوضحها بعض العلماء توضيحاً ويقول هى مجموع الصفات والمزايا الذاتية ، والصفات العقلية والخلقية والجسمية والإرادية التى يتوج به الإنسان نفسه ، وتميزه عن غيره . .

وقد يستعمل بعض العلماء فى تعريفها كلمة مزاج (Temperament) وهو استخدام غير دقيق، فالمزاج يشير إلى نماذج معينة فى حياة الفرد من الناحية الوجدانية أو الانفعالية وهذه النماذج هى التى تجعل السوداوى أو المتفائل يأخذ الأمور ببطء أو بحدة ، وهكذا نفهم أن كلمة المزاج تتضمن أقل ما تتضمن مفهوم « الشخصية » ويمكننا أن نقول إن المزاج يؤثر فى الشخصية ، فهذا متفائل ، وهذا متشائم ، وذاك سريع التأثر ، وذلك بليد لا يكاد يتأثر ، وهذا كثير التردد ، وذلك كثير الإقدام ، وهذا التقسيم فى الأمزجة راجع إلى عوامل شتى كالوراثة والمناخ والبيئة والغذاء والمرض ، وضعف الأعصاب ، وإفرازات الغدد فلها تأثير كبير فى الجسم والعقل ، أى أن المزاج يتأثر بالمواد الكيمائية وإفرازات الغدد المختلفة التى يحملها الدم إلى المخ والعضلات ، لا بوفرة الدم ، أو الصفراء، أو البلغم ، أو السوداء كما يقول القدامى .

* * *

كيف نعرف « شخصية إنسان » ؟ !

هل يكفى أن نراه ضحوكاً أو مكتئباً ، أو ثرثاراً ، فنعطى له « حكماً سريعاً » ونحسب بذلك أننا وصلنا إلى تفهم هذا الإنسان ؟ !

أذكر كلام أستاذ لنا ونحن صغار يقول الناس على أربعة ضروب منظر ومخبر ، ومنظر لا مخبر ، ولا منظر ولا مخبر ، ومخبر لا منظر . . .

وبلغة علم النفس الحديث « الحياة الشعورية واللاشعورية » قد يتفقان وقد يختلفان .

وطرق بحث الشخصية تقوم على الأسس الآتية :

الطريقة الذاتية ، والطريقة الموضوعية ، والطريقة الإسقاطية .

١ – الطريقة الذاتية :

هى أن نسمح للشخص بأن يتكلم عن نفسه حديثاً حراً ، لا دخل لنا فيه ، وكأن مكتشف هذه الطريقة يعنى قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصـ ـف فؤاده عند التكلم

* * *

فيتحدث عن اتجاهاته ، وأمانيه وخبراته وميوله بحرية تامة ، بدون أن يتدخل المختبر ، أو يتدخل ويعطى له رءوس موضوعات معينة .

ونفسر نتيجة هذا الحديث تفسيراً حسناً ، فإن لقوله ، وطريقة حديثه ، وحواره ، وتلكؤه ، كل ذلك قيمة عظيمة حتى لو جعل نفسه محور الكلام ، ومن الطريقة الذاتية تتفرع عدة فروع أهمها :

(ا) تاريخ الحالة .

ويسمونها أيضاً تاريخ الحياة كما مر يستخدم فى دراسة الشخصية ويتوقف بصفة دائمة على السيرة الذاتية .

ويشيع استخدام طريق تاريخ الحالة غالباً فى دراسة الشخصيات غير السوية حتى تكون المعلومات التى نحصل عليها ذات دلالة أكلينيكية للمفحوص لأن كثيراً من الأشياء فى حياة الفرد قد يكون لها تأثير طفيف فى شخصيته الراهنة أو فى المشكلات التى يحتاج السيكاوجى إلى فهمها، يجب أن نسلم بأن الحرية المطلقة يجب أن تمنح للفرد فى إفضائه ما يرغب عن نفسه، ويجب على الفرد « المفحوص » أن يكون صادقاً فيما يقوله . إن إنكاره بعض الحقائق أو تجاهله بعض الأشياء ، أو كتمانه أمراً يعده معيباً أو مهيناً له ، يفقد « الذاتية » اعتبارها. يجب أن يتحدث وهو واثق

من أن الذى يطلب منه الحديث رءوف به شفيق يريد له الخير فلا يخجلن من شيء .

وهناك طريقة أخرى أيضاً يسمونها .

(ب) طريقة المقابلة :

يجرى حوار بين المختبر والمفحوص ، وهى طريقة شائعة (أكاديمية) ويعيب هذه الطريقة الجمود الذى يتمسك به المختبر بالنسبة إلى ما سبق أن حدده من أسئلة أو موضوعات ، وتجرى أثناءها المناقشة موجهة لتحقيق الغرض الذى يريده المختبر ، ويصح أن تهدف المقابلة إلى دراسة الشخص نفسه كوحدة فيصل المختبر إلى الحكم الشامل بعد استقاء المعلومات من مصادر مختلفة ، ومعرفة الشخصية للمفحوص .

ويتوقف نجاح المقابلة فى كل هذه الحالات على حسن الجو الذى يسودها ، وإتاحة الفرصة للحديث بطلاقة وحرية مبنية على الثقة والشعور بالأمن والاطمئنان إلى المختص .

ويجب أن يلاحظ المختص حينما يقوم بتوجيه الأسئلة والمناقشة فى النواحى التى يراها ذات أهمية خاصة أن تتم بطريقة طبيعية بحيث لا يشعر من يقابله بأنه يقف منه موقف المستجوب أو أنه يقوم بعمل شكلى بحيث لا يكون هناك مجال للتحفظ أو للارتياب أو المقارنة أو التضايل .

ويمكن للمختص أن يستفيد من طريقة الشخص فى الحديث ، ومن تعبيراته وحركاته اللازمة وغير اللازمة ، والانفعالات التى تبدو عليه فى المواقف المختلفة ، والموضوعات والنقط التى ترتبط بهذه الانفعالات وعن اتجاهاته العقلية ، وأساليبه فى التفكير التى تلقى كثيراً من الأضواء عن فلسفته فى الحياة وأسلوبه العام ونوع شخصيته والطريقة الثالثة وتسمى :

(حـ) طريقة الاستخبار : Questionaire

وفى هذه الطريقة يقدم للمفحوص سلسلة من الأقوال أو الأسئلة تصف انفعالات المختبر وضروبه السلوكية ، ومن هذا الاختيار (اختبار الشطب Crossout test حيث يشطب المفحوص الملاحظات أوو التعليقات أو الخصائص التى تنطبق عليه ويترك الباقى كما هو ، وفى صورة أخرى يعطى نماذج من السلوك ، يمكن قيامها فى موقف معين ، وتقضى التعليمات بأن يشير إلى ما يختاره ملائماً لنفسه ، وتبعاً لذلك فإن مثل هذه الاستخبارات تهدف إلى الكشف عن صورة كاملة نوعاً لحياة الفرد الانفعالية أو الوجدانية .

ومن أشهر هذه الاستخبارات (استبيان جليفورد) إذ يقدم للمفحوص أسئلة يجيب فيها بنعم أولا ، وكل هذه الأسئلة تدور حول العوامل الآتية :

(١) الانطواء الاجتماعى Social Introvertion

(٢) الانطواء التفكيرى Thincking Introvertion

(٣) الانهباط Pepresion

(٤) المزاج المتقلب Cychoid Disperision

(٥) الانسياب Phathymia

وتعطى الأسئلة على هذا النموذج :

(١) هل تميل إلى أن تقصر معارفك إلى قلة مختارة ؟

نعم أو لا

(٢) هل تميل إلى أن تحلل دوافع الآخرين ؟

نعم أو لا

(٣) هل تكون أحياناً زهقاناً لدرجة أن تبدو لك الحياة غير جديرة بأن تبقى فيها ؟

نعم أو لا

(٤) هل كثيراً ما ينتابك ارتفاع وانخفاض فى حالتك المزاجية بسبب ظاهر أو غير ظاهر ؟ نعم أو لا

(٥) هل تميل إلى أن تسلك بوحى الساعة بدون تفكير فى الرأى ؟ ! نعم أو لا .

والإجابة على هذه الأسئلة الخمسة تدل على ما يأتى :

(١) نعم : تدل على تباعده عن الناس .
لا : اندماجه فى الناس .

(٢) نعم : تدل على أن تفكيره منطقى .
لا : تدل على أنه وجدانى عاطفى فى أحكامه .

(٣) نعم : ذو مزاج تشاؤمى .
لا : ثباته ، وهدوءه ، وبعد نظره .

(٤) نعم : انفعالاته متذبذبة .
لا : سكون انفعالاته .

(٥) نعم : متفائل لا يقدر الأمور حق قدرها .
لا : حذر متيقظ .

والإجابة تتطلب صدق معونة المفحوص ، بأن يذكر الإجابة الصحيحة التى يطمئن إليها والتى تحكي ما يعتمل فى نفسه بدون أن يوارى أو يداهن أو يكذب . . أو . . أو .

أما إذا لم يراع ذلك فإن المشكلة ستظل قائمة ، ولن يمكننا الكشف عن شخصيته ، التى سيستفيد منها هو نفسه إذ أنه سيعرف مزايا نفسه فينتفع بها ، ويعرف النواحي الأخرى الهدامة السالبة فيها فيتقيها بعلاج سبب ذلك .

وقد اقترح بعض الباحثين للتغلب على ما يسمى بأخطاء الرأى المتضمنة فى طريقة الاستبيان بواسطة أسئلة غير مباشرة من ذلك (استبيان

منسوتا للشخصية المتعددة الوجوه Minsiota Multipline Personality
ومن المحتمل بهذه الأسئلة فى هذا الاستبيان أن نصل إلى الحد الذى يصل إليه الشخص فى تزييف إجاباته لتبدو أكثر تقبلا من الوجهة الاجتماعية .

ويقولون : إن هناك درجة ضابطة للكذب فمثلا هذا الجواب :
(حدث مرة أن أجلت إلى الغد ما كان ينبغى أن أفعله اليوم)
فقد وجد أن ٧٪ وضعوا علامة صحيح فمن المفروض أن المفحوصين الذين يؤشرون أمام هذه العبارة بأنها غير صحيحة من المحتمل أن يكونوا مزيفين لإجاباتهم ، وهكذا يمكن اعتبار إجابتهم كاذبة .

الطريقة الثانية لاختيار الشخصية (الطريقة الموضوعية) لا نعتمد فى هذه الطريقة للكشف عن شخصية المفحوص بأن يحكى هو عن نفسه وعن آماله ، ومكنوناته . . إلخ .

إنما نعتمد على « سلوكه الصريح » الذى نكتشفه نحن أو يكتشفه الآخرون ، إنها تقوم على ملاحظة المفحوص فى مواقف معينة من الحياة حيث تتفاعل سماته الخاصة وطباعه وعاداته وتربيته وغيرها من الخصائص التى تميزه عن غيره ويمكن ملاحظة ذلك مباشرة بواسطة المختبر . . .

ويحضرنى فى ذلك قول الحريرى .

اسمع أخى وصية من ناصح فى مدح من لم تبله أو خلشه
وقف القضية فيه حتى تجتلى وصفيه فى حالى رضاه وبطشه
فهناك إن تر ما يشين فواره كرما وإن ترما يزين فأفشه

* * *

وفى الحكم (المرء مخبوء تحت لسانه) وكم تكلم بعض الناس بعد صمت طويل حسبناه عالماً رزيناً فإذا هو ثرثار سخيف مهذار غير مؤدب .

ويقول « جولتون » فى هذا الصدد يجب أن نخلق مواقف مصغرة

للحياة نضع منها المفحوص لاختبار شخصيته حتى يمكننا الحكم سريعاً بدل انتظارنا الفرص السانحة التى يعطينا فيها الدليل على حكمنا عليه بحسب سلوكه وتصرفه العام ، وحديثه . . إلخ .

ويقول « جولتون » أيضاً لا داعى للانتظار إذ يمكن خلق هذه المواقف ، كما أنه من المتيسر وضع المفحوص لتوقعه فيها ، من خلال بضع دقائق وبواسطة ما توجهه إليه من أسئلة، وما يجيب عليها ، وما يبدو فيه من علامات فإننا ننجح للوصول إلى كل ما يعتلج فى نفس المفحوصين . . وهذا يشير إلى تفسير الآية الكريمة : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وبالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى فإنه يعلم كل شىء ولكن المقصد (والله أعلم) أن نعلم نحن المجاهدين الحق والصابرين والآية الشريفة : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) .

والآية الأخيرة أيضاً : (لتبلون فى أموالكم وأنفسكم) . . والقصد من هذا اختبار يفحص به المؤمن الخالص من المؤمن المزيف .

وهذه هى المواقف التى يريدها جولتون لاختيار الشخصيات . .

وهناك طريقة أخرى — طريقة الاستبيان المتوتر — Stress at Intervieu التى قال عنها فريمان إنها طريقة مواقف الحياة على نطاق واسع لدراسة موضوع التربية الخلقية .

وطريقة ثالثة تسمى طريقة الملاحظة غير الملحوظة

يترك المفحوص فى حجرة مزودة بتعليمات أو بدون تعليمات ليؤدى بعض الأعمال ثم يراقب من مكان ما بواسطة مرآة و شاشة حتى يمكن تسجيل سلوكه كاملا وبدقة — وهذه الطريقة كثيراً ما يستعملها المربون

لملاحظة تلاميذهم فى أثناء الفسح حيث لا يجدون رقابة عليهم كاملة فيتركون أنفسهم على سجيتها حينما يلعبون ويضحكون ويمرحون .

الطريقة الرابعة المقاييس الفسيولوجية Physiological Method

الغرض من هذه الطريقة بحث الخصائص الجسمية أو العمليات الفسيولوجية مثل ضغط الدم وغيره ، وذلك عند إجراء عمليات الاختبار .

الطريقة الخامسة مقياس التقدير Rating Scale

استعملت هذه الطريقة طويلا فى تقدير الأفراد فيما يتعلق بالسمات العامة للشخصية ، وكذلك بالتحصيل أو اللياقة لعمل معين . .

وهناك تهذيب لهذه الطريقة فى مقياس التقدير بشخص آخر
Man to Man Rating Scale

الطريقة الخامسة وتسمى طريقة المطابقة

The Matching Method

وتقوم هذه الطريقة على أخذ عينات من كلام المفحوص وخط يده أو طريقة مشيته بدون أن يعرف أن العينة قد أخذت ثم تدمج مع مثيلاتها من الآخرين ويطلب من المفحوص أن يعين خصائص العينات ، أى يصف الشخصية التى تصاحب كلا منها .

الطريقة الثالثة لاختيار الشخصية ..
الطرق الإسقاطية . . .

وتتميز هذه الطريقة عن زميلتيها أنها تحاول أن تحقق الموضوعية بمعناها السيكلوجى بدعوة الشخص تحت الملاحظة لأن يكون ذاتياً بقدر الإمكان .

فمثلا يطلب من المفحوص أن يسلك بطريقة تخيلية مثال ذلك اختبار المفحوص بأن يبتكر قصة تفسيراً « لبقعة حبر » أو بناء بعض الأشياء من مادةالبلاستيك ــ إنها تحدد سلوك الفرد ــ وقد لوحظ مراراً أن الشخص يكشف عما يرغب فيه وما لا يرغب ويكشف عن مشكلاته وطرق تفكيره .

إن الحرية التى تسمح له بالتخيل غالباً ما تنزع إلى أن تمهد السبيل إلى إسقاط « الشخصية الحقيقية » فالفرد يكشف عن نفسه فى مؤلفاته وفى نقده ، وفى طرق تفكيره ، وسلوكه .

وللطرق الإسقاطية أقسام كثيرة منها :

طرق التعبير الحركى Motor-Expresion Method

من حركات المفحوص « اللازمة وغير اللازمة » من نواح معينة من شخصيته بالأسلوب الذى يؤدى أعمالا توافقية ، وتتضمن هذه الطريقة تحليل خط اليد أيضاً ، وأسلوب التعبير اللفظى ، وصوته وطريقة حديثه . . إلخ :

Perceptive structual method الطرق الإدراكية البنائية

فى هذه الطرق يسمح للفرد المفحوص أن ينظم المجال الإدراكى لمنبه مثل بقع الحبر أو نماذج سمعية لا معنى لها ، ومن هذا التنظيم يسهل أن نشتق النواحى التى تتركب منها الشخصية والاتجاه الرئيسى للميول (انبساط انطواء ، سواء أكان اندفاعياً أم ذا قدرة على كبح جماح النفس . .

وتعتبر طريقة (رورشاخ ، فى تشخيص الشخصية أحسن ما عرف من هذه الوسائل وهى أكثر الطرق الإسقاطية استعمالا . وفى هذه الطريقة يعرض على المفحوص عشر بقع حبر واحدة واحدة ، وتقضى التعليمات بأن يذكر للمختبر ماذا يرى فيها أو بماذا تذكره ، أوماذا يمكن أن تمثله ، والاستجابات التى يعطيها المفحوص وكذلك الإجابات لأسئلة معينة من هذا التداعى التى يعطيها المختبر تكشف عن شخصية المفحوص . .

وهناك طريقة أخرى تسمى طريقة « الصوت المبهم » Tautophone (تيتوفون) . . إذ تعرض على المفحوص عدة أصوات مبهمة من آلة تسجيل صوتى ويطلب منه أن يشرح ما يمر بذهنه وما يطرأ عند ما يستمع إلى كل صوت على حدة :

وهناك الطرق الإنشائية الديناميكية

Appreceptive - Dynamic Method

وذلك بأن يقدم للمفحوص سلسلة من الصور مرتبة فى مجموعات مناسبة للراشدين من الذكور والإناث والأطفال بتعليمات ، باعتبار كل منها كتصوير لحكاية ، ومن ثم يقص المفحوص القصة عن طريق تعريفه للشخصيات موضحاً علاقة كل منهم بالآخر ، وما تنتهى إليه هذه القصة .

ويرتبط بهذه الطريقة من حيث نوع الاهتمام الأشكال الممثلة للألقاب Play techniques يسمح للمفحوص – وفى العادة يكون طفلا – بإقامة مناظر مستخدماً لعباً خشبية ، وكثيراً ما يستخدم بغرض التفريغ الانفعالى فى علاج مشكلات الشخصية وهناك طريقة تداعى الكلمات ، وتتلخص هذه الطريقة فى تقديم قائمة من الكلمات للمفحوص كلمة كلمة ويطلب منه أن يجيب بأول كلمة تطرأ على ذهنه ويدون الوقت بين سؤاله وسرعة أو بطء الإجابة . . . إلخ .

وأخيراً إن هذه الطرق الثلاث : الذاتية – الموضوعية – الإسقاطية . وهى مجتمعة خير ما يمكن الكشف عن الشخصية ، ولكن كل واحدة من هذه تترجح فى ناحية فمثلا :

(١) فى الطرق الذاتية يعبر فيها المفحوص عن الرأى .

(٢) فى الطرق الموضوعية السلوك فيها واضح .

(٣) فى الطرق الإسقاطية يبدو فيها السلوك الخفى .

ومن أراد الاستزادة فى موضوع البحث عن الشخصية فليرجع إلى كتاب مناهج البحث فى علم النفس . . مراجعة العلامة ج . . أندورز .

الفصل الخامس

الشخصية ـ تختلف بين الأفراد

شخصية عملية ـ شخصية فكرية

نرى بيننا كثيراً من الناس نبغوا نبوغاً لا حد له فى دنيا التجارة والمال « والأعمال » وأصبحت لهم شخصيات لا تجارى فى هذا الميدان، ويتعجب الناس كيف وصل هؤلاء إلى ما هم فيه من مجد مالى ؟ ! وإلى شهرة فى عالم العمل ! ! ونحاول أن نقلدهم ولكن كثيراً ما نخيب فى هذا التقليد لأن شخصيتنا تختلف عن شخصيتهم ، وفى الوقت نفسه نرى أيضاً كثيراً من النابغين فى عالم الخيال والفلسفة والأدب ، ونتعجب ونسأل أنفسنا كيف وصل هؤلاء إلى ما هم فيه ، ويرتد الطرف خاسئاً وهو حسير ، ونقول المسألة (حظ) فقط ، ونحاول تقليدهم فلا نبلغ مبلغ ما وصلوا إليه .

والسبب فى فشلنا هو اختلاف شخصيتنا عن شخصيتهم . .

إن كلامنا له « شخصية » تقوده إلى ما هيئ له من أسباب ، وعلى ذلك فالواجب أن نبحث عن هذه الشخصية الكامنة فينا ، ونسير وراء ما تهدينا إليه ، وألا نكلف أنفسنا من الأعمال ما لم تهيأ له، ونردد قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

ومن الخطأ أن نحمل نفوسنا حملا على أعمال ضد طبيعتها ـ وفى الحديث الشريف : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وكثيراً ما نتساءل أيهما أفضل لقوام حياتنا . . « الشخصية العملية » أم الشخصية النظرية . . ؟ إننا نرى كثيراً من الشباب يجرون وراء « الأعمال » ظانين أنهم لا ينجحون فى دنيا المال إلا من هذا الطريق . وذلك ما نراه جلياً فى تفضيل كثير من التلاميذ التخصص العلمى والرياضى ، فى الثانوى عن التخصص الأدبى . ويقولون إن التخصص العلمى سيذهب بنا إلى كنوز الذهب فى كليات الهندسة والطب والصيدلة ، فيذهبون إلى هذه الكليات فيجدون فى أنفسهم ضيقاً وحرجاً وزهقاً ويودون أن يتركوها ، أو يتركوها فعلا جرياً وراء الباعث النفسانى الذى يؤرق مضجعهم ويهتف بين جوانحهم من حبهم للنظريات الخيالية من فلسفة القصة ، أو أدب الشعر ، أو الفن ، أو الغناء والتمثيل أو الصحافة . . إلخ .

ومعنى ذلك أننا « حملناهم حملا » على مسائل لا تتوق إليها نفوسهم ، ولم يهيأوا لها فطريا ، فيقفون فى اجتياز ممراتها فى الوقت الذى يشتهرون فى ناحية أخرى أدبية .

كنت أحب أن أضرب كثيراً من الأمثلة التى تقع بين عينى كل يوم . أقدمها للاعتبار ، ولكنى أكتفى بمثل واحد هو المرحوم مأمون أبو شوشة الذى تخرج فى كلية العلوم فلم ينتفع بما فيها من علوم الذرة والكيمياء . . بل قد سمعت من أحد أساتذته أنه كان إذا طلب منه أن يجيب على سؤال فى هذه العلوم تحريرياً . . كانت الإجابة « خيالية » أى يمزجها بالصور والتشبيهات والاستعارات والمحسنات اللفظية والمعنوية . فمثلا إن سئل ما هى الذرة ؟ ! تكون إجابته . . الذرة وما أدراك ما هى ؟ يا لهول الذرة ، إنها تقسم إلى أخوات شقيقات يسمونها إلكترونات Electrons.

وهكذا يمكن أن نرى الأمثلة فى كل وقت آخر . .

فهل لاحظنا ذلك فى أبنائنا ؟ ! ووجهناهم الوجهة النفسية التى هيئوا لها ؟ !

وبعد . .

فإننا فى حاجة إلى « الشخصيتين » معا — الشخصية العملية، والشخصية الفكرية ، فهما أساس قوام الحياة . . نحن فى حاجة إليهما لقوام حياتنا فالحياة بطبيعتها عمل ، وخيال .

فالواجب أن نكشف عن أسباب كل شخصية فى الأفراد ونوجه كلا إلى الاتجاه الذى يليق به ، بذلك نتجنب فشل الشباب فى الحياة ، ولا نحملهم مسئولية هذا الفشل، أو نحيل أسبابه إلى الحظ ، وما الخطأ إلا فى اتجاهنا بشبابنا اتجاهاً لم تهيأ له نفوسهم .

ومن الأخطاء العامة فى هذا السبيل ، ما نراه فى « مكتب التنسيق » الذى يجعل كل همه فى توزيع الطلاب على « الكليات » التى حصل كل منهم على درجات تؤهلهم لها ، أى أن القبول فى الكلية بقيمة درجات الامتحان — التى لا نعرف بالضبط كيف حصل عليها التلميذ . ولعلها بالغش ؟ ! . ناسين أو متناسين « البواعث النفسية » والتهيؤ من الناحية الشخصية ، إلى نوع معين من الدراسة « العلمية أو النظرية » حسب مقتضيات بواعثه وتهيئته الشخصية .

ليتنا زودنا هذه المكاتب « بعلماء النفس » وجعلنا « مهمتهم الأولى » سبر أغوار كل طالب ، وتوجيهه إلى الكلية التى تناسب ميوله ، واستعداداته

* * *

وما دمنا قد تكلمنا على الشخصية (العملية والنظرية) فلا بد إذن من أن نفهم بأن للشخصية أثرها فى السلوك الإنسانى . .

كما أن للطاقة العقلية الكامنة أيضاً هذا الأثر فالسلوك يصدر عن امتزاج هذه القوى أيضاً كما امتزجت أسباب الوراثة وأسباب البيئة . .

الفصل السادس

السلوك وعلاقته بالجسم

العقل السليم فى الجسم السليم ــ قوالب الانفعال ــ الشخصية والأمزجة
أثر الجسم فى الحياة العقلية ــ الغدد ــ والشخصية

لقد نسبت فى الفصول السابقة حالات الشذوذ فى السلوك إلى عوامل الوراثة ، وعوامل البيئة ، واختلاف كل فريق من مؤيدى هذا أو ذاك .

فهل يمكن أن ننسب بعض حالات الشذوذ فى السلوك إلى الحالة الجسمية ؟ إنى أرى أن صحة الجسم أو علته قد تكون لهذه أو تلك أثر فى السلوك أيضاً .

فحالات الخمول ، أو القلق ، أو التسرع ، أو التشكك الدائم أو ضعف الهمة قد تنسب إلى إمساك مزمن ، أو ألم فى الطحال ، أو وجع فى الأسنان .

فربما عند ما تزال هذه الأسباب الجسمية تبقى هذه الأعراض كما هى . . وربما تذهب بذهاب الأسباب .

فما علينا إلا أن ندرس ما بين الحياة العقلية والحياة الجسمية من صلة فهناك علاقة يمكن الاستفادة منها لتشخيص بعض الحالات الشاذة فى السلوك الإنسانى . . إن المعروف أن التطور العقلى خاضع دائماً للتطور الجسمى ، وأن هناك موازاة بين الاثنين ، وقد قال بعض الحكماء (العقل السليم فى الجسم السليم) ووجود العلاقات بين الحياة الجسمية

والحياة العقلية يبدو واضحاً فى الحالات الانفعالية ففى كل حالة انفعالية كالخوف ، أو الحزن ، أو الفرح ، توجد مظاهر فسيولوجية للدلالة على كل حالة تصاحبها دائماً فالإنسان فى موقف الخوف ، غيره فى حالة الحزن ، غيره فى مظهر الفرح . ولا يمكن فهم حقيقة الانفعال إلا بالشكل الفسيولوجى الذى يتخذه الجسم لكل حالة .

ومن التجارب التى أجراها أحد علماء الفسيولوجيا ، لملاحظة ما يصحب الانفعال من تغيرات داخلية فى الجسم أنه قام بفحص قطة بعد أن تناولت طعامها هادئة لا شىء يعكر مزاجها فرأى « بأشعة إكس » أن الأعضاء الداخلية . تقوم بعملها خير قيام فى عملية الهضم . ثم أظهر أمام القطة كلباً كبيراً فظهر عليها « انفعال الخوف » ولاحظ العالم أيضاً بأشعته أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة ، وأن الأوعية الدموية انقبضت، وأن ضغط دمها زاد وأن تغييرات عدة طرأت على إفرازات الغدد وأن « الإدرنالين » زاد زيادة كبيرة — لأن الجسم إذا كان فى حالة دفاع زادت هذه المادة التى يفرزها الكبد لتزيد من نشاط الجسم لدرء هذا الخطر عنه .

وبالرغم من وجود خلافات وبحوث بين العلماء حول التغييرات الجسمية المصاحبة للانفعال فمن قائل بأن الحالة الانفعالية هى الشعور والإحساس بالتغير الفسيولوجى للجسم وأشهر القائلين بهذا جيمس فى كتابه « مصادر علم النفس » .

ومن قائل بالعكس . أى أن الانفعال حالة تنشأ فى شعور الكائن الحى بعد إدراكه نفسه فى مجال معين وأن التغييرات الفسيولوجية تتبع ذلك مباشرة . .

وليس من رأيى أن نذهب فى تفسير هذه النظريات التى لا تفيدنا فى هذا الباب .

فالذى يفيدنا ما نخلص إليه من أن الانفعالات هى حالة نفسية صرفة لموقف جديد طارئ مثير وعادة يصحب هذا الانفعال تغييرات جسمية « فسيولوجية » تعبر عنه وتوضح حقيقته .

وقد يحدث « العكس » فنى مواقف الفرح يبكى الانسان كما يقول الشاعر :

هجم السرور على حتى إنه من فرط ما قد سرنى أبكانى

إنما « فى العادة » لكل « انفعال » قالبٌ خاص نراه فى شكل المنفعل .

* * *

وهناك سلسله من المحاولات أيضاً لإدراك العلاقة بين الجسم والعقل غير ما قدمت من المظاهر الفسيولوجية التى تصاحب الانفعالات .

هذه السلسلة تبدأ بما قام به أحد حكماء الإغريق وهو « جالينوس » بأنه ربط بين الشخصية والأمزجة بعد أن أخذ نظرية الأمزجة الأربعة (الدم ، البلغم ، الصفراء ، السوداء) من سلفه أبقراط .

وقد ظلت هذه النظرية تحتل مكانتها فى العصور الوسطى وما قبلها .. حتى قامت نظريات متعددة تهدمها من أساسها — وأشهر هذه النظريات :

١ — النظرية التى تبرهن على أن الشخصية تتأثر بسرعة التأثر فى المجموع العصبي أو بالبطء فيه .

٢ — النظرية التى تبرهن على أن الشخصية تتعلق إلى حد ما بإفرازات الغدد كما قال برمان فى كتابه الشخصية المنظمة بالغدد The glands Regulating Personality فقد قال فى كتابه سالف الذكر ماترجمته : إن نواة الشخصية خاضعة لحالة الغدد الهرمونية — أى ذات الإفراز الداخلى .

٣ — نظرية قال بها « كرتيشمر » التى بها ربط بين الصفات الشخصية والصفات الجسمية الظاهرة فقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :



(ا) الهزيل The Asthenic
(ب) الرياضى The Athietic
(حـ) السمين Pyknic

ويقول إن النوعين الأولين يميلان إلى الهدوء والمحافظة والجد وقلة الاجتماع بغيرهما وأما النوع الأخير فهو نوع صريح يميل إلى المصادقة والمرح وسرعة التقلب . . ويسمى « كرتشمر » صاحب الشخصية الأولى « المنطوى » وصاحب الشخصية الثانية « المنبسط » أو المتقلب . .

أثر الجسم فى الحياة العقلية :

هل يمكن اتخاذ الجسم معياراً للحالة العقلية ؟! يقول بعض علماء النفس : إنه ثبت من ملاحظة .. ضعاف العقول (Mentaly Defective) أنهم أقل على وجه العموم من زملائهم من حيث الوزن والطول والتسنين أيضاً فى الصغر .

ولكن ليست هذه القاعدة مصطردة دائماً . . ويقول بعض « علماء النفس » : إن هذه الحالة لها تأثير غير مباشر فى النفس، إذ أنها تبعث الحقد على « المجتمع » الذى قد يعامل هؤلاء معاملة يرون فيها إهانة لهم أو عطفاً عليهم لايرضونه .

ويقولون أيضاً إن كثيراً من أنواع الشذوذ فى سلوك هؤلاء راجع إلى شذوذهم فى البناء الجثمانى .

ويلاحظ هذا جلياً فى سلوك أصحاب العاهات كفقد البصر ، أو السمع ، أو الرجل . . ولعل ما تثيره أشعار « أبى العلاء المعرى » ومنها :

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويانفس جدى إن دهرك هازل

وكذلك « أشعار » بشار بن برد وغيره .. حتى قال بعض العلماء : كل

ذى عاهة جبار . . وقد صور « شارلز ديكنز » فى روايته أحدب نوتردام مبلغ حقد هذا الأحدب على المجتمع .

. . ولكن ليست هذه القاعدة مطردة دائماً ، فقد تتخذ العاهة « سلوكاً هدمياً سلبياً » يبدو أثره فى بعض الناس . وقد تتخذ أيضاً سلوكاً بناء إيجابياً يبدو أثره فى البعض الآخر . . فإننا نرى العباقرة فى الفن والموسيقى والأدب ، والشعر ، وكذلك كثيراً من المصلحين لا يخلو بعضهم من عاهة . فهذا « بيتهوفن » لم يحقد على المجتمع فقد كان حساساً عطوفاً يشعر بألم الضعفاء ، ويشارك البؤساء والمحزونين فى أناتهم وبؤسهم ثم يحول هذا إلى «دموع » يفرغها فى « سيمفونيات » نابضة على « البيانة » ويبدو ذلك جلياً فى سيمفونيته « رب لم أشقيتنى وما أشقيت أحداً من عبادك؟! » . . لم يحاول بيتهوفن أن يحقد على «المجتمع» وكان فاقدالسمع .. وكم كشف الحرمان عن كثير من المواهب الفنية ، فالحرمان وإن كان ظاهره العذاب ، فباطنه الرحمة ، فإن الله لا يحرم المحروم من « تعويض» ويقول الإمام الغزالى ، الفيلسوف الصوفى . إن من العبث أن نظن أن الحواس خمس فقط بل عند الله كثير منها فإذا حرم الإنسان حاسة قويت الأربع الأخر أو طرف منها أو تجددت حاسة أخرى كانت نائمة .

كنت أريد أن أستشهد ببعض الأمثلة الحية لذوى « عاهات » بيننا لم يحنقوا على قومهم ، ولم تتأزم أنفسهم نحو المجتمع الذى يعيشون فيه . . أما الأمثلة التى قدمها بعض علماء النفس لبعض المحرومين من كمال النعمة فى تمام فسيولوجيا الجسم . فليست حجة قاطعة على كل ذى عاهة . .

ونعود فنقول : ليس للعاهات أثرها فى النمو العقلى أو فى الحياة السلوكية بما يجعلنا نقطع بأن العاهة سبب الانحراف السلوكى دائماً إذن فلنبحث عن « السبب » ربما يكون بعيداً عن هذه العاهة . .

وربما أن تكون العاهة سبباً فى تزويد صاحبها بفلسفة أو عبقرية ، أو تصوف .

مر رجل على قعيد مكفوف قد احتوشته الأمراض فوجده يحمد الله تعالى ، فقال على أى شيء تحمده ، ولم يترك لك ما يوجب الحمد ! ؟ فرد عليه قائلا : أبعد عنى أيها الجاهل ، فقد أبقى لى قلباً يعرفه ولسانا يذكره .

ويقول بعض أساتذنا من علماء الأزهر ، كنا نقرأ الفقه على شيخ كفيف بعد صلاة الفجر ، فذات يوم جلست أمامه مع بقية الطلبة فوجدته يشيح بوجهه بعيداً عنى ، ويبتسم للآخرين ويقبل قراءاتهم ، ويعرض عنى ، فهجست نفسى بخواطر تجول هنا وهناك ، فتذكرت أننى احتلمت فى ليلتى ولم أغتسل فقمت فوراً ، واغتسلت فى مغسل الجامع الأزهر ، وأعدت صلاة الفجر وذهبت لأجلس مع زملائى فتبسم الشيخ فى وجهى وانبسطت أسارير وجهه وأقبل علىّ وقال الآن فاقرأ ما شئت من الفقه .

وأخيراً ليس « السخط دائماً » منهاج صاحب العاهة وليس « الرضا دائماً » أيضاً منهاجه .

* * *

ولا ننسى أن هناك أثراً مباشراً للجسم على العقل ويلاحظ ذلك فى الظواهر الآتية . .

١ — من طريق الفعل المباشر للدم — أى التى تجعل الدم يصل إلى المخ .

٢ — ما يحمله الدم من مركبات تصل إليه عن طريق الأدوية كالاستركنين أو المكيفات كالقهوة .

٣ — المركبات التى تفرز فى الدم مباشرة بواسطة الغدد .

كل ذلك يؤثر فى الحالة العقلية .

وهناك تغيرات طارئة كالحالة التى يشعر بها الإنسان بعد أكلة ثقيلة إذ يحس الإنسان بثقل وميل إلى النوم وكذلك نلاحظ الفرق بين الحالات الفعلية المختلفة المصاحبة لأنواع ضغط الدم المختلفة . فنى حالة الضغط العالى نلاحظ ميلا إلى قلة النوم ، وكثرة العمل العقلى وسرعته، وسرعة الانفعال . . أما فى حالة الضغط المنخفض فإننا نلاحظ ميلا للخمول وعدم القدرة على التركيز (راجع الصحة النفسية للقوصى ص ٥٧) وراجع الصحة العقلية « لريس » .

أما أثر المخدرات والمكيفات :

إنها تعطل العمليات العقلية ، وتفسد تفكير الشخص فتضطرب أفكاره ، وتدفع الشخص لإحداث حركات لا تليق بإنسانيته ، وتسلط عليه الوساوس والأوهام .

أما المنبهات كالشاى والقهوة فإنها تؤخذ لتنشيط الحياة العقلية . .

أما المخدرات فإنها تهد الجسم هدًّا ، وتخبل العقل وتفسده كل هذه سموم « توكسينات » كما أنها تقضى على أجهزة الجسم فإنها حتما ستقضى على الحياة العقلية السليمة .

ويلاحظ أيضاً أن هناك تأثيراً مباشراً على الحياة العقلية من الجسم يظهر فى حالة خراجات الأسنان أو اللوزتين أو الخراجات الصدرية أو المعوية أو المعدية كل ذلك له أثره فى الحياة العقلية من حيث تخفيض الشعور بلذة الحياة ، وتقليل القدرة على العمل ، وزيادة الإحساس بالتعب والقلق ، وعدم الاستقرار ، والتهيج ، والغضب وما إلى ذلك . . .

وتوجد أيضاً الميكروبات أو البكتريا فى حالة الأمراض المعدية ، فى الزهرى سواء أكان مكتسباً بعد الولادة أو قبلها نجد أن من بين

أعراضه الخطأ فى الحكم، ويرى بعض علماء النفس أن نوعاً من جنوح الأحداث يرجع إلى الزهرى الولادى[١] . .

ويقول (ستّرانون) إن الذين قد أصيبوا فى صغرهم بأمراض معدية يكونون أكثر قابلية للتهيج الانفعالى من غيرهم . .

وما زلت أقول إن نتائج هذه الأبحاث ليست قطعية إنها تخمينية . ؟

أما أثر الغدد فى الحياة العقلية : فقد أشرت إلى ذلك سريعاً فى كتابى « أنت . . أيها الإنسان » ولكن لا بد من التوضيح فى هذا الباب فإن الغدد تفرز هرمونات تصب مباشرة فى الدم وبذلك يسرى فى الدم مركبات كيماوية تكون السبب فى الأمزجة المختلفة . . وسنذكر ههنا بعض الغدد ونبذة عنها التى تتعلق بسلوك الفرد .

١ — البنكرياس : له إفرازان ، إفراز خارجى يصب فى الاثنى عشر يساعد على الهضم ، والآخر داخلى ويسمى بالأنسولين ووظيفته تنظيم اختزان السكر فى الكبد والأنسولين إن كان مقداره كبيرا أنتج الشعور بالجوع والرعشة والقلق ، وكثرة التعب وإن كان أقل ما يلزم أنتج الخمول والشعور بالهبوط العام .

٢ — الغدد الدرقية وجاراتها : وظيفتها إفراز مركب مخصوص يعرف بالثيروكسين وفى حالة عجز هذه الغدة يلاحظ على الشخص السمنة الزائدة ، والبطء والخمول وكثرة النسيان ، أما إذا زاد الإفراز عن حده فإن الشخص يبدو عليه قلة الاستقرار وكثرة الاستفزاز ، واضطراب النوم ، وتزداد ضربات قلبه ، ويرتفع ضغط دمه ، ويخف وزنه . .

---

(١) الزهرى الولادى Congential Syphlis هو المكتسب قبل الولادة.

الغدد جارات الدرقية : وهى تعادل بعملها نشاط الغدة لدرقية فإذا أزيل جزء منها كان المرء سريع التهيج والعصبية .

٣ ــ الغدة النخامية (The piturety)

وتسمى سيدة الغدد (The Master gland) لأنها تؤثر فى بقية لغدد ، والاختلال فيها يسبب القزامة ، أو يسبب نمو العظام . . .

ويتسبب عن اختلالها أيضاً مرض يسمى فروهيلتس Frohi tiches Disease وهو يظهر فى الصبيان ويكونون عادة فى سمنة زائدة مع تأخر فى نمو العظام زيادة على ضعفهم جسميا وجنسياً .

٤ ــ الغدد التناسلية Gonads

وتظهر الفروق فى الرجل والمرأة ، فنى الرجل خشونة الصوت ونمو الشعر على العارضين والشفة العليا أما المزايا السيكلوجية فتظهر واضحة مع الميل إلى المخاطرة ، والاعتداد بالنفس ، وحب الزعامة أما فى المرأة فكبر الثديين ، ونشاط الغدد اللبنية ، ونمو الشعر على العانة وتحت الإبط ، والميل إلى الجنس الآخر .

وهذه الصفات البيلوجية والسيكلوجية ناشئة عن هرمونات تفرزها هذه الغدد . ؟ وتنقسم هذه الهرمونات إلى ذكرية وأنثوية تفرز على السواء لدى المذكر والمؤنث غير أنها تتغلب فى ناحية الذكورة فى الذكر وناحية الأنوثة فى الأنثى . . وكم تخلق المشكلات عند زيادة الإفرازات المعكوسة . . أى كثرة الهرمونات الذكرية لدى الأنثى أو الهرمونات الأنثوية لدى الذكر . . .

وقد أجرى بعض العلماء تجارب على إعادة الشباب بواسطة مستخرجات الخصية من القردة ، وقد لوحظ أن الصفات السيكاوجية عادت أيضاً مع الشباب . ولوحظ أن الخصيان والأغوات يفقدون بإزالة خصاهم كثيراً من صفات الرجولة كخشونة الصوت ويتصفون بصفات الإناث من نعومة الصوت والخمول .

٥ ــ الغدد « الفوق الكلوية » (الكظرية)

وهما غدتان كل واحدة منهما فوق كلية من الكليتين وتتكون كل غدة من جزأين ، خارجى ، وداخلى والهرمون الذى تفرزه القشرة يساعد على البذل العضلى ، وعلى مقاومة العدوى ، وزوال هذه القشرة تتسبب عنه الوفاة ، وضعفها يترتب عليه الكسل وعدم الاهتمام بالجنس الآخر ، أما الزيادة فى نشاط القشرة فيترتب عليه زيادة مظاهر الرجولة سواء المرأة أو الرجل .

أما هرمون اللب فهو ما يسمى بالإدرنالين فيسبب عند زيادة إفرازاته ضربات القلب وازدياد عمل الرئتين ، وازدياد إفراز السكر من الكبد وازدياد العرق ، واندفاع الدم للمخ والعضلات . فالمعروف أن وظيفة الإدرنالين تنشيط الكائن الحى ويزيد من كفاءته لتحقيق سرعة الخلاص من مأزق .

٦ ــ غدتا الطفولة :

وهما الغدة التيموسية أو الصعترية وتقع فوق القلب والغدة الصنوبرية وتقع فى الدماغ خلف النخامية ، وتسميان غدتى الطفولة ويلاحظ ضمورهما

قبل البلوغ ، وإذا لم يحدث ذلك فالفرد يبقى كالطفل « سيكلوجيا » بالرغم من نموه .

* * *

إن المطلوب من هذه الغدد جميعها الاتزان فى الإفرازات ، فإذا قامت بذلك كان الجسم ساكناً تحت تأثير القوى المختلفة .

* * *

وأخيراً إننا عند دراستنا للصحة العقلية أو الصحة النفسية لا نستغنى مطلقاً عن الظواهر الجسمية ، وكذلك العكس . . .

والمشكلات التى تصادفنا « فى السلوك الإنسانى ماهى إلا مزيج من هذه الأخلاط ، ولا يمكن نسبة السلوك إلى قسم واحد وندع الباقى ، فلا بد أن للجميع أثراً فعالا فيما نشاهده على الأفراد من تصرفات واتجاهات .

الفصل السابع

الغرائز وتأثيرها فى السلوك ـ النزعات الاجتماعية
(ا) الاستهواء ـ (ب) المشاركة الوجدانية
(حـ) التقليد ـ (هـ) اللعب

رأى العلماء فى النزعات الاجتماعية ـ تعديل الغرائز
إثارة ـ إعلاء ـ إبدال

الغرائز كثيرة ، وتعريفها : إنها استعدادات فطرية فى الكائن الحى تدفعه إلى سلوك مسلك معين إذا أحرج فى مجال معين ، وأشهر العلماء الذين بحثوا عن الغرائز وخواصها مكدوجل ويمكن إجمالها فيما يأتى :

١ ـ **غريزة الخلاص :** وهى استعداد لدى المرء يستثار إذا أحرج فى مكان معين ، شعر إزاءه بخطر يحدق به ، يجعله خائفاً فلا يجد مناصاً من الهروب لخلاص نفسه ، وهذه الغريزة موجودة ، يرثها الإنسان والحيوان ، فهى فطرية . . ولا يتعلمها . .

٢ ـ **غريزة المقاتلة :** وهى أيضاً فطرية ومظهرها فى اندفاع المرء نحو هدم العوائق التى تحول بينه وبين أمانيه .

٣ ـ **غريزة الاستطلاع :** حب النفس وشوقها إلى معرفة كنه بعض الأشياء التى تراءت لها ، ومظهر هذه الغريزة بأجلى صورها فى الأطفال فهم يحطمون كل شىء ليعرفوا نتيجة ذلك . .

٤ — غريزة البحث عن الطعام : وتظهر بعد الولادة مباشرة فالطفل يبكى بكاء شديداً وبمجرد أن يضع فمه على حلمة ثدى أمه يسكت .

٥ — غريزة السيطرة : وتبدو عند ما يجد المرء نفسه غالباً، ونشاهد ذلك فى الأطفال وهناك أيضاً غرائز كثيرة أشهرها غريزة التملك ، وغريزة الحل والتركيب ، والضحك ولم يصل العلماء إلى تفسير ظاهرة الضحك إلا أنه سلوك غريزى .

وهناك أيضاً — الغريزة الاجتماعية ، وغريزة الاستغاثة . . والغريزة الجنسية . . . إلخ .

راجع كتاب طاقات الرجال لمكدوجل Energies of Men

وإذا حللنا سلوك الإنسان فإننا نصل إلى غريزة من الغرائز كانت هى المصدر لهذا السلوك فمثلا . . « عادة التدخين » قد يكون الدافع لها « غريزة السيطرة » وقد نصل أيضاً إلى عدة غرائز نجمت عنها هذه العادة .

أى أنه من الممكن إرجاع سلوك الإنسان إلى الدوافع الأولية الفطرية المسماة بالغرائز .

وعلى المربين « ملاحظة ذلك » ملاحظة أن الإنسان مزود بهذه الدوافع الأولية فى حياته ، وليس من الممكن القضاء عليها نهائياً فذلك مغالبة للطبيعة إنما يمكن تهذيبها وتذليلها لصالح المجتمع ، وتلك مهمة التربويين . .

إن المفروض فى المربى أن ينمى القوى على أحسن وجه ممكن . . .

وهذه القوى الفطرية هى الأسس الأولى الذى يمكن بناء الفرد عليها بناء سليما ما دمنا قد لاحظنا ذلك .

إن العالم النفسى لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يغمط عوامل

هذه الغرائز فى تقرير سلوك الإنسان . .

وهناك بجانب هذه الغرائز (نزعات فطرية عامة) وتسمى (نزعات اجتماعية) وهى :

١ — القابلية للاستهواء Suggestion

٢ — المشاركة الوجدانية Sympathy

٣ — التقليد Imitation

٤ — اللعب Play

وتفسير ذلك ما يأتى :

(١) القابلية للاستواء :

هى استعداد شخص لقبول فكرة أو رأى من شخص آخر وقبوله مقتنعاً بهذه الفكرة أو الرأى بدون أسباب معقولة منطقية .

ونرى كثيراً من الناس الميهم هذا الاستعداد ، يكفى أن يتحمس بعضهم لزعيم قال كلمة أو أبدى رأياً ، أو وجههم نحو فكرة معينة بدون نقاش ما أبداه . . وقد وجدنا ذلك ولمسناه أيام الأحزاب ، كل حزب بما لديهم فرحون ، فالوفدى ، والسعدى ، والدستورى ، والكتلى ، والوطنى كل منهم يأخذ رأى زعيم حزبه بدون نقاش ويستهويه ما يقوله حتى ولو كان خطأ .

إنها قابلية الاستهواء التى يستخدمها الزعماء والقادة والمعلمون والأدباء . . . إلخ .

ويمكن الاستفادة من هذه (القابلية) فى علاج كثير من الأمراض النفسية .

وأظن أن الدجالين والأفاكين يجدون مرتعاً خصباً . واستهواء متمكنا ..

فى هؤلاء الذين يذهبون إليهم يعتقدون فيهم، وفيما يدعونه من الاتصال بالجن والعفاريت وأن بيدهم الشقاء والنجاح وكشف الغيب . . . إلخ .
يمكننا أن نفيد هؤلاء الذين لديهم (القابلية للاستهواء) فى إشادهم إلى النواحى التى تفيدهم .

٢ — المشاركة الوجدانية :

لوحظ دائماً أن الكائن الحى يشعر بما يشعر به غيره ويشارك هذا الشعور « حزنا أو فرحاً » عند إدراكه المظاهر الخارجية لهذه الانفعالات .. وكلما زادت الرابطة الاجتماعية كلما سمت المشاركة الوجدانية « تلاحظ ذلك » فيما يظهر على سمات الكائن الحى من سرور أو غم مشاركة لأقرب الناس إليه ، فالوالد يتألم لألم ولده أكثر مما يتألم لألم شخص آخر . وهكذا ، ويسر الإنسان لسرور صديقه أكثر من شخص آخر . . .

وقد تنقلب هذه المشاركة الوجدانية إلى شعور سلبى فبدلا من أن يفرح الإنسان لفرح زميل له ، يغتم إذا كان بينهما سوء تفاهم ، أو بغض وكراهية فالعلاقة دائماً لها أثر واضح فى مظاهر هذه المشاركة الوجدانية .
وكلما سمت أخلاق المرء كلما بدت فيه هذه الظاهرة مهما كان بينه وبين « المنفعل منه » . . .
فعظماء الرجال كانت مشاركتهم الوجدانية للإنسانية جمعاء ، فمن حب للوطن الصغير إلى حب للوطن العام ، فالإنسان أخو الإنسان فى مشارق الأرض ومغاربها . .
يجب أن نشعر بما يشعر به الناس وأن نضع أنفسنا فى مواضعهم دائماً ما دام لدينا فهم وتفكير وشعور مهما كانت مراكزنا بالنسبة لهم . .
كما يجب ألا نتصف بصفات ذوى الأمزجة الباردة التى تتجلى فيهم

القسوة والجمود والغلظة فلا نتأثر بما يتأثر به غيرنا ولما يلم به من نكبات وآلام،ولقد عاب التاريخ (نابليون) لشدة قسوته على النوع الإنسانى وعدم مشاركته شعور غيره ، وعدم إحساسه بالرحمة .

يقول السير ولتر سكوت (من أكبر الكتاب الأسكتانديين) إن المشاركة الوجدانية هى الحلقة الفضية ، أو الرباط الحريرى الذى يصل القلب بالقلب ، ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح .

غير أننا إذا اتصفنا بهذه الصفة فلا يجب أن نتمادى فيها كى نستطيع أن نزن الشيء بميزان العدالة والتقدير لا بميزان الهوى والعاطفة . . . أى أن مشاركتنا لغيرنا فى آلامه مثلا لا يمنعنا من تقرير الحكم عليه إذا أساء . . .

يجب[1] ألا نزن أمورنا من ناحية الوجدان فقط ونهمل الناحية العقلية فيختل التوازن ويصبح الإنسان خاضعاً للوجدان فقط .

كنت أحب أن أقص كثيراً أحاديث هؤلاء الذين تتجلى فيهم وفى أعمالهم صفة المشاركة الوجدانية ولكنى أرى أن أقص هذه القصة فقط .

قال أحد الصحابة خرجت مع عمربن الخطاب إلى قرية قرب خيبر ظاهر المدينة فإذا بنار توقد فقال عمر : إنى أرى هؤلاء ركبا قصربهم الليل والبرد،انطلق بنا إليهم فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يصيحون) فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء قالت المرأة وعليك السلام فقال: أأدنو ؟ قالت أدن بخير أو دع ،فقال ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد،قال مابال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت : الجوع .قال وأى شيء فى هذه القدر؟ قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر .

(١) الشخصية – للإبراشى .

فقال: أي رحمك الله وما يدري عمر بكم؟ قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا؟
فأقبل عليّ فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق. فاخرج عدلا فيه كبة (قطعة) شحم فقال: احمله عليّ. قلت أنا أحمله عنك قال احمله على (مرتين أو ثلاثا) كل ذلك وأنا أقول أنا أحمله عنك فقال أخيراً أأنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟ لا أم لك؟!. فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول: ذرى على وأنا أحرك لك. وجعل ينفخ تحت القدر. وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج الطعام وقال: أحضري شيئاً فأتته بصفحة فأفرغ الطعام فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك. فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها بقية فجعلت تقول: جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول: قولي خيراً: إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك إن شاء الله . . .

٣ — التقليد:

هو انتقال السلوك من فرد إلى آخر يقلده في حركاته وسكناته.
فالولد يقلد أباه في سيره وفي حركاته وفي طريقة كلامه، وفي أخلاقه وسلوكه.
والصغير يسرع في تقليد الكبار دائماً، وتقلد الأمة عظماءها وفلاسفتها فيما يتمذهبون به إن كانت أمة صالحة، والحكمة تقول (الناس على دين ملوكهم) أما إن كانت أمة ضعيفة ذات شخصية معتلة «سيكولوجيا» فإنها تقلد غيرها من الأمم، ولا تحفظ لنفسها شخصية تمتاز بها عن غيرها.
ويقول إخواننا «الصوفيون» الواجب على كل مريد أن يتخذ شيخاً له يقلده في حركاته وسكناته ويقولون (الشيطان شيخ من لا شيخ له) . .

وكثيراً ما نرى بعض الشباب « الماجن » يقلد ذوى الإباحة والاستهتار من ممثلى السينما والمسرح .

وما نراه دائماً من تقليد السيدات لممثلات السينما فى الملابس وتسريحة الشعر . . وما إلى ذلك .

والتقليد دائماً وليد المنهج الذى يسنه الإنسان لنفسه ، فالذى يقلد رجال الدين والمصلحين فهو من الذين تربوا تربية دينية خلقية ونهجوا طريقاً مستقيماً .

والذى يقلد « الإباحيين » فهو من الذين لم يجدوا فى بدء حياتهم «توجيهاً صالحاً » ومربياً فاضلا يعود النفس ألا تجمح وأن تسير فى طريق الكمال الإنسانى .

٤ — اللعب :

يجب أن نفرق بين تعريف الجد وتعريف اللعب فالعمل الجد لايقصد لذاته وإنما يقصد لغاية خارجة عنه وأما اللعب فإنه يقصد لذاته .

ويقول علماء النفس إن اللعب فى مراحل الطفولة الأولى يكشف لنا عن شخصية الطفل وميوله ، وأن فى اللعب فرصة طيبة للتعبير عن غرائز الأطفال ، ويمكن معرفة قوى الطفل واستعداداته من طرق لعبه .

رأى علماء النفس فى النزعات الفطرية :

١ — رأى فرويد : إن للغريزة الجنسية الطاقة الكبرى فى هذه النزعات ، وإن ما يفعله الطفل فى أول حياته من امتصاص أصابعه ، ولثم ثدى أمه ، وما إلى ذلك فهذه كلها أدلة على عدم براءته وطهارته، وإن هذه المظاهر تدلنا على تلذذه جنسياً بما يفعل .

٢ – **رأى سبنسر** : إن النزعات الفطرية لها عوامل بيولوجية (حيوية) وإنها لحاجات فى نفس الإنسان فإذا شبع الإنسان منها تصبح لديه ممجوجة .

٣ – **رأى أدلر** : إن هذه النزعات تدلنا على ما فى الإنسان من دوافع السيطرة – وقد نسب أدلر كل أنواع السلوك إلى هذه الدوافع .

٤ – **رأى ثورنديك** : إنه يؤمن هو وأصحابه بالسلوك الغريزى Instenctive Behavior ويهملون فكرة الغرائز إهمالا تاماً .

٥ – **رأى ديوى ، ويونج** : إنهما يقتنعان بالطاقة الحيوية .

والرأى الذى يقوم عليه نهج التربويين هو ما يراه «مكدوجل» ويقولون إنه عملى من الناحية التطبيقية – فمن المفيد الاعتراف بها واستغلالها فى تفسير السلوك سواء أكان صادراً من العاديين أو من غير العاديين .

هل يمكن تعديل الغرائز ؟ !

قال مكدوجل فى كتابه علم النفس الخاص Social Psychology إنه يمكن حصر التعديل فيما يأتى :

١ – يمكن تعديل الغريزة من ناحية المثير :

فالصوت العالى مثلا مثير للخوف سواء أكان مقترناً بخطر مؤذ أم غير ذلك ، ولكن بتعود مثل هذا الصوت يفقد الخوف ميزته ، ويصبح

الصوت عادياً . . وهكذا فى كل الأمور المثيرة لهذه الغريزة فقد يخاف الإنسان أن يمسك « ثعباناً » أو « عقرباً » فإذا عوده بعض الحواة على ذلك فإنه يفقد الخوف ويصبح شيئاً مثيراً . . وكذلك الخوف من الظلام وتوهم الأشباح يمكن بالتعود اجتناب هذه المثيرات الوهمية التى كثيراً ما ضرت بعض الناس وأفقدتهم ما فيهم من شخصية واتزان .

ويمكن ملاحظة ذلك فى تربية الأطفال ، يجب أن تبرهن لهم أن ما حسبوه « مخيفاً » لا حقيقة له ، وفى البيوت الأمريكية تعمد الأمهات إلى « وصف العفاريت » بأنهم ظرفاء لايضرون أحداً ، حتى يتمنى الطفل رؤية العفريت . وفى هذه التربية فائدتان « الفائدة الأولى »عقيدة وجود « العفاريت » والعالم غير المنظور الذى أتى به التوراة والإنجيل والقرآن الكريم ، وتكذيب وجود هذه المخلوقات غير المنظورة كما يقول « علم النفس » وفيه اصطدام بالعقيدة التى يجب أن تظل لها قدسيتها بين جوانحنا — والفائدة الثانية ، أن الأمهات خلعن على العفريت صفة الظرف واللطافة ، وأنه لا يضر أحداً . وفى ذلك اجتناب اصطدام تخيل الأطفال للعفاريت أنها مخلوقات ضارة مؤذية ، وأنها مخيفة تتشكل بأشكال تبعث الرعب فإذا رأى الطفل عينى قطة ليلا تبرقان ظن ذلك عفريتاً فتعتريه صدمة ربما أودت بمقومات شخصيته . .

٢ — يمكن تعديل الغريزة من ناحية الإعلاء :

أى أننا نسير بالغريزة فى طريق يفيد الشخص والجماعة الإنسانية بدلا من سيرها فى طريق ضار له ، وللناس يسلك بها مسالك راقية .

وكل غريزة من الغرائز يمكن توجيهها هذا الاتجاه وهذا يرجع إلى منهج المربين » . .

فالتلميذ الذى يميل إلى حب السيطرة والمعاكسة ، والمروق من النظام العام نرى بعض المربين يعالج هذا بإسناد حفظ النظام فى المدرسة إليه — وقد عالج أحد نلاسفة — التربية فى روايته — مدينة الأطفال — وأثبت انصياع الأطفال المنحرفين عند ما أسندت إليهم جميع شئون هذه المدينة ، بدلا من إسنادها إلى موظفين وعمال ومعاملتهم معاملة « النزلاء » .

والسلوك الغريزى إذا كان ضد المجتمع او ضد سلامة الفرد يسمى قلبا (Pervertion) والأمثلة على ذلك كثيرة منها السرقة عند غريزة التملك ، أو العادة السرية لإشباع الغريزة الجنسية واحتقار الناس وازدراؤهم إرضاء لغريزة حب السيطرة ويطلق « القلب» أيضاً على الحالات الشاذة : — كمثل الذين يغسلون أيديهم عند ما يصافحون أحد الناس .

٣ — ويمكن تعديل الغرائز من ناحية الإبدال :

أى فى الإمكان تجنب ضرر الغريزة بإشغال وقت الفرد بشىء آخر غير التفكير فيها . . فينشط من نشاط الغريزة وخيالاتها فى نفسه إلى شىء آخر مفيد .

فالرياضة البدنية والموسيقى ، والتدين عوامل إبدال لغريزة الجنس فى دور المراهقة .

* * *

وأخيراً يجب أن نعرف الحقيقة الآتية :

إنه ليس من الممكن الوقوف نهائياً فى وجه الغرائز ، إنما مهمتنا أن نقوم بأخذ أحد الأسباب الثلاثة التى قدمتها ، إما تهدئتها من ناحية المثير أو تعديلها من ناحية الإعلاء أو الإبدال . .

الفصل الثامن

الحياة الوجدانية

الوجدان والعاطفة والانفعال – صفات تكامل الشخصية
ا – الاستقلال الذاتى – ب – الصراحة – حـ – حب المسئولية
د – المثابرة – هـ – الإخلاص و – قوة الإحساس

الوجدان :

هو ناحية السرور أو الألم التى تتكيف بها كل عملية عقلية ، فكل حالة عقلية يصحبها شعور بالسرور ، أو بالألم ويعرفه الأستاذ حامد عبد القادر فى كتابه (علم النفس الأدبى) ص ٥٢ ويقول :

إن الوجدان فى اصطلاح علماء النفس أمر عام يشمل الانفعال والعاطفة وغيرهما ، فسرورك حين تؤدى واجبك على الوجه الأكمل وجدان ولا يسمى انفعالا ، ولا عاطفة . .

أما الانفعال : فيعرف بأنه وجدان ثائر يهز كيان النفس وتظهر آثاره فى الجسم والعقل . . ويقول مكدوجل إن الانفعال لا يظهر إلا حين تكون غريزة من الغرائز فى حالة نشاط كالغضب والخوف والحب الجنسى .

العاطفة :

هى انفعال أو مجموعة من الانفعالات ارتبطت بشىء أو شخص أو معنى — فالعاطفة مكتسبة يتوقف اكتسابها ونموها على تعدد التجارب الملائمة لها، فالطفل يحب أمه لعدة تجارب قامت بها الأم نحوه . . ولعل فى قول الشاعر العربى ما يوضح لنا معنى اندماج الانفعالات لخلق عاطفة :

بنى إن الحب شىء هين وجه طليق وكلام لين

وتلاحظ وجود عواطف كثيرة بعضها « حسى » كمحبة الأم ، والعلماء ، وبعضها « معنوى » كمحبة العلم والخير والجمال .

ونجد كل عاطفة لها قوة فعالة نفاذة تحمل صاحبها إلى العمل بها ، والسرور عند رؤية من يعملها ، والتألم إذا لم يجد الفرصة الكافية لتنفيذ رغباته حيالها .

والعواطف لها أثرها الكبير فى تعديل السلوك وتنظيم الدوافع الفطرية :

والعواطف تكسب المرء قسطاً كبيراً من الثبات والاستقرار . .

وكل منا لديه مجموعة غزيرة من العواطف ، ولكن يتميز بعاطفة واحدة تعد سيدة العواطف فيه تسيطر عليه سيطرة تامة تتسم بها « شخصيته »

ومثال ذلك ، رجل يحب الجاه والمناصب ، فإنه يبذل فى سبيلهما كل شىء ، ولا يغضب لكرامته فى المواقف التى يجب أن يغضب فيها ، ويحب كل من يساعده فى الوصول إليهما ، ويكره كل من يقف فى طريقه ، ويتلمس الأسباب مهما كانت فى قصده ، ويعرف من أين تؤكل الكتف . . وهكذا ما دامت عاطفة « الحياة » مسيطرة على كل عواطفه الأخرى .

ومثال آخر . . رجل لديه عاطفة الوطنية الصادقة فإنه لا يبالى

مطلقاً بما يلقاه فى سبيل وطنيته من جهل وبلاء ، وكد ، وتعب ، وسجن وتعذيب . . بل ربما يستعذب كل ذلك ، ويقول كما قال الرسول الكريم عند ما قال له عمه أبو طالب أن يدع أمر الرسالة « والله يا عمى او وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . .

ورأينا أيضاً هذا المثل واضحاً فى حياة مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، والشيخ السادات ، وغيرهم الذين لاقوا كثيراً من متاعب واضطهاد وتعذيب فى سبيل « أوطانهم » .

تكامل الشخصية .

الصفات الكمالية للشخصية كثيرة منها :

(١) الاستقلال الذاتى Individial

(٢) الإخلاص Sencerity

(٣) الحماسة وشدة الغيرة Enthusiasm

(٤) قوة الوجدان

(٥) الصفات الجسمية والمزاجية للإنسان

(٦) الاستعدادات الفطرية المختلفة ، والقدرات العقلية المختلفة . .

ونوجز الكلام فى ذلك فنقول :

الاستقلال الذاتى :

إن من أسباب فشل الإنسان فى الحياة ، أن يكون عالة على غيره فى تفكيره ، واتجاهاته بدون أن يحاول بجاهداً فى لمس جوانب ذاته ، وما فيها من قوة كامنة يمكن بها أن يستقل عن غيره . .

ولولا نظرية « الاستقلال الذاتى » ما رأينا تقدم العلوم والمعارف والفنون هذا التقدم المطرد . . فلو عشنا على أفكار الأقدمين — وقلنا

كما يقول الجهلاء (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون، قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون).

فالواجب أن «نعلم غيرنا» أن يستقلوا بتفكيرهم عنا إذا بدا لهم الأصلح، . . .

والاستقلال الذاتى يستلزم الثقة بالنفس على أن تكون هذه الثقة ليست استبداداً بل خاضعة لحكم المنطق، والعلم، والبرهان، وقد يقوم المجمع فى وجه كل ذى رأى جديد لكن بقيام الأدلة القوية المثبتة الأركان فإن المعارضة تنهار شيئاً فشيئاً . .

وقد رأينا كيف تسبق أفكار المصلحين عصورهم التى هم فيها، وربما يقضون حياتهم فى سبل تعايل هذه الأفكار وتقريبها لدى عقول الناس فيموتون أو يقتلون شهداء العلم ثم يعود المجتمع مقتنعاً بأفكارهم فيقيمون لهم التماثيل يقدسونها بعد أن قتلوهم بأيديهم.

رأينا ذلك فى «جاليليو» وغيره الذين قاموا بتغيير أفكار الناس نحو «الكون».

وقبل ذلك «سقراط» الذى تكلم عن الميتافيزيقا فحكم عليه قومه بالإعدام «سما» ورحم الله شوقى فقد صور حادثة إعدام سقراط صورة جميلة بقوله :

سقراط أعطى الكأس وهى منية
شفتى محب يشتهى التقبيلا

يجب أن تستقل بذاتك، ولا تنتظر مدح الناس أو ذمهم، بل اطلب رضاء الجانب الروحى من نفسك — احرص دائماً على راحة ضميرك، ودع الناس يقولون ما يقولون فإنما أقوالهم نتائج انفعالات وقتية فى نفوسهم،

وسيتغلب العقل ، والمنطق ، ويلوم الناس نفوسهم الجامحة . .

واسمع قول الشاعر :

وإذا العظيم جرى إلى غاياته ترك المديح وراءه والذاما

وكذلك اقرأ قول جوستاف لوبون : (من وثق بنفسه لا يحتاج إلى مدح الناس إياه ، ومن طلب الثناء فقد دل على ارتيابه فى قيمة نفسه »

والعوامل التى تبين لنا الاستقلال الذاتى فى شخص ما تتلخص أيضاً فيما يأتى :

١ — **الصراحة** : يجب أن يتحلى المستقل ذاتياً ، بعدم الالتواء فى الحديث والفكر والعمل بدون لف أو دوران أو خبث أو مكر ، يجب أن تكون أعماله واضحة ، وأقواله تتفق معها ، يقول ما يعتقد ، ويعتقد ما يقول ، لا يلقى الكلام بدون تفكير ، ولا يتردد فيما يقول ، لا يعد ثم يخلف ولا يقول شيئاً ويكذبه غداً ، يجب أن يكون سديد الرأى . . يجب عليه أن يفكر فى الأمر ملياً قبل أن يجيب ، ثم يبدى رأيه بعبارة موجزة واضحة قوية مؤثرة بحجة دامغة لا تقبل الشك والمناقشة وهذه قصة تدل على الاستقلال الذاتى ، بما فى هذه الخلة من قوة الصراحة مهما تكن النتائج .

قال بعض الأدباء ما رأيت رجلا عرض عليه الموت فلم يكترث له إلا تميم بن جميل الخارجى ، كان قد خرج على المعتصم ورأيته قد جىء به أسيراً فدخل عليه فى يوم موكب ، وقد جلس المعتصم للناس مجلساً عاماً ودعا بالسيف والنطع ، فلما مثل بين يديه نظر إليه المعتصم فأعجبه شكله وقده ، ومشيته إلى الموت غير مكترث له ، فأطال الفكرة فيه ، ثم استنطقه لينظر فى عقله وبلاغته فقال يا تميم : إن كان لك عذر فأت به . . .

فقال: أما إذا أذن لي أمير المؤمنين — جبر الله به صدع [١] الدين، ولم شعث[٢] المسلمين، وأخمد شهاب الباطل، وأنار سبل الحق. فالذنوب يا أمير المؤمنين تخرس الألسنة وتصدع الأفئدة، وأيم[٣] الله قد عظمت الجريرة[٤] وانقطعت الحجة، وساء الظن، ولم يبق إلا العفو أو الانتقام، وأمير المؤمنين أقرب إلى العفو وهو أليق بشيمه الطاهرة ثم أنشد:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا
يلاحظني من حيثما أتلفت

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي
وأي امرئ مما قضى الله يفلت

ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة
وسيف المنايا بين عينيه مصلت[٥]

وما جزعي من أن أموت وإنني
لأعلم أن الموت شيء موقت[٦]

ولكن خلفي صبية قد تركتهم
وأكبادهم من حسرة تتفتت

كأني أراهم حين أنعى إليهمو
وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة
أذود[٧] الردى[٨] عنهم وإن مت موتوا

(١) شق. (٢) أمرهم. (٣) صيغة قسم.
(٤) الجريمة. (٥) بارز. (٦) له وقت.
(٧) أدفع. (٨) الهلاك.

قال فبكى المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العذل اذهب قد غفرت لك الصورة ، وتركتك للصبية وأعطاه خمسين ألف درهم .

٢ — حب المسئولية :

كلنا يخاف المسئولية ، ويفر منها فراراً عظيما ، وكثيراً ما ترى الرئيس يلقيها على أكتاف مرءوسيه ، وأن يلقيها على زميله ، ويرى أن ذلك سلامة له من الاضطهاد، ومهما يكن من فرارنا منها فإن هذا الأسلوب يدل دلالة قوية على ضعف نفوسنا ، وشخصياتنا . .

حقيقة ستلاقى كثيراً من الأهوال والمصاعب والمتاعب عندما نثقل كواهلنا بتحمل المسئولية .

ولكن لن نكون عظماء يرمقنا العالم بنظرات الإعجاب . . إلا بتحمل المسئولية .

إن المسئولية مهما يكن فيها من كد وتعب فهى مقياس الرجولة والكرامة ، ودلالة على المجد العظيم . . إن الشاعر العربى يقول :

فانهض إلى صهوات المجد معتلياً
فالباز لم يأو إلا عالى القلل

فكيف يرضى الإنسان أن يعيش بين الحفر والوهاد ! ! وقد خلق ليعيش فى أعالى الجبال .

يحكى أن تاجراً جهز ولده فى تجارة فمر فى غابة فرأى أسداً صاد غزالا ، وأخذ يفترسه ، وكان على بعد منه ثعلب يرقب الأسد وفريسته حتى انتهى الأسد وشبع فذهب الثعلب ليأكل فضلاته ، ذهب بدون

أن يتعب ، أو يكد ويجهد فى سبيل الحصول على رزقه ، إنه كان مرتاحاً حتى أتاه رزقه من طريق فضلات الأسد ، . . فرجع الولد إلى أبيه ، وقال له إن الرزق مضمون ، وقص عليه قصة الأسد والثعلب . . فرد عليه والده — لقد أردت أن أجعلك فى هذه الحياة أسداً ، ولم أرد أن أجعلك ثعلباً . .

قد تفر من هذه الفضيلة عاملين بقول القائل(كل عيشك بالجبن). ومهما يكن فى تحملها من « مشاق » فإن هذه المشاق لا تساوى شيئاً فى جانب « الذكرى الخالدة » التى تشع على الإنسان ، وكثيراً ما تكون هذه المشاق وهمية لا حقيقة لها إلا فى ذهن الإنسان وخيالاته الفاسدة .

إن لدينا أمثالا كثيرة لمن تحملوا المسئولية ، فكانت النتيجة عزا لهم ولقولهم ، كما فعل أحرارنا من الضباط حينما قاموا بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ — ذلك — أقرب مثال لنا — وكفى :

٣ — الصبر والمثابرة Determination

الصبر فضيلة تجعل الإنسان هادئاً رزيناً ، وتبعد عنه الطيش ، وإنه ليدل على ضبط النفس ، وانتزاع أسباب جوامحها — والصبر دائماً يؤدى إلى النجاح والجزع يؤدى إلى الفشل فى كل شىء ، ولو سقت الحكم والأمثال التى قيلت فى فضائل الصبر لاحتجت إلى تسطير كتب كاملة،ويكفى أن أدلل على فضيلة الصبر بقول الرسول الكريم: « الصبر نصف الإيمان» .

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنى عبس : كيف تقهرون عدوكم فقالوا كنا نصبر عند اللقاء . . والواجب أن يتحلى الإنسان بهذه

الفضيلة وينتفع بكل الظروف التى تحيط به حتى يمكنه أن يصل إلى غرضه، والصبر مع الضعف أقوى أثراً ونتيجة من الجزع مع القوة — وقد طلب الله من عباده عند اللقاء أن يقولوا: (ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . .) .

ونسمع العوام يقولون (الصبر بعده القبر) أى لا فرج معه إنما آخره موت — وفى ذلك خلاف لقول الله تعالى: (فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) .

وفى حكمة نبوية يقول النبى صلى الله عليه وسلم: (أفضل عبادة أمتى انتظار الفرج) .

ومن أقوال إسحق نيوتن إن كنت قد أديت للعالم خدمة فاجتهادى وجلدى .

وفى بعض الأمثال الإنجليزية: «الحجر المتدحرج لا ينبت عليه العشب» يجب أن يكون الإنسان ذا صبر ومثابرة حتى يصل إلى غرضه وحينما توجد الإرادة الحديدية فلا بد من الوصول إلى الغرض، وجدنا ذلك فى تاريخ كثير من العظماء الذين سجلوا انتصارات تخفق بها المجلدات الضخمة من صفحات التاريخ، ورحم الله القائل :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأى أن تترددا

وكان نابليون يكره من الكلمات ثلاثا — لا أعرف — لا أستطيع — محال — فكان جوابه عن الأولى تعلم، وعن الثانية «حاول» وعن الثالثة «جرب» — يجب أن نتعلم الصبر والمثابرة، وأن نتقبل صدمات الحياة قبولا حسناً، ونهدم هذه الصدمات بهذين المعولين، وسننتصر

ما داما قويين لا ينثلمان ولا نجزع ، ولا نيأس ، مهما كانت الأرزاء التى تصادفنا جليلة .

٤ ــ الإخلاص Sincerity

هو البعد عن الكذب والرياء والنفاق أو كما يقول الأستاذ الإبراشى فى كتابه (الشخصية) هو أن تعمل فى السر ما لا تستحى منه فى العلانية وإذا قيل إن فلاناً أبيض القلب ، صافى السريرة صادق صريح فى قوله فاعتقد أنه مخلص وأن له شخصية جذابة . والرجل غير المخلص ، تجده متلوناً معك كما يقول الشاعر :

لا خير فى ود امرئ متملق   حلو اللسان وقلبه يتلهب

ويقول شاعر آخر :

كم من صديق مظهراً نصحه   وفكره وقف على عثرتك

وحينما تنتفى هذه الخصلة من الإنسان فإنه يدارى وينافق ويقلب الحق باطلا ، والباطل حقاً ، ويبعد القريب ، ويقرب البعيد وكم رأينا هذه الخلال واضحة فى كثير من الناس .

وإذا ظن الإنسان الذى يتخلق بهذه الأخلاق المذمومة ، ويبعد نفسه عن فضيلة الإخلاص أنه سيصل إلى ما يريد فى هذه الحياة فقد أخطأ الظن لأن الناس سرعان ما يكشفون أمره فيبتعدون عنه ولا يثقون فيه ، وتقف أعماله ، وتبور تجارته ــ وإذا حرم الإنسان الإخلاص فقد حرم أكبر نعمة وفضيلة ــ ومهما يكن فى هذه الفضيلة من عجز كما يظن أرباب النفوس السيئة فإنها ستنجى صاحبها مما يحاك له من مؤامرات وفى الحكم القديمة ثلاث من كن فيه كن عليه : (المكر ، والنكث ، والغدر) . . .

أما المكر فلقوله تعالى: (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) وأما النكث فلقوله تعالى: (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) والغدر لقوله عليه الصلاة والسلام من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

وليس معنى ذلك أن أترك النصيحة لمن تخلق بهذه الفضيلة أن يغمض عينيه عن الدسائس التي تحاك له فإن الإخلاص كما عرفنا يستلزم حسن النية ، وسلامة الطوية ، وهما دعامتان يمكن أن يرتكز عليهما المحتالون والماكرون والخادعون ، ويحيكون حبالهم لصيد هذا المخلص !

وبالرغم من أن النتيجة دائماً ستكون بجانب المخلص لأن الله تعالى سينجيه بفضل إخلاصه فإنى أنصح دائماً المتخلقين بهذه الفضيلة أن يفتحوا أعينهم ، ويسيئوا الظن إذا فسدت الضمائر والأخلاق . .

على « المخلص » ألا يغمض عينه دائماً ، وألا يحسن الظن مطلقاً بل يتخلق بما يقول الشاعر إذا اضطرته الأحوال :

وحسن ظنك بالأنام معجزة   فظن شرا وكن منهم على وجل

ومن أحاديث الرسول الكريم لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . وفى ذلك تنبيه وإرشاد إلى توقع الشر ممن رزئنا منه أول مرة . . ومن قبل الصفع مرة فسيصفع مرات .

إنك ستفتش عمن حولك وأظنك لا تجد مخلصاً ، وتقول لنفسك كيف عيش وسط هؤلاء بهذه الفضيلة ، إننى سأعيش غريباً ، وكيف أصارح الناس فأغضبهم ؟ ! إن الجميع منافقون ، فلماذا لا أنافق مثلهم لأعيش كما يعيشون — ؟ ! ! وفى ذلك نعود إلى قول « مارك رذرفورد» Mark Rutherford إنه لايوجد إنسان كله رياء أو كله إخلاص .

فمن طبيعة الحياة أن نجامل ونداهن — بعض الشيء — حتى لانغضب الناس ، فللمجتمع سياسته وتقاليده . .

حقاً من عظمة النفس أن يكون الإنسان مخلصاً وأول دعامة من دعائم الإخلاص الصراحة ، فمن الذى يستطيع الصراحة ؟ ! إن المجتمع قد تؤذيه الصراحة ، وتسره المداهنة والرياء .

يقول أستاذنا الإبراشى — الإخلاص يستدعى إظهار الحقيقة كما هى مع الدقة فى التفكير والقول والكتابة . فلا نقول ما نعتقد ولا نمدح إلا من يستحق المدح ، ولا ننقد إلا من يستحق النقد . ولا نحكم إلا بما تمليه علينا ضمائرنا ، ولا نستعمل الظروف والصفات وأفعل التفضيل إلا بكل حكمة ودقة فى التعبير .

٥ — الحماسة Suthusiusm

لا يكفى فى الحياة أن نقدم مناهج ، ونقنن قوانين، ونشرع سياسة ونرسمها ، كل ذلك بدون أن نتحمس لتنفيذ ما نريد — والحماسة عاطفة مشبوبة من الإرادة — فكلما قويت ازدادت الحماسة لهيباً ، وكل مشروع فقد صاحبه الحماسة ، كان مصيره الفشل . . لا يجب أن نرى الأمانى ونتخيلها ، ونعيش فى أحلامها اللذيذة بدون أن نجد فى الحصول عليها . يجب علينا أن ندع قول الشاعر :

أرى ماء وبى ظمأ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

إلى قول الخنساء تصف أخاها صخراً :

إذا القوم مدوا أياديهم إلى المجد مد إليه يدا
وإن ذكر المجد ألفينه تأزر بالمجد ثم ارتدى

ولم يستطع زعيم أن ينفذ مشروعاته بدون أن يتحمس لها . . فمثلا أبراهام لنكولن — لم يكتف بأنه أساء إلى قومه البيض لاستعبادهم «الملونين» بل تحمس لفكرته حتى إذا واتته الفرصة نفذ فكرته التى رسمها سابقاً .

والحماسة كأى فضيلة إن لم تكن موهبة طبيعية فى الشخص يمكن بالتدريب المستمر أن يتحول من برود وجمود حيال مشروعاته إلى « متحمس » مستقل النفس حول تنفيذ ما يريد .

أنا لا أنصح تقديم رجل وتأخير أخرى عند ما نقتنع بفكرة ما فلو كانت هذه السياسة عقيدة المصلحين ما تقدمنا خطوة إلى الأمام أبداً . . ويجب أن نعرف جيداً أنه بغير الحماسة لا يمكن القيام بأمر عظيم نريده :

ومما يقال إن « الشباب » أكثر حماسة من الشيوخ . . ولكنها حماسة قد يعوزها التعقل والمنطق ، فكثيراً ما تكون حماسة الشباب مقرونة بالطيش وعدم دراسة الأمور دراسة كافية ، ولكن الثابت أنه قد يكون فى الشيوخ حماسة تفوق حماسة الشباب وتكون مبنية على أسس سليمة لا نزق منها ولا انحراف ،وقد بدأ كثير من المصلحين أعمالهم بعد أن جاوزوا الخمسين أمثال غلادستون ، وبالمرستون .

فعامل السن لا يؤثر فى الحماسة مطلقاً ، بل ربما نجد الحماسة فى الشيوخ ولا نجدها فى الشباب لعوامل نفسية ،فقد يكون الشيخ « ملتهب الفكرة » وقاد القريحة ، نفاذ العزيمة — وقد نجد الشاب كسولا خمولا ، أغرقته الشهوات وأفقدته حماسة الشباب ولهيبه . .

فهذه الفضيلة كثيراً ماتكون فى أرباب النفوس العالية الذين يقتنعون بأنهم ذوو مبادئ لا بد من عرضها وإقناع الناس بضرورتها ، والأخذ بها ، والدفاع عنها وإزاحة العقبات من سبيلها . . .

وكثيراً ما ألهبت كلمة أو أغنية أو نشيد الحماسة فى نفوسنا ، فاندفعنا اندفاعاً لاحد له ، نرحب بالموت فى سبيل تنفيذ فكرة وطنية . .

وكم هزت الأناشيد الحماسية النفوس هزا ، فاندفع أربابها بدون

تفكير ووعي يستجيبون لهواتف غريبة فى سبيل إقامة مبدأ أو إرساء سياسة معينة .

عند ما عاد سعد زغلول وصحبه من أوربا بعد مؤتمر الصلح ــ عادوا ــ ولم يصلوا إلى نتيجة يرتضونها استقبلهم الشعب استقبالا منقطع النظير . . وكان الفضل للأناشيد الحماسية ــ أذكر منها النشيد الذى مطلعه :

أرسول السلم إلى مصر انشر فى الطرق لنا الزهرا
بل هنى العالم بالبشرى . . .

أى أننا فى حاجة إلى تموجات الخيال ، تلعب فى نفوسنا الراكدة لتهب من هذا الركود ، وتندفع فى سبيل إقامة مبدأ قد اقتنعت به ولا تجلس خائفة وجلة من عواقب قد تظنها وخيمة . . فتقنع بالكسل والخمول .

وأخيراً . . لا تتوان ولا تكسل إذا أردت تنفيذ مشروع تتحمس له ، اقنع من حولك ، وحاول مرة ثانية ، وثالثة . . وتخير الألفاظ التى تخلب الألباب وتقنع النفوس ، واستمل إليك الأفئدة . . وستصل حتما إلى ما تريد من النجاح :

قوة الإحساس :

ليس القصد من قوة الإحساس أن يتأثر الإنسان لأقل شيء وأن يكبر الهفوات ، وأن يؤول العبارة والإشارة واللمحة وإنما المقصود أن يحس ولا يتأثر من هذه السفاسف « فضبط النفس » سر قوة الشخصية ؛ يجب أن تكون النفس « الحساسة » تحت منطق العقل فلا تجمح . . . .

وقوة « الإحساس » قد تكون وراثية فطرية ، وقد تكون بالتجربة والتدريب والمران والتهذيب . . وإن الإنسان الصادق الإحساس القوى ،

تمر به الفرص فينتهزها ، ولا يتركها تمر بدون أن يستفيد منها .. وقد قيل فى الأمثلة القديمة : « الفرصة بعد فواتها غصة » .

قد نكون عقلاء وعلماء . ولكن يعوزنا هذا الإحساس .. فالواجب لاستكمال « الشخصية » أن نلاحظ وجود هذه الفضيلة فينا ، فإن لم تكن موجودة . فالواجب أن نكتسبها من التربية والتعليم .

وفى أحاديث الرسول الكريم ما يشير إلى التخلق بفضيلة (الإحساس) حتى نحفظ لأنفسنا كرامتها وهيبتها . . من ذلك : « أن لكل قوم كلبا فلا تكن كلب أصحابك » وحديث إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه . . وحديث . . إذا كنت فى مجلس ولم تكن المحدث ولا المحدث إليه فقم . . . وفى الأمثلة : « زد غبا تزدد حبا » .

* * *

الفصل التاسع

نزاع فى الحياة العقلية

الشخصية المتكاملة ومعناها — قوى النفس الثلاث
مظاهر كل قوة — حيل اللاشعور

هل شخصية كل فرد منا متكاملة ؟ !

إن تكامل الشخصية كما قلمت تحتاج إلى عدة عوامل وراثية واكتسابية ومزاجية وجسمية ، والتكامل يختلف من شخص إلى آخر — بل قد يختلف فى الشخص نفسه نظراً لظروف خاصة به أو حوادث طارئة تحوطه :

وكثيراً ما يحدث صراع فى الحياة العقلية يترتب عليه انفصال بعض العناصر النزوعية ، وقد لا يشعر الإنسان بهذا الانفصال ، بل يؤثر هذا الانفصال فى سلوكه بأشكال مختلفة ، وإن كانت شخصيته تقاوم هذا الاختلاف فى السلوك .

ويترتب على ذلك أن تشرح قوتين متعارضتين فى الفرد :

أولاهما : الشخصية الشعورية : فهى تمثل انسجام العناصر بعضها مع بعض .

ثانيهما : القوى اللاشعورية : فإنها النزعات التى لا تنسجم مع الشخصية الشعورية .

وبين هاتين القوتين يوجد الرقيب ، وهو قوة يمنع القوى اللاشعورية

من التأثير فى الشخصية الشعورية .

ويمكننا أن نشبه الرقيب بين هاتين القوتين ، القوة المطلوبة البناءة ، والقوة غير المطلوبة الهدامة، بالرقيب فى نشر الأخبار مثلا الذى ينقى الأخبار ولا يسمح بالأخبار المخربة ولكن مع ذلك فإن أخباراً تتسرب من الرقيب متخذة حيلا قد تجوز عليه ، ولا يعرف ضررها – تتسرب مقنعة إلى أذهان الشعب ؛

وقد قسم فرويد المظاهر العادية والشاذة إلى العناصر الآتية :

١ – الـ « أنا » أو الذات أو الشخصية الشعورية .

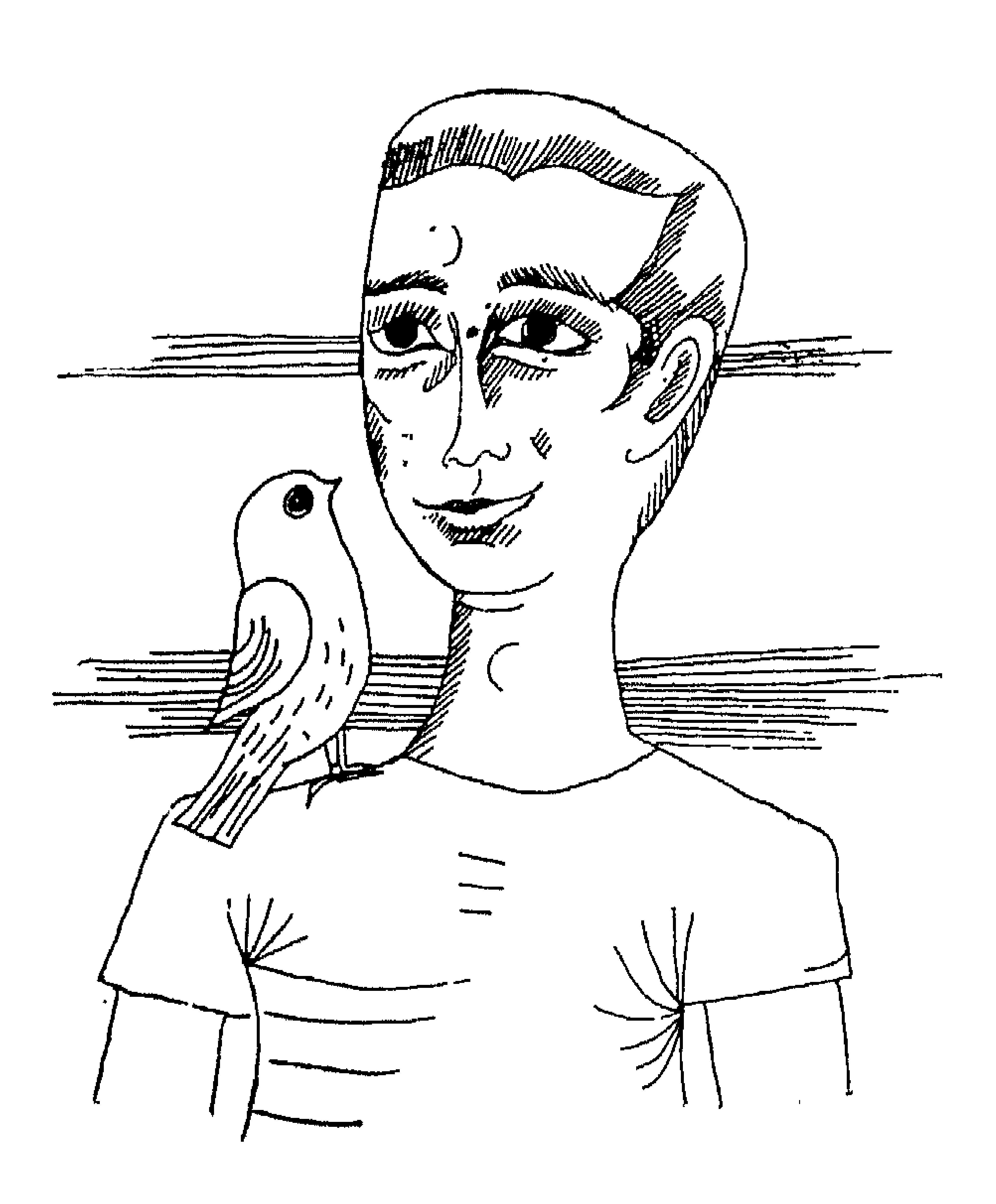
٢ – الـ « هى » أو القوى اللاشعورية .

٣ – « الذات العليا » وتسمى الرقيب .

١ – الـ – أنا – :

أطلق فرويد عليه Ego وهى كلمة لاتينية معناها « أنا » وهى صورة منعكسة للحياة الخارجية التى تفرض سيطرتها على الإنسان بحكم القانون أو العادات أو الدين ، إنها « العقل والمنطق » . . وفى العادة يقول الإنسان « أنا » أحب وطنى وأنا أحب الموسيقى ، وأنا أكره . . شرب الخمر ، فهذه السيطرة النفسية التى جعلت الإنسان يصف كينونته ويشير إليها يقوله « أنا » مستمدة من مثيرات العالم الخارجى .

وبالنسبة للنزعات الغريزية الخاصة بكل شخص مع واقع الحياة تعريف الـ « أنا » ما هى إلا قوة منفصلة من الطاقة الغريزية بعد اتصالها بدوافع الحياة ومناهجها الاجتماعية والتقليدية والدينية .



مراحل تكوين اا « أنا » :

١ – يكون الطفل مدفوعاً فى أول حياته للحصول على اللذة بما فيه من نوازع وطاقات فطرية . . وهى ما نسميها بالغرائز .

٢ – يذهب الطفل إلى تحقيق هذه الدوافع ، وتنطاق غرائزه بدون كبح ، عندما يتصل بالعالم الخارجى ، فإن تفاعل نفسه مع واقع الحياة وما فيها من قوى متحركة وساكنة ، وتقاليد مرعية ، وأخرى اجتماعية ، وقوانين الحياة . التى تعاقب على اندفاع هذه الغرائز ، وتثيب على كبح جماحها ، وأول هذه السلطة يجدها الطفل فى أمه وأبيه ، فمن الخطأ تدليل الأطفال ، وتحقيق رغباتهم ، وعدم تهذيب غرائزهم . بل يجب فى هذا الوقت بالذات ملاحظة هذه الدوافع الفطرية وفرض سلطة العقاب والثواب ، حتى يعرف الطفل أن ما يحسه من دوافع غريزية ، وما يراه من أن كل شيء فى الحياة له وحده وأنه خلق يتمتع كما يتمتع الحيوان كل هذا وهم باطل ، وأنه خلق لتفرض عليه فروض مهذبة وإن المجتمع بقوانينه ، وعاداته ، يتطلب من الطفل سلوكاً معيناً . هذا السلوك يفرضه الوالدان بما يقدمانه إلى ولدهما من ثواب وعقاب . .

هذه هى النفس الشعورية . . أو الأنا . . ويسميها « المتصوفة » ـالنفس المجاهدة – أو النفس اللوامة . ويقول أستاذنا محمد فتحى المستشار فى كتابه « مشكلة التحليل النفسى » الأنا قوامها الصور الحسية – فهى المظهر المجسد من حياتنا العقلية ومن خصائصها كبح جماح النفس ، وعنها يصدر الكبت ، وعن طريقها يتم تصعيد النزعات والشهوات الغريزية ورفعها من مستوى الشهوة الحيوانية أو الجسمانية إلى مستوى الشهوة . العقلية أو المعنوية ، وهى تجاهد فى سبيل الآداب العامة . . وهي تواجه فى الحياة ثلاث جهات : النفس ذات الشهوة

(القوى اللاشعورية) وقسوة الضمير (الذات العليا) وقسوة البيئة الخارجية من جهة ثالثة — وهى فى جهاد مستمر مع هذه النواحى الثلاث وتقريب الخلاف بينها .

وإذا اعترى هذه النفس مرض أو وهن أو ضعف ، انفلتت منها قيادة « النفس الغريزية » فتظهر بما فيها من نوازع حيوانية ودوافع بهيمية ويفقد الإنسان «شخصيته الشعورية » التى تجعله مندمجا فى تيار الحياة والتى استحق بها كلمة « إنسان » .

وكلما كان الإنسان قادراً على حكم هذه « الدافع اللاشعورية » ، المحطمة كلما ازدادت شخصيته ارتفاعاً وسمواً . وكلما كان أقدر على بلوغ أمانيه ، مهما صعبت مدارج الوصول إليها .

وفى حديث للرسول الكريم يقول لأصحابه بعد أن رجعوا من الجهاد فى سبيل الله،وظنوا أنهم قد أراحوا أنفسهم من أعباء الحروب : (رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . جهاد النفس) .

الذات العليا ، أو أنا العلوية ، أو الضمير اللاشعورى :

من خصائص الذات العليا أنها قوة لا شعورية وأنها مستقلة ومن خصائصها أيضاً أنها تنتقد — الأنا — وتؤنبها إذا سارت فى طريق القوى اللاشعورية الغريزية أى إذا خضعت للنفس الشهوانية ، إن هذا النقد بين الأنا العليا، والأنا — هو ما نسميه نحن صوت الضمير— فمثلا: قد تدفع الحاجة الإنسان إلى امتلاك شيء لا يحق له امتلاكه ، فتصرخ فيه « غريزه التملك » وتعلل مبرهنة أحقيته فيما يقدم عليه وتهيئ له ما يريح نفسه ، فيسمع من جانب آخر « جانب نفسانى » . صوتاً جليا يحذره من هذا الإقدام غير المشروع ، وينقض حجج النفس

الغريزية حجة حجة . إن هذا الجانب من النفس هو ما نسميه فى الشريعة الغراء « ملاك الخير » . . فلا يوجد مخلوق إلا ولديه نازعان نازع شر هو الشيطان ، ونازع خير هو « الملاك » . . والشيطان هو النفس الغريزية والملاك هو الضمير .

وتكتسب الذات العليا دائماً من المربين الذين تعهدوا الطفل فى أول نشأته والوالدين ومن يمثلهم فى مراحل الحياة . .

وقد تكون للذات العليا « جموح أيضاً » فكثيراً ما يكون حكمها على الذات قاسية جداً فيجعل الذات تشعر بالندم العظيم ، الذى ربما أودى بها إلى موارد التهلكة كنوع من التفكير عن ذنب اقترفته ، وكان عقاب الذات العليا ــ الضمير قاسياً جداً ــ هذا ما جعل بعض علماء النفس يقول : إن أنا العلوية تكون لدى عصبى المزاج أو المصابين بالظواهر النفسية المرضية أعظم شأناً وأشد بأساً منها لدى الشخص الطبيعى .

ويقول الأستاذ القوصى فى كتابه « الصحة النفسية » فى تكوين « الذات العليا » يقول : إن عملية تكوين الذات العليا أول ما تبدأ بأنها عملية امتصاص وإسقاط Introjection, Projection أى امتصاص الطفل لخصائص السلطة وإسقاطها على الخارج فمثلا الطفل إن قيل له : إن من العيب أن يكشف عورته ، ففى أول فرصة يجد أخاه الأصغر منه يفعل ذلك ينهره كما نهره والده قبل ذلك ، فالطفل قد امتص ذلك من والديه أو من المجتمع ثم أسقطها على من هو أصغر منه سناً . .

وبهذا يتدرج تكوين « الذات العليا » حتى تصبح قوة لا شعورية توجه سلوك الإنسان . . .

ومعنى أنها « لاشعورية » . . أنها سلطة غير منطقية ، أنها نتيجة

تمسك بما يسمى بالتقاليد والذوق والقيم الأخلاقية وبعض الأمور الدينية ، مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لذلك .

الـ (هى) — أو القوى اللاشعورية — أو الطاقة الغريزية :

هذا الجزء الثالث من النفس ، أمكننا الوصول إليه بدراسة مسالك البدائيين والأطفال ، ومن التحليل النفسى للحالات المرضية والعادية . .

وهذا الجزء من النفس لا يقيم للمعايير الاجتماعية أو الأخلاقية أو الدينية أى اعتبار — إنه جزء من النفس جامح حيوانى لا يقبل العقل والمنطق — يقول الله فى حق الذين سلكوا مسالك هذه النفس البدائية : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » . .

إن هذه النفس تشمل مجموعة النزعات الغريزية التى تريد أن تحقق اللذة من أى طريق ، وهى تندفع بقوة لتحقيق هذه الرغبات — وبجانب هذا فإنها تشتمل أيضاً على النزعات الأولية التى كان يعتمد عليها الإنسان الهمجى كالميل الفطرى إلى الاعتداء والقسوة والميول الجنسية المحرمة .

وإن كانت الشخصية الشعورية « أنا » قد كبتت هذه الميول والنزعات وكظمتها ، وكبحت جماحها ، ولكنها لم تمت نهائياً بل تظهر مقنعة إذا ما تهيأت لها الظروف أو تظهر صريحة ، فالإفراط فى استعمال القسوة ، والفتك أثناء القيام بالثورات حتى من جانب الذين يكونون متصفين بالوداعة والهدوء مظهر صريح من مظاهر التنفيس ، لهذه النزعات المكظومة فى قرارة النفس البشرية .

ونستخلص من دراستنا لهذه القوى الثلاث « الشخصية للفرد » أنها « الذات » التي تتأثر إلى حد ما بالجزء العلوى من النفس ، والجزء السفلى منها – فالشخصية تشمل تفاعلات الجزء الواعى والجزء غير الواعى . .

وقد وجدنا فى أثناء التحليل النفسانى أن ما يظهر من الإنسان فى حالته العادية غير ما يظهر فى حالته غير العادية من تصرفات قد يندهش لها المحيطون به أو يندهش هو من تصرفاته بدون أن يعرف لذلك سبباً معقولا ويقول العلامة يونج إن كلا من العقل الواعى (الشعور) والعقل الباطن (اللاشعور) صورة معكوسة من الآخر فكما أن « الذات » أو الأنا – هى مركز العقل الواعى – فكذلك توجد فى مركز « العقل الباطن » ذات أخرى معكوسة – إنها ذات باطنية – تكون أنثى فى حالة الرجل ولعل هذا التفسير الذى أدلى به العلامة « يونج » يقربنا إلى معرفة ما نسميه « القرين » أو « القرينة » التى كثيراً ما نسمع عنها ، أو نرى بعض المرضى ينقلبون فى ذواتهم إلى ذوات عكسية منها – نرى رجلا . وقد أخذته بعض الظواهر العصبية قد بدأ يتكلم كأنه امرأة ويقلد النساء من ليونة الصوت ونعومته ثم إذا سألناه ما اسمك قال – اسمى « الشيخة فاطمة » ، وكذلك فى النساء ترى هذا التصرف العكسى – ثم يأخذ الصورة المعكوسة تعلل وجودها فى النفس بتعليلات غير معقولة – كأن تقول « القرينة » إنها حضرت من بلاد المغرب ، ويقول القرين أيضاً ما يشبه ذلك .

وأخيراً فإن الشخصية الشعورية الظاهرة التى نسميها الذات أو – الأنا – تقع تحت تأثير قوى ثلاث كلها فى غاية الشدة – وهذه القوى هى :

١ – الـ « هى » الفطرية ، الجنسية ، الحيوانية .

٢ – الذات العليا بمبادئها السامية .

٣ – العالم الخارجى أو عالم الحقيقة . .

ولأجل أن تكون الذات فى حالة «اتزان» لا بد أن تحقق من النزعات ما يسمح به العالم الواقعى بعد موافقة الذات العليا عليه .

ويحسن أن نأتى بالتشبيه الذى جاء به فرويد للشعور واللاشعور . . وهو أنه شبه هاتين الظاهرتين بحجرتين :

١ ــ حجرة صغيرة مرتبة مؤثثة تأثيثاً جميلا ، مزدانة بالصور تستعمل عادة لاستقبال الضيوف ــ هذه الحجرة نسميها الشعور ــ أو الذات . أو «أنا» .

٢ ــ حجرة كبيرة غير مرتبة ولا منظمة مزدحمة بشتى الأشياء المبعثرة ، ذات حشرات ، قذرة ، غير مقبولة ــ هذه هى القوى اللاشعورية أو . . هى

٣ ــ بين هاتين الحجرتين يوجد الرقيب Cei sor فإن محتويات الحجرة الكبيرة تريد الدخول فى الحجرة الصغيرة ــ ولكن الرقيب لا يسمح لها بذلك ، وإذا سمح فإنه يسمح بمرور أشياء معينة ، بشروط شديدة ولكن قد تفلت بعض هذه الأشياء إلى الحجرة الكبيرة فى حالتين :

١ ــ صريحة أو متخذة رموزاً تدل عليها . وذلك فى الأحلام وتسمى المحتويات الظاهرة للرؤيا . Manfest Contents of Dream

أو المعانى الدقيقة المستترة خلف رموز الرؤيا أو وراء محتوياتها الظاهرة . Latent Contents of the Dream

٢ ــ مقنعة بعد حصولها على تبرير مقبول من الذات العليا وهذا ما سنشرحه فيما بعد .

مظاهر القوى اللاشعورية :

يقال فى تعريف هذه المظاهر إنها تحمى الإنسان من موقف مؤلم . . فالمظهر اللاشعورى وما يحدثه فى الإنسان من علامات ما هو إلا حماية للإنسان من مرض نفسى آخر . . فمثلا — المظاهر المرضية الحسية كالصداع والتهتهة ، وبعض حالات الصمم ، والإنهاك العصبى ، والتهاب القولون ،إنها تؤدى وظيفة هامة للإنسان من حيث لا يدرى — ولعلنا نفهم المثل البلدى الذى يقول : « أشوف العمى ولا أشوف فلان » ، فمثلا :

١ — **فقد الذاكرة :** قد يكون ناشئاً عن شعور الإنسان بعبء مسئولية عظمى لا يريد أن يتحملها فتحميه القوى اللاشعورية بهذه الظاهرة .

٢ — **حالة الإغماء :** فقد الإنسان شعوره لئلا يحس بموقف لا يمكن تحمله .

٣ — **كثرة النوم :** قد يكون ناشئاً من عدم القدرة على مواجهة الواقع فتحمى الإنسان قواه اللاشعورية بهذا الأسلوب .

٤ — **النسيان :** به يريح الإنسان نفسه من الذكريات المؤلمة . وهكذا . . .

ومن مظاهر القوى اللاشعورية أيضاً :

النكات غير المقصودة وفلتات اللسان ، وأخطاء المطالعة ، والإدراك وهذا لا يرجع لمحض الصدفة ، وإنما يرجع لكبت « لاشعورى » يندفع صريحاً إذا وجد منفذاً .

ومن مظاهر القوى اللاشعورية الأحلام :

ويعلل فرويد وعلماء النفس أن الرقيب أثناء النوم لا يمكنه أن يتحكم فى القوى اللاشعورية ولذلك تتاح للرغبات والنوازع الخروج على صور حقيقية لها أو رموز .

ويقول علماء النفس :

١ ـ إن الحلم يستثار عادة بعد نزاع حول خبر أو فكرة أو مشاهدة فقد تقوم مناقشة بين بعض الأشخاص عن يوم القيامة مثلا فيحلم الإنسان بهذا اليوم .

وقد يكون هناك وخز فى أثناء النوم ، يصيب النائم لأمر ما فيحلم له حلماً خاصاً به ينبئ عنه ، وقد يتسلل الغطاء من عليه فيرى نفسه « عرياناً » يسير فى الطريق وفجأة يصحو ليعيد إليه غطاءه ، وكذلك ضغط الغطاء على التنفس ، قد يحلم الإنسان بما يدل على ذلك .

وهذا الحلم يدخل عادة تحت ما نسميه بالمحتويات الظاهرة Manifest أى الوصف الظاهر للحلم .

٢ ـ إن الحلم يعبر عن نزعات الفرد المكبوتة :

فالذى يحلم أنه قتل أسداً أو ثعباناً فإذ ذلك صورة رمزية تمثل صورة من صور الشعور لكراهية الفرد لشخص معين ، ولا يمكنه الانتقام منه فى عالم الحقيقة فتظهر القوى اللاشعورية تعبيراتها المدفونة فى الأعماق فى هذه الصورة التى ترمز إلى قتل ثعبان ، أو ذئب ، وهذا هو

المعنى الذى ذهب إليه فرويد فى تفسير الأحلام التى فيها معنى الرمزية (Synpolism) أو التقنع .

٣ ـ ويلاحظ فى بعض الأحايين كثيراً ما تكون الأحلام صورة مضطربة خالية من معنى التعقل أو الأمور المنطقية ـ إنها تكون خطرفة نائم ـ أو أضغاث أحلام .

٤ ـ هناك أحلام تخبرنا عما سيحدث لنا فى المستقبل ، كأن ترينا مكاناً معيناً ، أو نتيجة لعمل نقوم به ، أذكر أن أحد زملائى فى المرحلة الابتدائية كان يرى بعض أسئلة الامتحان وكان يخبرنا بها صباحاً ويقول لقد رأيت هذا فى الحلم وكنا نرى ذلك حقيقة ـ فنحسب أنه كان يعرف الأسئلة ويدعى أنه رآها فى الحلم .

يقول علماء النفس إن هذا النوع من الأحلام يسمى بالتوقع اللاشعورى ـ ويفسرونه بما يأتى :

إن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل .

وهذا التعليل متعب جداً ، لا يسلم به الإنسان سريعاً . فما معنى دلالات مرت بالعقل ؟ وما معنى أنه يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل ؟ !

لقد رأى يوسف أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له وقد كان صغير السن فأى تجربة مرت بعقله قبل ذلك . . لقد كان طفلا صغيراً ؟ !

لقد رأى فرعون مصر عشر بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، فما الذى مر به قبل ذلك ليرى هذه الرؤيا العجيبة . لقد كان فى نعيم ورخاء ، وراحة بال تجرى بين يديه الخيرات ؟ !

ويقول أستاذنا القوصى فى تعليل هذا النوع من الأحلام فى كتابه الصحة النفسية مانصه : « وأما ما عدا ذلك مما يقال عن علاقة الأحلام بالمستقبل دون رجوع إلى التوقع اللاشعورى فليس بحثاً من مباحث علم النفس وإن كان حوله مباحث متعددة فيما يسمى بالعلوم الروحية ولا نعلم عن حقيقتها شيئاً — ويرجع سيادته هذا الرأى إلى

H.G. Wels G.P. Wells J. Huvly : Science of life

وإن كان الأقدمون ينسبون الأحلام إلى ما يأتى :

١ — أحلام يسمونها حديث النفس وأظنها هى المقصودة بالفقرتين الأولى والثانية التى قدمت الحديث عنهما .

٢ — أحلام غيبية ، وتأتى من سياحة الروح أو النفس ، واتصالها بالأنفس الطيبة الأخرى التى كشف لها بعض أسرار الكون :

ولقد عضد إينشتين هذا الرأى ، فقد قال إن الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبة للكون مسطر يمكن الإطلاع عليه من وراء الحجب — التى جعلتنا نعدد الزمن — إنه يقول بوحدة الزمن فلا ماضى ولا حاضر ولا مستقبل عنده .

وقد وافق إينشتين فى هذه النظرية آراء العلماء والصوفية ، الذين يقولون إن هناك لوحاً محفوظاً ، سجلت فيه حوادث الكون كلها فكل ما مر علينا من هذه الحوادث أو سيمر علينا مسجل فى هذا اللوح .

وأترك موضوع الأحلام ، وأرجو أن أوفى هذا الموضوع حقه من البحث فى كتاب آخر .

حيل اللاشعور

فهمنا من الباب السابق أن « الأنا » تقع تحت تأثير قوى ثلاث ، ومن توفيق «الأنا» بين هذه التأثيرات تكون فى حالة اتزان واستقرار وهدوء وأشرنا أيضاً إلى المظاهر اللاشعورية التى تجعل « الأنا » فى حالة ارتياح وتبعد عنها شيئاً تكرهه .

يمكن تقسيم هذه الحيل إلى ما يأتى :

١ — حيل دفاعية Defense Mechanism

٢ — حيل هروبية Escape Mechanism

٣ — حيل كبتية Repression Mechanism

وهذه الحيل يمكن أن تظهر فيما يأتى :

١ — النسيان :

إذا قابلك شخص وأعطاك اسمه ثم دعاك لزيارته فى ميعاد معين ، ولكنك لم تستظرف هذا الشخص فكثيراً ما يحدث نسيان هذا الميعاد مع نسيان اسم الشخص ، أى ذهب اسمه ، وميعاده ، إلى أعماق اللاشعور بدون قصد والسبب فى ذلك أن شعورك من ناحية هذا الشخص لم يكن موفقاً .

وكذلك « النصائح » التى تلقى إلينا وتكون مقرونة بالإيلام أو التوبيخ تكون مكروهة . . واقترانها بهذا البعض كثيراً ما يجعلها تهرب من صفحة الشعور ، إلى أعماق اللاشعور .

وقد لوحظ أن النسيان يتم بطريقتين :

١ — النسيان بالكبت . . وهذا يحدث بسرعة غريبة وبطريقة شبه فجائية ، كما فى المثال الأول .

٢ — نسيان بالترك . . وهذا يحدث تدريجياً كما يحدث فى نسيان كثير من المعلومات التى لدينا .

والنسيان حيلة لاشعورية لحماية الشعور .

فماذا يحدث لنا لو تذكرنا دائماً المصائب والعلل والنكبات والأزمات التى حدثت لنا ؟ !

فالنسيان من هذه الناحية قد يكون نعمة ، إنه حماية للشعور مما يزعجه . . . وكفى . .

٢ — النكوص Regresion :

نقول لقد « انتكص فلان » أى رجع على عقبيه لمراحله الأولى التى كان فيها يحتمي « بالأم » ويراها كل شىء فى حياته ، وقد لاحظنا إذا فشل شخص فى حبه فإنه يكره الزواج وإنجاب الأولاد ، ويضع نفسه تحت حماية أمه ، أو خالته ، أو عجوز تمثل معه دور « الأم الرءوم » فإنه قد انتكص ورجع إلى حالة الطفولة .

ويقول أحد علماء النفس إنه عملية يقابل بها الفرد المواقف التى تصل صعوباتها إلى حد لا يمكن التغلب عليه ، وقد لاحظنا كثيراً من الزملاء من يجهش بالبكاء وينتحب إذا واجهه موقف معقد وفشل فى حله ، والبكاء والنحيب وسيلة من وسائل التعبير عن طلب الحماية لا سيما عند الأطفال . وقد يبلغ « النكوص » مرحلة أشد من هذه المراحل أى يرجع إلى المرحلة التى يكون فيها « تكون الجنين » فقد لوحظ فى إحدى نزيلات مستشفى

الأمراض العقلية فتاة رائعة الجمال قد كورت نفسها فى ملاءة فبدت على هيئة الجنين فى المشيمة . . وكانت تتولى امرأة أخرى غذاءها باللبن من « بزازة » . . .

٣ – الإسقاط Projection

هو تفسير أعمال الغير بحسب ما يجرى فى نفس « المفسر » وقديماً قيل فى الأمثال كل بئر بما فيه ينزح .

والشاعر يقول :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

فالحكم الذى يحكم به الفرد على غيره كثيراً ما يتخذ هذه الصفة « صفة الإسقاط » .

فالرجل « الناقص » إذا ذم إنساناً فإنما يسقط ما فيه من نقص على « غيره » .

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

إن الذى فيه صفة من الصفات كثيراً ما ينسبها إلى غيره . . وقد حدث أن سألنا إخواناً الذين ذهبوا إلى الخارج . لقضاء عطلة صيف مثلا ، أو للحصول على إجازة علمية ، فكانت الإجابة دالة على ما تربوا عليه ونشأوا فيه فالصالح يقص أنه وجد أناساً طيبين ، تنتشر بينهم الفضيلة والمعرفة والإنسانية ، « والطالح » يحدثنا أنه لم يجد خيراً بل وجد فساداً فى كل مكان ذهب إليه .

وقد ترى بعض المتحمسين « للدين » يعيبون غيرهم ، فإن واتتهم الظروف التى فيها غيرهم ينغمسون مثلهم فيما سبق أن سلقوهم بألسنة حداد

فيه ، وربما جاءوا بتعليلات وتأويلات ينوء بها ظهر الدين الحنيف . والسبب فى ذلك أنهم حينما كانوا ينهون الناس ويعيبونهم فيما يفعلونه كان فى قرارة نفوسهم ، فى اللاشعور ، هذه النوازع المعيبة تنتظر الفرصة لتخرج من سجنها المكبوت .

ولقد ذكر برنارد هارت ، فى كتابه سيكلوجيا الجنون ، ما ترجمته حالة لسيدة كانت تشكو من أحد معارفها إنه يحاول جذب انتباهها ومداعبتها ، وأكدت أن الرجل مشتاق للتزوج منها ، وهو يتبعها فى كل مكان وبلغ بها الأمر أنها كتبت للرجل فى يوم ماخطاباً شديداً تؤنبه فيه على سوء سلوكه ، واتبعت ذلك بإبلاغ البوليس وأخذ التحقيق مجراه ، وتبين منه أن الرجل برئ من كل ما نسب إليه ولم يظهر ما يدل على أن الرجل كان عنده أقل ميل نحو هذه السيدة إذ لم يكن يشعر بوجودها كثيراً . وأدت كل هذه الحوادث إلى إثبات أن المرأة مصابة بنوع من الجنون وإلى وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية ، وبتحليل هذه الحالة وجد أن النزعات الجنسية لم تجد لنفسها منفذاً طبيعياً عند هذه السيدة . وبعد طول المدة أدى هذا إلى الكبت ولكن أمكن للغريزة الجنسية أن تعبر عن نفسها بأسلوب غير مباشر عن طريق « الإسقاط » فالسيدة كانت تحب هذا الرجل ، وتعجب به ، وتتمنى أن يتزوجها ، ولكن الرغبة الجنسية مكبوتة لأسباب متعددة فعن طريق الإسقاط اتهمت الرجل بأنه يضايقها رغبة منه فى مداعبتها والتزوج منها فاسقطت بذلك الرغبة اللاشعورية القوية الموجودة عندها على هذا الرجل ، لأنها بذلك تشبع رغباتها دون أن تمس كرامة أل « أنا » .

٤ — التحويل Transference

هذا التلميذ الذى يكره مدرسه ويؤذيه بعبارات تدل على عدم احترامه كثيراً ما يكون السبب فى هذا كراهية هذا التلميذ « لوالده » فلا يمكنه أن ينتقم منه لما فى يد أبيه من السلطة والصرف عليه لما من مأكل وملبس فيحول هذه الكراهية إلى شخص آخر لا سلطة له عليه . وكثيراً ما يكون هذه الصورة فى مدرسه .

وهذا التلميذ الثائر على مدرسته المخل بنظامها ، هو فى ذاته الوقت ثائر على منزله . إن كراهية التلميذ للسلطة الأولى سلطة الوالد تجعله يكره السلطات الأخرى .

فالمنزل أساس « صلاح الفرد وفساده » وفى ذلك يقول الحديث الشريف : « إياكم وخضراء الدمن ، قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء » .

وكذلك نرى بعض الناس قد يغضب من زوجته فيحول هذا الغضب إلى من يتعامل معهم ، أو من يقابلهم ويحادثهم ويحادثونه ما يكاد الرجل يخرج من منزله « ثائراً » اسبب منزلى مهما كان بسيطاً أو كبيراً حتى يصب جام غضبه ، على كل من يقابله . . وإذا بحثنا العلة النفسية وجدناها تتلخص — فى عملية تحويل . . عملية لا شعورية — تحمى الشعور أيضاً .

٥ — التقمص Identification

كثيراً ما نعجب بشخص معين فيتقمص نفوسنا بعض عاداته فى الكلام والمشي وغيرهما دون أن نشعر بذلك . والسبب فى ذلك أن هناك

فى اللاشعور تسليما بالنقص عن هذا الذى نقلده . . ولكن — الأنا — لا تعترف بهذا . . فعملية التقمص حيلة لا شعورية .

وفى اختلاطنابالأخيار : يجعلنا نقلدهم — وفى الحديث الشريف : « يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » . .

إننا نتقمص « بعض صفات وميزات » بعض الأشخاص الذين نعجب بهم ، وفى الوقت نفسه لا نعترف بأننا أقل منهم ، ولكن اللاشعور يعترف به فيبقى فيه ، فتقوم حيلة التقمص حماية للشعور .

٦ — التبرير Rationalisation

معنى التبرير تعليل السلوك بأسباب مقبولة يقبلها العقل والمنطق مع أن السبب الحقيقى هو انفعالى محض :

قد نكره شخصاً معيناً ونحاول تبرير هذه الكراهية بأنه مغرور ، أو غير مؤدب وربما يكون السبب قوته فى ناحية ما ، فأعطى أسبابا منطقية لما هو مبنى فى الواقع على أسباب انفعالية .

وفى حياتنا كثير من التحايل التبريرى الذى يقوم به اللاشعور فهذا شخص يمتنع مثلا من دفع أجرة الأوتوبيس ، معللا بأن المؤسسة غنية وأنه فقير ، وهذا تبرير لا شعورى .

فكأن وظيفة التبرير راحة « الأنا » من التأنيب بطريقة خداعها والتمويه عليها بحيلة لاشعورية .

وكثيراً ما نجد رجلا يتزوج ثانية وثالثة ثم يبرر هذا الفعل بقوله تعالى . (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) . غير ناظرٍ إلي ظروف نزول هذه الآية وتفسيرها وما بعدها .

٧ — التعويض Compensation

يرى « أدلر » أنه تغطية الشعور بالنقص للوصول إلى الشعور بالتفوق ويرى أن الشعور بالنقص فى أول الحياة هو شعور بالنقص العضوى Organic inferierity

والتعويض كما يفهم من معناه هو الظهور بصفة لتغطية نقص يريد صاحبه أن يعترف به ، وهذا الظهور يكون عادة صفة طيبة ويكون هناك فى الغالب شىء من المبالغة ovcr-compensation فى الصفة الظاهرة . . .

ونرى ذلك فى الأمثلة الآتية :

١ — الطالب الذى لا ينجح فى حياته الدراسية ، كثيراً ما يحاول الظهور فى الألعاب الرياضية ، ويتغلب على زميله الذى نجح فى حياته الدراسية ، ويحوز لقب البطولة .

٢ — الشخص الذى يشعر بالضعف فى أى ناحية فإنه يتصف بالغرور ليغطى هذه الناحية .

٣ — كثير من حالات فقد بعض الأعضاء يصحبها نزوع إلى التعويض .

٤ — كثير من الذين يمرضون بأمراض مستعصية الشفاء قد يظهرون مرحاً وسروراً لا يتصفان بهما لو كانت حالتهم عادية إنهم كما يقول الشاعر : والطير يرقص مذبوحاً من الألم .

* * *

إن التعويض حيلة لاشعورية يقوم بها العقل الباطن لحماية الذات الـ (أنا) من ألم تحسه لعقدة نقص .

٨ ــ أعراض مرضية :

قد تظهر بعض الأعراض المرضية ، ونسميها الدفاعية الهروبية وأيضاً كما قلنا إن ظهور هذه الأمراض حيلة من حيل اللاشعور لحماية ــ الذات (الأنا) .

إن اللاشعور يحقق هذه الحماية بظهور هذه الأمراض وتكون مؤقتة ، وليس لها أصل جسمانى ــ إنما أصلها نفسانى « لا شعورى» ولذلك تسمى هذه الأعراض بالأمراض « الوظيفية » Functional Symptoms كالصداع الذى ينتاب الطالب أيام الامتحان .

هذه هى بعض الحيل اللاشعورية ، نقتصر عليها ويوجد كثير من هذه الحيل ولكننا نقتصر على هذه الأعراض الواضحة .

* * *

لأجل أن نتأكد من صفة معينة فى شخص ، يجب أن ندرس أعماق نفسه حتى نصل إلى كنه هذه الصفة الظاهرة وهل هى « حقيقة » أو حيلة دفاعية . وصدق الشاعر حيث قال :

فلا يغرنك من تبدو بشاشته منه إليك فإن السم فى العسل

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى فى حق المنافقين، والنفاق حيلة لا شعورية أيضاً تدخل تحت باب التغطية . . يقول الله تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)

ويقول الشاعر :

لا خير فى ود امرئ متلون حلو اللسان وقلبه يتلهب

إن السلوك الإنسانى ينطوى تحت عوامل كثيرة قد تكون ظاهرة « شعورية » أو قد تكون خفية « لاشعورية » وهذه وتلك نتيجة التربية ، والأمزجة ، والوراثة ، وتنظيم إفراز الغدد . . إلخ . كما سبق أن وضحت

وهنا مشكلة أعرضها للحل :

هل المفروض فى الناس الصلاح أولا؟ فنظن فيهم الظن الحسن . أو المفروض فيهم الطلاح أولا ؟ فنظن فيهم الظن السيء أيهما يخطر على ذهن الإنسان عند ما يقابل أخاه الإنسان ، الخير أو الشر ؟

هنا مذهبان :

المذهب الأول :

المفروض أن نظن ظناً سيئاً فيمن نقابله حتى يتبين لنا العكس فنظن فيه ظناً حسناً ، أى نقدم الاتهام أولا حتى تتبين لنا البراءة . . وفى ذلك يقول الشاعر :

وحسن ظنك بالأنام معجزة فظن شرا وكن منهم على وجل

وفى الحكم والأمثلة ، سل على الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق كما يقول الشاعر :

ولا يغرنك من تبدو بشاشته منه إليك فإن السم فى العسل

وفى حديث للرسول صلى الله عليه وسلم : « إنا لنبش فى وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم » .

وأخيراً يقول الله تعالى (وخذوا حذركم) . .

المذهب الثانى :

المفروض فى الناس الخير ، فالإنسان برىء حتى تثبت إدانته ، وهنا نقدم الظن الحسن إلى زملائنا فى الإنسانية حتى يثبت لنا العكس فنسىء الظن — فنتهم ونبنى عليه قوام سلوكنا وأخيراً من الصعب الحكم على الناس سريعاً ، فلا تكن أراؤك فجة ، بل انتظر حتى يستكمل العقل عناصر البحث الكامل فتضع الحكم الحقيقى . .

وما دمنا قد عرفنا الناس فيجب علينا أن نضعهم فى ثلاثة مواضع :

١ ــ أناس كالغذاء . أنت محتاج إليهم كل يوم بل عدة مرات كما تحتاج الغذاء .

٢ ــ أناس كالدواء . أنت محتاج إليهم بعض الأوقات دون بعض إنهم كالدواء يضر فى بعض الأحيان وينفع عند وجود العلل .

٣ ــ أناس كالداء ــ كلما قربت منهم أصابوك بأذى فهم علل تسقم النفوس . فابعد عن هؤلاء فإذا فهمت ذلك ، وعرفت كيف تعيش وسط هذه المتناقضات من الأمزجة والميول والقيم الأخلاقية فمرن نفسك على طرق النجاح كما فى الباب الآخر .

الفصل العاشر

طريق النجاح

تمارين نفسية – تمارين جسمية – الخاتمة

النجاح . . . طريقه سهل

هناك وسائل كثيرة نستطيع بها أن ننجح ، ولكننا لا نعتمد عليها لأننا نأخذ الحياة من طريق واحد نرسمه نحن بخيالنا ، ونصر على المضى فيه .

إن هذا النظام الثابت الذى نعتمد عليه ولا نتغير عنه يعطل نمونا العقلى والروحى ، ويجعلنا نؤجل من السير فى طريق نظام آخر ، لم نتعود عليه وقد يكون فيه النجاح الذى نريده . .

يجب أن نعمل ونجد ، ونغير الطريق إذا لم يصل بنا إلى القصد الذى نناله ، حتى ولو غيرناه خمسين مرة لا نيأس من ذلك . .

ولكى تكتسب أنفسنا مرونة قوية علينا بأخذ التمارين الآتية إلى أن تصل بنا إلى قوة التحكم فى نفوسنا ،وهى تقوى أيضاً وتنمى ملكة من ملكات العقل يجب حفظها فى حالة جيدة لمن أراد أن يحيا حياة منظمة ذات هدف معين .

وهذه التمارين كما يأتى(١) :

١ – هل يمكن أن تقضى ساعة كل يوم دون أن تقول شيئاً سوى

(١) راجع كتاب استيقظ وعش – دوروثيا براند .

الإجابة على أسئلة إجابة مختصرة بدون أن يشعر أحد بأنك متضايق ، وأنك عادى فى حياتك فلا إرهاق ولاغضب ؛ ولا تحاول بأى طريقة أن تستدرج محدثك إلى سؤال خر .

يقول الشاعر العربى :

وزن اللسان إذا نطقت ولاتكن ثرثارة فى كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يمسك لسانه ويقول هذا « أوردنى المهالك » . . ويقول الرسول الكريم : « هل يكب الناس على مناخيرهم إلا بحصائد السنتهم » . .

٢ ــ تعلم أن تفكر نصف ساعة كل يوم تفكيراً مركزاً فى موضوع واحد ، ويمكن التدريج فى هذا التمرين بالابتداء بخمس دقائق وهكذا حتى يصل إلى نصف الساعة وابدأ بأشياء تهمك ، ودرب عقلك على عدم الشرود وعود خيالك وخواطرك أن تكون طوع نفسك . . وهواجس أعصابك أن تكون ساكنة .

والذى يعود نفسه على هذا التمرين يمكنه الحفظ سريعاً ويستطيع أن يصل إلى النتائج التذكرية من غيره . .

ونحن نعلم جيداً أن الصلاة ، إذا لم يصحبها سهو أو شرود فكرى أو وسوسة نفسية يمكن بها أن نصل إلى هذه النتيجة فى هذا التمرين.

فالله سبحانه وتعالى إذ فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة قصد منا أن نكبح جماح خيالات النفس التى تشرد فى كل مكان . شروداً غير منظم ــ فالصلاة تعودنا التركيز فى فكرة معنية . هى فكرة العبودية المحتاجة إلى خالقها ــ تطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم والوقاية من عذاب الآخرة ــ وتراه هو المنعم المتفضل وتحمده على ذلك .

ولذلك نرى الذين يفهمون هذا المعنى فى الصلاة يتمتعون بذاكرة قوية وإرادة نافذة ، وعزيمة جبارة ، لا تجمح بهم نفوسهم ولا تثور أعصابهم ، لا تلعب بهم خيالات هواجسهم حتى إنهم أصبحوا لا يشعرون بالراحة إلاّ فى الصلاة .

وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يقول : « أرحنا بها يا بلال »

٣ ـ اكتب رسالة بدون استعمال ضمائر المتكلم والمخاطب وحروف الملكية على ألا يجد فيها مستلمها شيئاً من الغرابة .

والغرض من هذا التدريب تمرين العقل على التكيف كما يريد الإنسان ، فلا يقف إذ أردنا منه شيئاً ، وألا يقف على طريق واحدة ، وتعبير واحد .

ويحكى أن أحد الوزراء أراد أن يسخر من أديب كان ألدغ الراء فكتب له كتاباً فى مجلس الخليفة كل كلمة من كلماته فيها راء ، وطلب منه أن يقرأه جهراً ، فغير الأديب كل كلمة فيها بعيداً عن الراء بدون أن يتعلثم . مثلا : رأى أمير المدينة . فقرأ . حكم حاكم المدينة ... إلخ فحاز اعجاب الخليفة والحاضرين .

وكذلك يمكنك أن تتحدث خمس عشرة دقيقة دون أن تنطق بضمير المتكلم وحروف الملكية . . .

٤ ـ اكتب رسالة بلهجة ناجحة : تبين ناحية من نواحي حياتك يمكنك كتابتها بهذه الطريقة. أى مرن نفسك على أن تتنقل من السلبية إلى الإيجابية ـ قد تكون متشائماً يبدو ذلك فى شعرك أو كتاباتك أو تأليفك . فعود قلمك أن يتبسط ، وأن يفرح بدلا من أن يحزن، قد يكون ذلك أولا صعباً تجد فيه عنتاً ، ولكن بالتمرين والتدرب المستمر ستجده سهلا

ميسوراً حتى إنك ستعتاد التفاؤل والبسمة للحياة المشرقة بدلا من التشاؤم وتوقع الشر الذى هو معول هدام .

٥ — إذا وقفت على باب قوم يجلسون، فكر فى كل من فى الحجرة قبل أن تدخلها ، وفى اللحظة ذاتها ، أعد لكل شىء عدته ، قدر جميع الاحتمالات ، كن حريصاً على أن تنال ما ترغب بعزة نفس ، وكن حريصاً أيضاً على أن ترفع روحك على كفيك كلما أراد غيرك أن يهوى بها إلى عتمات القبور . . يقول الشاعر :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها   فمن علا زلقاً عن غرة زلجا

* * *

الإنسان منا « دولة صغيرة يحكمها العقل ، وبقية الأعضاء جنود وشعب » فالجميع متعاونون فى سبيل سعادة الكينونة الإنسانية ، وقد ينفصم هذا العقل ودولته إذا أخذ على غرة ، كما تنهار الدولة التى لا تعرف ماذا يحدث حولها،ومما يقال عنها وما يعد لها فى الدول الأخرى — ولقد رأينا فى الحرب الأخيرة كيف أن فرنسا وجهت كل اهتمامها إلى تقوية رباط خط ما جينو حتى تأمن غزو ألمانيا ، وكتبت جميع الصحف فى العالم تقول إن « خط ماجينو » سد منيع لا يمكن لقوة ألمانيا اجتيازه . ولكن « الحرب خدعة » فإن ألمانيا وجهت ضربتها إلى فرنسا من نواح أخرى لم تكن فى الحسبان فقد تخطت بلجيكا فجأة وإذا بها فى فرنسا بعد بضع ساعات

الفرد منا قد يعد نفسه لأشياء فيفاجأ بأخرى ، فلماذا لا نفكر فى كل شىء ، ونعد أنفسنا لمواجهة كل الاحتمالات حتى نكون « أكياساً » فى حياتنا ؟ !

٦ ــ درب نفسك كل يوم على ما تريد، ولا تقل لقد خلقت لغير ذلك . حقيقة إن النظرة والميول لهما أثر فى الوصول إلى ما تهواه فإن كان الإنسان بفطرته موسيقياً ، أو ذا نبرات صوتية جميلة ، أو قدرة على التفكير والتعليل أمكنه أن يصل بهذه المواهب سريعاً إلى ما يريد . ولكن معنى ذلك أن يحرم الآخرون من أمانيهم ؟ !

إن عليهم واجباً ثقيلا . . عليهم تمرين النفس وتدريبها لخلق هذه المواهب فيهم أو لإحيائها إن كانت مرموسة فى أعماقهم . . وقديماً قيل العلم بالتعلم والحلم بالتحلم . . وفى الأمثلة لا بد من صنعاء وإن طال السفر . . وقد تكون ذا مواهب دفينة ويغلبك من يصر على النجاح كما يقص كتاب كليلة ودمنه هذه القصة : زعموا أن أرنبا وسلحفاة تراهنتا حول سباق ، وفرحت الأرنب بسرعتها وعدوها وخفتها فأراحت نفسها زاعمة أنها ستصل إلى نهاية السباق قبل زميلتها السلحفاة مهما تعبت الأخيرة واستسلمت للراحة . أما السلحفاة فقد بدأت تعدو ، وتنصب ، وتكد ، وتواصل السير حتى قاربت المسافة أن تنتهى ، وأحست الأرنب بذلك فأخذت تعدو مسرعة ولكن السلحفاة قد قطعت المسافة ولم ينفع الأرنب سرعة عدوها ، وكانت الجائزة من نصيب السلحفاة .

ولم أسق لك هذا المثل لأسليك بما فيه من غرابة سباق بين سلحفاة وأرنب !؟

إنما أريد أن نأخذ منه المغزى فإن هذا السباق يحدث دائماً كل يوم بين الناس . فقد رأينا ذا مواهب حرمته الحياة مما يريد ، وآخر لا مواهب عنده قد نال كل ما يريد حتى قال الشاعر المتشائم :

خرجت أطلب رزقى فوجدت رزقى توفى
مصائب الدهر كفى فإن لم تكفى فعفى

إن كنت ذا موهبة فاظهرها ، واجتهد فى ذلك . واعلم أن لكل مجتهد نصيباً — وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وإن لم تكن ذا موهبة وتريد أن تخلق فيك هذه الموهبة فما عليك إلا أن تدأب وستصل إلى ما تريد .

يقول « مولر » فى كتابه طريقتى للصحة والقوة : لقد كنت عليلا فى بدء حياتى حتى تنبأ لى الأطباء بأننى سأموت صغيراً . لقد حرمت الصحة والقوة . . ولكنى لم أقف على عتبة التفكير فى ذلك بل أوجدتهما بدأبى وسعيى ومواصلة تقوية جسمى . . إلخ .

ومولر هذا كان من زعماء الطب الطبيعى ، وكان يمتاز بجسم قوى لازمه طول حياته حتى التسعين من عمره .

٧ — رحب بالمشكلات ولا تهرب منها ودعها هى تهرب منك

تحضرنى قصة للفيلسوف الساخر « جحا » أذكرها وهى :

أراد أن يسكن فى منزل فقيل له إن فيه أرواحاً وعفاريت شريرة يؤذون من يسكنه ، فقال لا بد من سكنى فيه مهما كان الأمر : ولما استأجره سمع الجيران فى أول ليلة من ليالى جحا فى المنزل ، صراخاً واستغاثات وبكاء مستمراً . . فتناجى جيرانه وقال بعضهم لبعض يستأهل ما هو فيه لقد نصحناه فلم ينتصح . . ولكن الصراخ زاد وعلا ، حتى اضطرب جميع الجيران ، فاجتمع بعضهم ببعض وتسوروا عليه المنزل فوجدوه جالساً فى فناء البيت ، وقد أخذ يضرب جسمه العارى بسوط معه ، فقالوا له . . أأنت مجنون يا جحا؟ فقال ولم ذلك ؟ قالوا لأنك تضرب جسمك بالسوط الذى معك . فأجاب ألم تقولوا لى إن فى هذا المنزل عفريتاً . قالوا نعم قال إننى أستعد لمقابلته ، وأدرب جسمى على احتمال

إيذائه حتى إذا أتى وعذبنى كما يشتهى أكون قد استعذبت هذا العذاب.

إنها حكمة من حكم جحا . . قالها الشاعر المصرى حافظ إبراهيم على لسان « يابانية » أرادت أن تحارب ولا تجلس فى عقر بيتها فى أيام الحرب الروسية اليابانية :

إن قومى استعذبوا ورد الردى
كيف تدعونى ألا أشربا
أبا يا بانية لا أنثنى
عن مرادى أو أذوق العطبا

٨ – كن صحيح الجسم قويًّا :

لم أجد فائدة كان لها أثر جليل فى حياتى خيراً من الرياضة المنزلية كل يوم مع الحمام والتدليك. لقد كتب كثير فى هذا الموضوع واتجه كل من الذين كتبوا إلى اختيار تمارين معينة للصحة والقوة ، والرشاقة ، وعلاج بعض الأمراض العضوية والنفسية فخذ منها ماتجد فى نفسك الميل إليه ، على أن يكون هذا برنامجك كل يوم بعد صلاة الصبح . وقبل أن تتناول فطورك – إن ربع ساعة يوميا ستبنى بها جسما صحيحاً قوياً ، ونفساً مطمئنة طروبا – إن هذه الوصفة الصغيرة – التى لا تكلف الناس أى ثمن . مع الأسف الشديد لا يلتفت إليها أحد . وربما لو نصح أحد الأطباء مريضاً بأن يقوم برياضة قليلة . نظر إليه المريض وآله بعجب وتأسف ومصمصوا بشفاههم.. وقالوا ليس هذا بطبيب ماهر ؟!!

إنهم يجعلون الشفاء فقط فى « الروشتة » الوصفة الطبية وما « الوصفة الطبية » إلا إسعاف عاجل ولكن المرض كان فى الجسم ، ولا بد من إزالة أسبابه نهائياً بتقوية الأجهزة المختلفة وتنقية الدم وذلك ما نجده فى الرياضة .

إن الفرق بين الحياة فى صحة جيدة وبين مجرد الوجود فى الحياة بدون صحة هو الفرق بين الحياة والموت . . قال أحد الأطباء . تورمت ساقا أحد مرضاى حتى أصبحت حالته سيئة ، خشيت عليه من عدم المشى ولما فحصته وجدت أن القلب سليم ، وأنه ليس ثمة ضيق فى الأوعية الدموية ولا الشرايين ، ورجحت أن السبب فى ذلك هو وقار الشيخوخة الذى منعه من كثرة التحرك ، ونشاط الشباب فنصحته بالريضة البدنية المظمة وفى خلال مدة معينة كانت ساقاه سليمتين .

إن الرياضة البدنية لا تقل ازوما للجسم من الطعام والشراب والنوم والترفيه وسكينة النفس .

إن الطبيب (دادلى) إخصائى أمراض القلب ــ وطبيب أيزنهاور الخاص من هواة الرياضة البدنية وعلى الرغم من تجاوزه الخامسة والسبعين فإنه رحالة مشهور ومن هواة ركوب الدراجات ولماذا نذهب بعيداً ــ ولدينا من الأمثلة الكثيرة الواضحة ــ بين مواطنينا ــ ما يجعلنا نشجع فكرة الرياضة البدنية ــ وصحتها من حيث سلامة الجسم ، وطيلة العمر .

إننى أعرف حمالا فى قريتنا بالريف جاوز المائة وما زال فى هذه الحرفة المتعبة .

إن حركة العضلات فى الذراعين ، والساقين تحفظ التحسن المستمر للدورة الدموية ، والعضلات السليمة تساعد الأوعية فى ضغطها لتوصيل الدماء إلى القاب .

أما العضلات الناعمة المسترخية إنها تؤدى غالباً إلى تخاط الدم الأوعية الدموية .

وإن الرياضة المنتظمة تحسن أيضاً حركة الحجاب الحاجز وهو بدوره يحسن مهمته .

وكذلك تستفيد الأوعية الدموية الدقيقة التى يزداد نشاطها فى أداء

مهمها وكذلك الحال مع الأوعيه الدموية فى سطح اليدين والقدمين وما وراء الأذنين وكذلك تنشط عملية الهضم وحركة الأمعاء الغليظة والدقيقة أيضا كثيراً ما تؤدى الرياضة العنيفة مهمة العقاقير الملينة ويقول الدكتور « بول دادلى » فى مقال بمجلة نيويورك تايمز » ما ترجمته : إن أثر السير ثمانية كيلومترات على نفسية شاب قوى الجسم كسير القلب حزين النفس أفضل من جميع العقاقير وأنواع العلاج النفسى المعروفة .

وحقيقة أن الرياضة البدنية المنظمة تزيل كل شعور بالضيق النفسى والتوتر العصبى .

نحن جميعاً فى حاجة إلى الرياضة البدنية — ولا سيما المشتغلين بالأعمال الفكرية والذهنية المعقدة وذلك منهج فلاسفة الإغريق القدامى .

٩ — دع الأمور تجرى كما تشاء :

قد تريد شيئاً وتحرص كل الحرص للوصول إليه ، ونسيت قول الشاعر الحكيم :

لا تحرصن فالحرص ليس بزائد فى الرزق بل يشقى الحريص ويتعب

يجب أن تأخذ الأمور من مجراها الطبيعى الذى لا يتعبك لا تكن « مراهقاً » إذا صدمت فى حياتك فقدت نفسك مع هذه الصدمة .

إنك وأنت تدأب حريصاً للوصول إلى ما تريد وتشتهى تعلم علم اليقين أن الإرادة الإلهية لها الحكم الأخير فيما نعمله فافزع إلى الله دائماً .

يقول عليه الصلاة والسلام : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » وكان إذا جذبته الدنيا وأتعبت خواطره ينادى بلال ويقول له قاصداً الصلاة : « أرحنا بها يابلال » .

إن انفصال الإنسان من العالم المادى المثقل بالهموم والأرزاء إلى

العالم الروحانى . الذى يشع جمالا ونوراً وبهجة وسروراً — يعطى للنفس قوة ولذة تطمئن بها إلى حياة مشرقة بدلا من حياة كلها أرزاء وفشل .

وذلك لا نجده إلا فى « الدين الحنيف »

لن نجد فى المذاهب الاجتماعية « المادية » هذه الراحة النفسية فإنها تقوم جميعاً على اغتنام الملذات الدنيوية ونست أو تناست مصدر الراحة وهى النفس . ولن تستريح النفس إلا بالسكينة والاطمئنان ولن يكون هذان الوصفان فى « الطمع المادى » إنهما نتيجة الإشراق الروحى — فواعجبا — كيف لا نكون سعداء ما دمنا قد عرفنا الطريق إلى هذا الإشراق !!؟

إن الطريق إليه تجده واضحاً جداً فى كتاب الله الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد — قال تعالى : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر


سر جمالها
أحمر شفاه
قسمه

